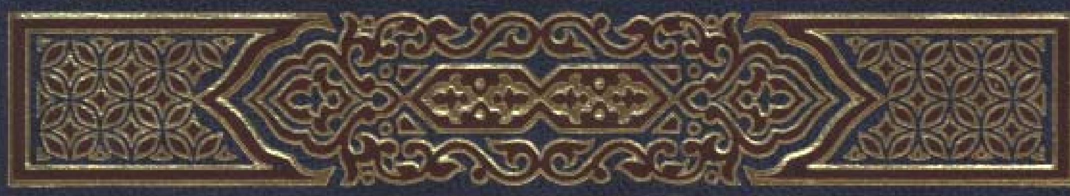
مجادلة أهل الكتاب

في القرآن الكريم والسنة النبوية

تأليف
الدكتور: نور الدين عادل

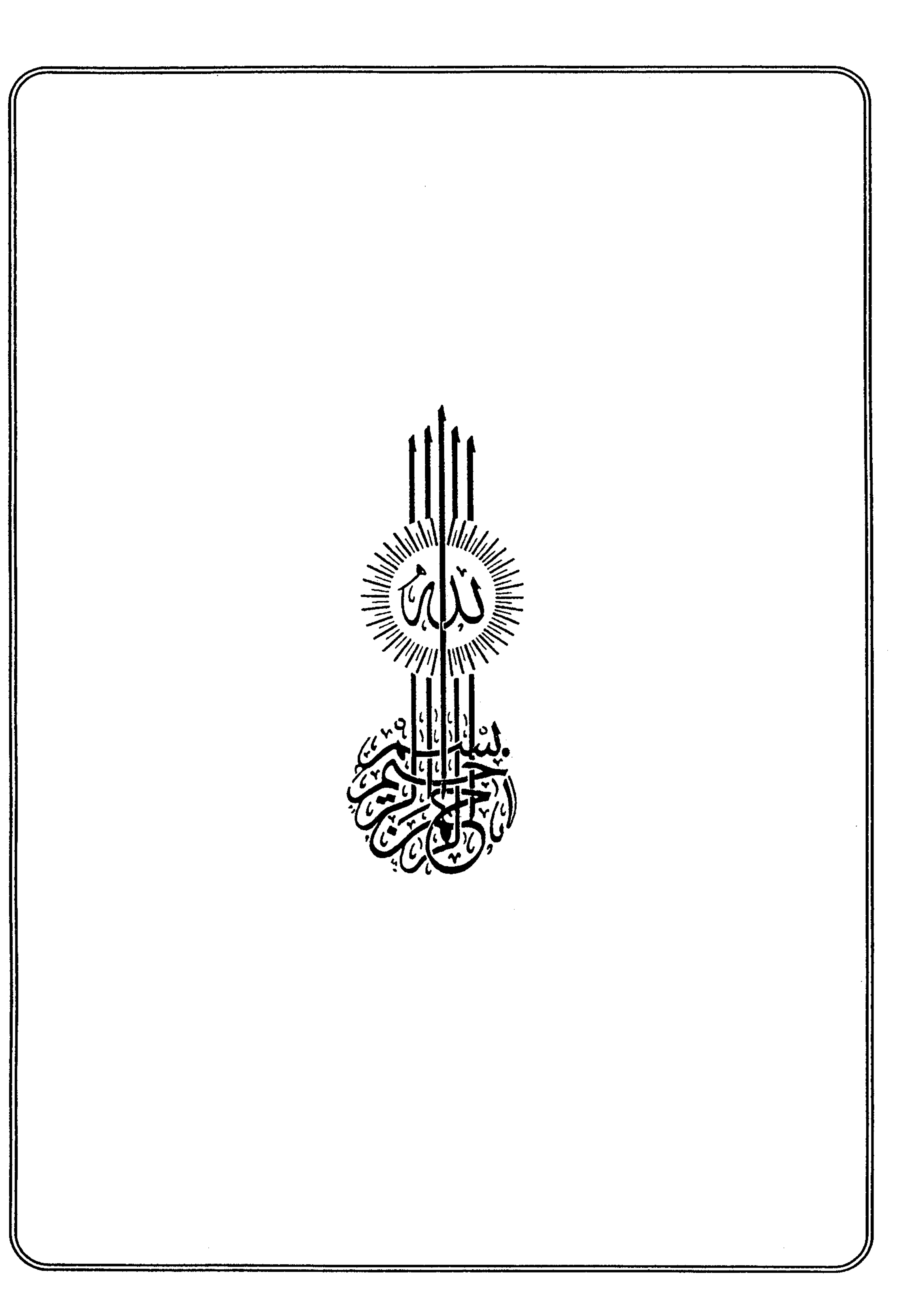




مكتبة الرشد
ناشرون

مجادلة أهل الكتاب

في القرآن الكريم والسنة النبوية


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

مجادلة أهل الكتاب
في القرآن الكريم والسنة النبوية

إعداد

الدكتور:/ نور الدين عادل



ناشرون



الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م

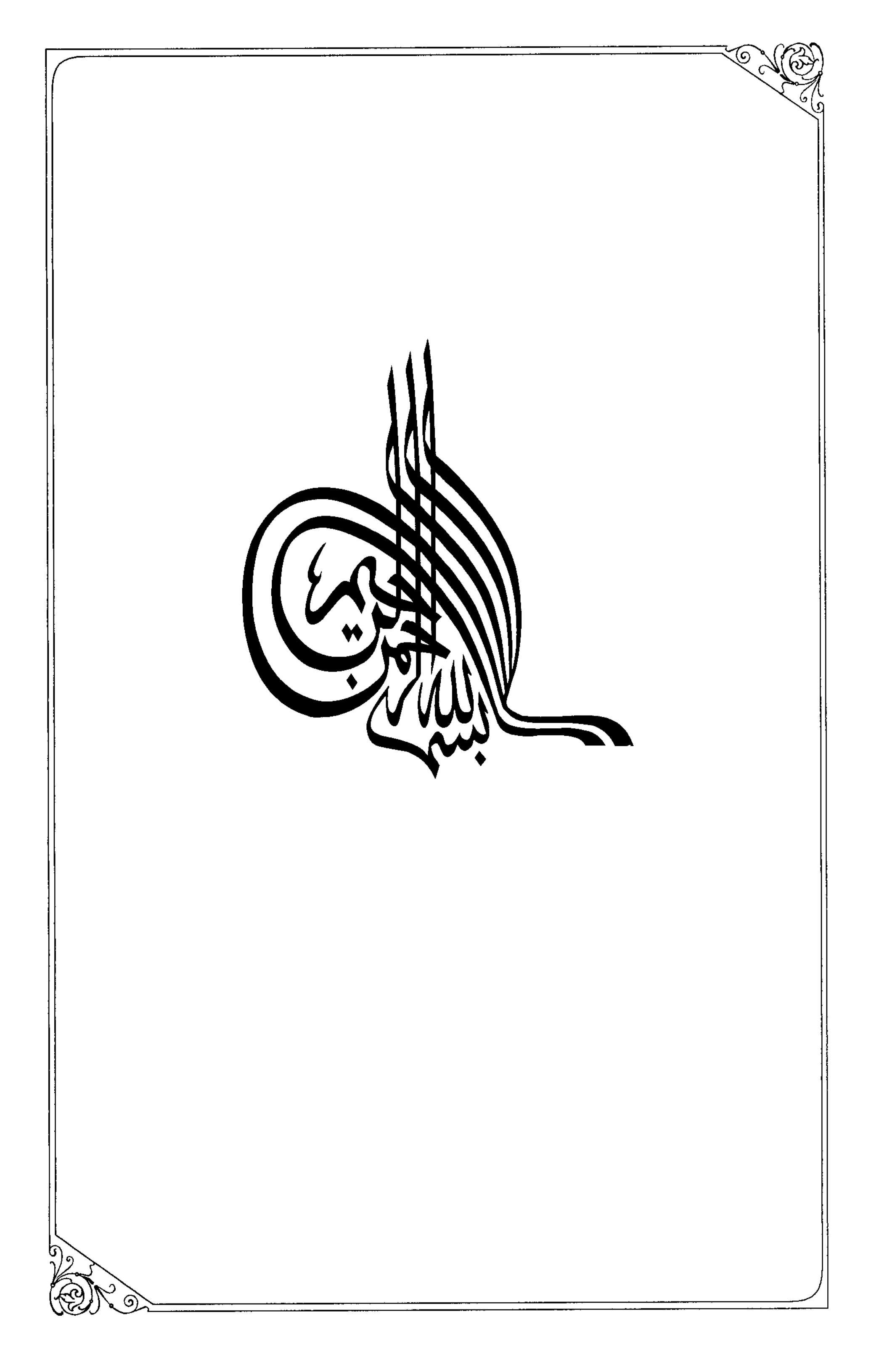


مكتبة الرشد ـ ناشـــرون
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير عبد الله بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)
ص.ب.: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - هاتف: ٤٥٩٣٤٥١ - فاكس: ٤٥٧٢٢٨١
E-mail: alrushd@alrushdryh.com
Website: www.rushd.com

فروع المكتبة داخل المملكة
الريـــاض: فـــرع طريـــق الملـــك فهـــد - هـــاتف: ٢٠٥١٥٠٠ - فـــاكـــس: ٢٠٥٣٣٠١
فـــرع مكـــة المكرمـــة - شـــارع الطـــائف - هـــاتف: ٥٥٨٤٠١ - فـــاكـــس: ٥٥٨٣٥٠٦
فـــرع المدينـــة المنـــورة - شـــارع أبي ذر الغفـــاري - هـــاتف: ٨٣٤٠٦٠٠ - فـــاكـــس: ٨٣٨٣٤٢٧
فـــرع جـــدة - مقـــابـــل ميـــدان الطـــائـــرة - هـــاتف: ٦٧٧٦٣٣١ - فـــاكـــس: ٦٧٧٦٣٥٤
فـــرع القصيـــم بـــريـــدة - طـــريـــق المدينـــة - هـــاتف: ٣٢٤٢٢١٤ - فـــاكـــس: ٣٢٤١٣٥٨
فـــرع أبـــهـــا - شـــارع الملـــك فيصـــل - تـــلـــفـــاكـــس: ٢٣١٧٣٠٧
فـــرع الدمـــام - شـــارع الخـــزان - هـــاتف: ٨١٥٠٥٦٦ - فـــاكـــس: ٤٨١٨٤٧٣
فـــرع حـــائـــل - هـــاتـــف: ٥٣٢٣٢٤٦ - فـــاكـــس: ٥٦٦٢٢٤٦
فـــرع الإحســـاء - هـــاتـــف: ٥٨١٣٠٢٨ - فـــاكـــس: ٥٨١٣٠١٥

مكاتبنا بالخارج

القـــاهرة - مدينـــة نصـــر - هـــاتـــف: ٢٧٤٤٦٠٥ - مـوبـايل: ٠١٠-١٦٢٢٦٥٣
بيروت - هاتف: ٠١/٨٥٨٥٠١ - موبايل: ٠٣/٥٥٤٣٥٢ - فاكس: ٠١/٨٥٨٥٠٢


بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

أهدي ثمرة هذا العمل إلى:

☆ روح والدي الغالية... استمطاراً للرحمة الإلهية ونيلاً للدرجات العالية.

☆ الوالدة العزيزة... بطول العمر في الطاعة وخاتمة السعادة.

☆ الزوجة الوفية وأم الأولاد التقية... بالود والرحمة والفوز يوم الحسرة.

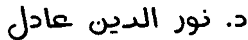
☆ الريحانتين: محمد أمين وجلال الدين... بالصلاح والفلاح ولتسهيل كامل النجاح.

☆ الإخوة والأخوات وذي القربى... بخير الدنيا والأخرى.

☆ **السابقين بإيمان والتابعين بإحسان... بالرضى والرضوان.**

☆ الأمة الموعودة بكل خير... باليمن والإيمان والسلامة والإسلام.

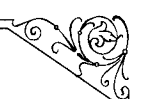
☆ الإنسانية... بالعودة إلى رشدها... واكتشاف معنى وجودها.





من تمام التوفيق والعناية، شكر من أجرى الله على يديه هذا العمل، وأخص في هذا المقام أستاذي الفاضل الدكتور عبد الحميد العلمي. فقد أكرمني الله بصحبته في هذه الرحلة العلمية، فكان نعم المرشد والمعين.

جزى الله عنا أساتذتنا خيراً، وجعلهم منارات للاقتداء والاهتداء.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾. آمين.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته أهل بيته، كما صليت على آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.



مُقَـــدمـــــة

التعريف بالموضوع وأهميته:

تسعى هذه الرسالة إلى تقديم التصور العام للقضايا المرتبطة بموضوع المجادلة مع أهل الكتاب.

وقد تناولت الأقلام هذا الموضوع من زوايا متعددة، يشهد لذلك ما تضمنته المكتبة الإسلامية من مصنفات في هذا الباب[1] من ذلك:

ـ «**كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج**[2]: للإمام أبي الوليد الباجي (ت. ٤٧٤هـ).

---

(١) يعود أولها إلى بداية القرن الثالث الهجري. ويعد الدارسون كتاب «الآراء والديانات» للنوبختي (ت. ٢٠٢هـ) أول ما كتب في هذا المجال «مقدمة في علم مقارنة الأديان»: ٤٤. ويرى الأستاذ شرفي أن كتاب «الرد على النصارى» لعلي الطبري المؤلف حسب المرجح سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، أقدم أثر في ميدانه، غير مطعون في صحة نسبته. ينظر «الفكر الإسلامي في الرد على النصارى». عبد المجيد الشرفي: ١٢٣. وللاطلاع على أهم المؤلفات المرتبطة بالجدل مع أهل الكتاب. ينظر «الفكر الإسلامي في الرد على النصارى»: ١٢٣ وما بعدها، و«مقدمة في علم مقارنة الأديان». الدكتور محمد عقيل بن علي المهدلي: ٣٩ـ ٤٤. و«المناظرة في أصول التشريع الإسلامي». المصطفى الوضقي: ٣٦ وما بعدها.

(٢) تحقيق: عبد المجيد تركي. الطبعة الثانية ١٩٨٧م. دار الغرب الإسلامي (دون ذكر مكان الطبع).

- **«شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل»**[1]: تصنيف إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت. ٤٧٨هـ).

- **«الرد الجميل لإلٰهية عيسى بصريح الإنجيل»**[2]: تأليف: حجة الإسلام أبي حامد الغزالي (ت. ٥٠٥هـ).

- **«الفصل في الملل والأهواء والنحل»**[3]: للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت. ٤٥٦ هـ).

- **«الملل والنحل»**[4]: للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت. ٥٤٨هـ).

- **«مناظرة في الرد على النصارى»**[5]: لفخر الدين الرازي (ت. ٦٠٦هـ).

- **«الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام»**[6]: تأليف: الإمام القرطبي (ت. ٦٧١هـ).

- **«علم الجذل في علم الجدل»**[7]: لنجم الدين الطوفي الحنبلي (ت. ٧١٦هـ).

---

(١) تحقيق: الدكتور أحمد حجازي السقا. الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. مكتبة الكليات الأزهرية. مصر.

(٢) اعتنى بطبعه وقف الإخلاص. ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م. مكتبة الحقيقة بتركيا.

(٣) طبعة دار الفكر. ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٤) طبعة دار الفكر. ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٥) تقديم وتحقيق: الدكتور عبد المجيد النجار. ١٩٨٢م. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

(٦) تقديم وتحقيق وتعليق: الدكتور أحمد حجازي السقا. دار التراث العربي. القاهرة.

(٧) تحقيق: فولفهارت هاينريشس. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. مطبعة كتابكم. عمان.

- «**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**»[1]: لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت. ٧٢٨هـ).

- «**هداية الحيارى من اليهود والنصارى**»[2]: للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت. ٧٥٠هـ).

إن تنوع الكتابات في موضوع الجدل مع أهل الكتاب يبرز شعور علمائنا بضرورة امتلاك ناصية هذا العلم ـ علم الجدل ـ لأهميته في التواصل مع أهل الكتاب؛ حتى أن بعض الدارسين[3] ذهب إلى القول إن المجادلة مع أهل الكتاب قد أخذت شكلها كعلم مستقل منذ بداية القرن الثالث الهجري، ومضمون هذا العلم هو ما يصطلح عليه حالياً بعلم «مقارنة الأديان».

يقول الدكتور أحمد شلبي: «فلما جاء عصر التدوين في منتصف القرن الثاني الهجري، وبدأ المسلمون يكتبون الفقه اتجهوا إلى الكتابة كذلك في «علم مقارنة الأديان»[4] فهو بذلك علم إسلامي كباقي العلوم الإسلامية»[5].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا العلم مر بمراحل عديدة[6] شأنه شأن

---

(١) الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م. مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر.

(٢) الطبعة الأولى ١٩٨٧م. دار الكتب العلمية. بيروت.

(٣) ينظر «مقارنة الأديان»: ١/ ٢٦.

(٤) رغم ما قيل عن أصل هذا العلم، وتسميته، إلا أن مضمونه يعد في الحقيقة من أعمال المسلمين؛ يقول السيد سعود ـ في نشأة علم الأديان ـ: «الكتابة في علم الأديان، وتفصيل عقائد الناس وعباداتهم، وكذلك عقد المقارنات بين الأديان أول ما نشأ في بيئة إسلامية، إذ المسلمون هم أول من كتب في هذا النوع من العلم وأفرده بالتصنيف. وقد استوحوا هذا من القرآن الكريم الذي ورد فيه كثير من عقائد الناس وعباداتهم السابقة واللاحقة لوقت نزوله». «دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية». الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف: ١٧.

(٥) مقارنة الأديان: ١/ ٢٧.

(٦) مر على الجدل زمن لم يكن فيه سوى أبحاث متفرقة غير منسقة، وغير كاملة. =

بقية العلوم الإسلامية، فبعد مرحلتي التكوين والتدوين، عرف هذا العلم في مرحلة ثالثة هبوطاً واختفاء نتيجة لمجموعة من الأسباب. واليوم تعرف الساحة الإسلامية عودة لهذا العلم، وإن كان الغرب قد سبق في هذه العودة، نتيجة اطلاعه على مؤلفات المسلمين من خلال الوفود التي يرسلونها إلى الشرق الإسلامي للبحث عن مخطوطات المسلمين وحملها إلى بلادهم. كما أن نزعتهم الاستعمارية قد فرضت عليهم دراسة «دين»(١) البلاد التي ينوون السيطرة عليها.

«وهكذا عاد علم مقارنة الأديان للظهور في معاهد العلم الإسلامية، لكنه في الحق لم يأخذ مكانه اللائق»(٢).

ثم إن طبيعة الرسالة الإسلامية وبعدها العالمي، ساهم في الاحتكاك المباشر مع أهل الكتاب منذ فجر الدعوة الإسلامية؛ فكان الانفتاح على اليهود والنصاري ـ باعتبارهم يمثلون بقايا التدين في المجتمع الجاهلي ـ لتذكيرهم بعهد الله وميثاقه، ودعوتهم إلى الأخذ بصورة الحق الأخيرة.

وتعرض آيات القرآن الكريم، وأحاديث سيد الأنام لهذا الانفتاح، كما تبرز كتب السيرة جانباً من مواقفه ﷺ مع أهل الكتاب، في حين تحتفظ كتب الفقه بجملة من الأحكام التي تضبط التعامل معهم. وتضعنا كتب

= كانت موزعة في شتى العلوم التي يدخل فيها، كالمنطق والفلسفة، وعلم الكلام، وعلم أصول الفقه، وعلم الفقه، واختلاف المذاهب فيه، وغير ذلك. ثم اقتضى الأمر ضبط المحاورة بين المتجادلين، فوضعت قواعد وآداب لفن الجدل. وكان أول من أفرد هذا الفن ـ فن تقعيد الجدل ـ بالتأليف ركن الدين أبو حامد محمد العميدي الفقيه الحنفي (ت٦١٥ .هـ) ووضع فيه كتاباً سماه «الإرشاد»، وأخذ العلماء بعد ذلك يضبطون مناظراتهم وجدلياتهم وفق قواعد هذا الفن. ينظر «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة» عبد الرحمٰن بن حسن حبنكة الميداني: ٣٧٢ـ ٣٧٣.

(١) نتيجة إدراكهم أن رباط الدين لا يقل عن رباط الدم.

(٢) «مقارنة الأديان»: ٣٠.

السياسة الشرعية أمام صورة للعلاقات الخارجية التي تربط المسلمين بأهل الكتاب.

هذه الثروة العلمية لا غنى لنا عنها ونحن نسعى للبحث عن فهم سليم[1] لطبيعة العلاقة مع أهل الكتاب، ذلك أن تنوع المجالات العلمية التي تعرض لطبيعة العلاقة مع أهل الكتاب لا يعني بالضرورة أننا أمام إمكانية الظفر بتصور واضح لهذه العلاقة عند الدارسين. ولعل التضارب في الموقف من مجادلة أهل الكتاب، بين مؤيد ومعارض، يبرز هذه الحقيقة[2].

من هنا كانت الضرورة ملحة لإعادة النظر في هذه الثروة العلمية لاكتشاف الخط الإسلامي الذي يضبط جدالنا مع أهل الكتاب. وهذا ما يقصد البحث تحقيقه في الخطوة الأولى؛ من خلال استخراج الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع، ودراستها في سياقها التاريخي، مع التمسك بالبيان النبوي عبر تتبع الأحاديث الواردة في الباب، وتدبر مواقفه ﷺ مع

---

(١) «الفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله في قلبه ـ قلب العبد ـ يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ويعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه. قال علي بن أبي طالب ـ وقد سئل هل خصكم ـ آل البيت ـ رسول الله ﷺ بشيء من دون الناس؟ ـ: «لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبده في كتابه». «تهذيب مدارج السالكين». كتبه ابن قيم الجوزية. وهذبه صالح العلي العزي: ٤٧. فاللهم افتح لنا في فهم كتابك، ومنهاج نبيك آمين.

(٢) وهذا ما حذا بالدارسين إلى البحث عن التصور الإسلامي لموضوع المجادلة مع أهل الكتاب؛ من ذلك صنيع حسين فضل الله في كتابه «الحوار في القرآن قواعده. أساليبه. معطياته» الذي أفرد فيه فصلاً للحديث عن «الحوار مع أهل الكتاب». وحاول خالد القاسم القيام بالمهمة في كتابه «الحوار مع أهل الكتاب، أسسه ومناهجه». وتبقى محاولة المشارقة عموماً رائدة في هذا الباب، ومرد ذلك إلى كثرة النحل والملل بالمشرق، مما فرض احتكاكاً يومياً مع أهل الكتاب، خاصة طائفة النصارى. وهذه المحاولات مساهمة نوعية لاكتشاف معالم الخط الإسلامي في مجادلة أهل الكتاب.

أهل الكتاب. وهذه عملية أساسية لاكتشاف معالم التصور الإسلامي المطلوب.

هذا وتبقى تجربة السلف الصالح ومواقفهم مع أهل الكتاب، صورة حية لتمثل الخط الإسلامي في مجادلة أهل الكتاب.

والتجربة الإسلامية المعاصرة في هذا الباب، وإن كانت محصورة في الجهد الفردي(١)، مهمة وتستحق التقدير والاعتبار.

وحتى تكون المساهمة في هذا الباب نوعية، اخترت أن أعبر عن نتائج هذه الدراسة من خلال قواعد تضبط التصور، حتى يتيسر الفهم، وتسهل عملية التنزيل. وتلك هي الخطوة الثانية التي يريد البحث إنجازها.

دواعي اختيار الموضوع:

تأسيساً على على ما سبق، يأتي البحث استجابة لضرورتين:

ضرورة معرفية: تبرز الحاجة إلى توسيع النقاش في أهمية الانفتاح على أهل الكتاب، وتكثيف المحاولات العلمية الرامية إلى تأصيل هذا الانفتاح وضبطه، من خلال استقراء آي القرآن الكريم، وأحاديث إمام المرسلين، لاستخلاص المعاني المرتبطة بالموضوع، ومحاولة صياغتها في قواعد تضبط التصور العام لعملية المجادلة، وتقدم الفهم السليم في الباب.
في أفق توسيع الاقتناع بمكانة هذا العلم ـ علم الجدل مع أهل الكتاب ـ ودوره في استشراف آفاق رحبة للدعوة، وتبليغ الرسالة للناس أجمعين.

ولن تكتمل هذه المحاولة إن لم تسهم في الإجابة عن الأسئلة الكبرى التي تعترض الدارسين للموضوع، من قبيل:

---

(١) «الواقع أن أجهزة الدعوة الرسمية والشعبية أصابها عطب رهيب، وقعود عن أداء حق الله في البلاغ، وتبيين الرشد من الغي». «مستقبل الإسلام خارج أرضه». محمد الغزالي: ٣١.

ـ من هم أهل الكتاب؟

ـ ما حكم مجادلة أهل الكتاب؟

ـ ما المقصود بالمجادلة وما غايتها؟

ـ من يجادل من؟

ـ فيم نتجادل؟

ـ كيف نتجادل؟

ضرورة واقعية: تتجلى في أمور منها:

* ما يشهده العصر من ثورة في الاتصال والعلاقات، والقفزة النوعية في نقل الأفكار والمعلومات، واختصار الزمان والمكان بحيث أصبح العالم «قرية واحدة»، مما فرض على المسلمين احتكاكاً مباشراً وقوياً مع كثير من الملل والنحل، وهذا يستوجب موقفاً صريحاً **تحصيناً** للصف الإسلامي من جهة، **وتبليغاً** لكلمة الحق، وبشرى الإسلام من جهة أخرى.

وأرى أن المجادلة تحقق هذه الأغراض، فوجب إذن خوض غمارها.

* ثم إن تزايد الهجرة في اتجاه الغرب التي عرفها العالم الإسلامي ـ خاصة دول شمال إفريقيا ـ حتم على المسلمين المهاجرين احتكاكاً مباشراً بعقيدة (الغرب النصراني)، وهذا يضعنا أمام مسؤوليتنا في إسماع كلمة الحق إلى الناس أجمعين. قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[1]. فهل سمع النصارى وغيرهم صوت الإسلام؟ إنهم لا يسمعون عن الإسلام إلا شتم أعداء

---

(١) أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج ٢/ ١٦٠.

الإسلام للإسلام. ما بلغهم الخبر الحق.

«كان من المستطاع أن تكون «الأقليات» الإسلامية في أوروبا وأمريكا وأستراليا جسوراً يعبر عليها الإسلام ـ وكل شيء هنالك يتطلبه، ويهفو إليه ـ لو أن المسلمين يفقهون دينهم ويصنعون من أنفسهم ومسالكهم صوراً وسيمة له»[1].

إن الخط الدعوي الذي سلكته الجاليات المسلمة في ديار الغرب من خلال تبنيها لعمل المراكز الإسلامية، والجمعيات الثقافية، والاجتماعية، والقيام بالمناسك العامة كالصلاة المفروضة وصلاة الجمعة والعيد وسط الناس، وعقد المحاضرات والندوات والمؤتمرات التي تهتم بتفعيل الوجود الإسلامي في ديار المهجر، والانفتاح على الإنسان الغربي، قد أثمرت نتائج طيبة تتمثل في هذا التحول الذي نسمع عنه بين الفينة والأخرى في اقتناعات الإنسان الغربي نحو الإسلام، وهذا يسهم لا شك في إزالة الصورة المشوهة للإسلام التي يعرضها الإعلام الغربي. ومن الشهادات في هذا الباب قول الكاتب الفرنسي تييري ديبومون (Therry De Peaumont) في مقال تحت عنوان: «هؤلاء الفرنسيون اختاروا الله!»: «لقد تغيرت نظرتي للمتعصبين الفوضويين الذين يعلنون على الغرب حرباً مقدسة، إن هذه النظرة تلاشت وحل مكانها شعور آخر أساسه أن فرنسا إذا أسلمت فسيتم ذلك من الداخل لا من غزو خارج!!!»[2].

هذا الموقف من الإسلام، وهذه الأبواب المفتوحة أمام المسلمين لتبليغ الدعوة، والتعريف برسالة الإسلام، يجعلنا نقتنع بضرورة تغيير نظرتنا لديار الغرب، واعتبارها **دار دعوة وبلاغ، لا دار حرب**[3].

---

(١) «مستقبل الإسلام خارج أرضه»: ٤٤.

(٢) المرجع السابق: ٩.

(٣) «إن الأمة غير الإسلامية التي لم تبدأ المسلمين بعدوان، ولم تعترض لدعاة =

إن اعتبار الأرض غير الإسلامية دار حرب اجتهاد ناسب الزمان والمكان، وروعي فيه المقصد الدعوي؛ ذلك أن تبليغ الدعوة حتم على المسلمين يومها أن يقاتلوا لتحطيم الحواجز التي تقف دون تبليغ صوت الإسلام، وبشارة الرحمة للعالمين. وأرى أن تغير الزمان والمكان والأحوال يفضي إلى تغير هذا الاجتهاد[1]، وإن كان لا بد الاحتفاظ بمفهوم «دار الحرب»، فلتكن حرباً عدتها وعتادها الحجة والدليل والإقناع. واجبنا إذن أن نزيل بالإقناع الجدلي العقلي ما تم من ترسبات لنفتح أمام الفطرة طريقاً إلى النور. نخاطب الوجدان بعد أن نقنع العقل بالحجة والبيان ملتمسين اللحظة المناسبة، والحكمة في الخطاب، داعين إلى الله بحنو ورفق ورحمة، لا بالتبكيت والغلظة.

وهذا يستوجب العناية والاهتمام بأفراد جاليتنا، والسعي لحل المشاكل التي تعترض استقرارهم في دار البلاغ، حتى يقوموا بالمهمة الرسالية على أحسن وجه.

وهذا البحث مساهمة في توضيح صورة من صور تواصل الأقليات المسلمة مع أفراد البلاد التي يحلون فيها.

= الإسلام، وتركتهم أحراراً يعرضون دينهم على من يشاءون، ويقيمون براهينهم بما يريدون، لا تقاوم داعياً، ولا تفتن مدعواً، إذ ما أرسلت إليها بعثة من الدعاة؛ فهذه لا يحل قتالها، ولا قطع علاقتها السلمية، والأمان بينها وبين المسلمين ثابت، لا ببذل أو عقد، وإنما هو ثابت على أساس أن الأصل السلم ولم يطرأ ما يهدم هذا الأساس من عدوان على المسلمين أو على دعوتهم». «السياسة الشرعية»: ٧٦. ثم إن السلم ـ لا الاستسلام ـ هو العلاقة الأصلية بين المسلمين وغيرهم». ينظر «الإسلام عقيدة وشريعة»: ٤٥٣.

(١) من القواعد الكبرى في باب الفتوى والاجتهاد، قاعدة: «تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد». ينظر «إعلام الموقعين» شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية: ٣/ ١١.

* والبحث يقدم خدمة لأفراد المجتمعات المسلمة، خاصة أمام اشتداد الحملات التبشيرية التي وجدت في فقر كثير من أفراد المجتمعات المسلمة، وجهل أبنائها ضالتها. فلا تقدم الطعام والتطبيب إلا إذا ترك المسلم دينه. وهذه معضلة لن تحسم من جذورها إلا بتحسين الوضعية الاجتماعية والتعليمية وتنحصر مهمة البحث في عرض السبل العلمية للتصدي لهذه الحملات من خلال تفنيد طروحات القوم بالحجج الدامغة، وفضح مخططاتهم التخريبية، ليكون المسلمون على بصيرة من أمرهم، وما يكاد ضدهم.

* ثم إن مستقبل العلاقة مع أهل الكتاب، كما تقدمه بعض آيات القرآن الكريم وأحاديث سيد الأنام[1]، يضعنا أمام حقيقة المواجهة المحتومة مع الصهيونية ـ الصليبية. وهذا يفرض الانفتاح على أهل الكتاب ليتميز الظالمون منهم عن غيرهم، سعياً إلى تشكيل جبهة الفضلاء ضد الفئة الطاغية الباغية، التي لن ينفع معها إلا الجلاد.

هذه إذن بعض الدوافع الكامنة وراء الكتابة في الموضوع. غير أن ثمة حوافز مباشرة مكنتني من الاستقرار على اختيار البحث في هذا الموضوع، وتتجلى في:

* التعطش والحرص على طلب العلم، خاصة إذا كان هذا العلم يستجيب لنداءات الواقع، ويسهم في اقتحام عقبات تقف في مسيرة الأمة التاريخية.

* أهمية التمكين لعلم مقارنة الأديان عموماً، والجدل مع أهل

---

(١) من ذلك ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله**». أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود. ينظر «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٢٠٢.

الكتاب خاصة في مؤسساتنا الجامعية لخدمة الأهداف الدعوية، وتحقيق البلاغ المبين.

* ضرورة **ترسيخ سلوك الحوار والمجادلة** بالتي هي أحسن في تعامل المسلمين مع غيرهم.

* عالمية رسالة الإسلام التي توجب على المسلمين **الخروج إلى الناس**، والانفتاح عليهم، لا تنازلاً عن الثوابت الإسلامية. لذا كان لزاماً وضع قواعد تضبط هذا الانفتاح حتى يكون بناءً لا هداماً.

هذه الدوافع والحوافز تشكل سبباً لتجند الطاقات العلمية المتخصصة من أجل بذل الجهد لتأصيل عملية المجادلة مع أهل الكتاب، وصياغة قواعد تضبط هذا التعامل وتنظمه.

وهكذا وبعد استخارة الله عز وجل، واستشارة ذوي الخبرة والعلم استقر العزم على اختيار موضوع: «**مجادلة أهل الكتاب في القرآن الكريم والسنة النبوية**»(١). لنيل شهادة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية.

خطة الإنجاز:

يحرص هذا البحث على صياغة قواعد تضبط عملية المجادلة مع أهل الكتاب، وهذه المساهمة كي تجد مكانها وسط المساهمات الجادة أرى أن تتحقق فيها أمور منها:

أولاً: الانطلاق من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المرتبطة بالموضوع، وكذا الوقائع التطبيقية في تاريخ المسلمين. وهذه الخطوة تعد المادة العلمية التي يتأسس عليها البحث.

---

(١) من خلال الاطلاع على دليل الرسائل والأطروحات لأغلب الجامعات المغربية، وبعض الجامعات الإسلامية تبين لي ندرة البحوث المنجزة في هذا المجال، مما قوي العزم على المضي في هذا الطريق.

ثانياً: استقراء المادة العلمية قصد الوصول لصياغة المعاني الكلية المرتبطة بالموضوع في شكل قواعد تؤسس للمجادلة مع أهل الكتاب، وهو هدف منشود وثمرة مرجوة.

ثالثاً: استثمار القواعد المتوصل إليها لتقييم المساهمات المعاصرة في مجال المجادلة مع أهل الكتاب، والعمل على توجيهها، وترشيد المحاولات المستقبلية في هذا الباب.

كل هذه المهام تقتضي سلوكاً إجرائياً قاصداً يحقق الأهداف من أقرب الطرق، لذلك ارتأيت البحث في الموضوع من خلال مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب.

تناولت في هذه المقدمة التعريف بموضوع الرسالة وأهميته، ثم بينت دواعي الاختيار مع عرض خطة الإنجاز، مبرزاً أهم الصعوبات التي يطرحها البحث في الموضوع.

وفي التمهيد قدمت مفهوم المصطلحات الأساسية في هذه الدراسة؛ وقد حصرتها في اثنين وهما: مفهوم المجادلة، ومفهوم أهل الكتاب.

ثم وقفت في الباب الأول لعرض القضايا المرتبطة بأطراف المجادلة، إذ الحديث عن المجادلة لا يستقيم في غياب استحضار أطراف هذه المجادلة. وجعلت مفتاح قضايا هذا الباب السؤال المحوري: **من يجادل من؟**.

ويضم هذا الباب فصلين، أفردت الأول لتأكيد ضرورة تحقق المعرفة بالمجادل كشرط لكي تبلغ المجادلة غايتها. ويندرج تحت هذا الفصل مبحثان، خصصت الأول للحديث عن ضرورة معرفة من نجادل. والثاني لبيان المستثنين من المجادلة.

أما الفصل الثاني من هذا الباب فعرضت فيه لمساهمتي في التعريف بأطراف المجادلة، من خلال التنبيه على مجموعة من المعالم المحددة لشخصية الكتابي، وشخصية المسلم المجادل. لذا خصصت المبحث الأول

من هذا الفصل للوقوف عند بعض المعالم المميزة لشخصية الكتابي، ثم ذكرت في المبحث الثاني بعض المعالم المحددة لشخصية المسلم المجادل.

وفي الباب الثاني عرضت للقضايا المرتبطة بأساس المجادلة، من خلال بيان المواضيع والقضايا التي يمكن أن تكون أرضية للمجادلة. ويبقى سؤال: **علام نتحاور؟ أو ما هي أسس المجادلة مع أهل الكتاب؟** المفتاح لتبين معالم التصور المطلوب لموضوع المجادلة.

ولتحقيق هذا الغرض خصصت الفصل الأول من هذا الباب لبيان دلالات الكلمة السواء ومقتضياتها، باعتبارها الأساس الذي يقدمه النص القرآني منطلقاً للمجادلة مع أهل الكتاب. لذا أفردت المبحث الأول من هذا الفصل لتحديد مفهوم الكلمة السواء، في حين تناولت في المبحث الثاني مقتضيات الكلمة السواء.

أما في الفصل الثاني فقد بينت الإطار العام الذي من خلاله يتم تصريف القضايا المرتبطة بالكلمة السواء. ووقفت على نمطين بارزين لهذا التصريف؛ الأول ينطلق من قاعدة السؤال، وهذا ما بينته في المبحث الأول من هذا الفصل. والثاني يأتي في شكل ردود، وهو ما تناولت في المبحث الثاني.

بعد هذا انتقلت إلى الباب الثالث من هذه الدراسة للوقوف عند معالم الأسلوب القرآني في مجادلة أهل الكتاب، من خلال عرض الطرق التي يقتدر بها على ترتيب البحث بين طرفي المجادلة على وجه الصواب، حتى يظهر الحق في الموضوع المختلف فيه. وجعلت سؤال: **كيف نجادل أهل الكتاب؟** منطلق البحث في القضايا المرتبطة بأسلوب المجادلة.

ومهدت للباب بمقدمة تبين مفهوم أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن ـ باعتباره الأسلوب القرآني في مجادلة أهل الكتاب ـ وللتفصيل في محددات «التي هي أحسن» عقدت الفصل الأول للوقوف عند خصائص أسلوب المجادلة بالحكمة عبر مبحثين؛ الأول: قدمت فيه مفهوم أسلوب

المجادلة بالحكمة وأهميته، والثاني: ذكرت فيه مقتضيات اعتماد هذا الأسلوب في مجادلة أهل الكتاب.

أما الفصل الثاني من هذا الباب فأفردته لبيان خصائص أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة، من خلال مبحثين: الأول في مفهوم هذا الأسلوب وأهميته، والثاني في ذكر مقتضياته.

هكذا، في رحاب هذه الآفاق العلمية الخصبة ستكون الدراسة، وستثار القضايا والوقائع، وتستقرأ الجزئيات لتثمر القواعد الكلية. وقد حرصت على تتويج أبواب هذه الدراسة بقواعد تضبط ما تفرق من المعاني، وتقدم النتائج في صياغة يسهل فهمها، ويتيسر تنزيلها.

وختمت هذا العمل بخاتمة تضعنا أمام النتائج التي خلصت إليها الدراسة، مع التنبيه على الآفاق العلمية التي يمكن أن يمتد إليها البحث في هذا الموضوع.

وانطلاقاً من هذه الخطة المسطرة سيكون تصميم هذه الرسالة كالآتي:

مقدمة:

- التعريف بموضوع الدراسة وأهميته.
- دواعي اختيار الموضوع.
- خطة الإنجاز.
- الصعوبات.

تمهيد: مفاهيم أساسية في البحث.

١ـ مفهوم المجادلة.

٢ـ مفهوم أهل الكتاب.

الباب الأول: أطراف المجادلة.

الفصل الأول : في معرفة من نجادل.

المبحث الأول: ضرورة معرفة من نجادل.

المبحث الثاني: المخصوصون بالمجادلة.

الفصل الثاني: معالم في شخصية أطراف المجادلة.

المبحث الأول: معالم في شخصية الكتابي.

المبحث الثاني: معالم في شخصية المسلم المجادل.

قاعدة في بيان أطراف المجادلة.

الباب الثاني: أسس المجادلة مع أهل الكتاب.

الفصل الأول: الكلمة السواء.

المبحث الثاني: مقتضيات الاجتماع على الكلمة السواء.

الفصل الثاني: أسئلة وردود.

المبحث الأول: أسئلة أهل الكتاب.

المبحث الثاني: الرد على أهل الكتاب.

قاعدة في بيان أساس المجادلة.

الباب الثالث: أسلوب المجادلة مع أهل الكتاب.

مقدمة: أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن.

الفصل الأول: أسلوب المجادلة بالحكمة.

المبحث الأول: أسلوب المجادلة بالحكمة: مفهومه وأهميته.

المبحث الثاني: مقتضيات المجادلة بالحكمة.

الفصل الثاني: المجادلة بالموعظة الحسنة.

المبحث الأول: أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة: مفهومه، وأهميته.

المبحث الثاني: مقتضيات المجادلة بالموعظة الحسنة.

قاعدة في أسلوب المجادلة.

خاتمة:

- خلاصة مركزة لما أفضى إليه البحث من نتائج.
- الآفاق العلمية التي يمكن أن يمتد إليها البحث.

صعوبـــات:

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن البحث قد اعترضته عقبات أثناء الإنجاز، أقدم أهمها فيما يلي:

- طبيعة الدراسة، التي تحاول استحضار أهم القضايا المرتبطة بموضوع المجادلة مع أهل الكتاب، وتحليلها من أجل الخروج بفهم سليم يمهد لسلوك الطريق المستقيم. وهذه الجبهة تحتاج إلى أكثر من جهد.

- ثم إن الدراسة تسعى في مرحلة ثانية إلى صياغة هذه النتائج في قوالب تصلح قواعد لضبط ما تفرق من المعاني والجزئيات. وهذا العمل لن يكفي فيه جهد المقل، بل لا بد من تظافر جهود مؤسسات متخصصة.

فالمطلوب إذن: بذل جهد في التحليل والتركيب والصياغة. وهي أهم الصعوبات التي واجهت سير البحث.

وإنه لشرف كبير أن أسهم في عرض تصوري للقضايا المرتبطة بموضوع المجادلة مع أهل الكتاب، من على منبر كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس. اعترافاً بالجميل.

وأتوجه إلى المولى الكريم بالدعاء أن يجعل هذا العمل زيادة مباركة في ميدانه، وأن يمدني بعونه وتوفيقه من أول خطوة حتى يستوي هذا البحث على التمام. وأن ينفع بثمرته كل المؤمنين الساعين لتبليغ كلمة الله إلى الناس أجمعين. آمين والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

مفاهيم أساسية في البحث

- مفهوم المجادلة.
- مفهوم أهل الكتاب.

تمهيد

مفاهيم أساسية في البحث

جرت العادة في مثل هذه الرسائل الجامعية، أن يمهد الطالب لأطروحته بعرض المصطلحات المحورية في بحثه، والتي غالباً ما تشكل عنوان رسالته.

ولعل الهدف من هذه السنة الحميدة أن يبرز الباحث المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها الرسالة، لأجل ضمان تواصل سليم بينه وبين القارىء[(١)].

اعتباراً لذلك أضحى من الضروري الوقوف عند مفاهيم المصطلحات التي تشكل عنوان هذه الرسالة.

باستحضار العنوان: «**مجادلة أهل الكتاب في القرآن الكريم والسنة النبوية**» يتضح أن ثمة لفظين محوريين هما: المجادلة، وأهل الكتاب.

فماذا عن مفهوم هذين المصطلحين؟ وأي دلالة يحملها عنوان هذه الرسالة؟

---

(١) دأب أئمتنا رحمهم الله على تصدير كتبهم بفقرات يوضحون فيها مقاصدهم ومصطلحاتهم ليكون القارىء على بينة من المسار المطلوب. ومقدمات المصنفات الحديثية نموذج لذلك.

١ ــ مفهوم المجادلة

لبيان مفهوم المجادلة وجب الوقوف عند مفهوم الجدل، لأن المجادلة مفاعلة من الجدل.

والحديث عن مفهوم الجدل يثير إشكالات عدة تعود في مجملها إلى صعوبة إدراك الأبعاد الدلالية التي وضعت لها اللفظة في اللغة.

كما أن غياب الحذر عند التعامل مع المفاهيم المتعددة التي أعطيت لمصطلح الجدل ـ بتعدد الحقول الدلالية ـ أسهم في انحراف المصطلح عن مساره المفهومي الذي وضع له.

في ظل هذا الإشكال أضحى من غير الممكن الظفر بتصور واضح للأبعاد المفهومية للمصطلح، ولهذا لا نستغرب من وقوع بعض الدارسين في الخلط عند استعمال مصطلح الجدل إلى جانب مصطلحات أخرى من نفس المجال المعرفي كمصطلح الحوار.

ولكي تكون مساهمتي في حل هذا الإشكال فعالة، لا بد من الإلمام بالمعاني التي وضعت لها كلمة جدل في اللغة، ثم الوقوف على دلالاتها في اصطلاح أهل الصناعات، وكذا تحديد طبيعة العلاقة بين مصطلح الجدل وبعض المصطلحات، خاصة مصطلح الحوار.

ولأننا نروم تحديد المفهوم القرآني لمصطلح الجدل، لا بد من تدبر أبعاد التوظيف القرآني والنبوي لهذا المصطلح.

وهكذا تترسم أمامنا الخطوات الآتية:

- الجدل في لسان العرب.
- الجدل في اصطلاح أهل الصناعات.
- العلاقة بين الجدل والحوار.
- الجدل والحوار في الاستعمال القرآني والنبوي.
- نتائج.

(أ) الجدل في لسان العرب:

قال ابن فارس (ت. ٣٩٥هـ) في تحديد دلالات مادة «ج، د، ل» حسب المقياس اللغوي: «الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام»[(١)].

و «جَادله مُجادلة وجِدالاً وهو شدة الخصام ومراجعة الكلام»[(٢)].

و «الجَدل: اللَّدَدُ[(٣)] في الخصومة والقدرة عليها[(٤)]... وجَادَله أي خاصمه مُجَادلة وجِدالاً، والاسم الجَدل، وهو شدة الخصومة»[(٥)].

ويقول الإمام الباقلاني (ت. ٤٠٣هـ): «الجَدل مقابلة الحجة

---

(١) «مقاييس اللغة» لابن فارس: ١/ ٤٣٣.

(٢) «كتاب المغرب في ترتيب المعرب». أبو الفتح المطرزي: ٧٧.

(٣) «رجل أَلَد: بَيِّن اللَّدَد أي شديد الخصومة». ينظر «مختار الصحاح» لمحمد بن أبي بكر الرازي: ٥٥٧. وينظر «أساس البلاغة» للزمخشري: ٥٦٢.

(٤) ينظر «القاموس المحيط» للفيروز أبادي: ٣/ ٣٥٧. و«تاج العروس من جواهر القاموس» للزبيدي: ٧/ ٢٥٤. و«المحكم والمحيط الأعظم» لابن سيده: ٧/ ٢٨٨.

(٥) ينظر «لسان العرب» لابن منظور: ١١/ ١٠٥. و«جمهرة اللغة» لابن دريد: ٢/ ٦٧. و«مجمل اللغة» لابن فارس: ١/ ١٤٩.

بالحجة. . المُجَادَلة(:) المناظرة والمخاصمة»[1].

اعتباراً لما سبق يتبين أن **الجدل نوع من أنواع التخاطب ومراجعة الكلام يقوم على إحكام الحجة لغرض الغلبة عند الخصام.**

قال صاحب تهذيب اللغة: «ويقال: جَادَلْت الرجل فَجدَلتُه جَدْلاً إذا غلبته، ورجل جَدِل إذا كان أقوى في الخصام»[2].

وحتى نتبين أبعاد المعاني المرتبطة بلفظة الجَدَل، لا بد من الوقوف عند دلالات الخصومة والخصام»[3].

قال ابن فارس (ت. ٣٩٥هـ): «الخاء والصاد والميم أصلان: أحدهما المنازعة[4]، والثاني جانبُ وِعَاءٍ. فالأول الخصمُ الذي يُخَاصِم. . . والثاني: الخُصْم جانب العِدْل الذي فيه العُروة. . . ويمكن أن يُجمع بين الأصلين فيرد إلى معنى واحد. وذلك أن جانب العدل مائل إلى أحد الشقين. والخَصْم المنازع في جانب، فالأصل واحد»[5].

وقال الراغب (ت. ٥٠٣هـ) : «الخَصْم مصدر خَصَمْته أي نازعته. . . وأصل المخاصمة أن يتعلق كل واحد بِخَصْم الآخر أي جانبه»[6].

وقال ابن منظور (ت. ٧١١هـ): «خَاصَمَه خِصَاماً ومُخَاصَمَة فَخَصَمَه يخْصِمُه خَصْماً: غلبه بالحجة. . . وقيل للخصمين خصمان لأخذ كل واحد

---

(١) «معجم الباقلاني» الدكتور سمير فرحات: ١٠٥. وينظر «لسان العرب»: ١١/ ١٠٥.

(٢) «تهذيب اللغة»: ١٠/ ٦٥٢.

(٣) قال ابن حجر: «المنازعة في الأصل المجاذبة، ويعبر بها عن المجادلة. والمراد بها المجادلة عند الاختلاف في الحكم، إذا لم يتضح الدليل. والمذموم منه اللجاج بعد قيام الدليل». «الفتح»: ١٥/ ٢٠٨.

(٤) «مقاييس اللغة» لابن فارس: ١/ ٤٣٣.

(٥) «مقاييس اللغة»: ٢/ ١٨٧. وينظر «أساس البلاغة»: ١٦٥. و«الصحاح للجوهري»: ٥/ ١٩١٢ـ ١٩١٣ و«المصباح المنير» للفيومي: ٦٥ـ ٦٦.

(٦) «معجم مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني: ١٤٩.

منهما في شق من الحجاج والدعوى»[1].

فالمخاصمة إذن **منازعة وتجاذب[2] بين طرفين كلاهما منحاز إلى جانب حججه وادعاءاته[3].**

بعد هذا البيان لمعاني المخاصمة يمكننا أن نحدد المجادلة في اللغة بكونها **طريقة للتخاطب ومراجعة الكلام، تفترض وجود طرفين[4] يسعى كل منهما إلى إحكام حجته لتكون الأقوى عند مقابلتها بحجة غيره. وذلك لغرض إبطال دعوى صاحبه وإثبات قوله.**

ولعله من المفيد أن نعرض لأسلوب آخر لعلماء اللغة في إبراز معاني ودلالات لفظة الجدل؛ ويتأسس هذا الأسلوب على إعمال قواعد علم الاشتقاق خاصة القاعدة التي تنص على أنه: «متى اتفق اللفظان في المعنى والحروف الأصول جاز الاشتقاق»[5].

وعليه يمكن اشتقاق الجدل من:

---

(١) «لسان العرب» ١٢/ ١٨٠.

(٢) «نَازَعَه مُنَازعَة جاذبة في الخصومة». «مختار الصحاح»: ٦٠٩. وقال جار الله محمود بن عمر الزمخشري: «المُخَاصَمة من الخُصْم، كما أن المُشَّاقَة من الشِّق، لأن المتجاذبين كلاهما منحاز إلى جانب» «الفائق في غريب الحديث»: ١/ ٣٧٥.

(٣) قال الزمخشري: «وأَخْصَم صاحبه: لَقَّنه حجته حتى خَصَم». «أساس البلاغة»: ١٦٥.

(٤) قال إمام الحرمين: «المجادلة مفاعلة من الجدل، وإن كان في عرف النظار الجدل والجدال لا يكون إلا بين اثنين كالمجادلة». «الكافية في الجدل» للجويني إمام الحرمين: ٢٠.

(٥) «الاشتقاق: أخذ كلمة من أخرى، مع تناسب بينهما في المعنى وتغيير في اللفظ. وينقسم إلى ثلاثة أقسام: صغير، وهو ما اتحدت الكلمتان فيه حروفاً وترتيباً، كَعَلِمَ من العِلْم، وفَهِم من الفهم. وكبير، وهو ما اتحدتا فيه حروفاً لا ترتيباً، كجبذ من الجذب. وأكبر: وهو ما اتحدتا فيه أكثر الحروف، مع تناسب في الباقي كنعق من النهق، لتناسب العين والهاء في المخرج». «كتاب شذا العرف في فن الصرف» للشيخ أحمد الحملاوي: ٦٨.

الجدل ـ بسكون الدال ـ وهو الشَّد والإحكَام.

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «وأصله ـ أي الجدل ـ من جَدَلْت الحبل أي أحكمت فتله ومنه الجَدِيل، وجَدَلْت البناء إذا أحكمته، ودرع مجْدولَة. والأَجْدَل الصقر المحكم البنية، والمِجْدل القصر المحكم البناء... فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه»(١).

وقال ابن منظور (ت. ٧١١هـ): «الجدل: شدة الفتل... وغلام جادل: مشتد... والجدالة: الأرض لشدتها»(٢).

«ويقال جَدَل الحب في سنبله: قوي. والأَجْدَل: الصقر؛ سمي بذلك لقوته»(٣).

«ولا شك أن في الجَدَل معنى الشِّدة والإحكام لأن كلاً من الخصمين يشتد على خصمه ويضايقه بالحجة التي اجتهد في إحكامها»(٤).

يقول الإمام الجويني (ت. ٤٧٨هـ): «إن قلنا: إنه ـ أي الجَدَل ـ في اللغة للإحكام فكأن كل واحد من الخصمين إذا كان يكشف لصاحبه صحة كلامه بإحكامه وإسقاط كلام صاحبه، سميا متجادلين»(٥). وهذا ما خلص إليه محمد التومي بقوله: «إذا اعتبرنا تسمية المنازعة الكلامية جدلاً استناداً على المعنى الأصلي الأول ـ الشدُّ والإحكام ـ، فذلك لأن كل واحد من المتجادلين إنما يعمل على شد رأيه وإحكامه بما يقدمه من أدلة تأييدية،

---

(١) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٨٩ ـ ٩٠. وينظر «القاموس المحيط»: ٣/ ٣٥٧. و«تهذيب اللغة» ٦٤٩. وكذا «المحكم والمحيط الأعظم في اللغة» لابن سيده: ٧/ ٢٢٨.

(٢) «لسان العرب»: ١١/ ١٠٣ـ ١٠٤. «جمهرة اللغة» ٢/ ٦٧.

(٣) «مقاييس اللغة»: ١/ ٤٣٣ـ ٤٣٤. وينظر «الصحاح»: ٤/ ١٦٥٣ـ ١٦٥٤. و«تاج العروس» تأليف: السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي: ٧/ ٢٥٤.

(٤) «علم الجذل في علم الجدل». نجم الدين الطوفي الحنبلي: ٢ـ ٣.

(٥) «الكافية في الجدل»: ٢٠.

وبما يكشف من وهن رأي خصمه»[1].

ـ **ويمكن اشتقاقه من الجَدالَة** وهي «الأرض ذات الرمل الرقيق قال الراجز:

قد أركب الآلة بعد الآله   وأترك العَاجِز بالجَدَاله

منعفراً ليست له محاله

ويقال: طعنه فَجدَّله إذا ألصقه بالأرض»[2].

ومنه حديث: «**أنا خاتم النبيين في أم الكتاب، وإن آدم لمُنْجَدل في طينته**»[3] أي ملقى على الجدالة وهي الأرض.

وحديث علي بن أبي طالب (٤٠هـ) حين وقف على طلحة رضي الله عنه (٣٦هـ): «أَعْزِز علي أبا محمد أن أراك منجدلاً تحت نجوم السماء» أي: مرمياً ملقى على الأرض قتيلاً»[4].

ولهذا قيل أصل الجِدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدَالة «فكأن كل واحد من المتجادلين يقصد غلبة صاحبه وصرعه في مقام النطق كما يجدل الفارس قِرْنه أي يرميه بالجدالة»[5].

قال الإمام الجويني (٤٧٨هـ): «وإن قلنا: إنه ـ أي الجَدَل ـ في اللغة مأخوذ من الضرب بالأرض بالمصارعة. . . فيكون كل واحد من الخصمين يروم غلبة صاحبه بإسقاط كلامه بتقوية كلام نفسه عليه، كالمتصارعين يروم

---

(١) «أسلوب المحاورة»: ١٤.

(٢) «جمهرة اللغة»: ٢/ ٦٧.

(٣) قال صاحب الفتح: «أخرجه البخاري في التاريخ من حديث العرباض بن سارية رفعه. وأخرجه أحمد وصححه ابن حبان والحاكم». ينظر «الفتح»: ٦/ ٥٥٩.

(٤) «النهاية في غريب الحديث والأثر». ابن الأثير: ١/ ٢٤٧ـ ٢٤٨.

(٥) «تاج العروس»: ٧/ ٢٥٤. وينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٨٩ ـ ٩٠. و«علم الجذل في علم الجدل»: ٢.

كل إسقاط صاحبه بغلبته وقوته عليه»[1].

- **ويمكن اشتقاقه من الجَدَال** وهو البلح قبل نضجه.

قال الزمخشري (٥٣٨هـ): «وكان فلان جَدَّالاً فصار تماراً، وهو بائع الجَدَال وهو البلح، سمي لاشتداده»[2].

و «الجَدَال: الخَلاَل، والواحد جَدَالة، وذلك أنه صلب غير نضيج، وهو في أول أحواله إذا كان أخضر. قال:[3]

يخر على أيدي السقاة جَدَالها»[4].

«فكأن كل واحد من المتجادلين يقصد الاستعلاء والارتفاع على صاحبه في الحجة حتى يكون منه كموضع الجدال - وهو البلح - من النخلة»[5].

- **ويمكن اشتقاقه من المِجْدَل**، والمِجْدل القصر والجمع مَجَادِل.

قال ابن فارس (ت. ٣٩٥هـ): «والمِجْدَل: القصر، . . قال:[6]

في مِجْدَل شيد بنيانه يَزِلُّ عنه ظُفُر الطائر»[7]

---

(١) «الكافية في الجدل»: ٢٠.

(٢) «أساس البلاغة»: ٨٥.

(٣) للمخبل السعدي كما في «اللسان» و«أمالي ثعلب»: ٥٥١. وصدره:

وصارت يسرين خمساً فأصبحت

قلت: ينظر هامش «مقاييس اللغة»: ١/ ٤٣٤.

(٤) نفسه.

(٥) «جمهرة اللغة» ٢/ ٦٧.

(٦) للأعشى في ديوانه: ١٠٨. و«اللسان» مادة «ج، د، ل». ينظر هامش «مقاييس اللغة»: ١/ ٤٣٤.

(٧) نفسه. وينظر «أساس البلاغة»: ٨٥.

و «المِجْدَل القصر المحكم البناء»[1].

فكأن «كل واحد من المتجادلين يتحصن من صاحبه بالحجة تحصن صاحب القصر بصاحبه»[2].

ـ **ويمكن اشتقاقه من الجَدْوَل**، وهو «نهير صغير»[3].

فكأن كلاً من المتجادلين يسعى لجمع الأدلة التي تقوي حجته كما يقوى الماء إذا اجتمعت أجزاؤه في النهر الصغير، قال ابن فارس: «والجَدْوَل نهر صغير، وهو ممتد وماؤه أقوى في اجتماع أجزائه من المنبطح السائح»[4].

ثم إن سعي كل من المتجادلين إلى نَظْم الحجج والأدلة في سلك واحد بما يمكن من الإتيان بها متتابعة عند المجادلة ويضمن الغلبة على الخصم يشبه الجدول إذا اضطرد وتتابع جريان الماء فيه. قال الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ): «ومن المجاز [قولهم]: استقام جدول القوم إذا انتظم أمرهم، كالجدول إذا اضطرد وتتابع جريه»[5].

ويرى الإمام الطوفي (ت. ٧١٦هـ) أن الجدل مأخوذ من الجدول وهو النهر الصغير لتفتل الماء فيه، فكأن كل واحد من المتجدالين يقصد فتل صاحبه عن رأيه فتل الماء في النهر[6].

ـ **ويمكن اشتقاقه من الأَجْدَل**، «والأَجْدل الصقر والجمع أَجَادِل»[7].

---

(١) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٨٩ـ ٩٠.

(٢) «علم الجذل في علم الجدل»: ٣.

(٣) «جمهرة اللغة»: ٢/ ٦٧.

(٤) «مقاييس اللغة»: ١/ ٤٣٣.

(٥) «أساس البلاغة»: ٨٥.

(٦) «علم الجذل في علم الجدل»: ٣.

(٧) «جمهرة اللغة»: ٢/ ٦٧.

قال ابن منظور (ت. ٧١١هـ): «والأَجْدل: الصقر، صفة غالبة، وأصله من الجَدل الذي هو الشدة»[١].

قال ابن فارس (ت. ٣٩٥هـ): «والأَجْدل: الصقر، سمي بذلك لقوته. قال ذو الرمة يذكر حَميراً في عدوها:

كأنهن خَوَافي أَجْدَل قَرِمٍ   وَلَّى ليسبقه بالأَمْعَز الخَرَب[٢]

الخرب الذكر من الحبارى. أراد: ولى الخرب ليسبقه ويطلبه»[٣].

فكأن كل واحد من المتجادلين «يسطو بالحجة على صاحبه سطوة الأَجْدَل على الطير ويشتد عليه اشتداده عليها»[٤].

وعموماً يمكن إرجاع مادة «ج، د، ل» في جميع تصاريفها إلى معنى **القوة والامتناع والشَّد والإحكام**، فيكون الجدل مشتقاً من هذا المعنى الجامع الكلي ومن كل واحد من جزئياته باعتبار ما يشتركان فيه من ذلك المعنى[٥].

والصحيح ـ كما يرى الإمام الجويني (ت. ٤٨٧هـ) ـ أن الجدل يرجع في جميع معانيه اللغوية إلى الإحكام، فتكون المجادلة منزلة على معنى الإحكام في تبين ما يصير إليه كل واحد من الخصمين[٦].

ولا خلاف بين القولين: إذ الإحكام يتضمن معاني القوة والامتناع والشدة، وغاية الجدل حسب القولين واحدة وهي إحكام الأدلة والأسئلة

---

(١) «لسان العرب»: ١١/١٠٣.

(٢) «ديوان ذي الرمة»: ١٦ و«جمهرة أشعار العرب»: ١٨١. ينظر هامش «مقاييس اللغة»: ١/٤٣٣.

(٣) نفسه.

(٤) «علم الجذل في علم الجدل»: ٣.

(٥) نفسه.

(٦) «الكافية في الجدل»: ٢١.

والأجوبة بما يضمن بيان مواقف كلا الطرفين ويمكن إبطال شبه الخصم وفتله عن رأيه إلى غيره.

هكذا نخلص إلى أن المجادلة عند اللغويين طريقة في التخاطب ومراجعة الكلام، تستوجب وجود طرفين ـ على الأقل ـ يسعى كل منهما إلى إحكام حججه بما يضمن تحويل الخصم وفتله عن رأيه إلى غيره[1].

هذا عن دلالات لفظة المجادلة في اللغة، **فماذا عن دلالاتها في اصطلاح أهل الصناعات؟..**

(ب) الجدل في اصطلاح أهل الصناعات:

تعددت المفاهيم التي يعبر عنها مصطلح الجدل بتعدد مجالات التداول والاستعمال:

ـ فهو **عند المناطقة**: «القياس[2] المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان»[3].

فالجدال في اصطلاحهم «صناعة نقدِر بها إن كنا سائلين أن نُعمل من مقدمات مشهورة قياساً على إبطال كل وضع يتضمن المجيب حفظه، وعلى حفظ كل وضع كلي يروم السائل إبطاله إذا كنا مجيبين. وذلك بحسب ما

---

(١) ينظر «كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة». محيي الدين يوسف بن عبد الرحمٰن بن الجوزي: ٩٩.

(٢) يعتبر الجدل عند المناطقة أحد أجزاء مباحث المنطق، وهو من الصناعات الخمس التي هي من أقسام القياس. ينظر «موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة». طاش كبرى زاده: ٣٧٧. و«كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي: ١/ ٣٤٥.

(٣) «التعريفات». الجرجاني: ٧٤. وينظر «كشاف اصطلاحات الفنون»: ١/ ٣٤٤. و«التوقيف على أمهات التعاريف» لمحمد عبد الرؤوف المناوي: ٢٣٦. و«معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب». مجدي وهبة وكامل المهندس: ٧٥ و«تاج العروس»: ٧/ ٢٥٤.

يُمكِن في وضع ووضع»[1].

ـ ويعرف **أهل المناظرة** الجدل بأنه «المناظرة لا لإظهار الصواب، بل لإلزام الخصوم، فإن كان المجادل مجيباً كان سعيه ألا يُلزم وَسَلِم عن إلزام الغير إياه. وإن كان سائلاً فسعيه أن يُلزم الغير. وقد يكون السائل والمجيب كلاهما مجادلين»[2].

ـ وهو في اصطلاح **أهل الكلام** يراد به: «تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه»[3].

ـ أما في اصطلاح **الفقهاء** فيراد به: «الفتل للخصم عن مذهب إلى مذهب بطريق الحجة»[4].

وقد اعتبر طاش كبري زاده (ت. ٩٦٢هـ) علم الجدل مبنى لعلم الخلاف[5]، عند قوله: «إن الجدل بحث عن مواد الأدلة الخلافية، والخلاف بحث عن صورها»[6].

وفائدة علم الجدل كثيرة في الأحكام العلمية والعملية من جهة الإلزام على المخالفين ودفع شكوكهم[7].

---

(١) «تلخيص كتاب الجدل لأرسطو». ابن رشد: ٢٩. وينظر «موسوعة مصطلحات جامع العلوم الملقب بدستور العلماء» للقاضي الفاضل عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري: ٣١٩. و«كشاف اصطلاحات الفنون»: ١/ ٣٤٥.

(٢) «كشاف اصطلاحات الفنون»: ١/ ٣٤٥.

(٣) «كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج» للإمام الباجي: ١١.

(٤) «كتاب الجدل على طريقة الفقهاء». علي بن عقيل البغدادي: ١.

(٥) علم الخلاف: علم باحث عن وجوه الاستنباطات المختلفة من الأدلة الإجمالية والتفصيلية، الذاهب إلى كل منها طائفة من العلماء. ينظر «موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة»: ٤٠٢.

(٦) «موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة» للعلامة أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده: ٤٠٢.

(٧) المرجع السابق: ٣٧٧.

ثم إن الجدل يُستعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها[١].

وأجمل التهانوي (ت. بعد ١١٥٨ هـ) العبارة بقوله: «الجدل علم يُتَعرَّف به كيفية تقرير الحجج الشرعية»[٢].

إلى جانب هذه التعريفات الاصطلاحية للجدل، نجد تعاريف لم تتقيد بمجال معرفي محدد بل أعطت للجدل مفهوماً يكاد يشمل كل التخصصات. وتمتاز هذه التعاريف بكونها تشكل القدر المشترك بين كل مفاهيم الجدل التي مرت معنا.

من ذلك قول ابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ) في تعريفه للجدل: «إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره»[٣].

وهو عند آخرين: «فن التخاطب والكلام، وفن الدفاع عن الأطروحات التي نتبناها ودفع أطروحات الخصم»[٤].

وعرفه حاجي خليفة بقوله: «إنه علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على الإبرام والنقض»[٥].

والجدل: «احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه»[٦].

---

(١) ينظر «المصباح المنير»: ٣٦.

(٢) «كشاف اصطلاحات الفنون»: ١/ ٣٤٥.

(٣) «مقدمة تاريخ ابن خلدون»: ٥٧٩.

(٤) «Dictionnaire Encyclopédique Quillet»: 1821.

(٥) «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»: ١/ ٥٧٩.

(٦) «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي وبهامشه «إعجاز القرآن» للباقلاني: ٢/ ١٧٢. وينظر «موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة»: ٨٤٦.

وقيل: «هو قانون صناعي يعرف أحوال المباحث من الخطأ والصواب على وَجْه يَدْفع عن نفس النَّاظر والمناظر الشك والارتياب»[1].

وعرفه البعض الآخر بكونه: «دفع المرء خصمه عن فساد قوله بحجة أو شبهة»[2].

وقد خَطَّأ إمام الحرمين (ت. ٤٧٨هـ) هذا الرأي، ورد عليه بقوله: «فإن من ينقطع في مكالمة خصمه كان مناظراً، وإن لم يدفع خصمه بحجة ولا شبهة. وقد تبتدىء الخصم بحجة أو شبهة فيسكت وينقطع في مناظرته؛ فلم يكن الدفع له مناظرة، ولا المدفوع مناظراً للدافع»[3].

والصحيح ـ حسب رأي إمام الحرمين (ت. ٤٧٨هـ) ـ أن يقال: إن الجدل هو «إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة»[4]. هذا التدافع والتنافي قوامه إحكام الحجة والدليل.

تأسيساً على ما سبق يمكن القول: **إن المجادلة هي رد الخصم عن رأيه إلى غيره بحجة. أو يقال: هي علم أو آلة يتوصل بها إلى فتل الخصم عن رأيه إلى غيره بدليل**[5].

وأركان المجادلة حسب هذا التحديد، ثلاثة:

ـ المتجادلون: وهما طرفا المجدالة.

ـ موضوع المجادلة: وهو الأمر المختلف فيه، الذي قامت لأجله المجادلة.

---

(١) «علم الجذل في علم الجدل»: ٣.

(٢) «الكليات». الكوفي: القسم الثاني: ١٧٢.

(٣) «الكافية في الجدل»: ٢٠.

(٤) نفسه.

(٥) وهو التعريف الذي قدمه الإمام الطوفي للجدل. ينظر «علم الجذل في علم الجدل»: ٤.

ـ أسلوب المجادلة: يراد به كيفية نظم الأدلة والحجج وترتيبها على الوجه الذي يوصل إلى إظهار الدعوى وانقطاع الخصم. وهو أهم أركان الجدل. والجدل إنما يبحث في هذا[١].

ثم إن امتلاك ناصية الجدل بعيد المنال على من لم يحقق في نفسه أمرين:

أحدهما: المعرفة بقواعد وآداب الاستدلال التي يتوصل بها إلى رد الخصم عن رأيه ببيان بطلانه.

والآخر: استعمال تلك القواعد والرياضة فيها حتى يصير استعمالها ملكة[٢].

وحتى ندقق القول في تحديد مفهوم الجدل، أرى من المفيد الوقوف عند دلالات بعض المصطلحات المرتبطة بمصطلح الجدل، كمصطلح الحوار.

فماذا عن علاقة الجدل بالحوار؟.

(ج) مفهوم الجدل في علاقته مع مفهوم الحوار:

مر معنا أن الجدل شكل من أشكال التخاطب، وهذا يستلزم بالضرورة وجود أشكال وأنماط أخرى للتخطاب والكلام نذكر منها: الحوار، والمناظرة، والمناقشة، والحجاج.

وليس من الغريب أن يثير توظيف هذه المصطلحات إشكالات عدة، تصل إلى حد الخلط والفوضى في الاستعمال، الأمر الذي يخرج بهذه المصطلحات عن دلالاتها المميزة.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ينظر «تلخيص كتاب الجدل لأرسطو»: ٢٩.

وإذا كنا نسلم بتقارب دلالات هذه الألفاظ ووجود قدر مشترك بينهما لانتمائها لحقل واحد وهو مجال المخاطبة والتواصل مع الغير إلا أنه من الواجب التأكيد على ضرورة وضوح الحدود الفاصلة بين دلالاتها، لأن ذلك هو الضمان الوحيد لحسن استعمالها.

ثم إن البحث في حل هذا الإشكال لن يخرج عن سياق بحثنا عن مفهوم دقيق للجدل لأن الوقوف عند طبيعة العلاقة بين هذه المصطلحات سيمكّننا من إبراز وتحديد الدلالات الدقيقة لمفهوم الجدل.

وتحقيقاً لهذا الغرض سأتناول مفهوم الحوار وعلاقته بمفهوم الجدل(١) عبر الخطوات الآتية:

- مفهوم الحوار.

- العلاقة بين الحوار والجدل؟

*** مفهوم الحوار:**

قبل الحديث عن طبيعة العلاقة بين مصطلحي الجدل والحوار، لا بد من تبيان الدلالات اللغوية للفظة حوار، وكذا إدراك الأبعاد المفهومية لمصطلح الحوار. وهذا ما سأتطرق إليه من خلال النقاط الآتية:

- الحوار من خلال المعاجم اللغوية.

- الحوار في الاصطلاح.

١ ـ الحوار من خلال المعاجم اللغوية:

وضعت لفظة «حور ـ بفتح الواو ـ» في اللغة لتدل على معان ثلاث؛

---

(١) سأكتفي في هذا المقام بدراسة العلاقة بين الجدل والحوار، على نية التطرق إلى وجه العلاقة بين الجدل وبعض المصطلحات الأخرى في ثنايا هذا البحث وفي المواطن التي تسمح بذلك.

ذكرها ابن فارس عند قوله: «الحاء والواو والراء ثلاثة أصول: أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دوراً»[1].

وبتتبع معاني الأصل الثاني الذي وضعت له لفظة «حور» في اللغة يظهر أن دلالة «حور» على الرجوع دلالة عامة تشمل مجموعة من المعاني الدقيقة التي يساعد الوقوف عندها على إدراك معاني الحوار. وهذا ما سيتبين من خلال التقسيم الآتي:

(أ) طبيعة الحوار:

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت. ١٧٠هـ): «المحاورة: مراجعة الكلام»[2].

والحوار «مُراجعة النُّطْق، وتَحَاوَروا تراجعوا الكلام بينهم»[3].

قال الزبيدي (ت. بداية ق. ١٢هـ): «المُحَاورَة: المجاوبة ومُراجعة النُّطق والكلام في المخاطبة. وقد حَاوَرَه وتَحَاوَرا: تراجعوا الكلام بينهم. وهم يَتَرَاوحون ويَتَحَاورون»[4].

وقال ابن منظور (ت. ٧١١هـ): «واستَحَارَه أي استنطقه... والمُحَاوَرة: مراجعة المَنْطِق والكلام في المخاطبة»[5].

فالحِوار والمحاورة والتّحاور إذن، **نوع من أنواع المخاطبة والنطق ومُرَاجَعَة في الكلام. ومراوحة للقول بين اثنين فما فوق.**

---

(١) «مقاييس اللغة»: ٢/ ١١٦. وينظر «المغرب في ترتيب المعرب»: ١٣٣ و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» لأبي الفرج بن الجوزي: ٢/ ٢٠٨.

(٢) «معجم كتاب العين»: ٣/ ٢٨٧. وينظر «أساس البلاغة»: ١٤٦.

(٣) «القاموس المحيط»: ٢/ ١٥. «معجم ألفاظ القرآن الكريم» إصدار مجمع اللغة العربية: ١٥٩.

(٤) «تاج العروس»: ٣/ ٢٦٢.

(٥) «لسان العرب»: ٤/ ٢١٨. وينظر «الصحاح»: ٦٣٨.

(ب) **شكل الحوار:**

الحوار قد يأخذ شكل السؤال والجواب.

قال ابن منظور (ت. ٧١١هـ): «وكَلَّمته فما رجع إليّ حَوَاراً، وحِوَاراً ومُحاوَرة أي جواباً»[(١)]. «والمُحاورة: المجاوبة. والتَّحاور: التجاوب»[(٢)]. والمُحَاورة الجواب[(٣)].

وقد يتسع الحوار فيتخذ شكل الرد على الأقوال[(٤)].

قال السمين الحلبي (ت. ٧٥٦هـ): «والحِوار والمُحَاورة: المراجعة والمرادَّة في الكلام»[(٥)].

وقال الفيومي (ت. ٧٧٠هـ): «وتَحَاوَروا وأَحَار الرجل الجواب: رَدَّه. وما أَحَارَه: ما ردَّه»[(٦)].

(ج) **هدف الحوار:**

ورد في معجم كتاب العين: «الحَوْرُ: الرجوع إلى الشيء وعنه... وكل شيء تغير من حال إلى حال، فقد حار يحور حوراً، كقول لبيد[(٧)]:

---

(١) «لسان العرب»: ٤/ ٢١٧. وينظر «تاج العروس»: ٣/ ٢٦٢. و«القاموس المحيط»: ٢/ ١٥.

(٢) «مختار الصحاح»: ١٢٢. و«تاج العروس»: ٣/ ١٦٢ و«القاموس المحيط»: ٢/ ١٥.

(٣) «القاموس المحيط»: ٢/ ١٥.

(٤) قد يكون الرد جواباً عن سؤال كما قد يكون رَجْعاً لكلام. قال الزمخشري: «ورَدَّ عَليه القَول. ورد إليه جواباً. وهذا مردود قولك ورديده كقولك مرجوعه». «أساس البلاغة»: ٢٢٧. وقال الراغب: «فالرد كالرجع». معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٩٢. فالعلاقة بين الرد والجواب علاقة عموم وخصوص؛ إذ كل جواب رد وليس كل رد جواباً.

(٥) «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ»: ١/ ٥٣٤. وينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٣٤ و«التوقيف على أمهات التعاريف»: ٢٩٩.

(٦) «المصباح المنير»: ٦٠. وينظر «لسان العرب»: ٤/ ٢١٧.

(٧) في ديوانه: ١٦٩. ينظر هامش «معجم كتاب العين»: ٣/ ٢٨٧.

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يَحُور رماداً بعد إذ هو ساطع»[1]

فهدف الحوار إذن: الرجوع عن الشيء إلى شيء آخر، والتغير من حال إلى حال.

مما سبق نخلص إلى أن الحوار **نوع من أنواع المخاطبة ومراجعة في الكلام بين طرفين فما فوق، يتخذ شكل السؤال والجواب حيناً والرد أحياناً أخرى. هدف كل طرف أن يرجع بصاحبه من موقف إلى موقف، وأن يغير حاله من حال إلى حال.**

إذا كان هذا هو تعريف الحوار في اللغة، **فما مدلوله في الاصطلاح؟**

٢ـ الحوار في الاصطلاح:

بداية لا بد من تسجيل ملاحظة مهمة مفادها أن مصطلح الحوار قليل التداول في المعاجم المصطلحية القديمة، وإن كان مفهومه حاضراً. وهذا ما يفسر تعاملي مع المعاجم المصطلحية والأدبية الحديثة.

قال السجستاني (ت. ٣٣٠هـ): «تَحاور الرجلان إذا رد كل واحد منهما على صاحبه القول، والمُحَاورة: الخطاب من اثنين فما فوق ذلك»[2].

وورد في المعجم العربي الأساسي: «حِوار مصدر حاوَر. . . . حديث يجري بين شخصين أو أكثر»[3].

ويقول جبور عبد النور: «حَوَر، حِوار: حديث بين اثنين على الأقل، ويتناول شتى الموضوعات»[4].

---

(١) ٣/ ٢٨٧. وينظر «لسان العرب»: ٢١٧ و«تاج العروس»: ٣/ ١٦١.

(٢) «غريب القرآن»: ٣٧٧.

(٣) «منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم»: ٣٦٢.

(٤) «المعجم الأدبي»: ١٠٠.

وجاء في موسوعة لاروس: «أن الحوار حديث بين شخصين أو أكثر في موضوع محدد»[١].

يمكن أن نقبل بهذه التعاريف على أنها مفهوم عام لمصطلح الحوار، أما مفهومه في اصطلاح **علماء البيان** فهو: «عبارة عن أن يحكي المتكلم مراجعة في القول ومحاورة جرت بينه وبين غيره بأوجز عبارة وأخصر لفظ فينزل في البلاغة أحسن المنازل وأعجب المواقع»[٢].

ويعتبر خليل عبد المجيد الحوار ضرباً من القول أو هو ضرب من الخطابة متجدد[٣].

وهو في اصطلاح «**أهل الأدب**» «كلام يقع بين الأديب ونفسه أو من ينزله مقام نفسه كربة الشعر أو خيال الحبيبة مثلاً. وهذا الأسلوب طاغ في المسرحيات وشائع في أقسام مهمة من الروايات. ويُفرض فيه الإبانة عن المواقف والكشف عن خبايا النفس... ونجد أثراً بارزاً لهذا الأسلوب في عدد من المصنفات العربية غير المسرحية والروائية، خاصة لدى الجاحظ في كتاب «الحيوان» ولدى أبي حيان التوحيدي في «الإمتاع والمؤانسة»»[٤].

والحوار عند أهل الأدب يُوظَّف لنقل معلومة لا بطريق الخبر وإنما من خلال السؤال والجواب أو رأيين يلتقيان أو يفترقان حول الشيء ونقيضه مما يعطي الإطار الذي تنقل به المعلومة حيوية تفضل السرد الذي قد يشعر السأم والملل[٥].

---

(١) Grand Dictionnaire Larousse Tome: 3P: 3216.

(٢) «كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز». يحيى بن حمزة اليمني: ٣/ ١٥٢. وينظر «الحوار والمناظرة» لخليل عبد المجيد: ١٥.

(٣) «الحوار والمناظرة»: ١٥.

(٤) «المعجم الأدبي»: ١٠٠.

(٥) ينظر «الحوار والمناظرة»: ١٨.

والحوار في اصطلاح **أهل التربية**: «أن يتناول الحديث طرفان أو أكثر، عن طريق السؤال والجواب. بشَرْط وحدة الموضوع أو الهدف، فيتبادلان النقاش حول أمر معين، وقد يصلان إلى نتيجة وقد لا يقنع أحدهما الآخر ولكن السامع يأخذ العبرة ويُكوِّن لنفسه موقفاً»[1].

وللحوار بهذا المفهوم أثر بالغ في نفس السامع أو القارىء فهو يوقظ العواطف والانفعالات مما يساعد على تربيتها وتوجيهها نحو المثل الأعلى، كما أن له نتائج سلوكية طيبة وكل هذا من أغراض التربية الحقة[2].

والمحاورة في دلالتها الواقعية محاولة كل من طرفي الحديث أو أحدهما أن يقنع الآخر بمنطقه ووجهة رأيه[3].

عموماً يمكن إجمال تعاريف الدارسين لهذا المصطلح فيما يلي: **«الحوار محادثة بين شخصين أو فريقين حول موضوع معين. لكل منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة أو إلى أكبر قدر ممكن من التطابق في وجهات النظر، بعيداً عن أي خصومة أو أي تعصب... مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة، ولو ظهرت على يد الطرف الآخر»**[4].

هذا عن مفهوم الحوار، **فماذا عن وجه العلاقة بينه وبين مفهوم الجدل؟**

٣ـ العلاقة بين الحوار والجدل:.

انقسم الدارسون لطبيعة العلاقة بين مصطلحي الحوار والجدل إلى

---

(١) «أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع». عبد الرحمٰن البخلاوي: ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق: ٢٠٦ـ ٢٠٧.

(٣) «أسلوب المحاورة»: ١٦.

(٤) «الحوار الإسلامي ـ المسيحي». بسام دواد عجك: ٢٠. ينظر «أصول الحوار»: ١١، و«أسلوب المحاورة»: ١٠، و«حوار الأديان» ٨٩.

فريقين:

الفريق الأول: يذهب إلى القول بصعوبة الفصل بين دلالات المصطلحين فكلاهما - على حد قولهم - من جنس المخاطبة وغرضهما واحد هو رد الخصم عن رأيه ببيان بطلانه. والأسلوب واحد: إعمال الحجة والدليل.

لذا يرى أصحاب هذا الرأي أنه لا مشاحة في الاصطلاح ما دام المفهوم واحداً.

ويترتب على هذا القول استعمال مصطلحي الحوار والجدل بشكل استبدالي: فلا عيب في إيراد مصطلح الجدل محل مصطلح الحوار ما داما مترادفين.

ونمثل لهذا الموقف بما ورد في المعجم العربي الأساسي عند تعريف المُحاورة: «مُحاورة: مصدر حَاور جمع مُحَاوَرات: جَدَل يدور بين اثنين أو أكثر»[1].

ويعرف حبنكة الميداني الجدل بقوله: «هو حوار كلامي يتفهم فيه كل طرف من الفريقين المتحاورين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرض فيه كل طرف منهما أدلته التي رَجَّحَت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ بتبصر الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته، أو من خلال الأدلة التي ينير له بها بعض النقاط التي كانت غامضة عليه»[2].

ويرى الألمعي أن الحوار والجدل والمناظرة ترجع في نهاية أمرها إلى كونها طريقة البيان والتبيين التي أودعها الله في بني الإنسان جبلة وطبعا[3].

---

(١) ضوابط المعرفة وطرق الاستدلال ٣٦٣.

(٢) «تأليف جماعة من كبار اللغويين العرب»: ٣٦٢.

(٣) «منهاج الجدل»: ٢٥.

وجاء في القاموس القويم للقرآن الكريم: «تحاور الرجلان: تراجعا وجادل كل منهما صاحبه»[1].

وورد في نظرة النعيم أن الحوار والمناظرة جدال بالتي هي أحسن[2].

فالحوار عندهم جدل، والمجادلة تحاور.

الفريق الثاني: يُثْبِت وجود مساحة مشتركة بين مدلولات الحوار والجدل؛ فهما يلتقيان في كونهما محددين لعملية اتصال وتواصل تعتمد المناقشة بين طرفين أو أكثر. لكن هذا القدر من الاشتراك لا يلغي التمايز المفهومي بين المصطلحين مما يعني عدم القبول باستخدام المصطلحين بشكل استبدالي، وإقحام مفردة مكان أخرى[3].

وينطلق أصحاب هذا الرأي في التأسيس لموقفهم هذا من اعتبار الدلالات اللغوية والاصطلاحية للمفردتين. ذلك أن الحوار يقوم على تبادل المعرفة ومقابلتها للوصول إلى حقائق مشتركة. وهو غالباً ما يرافق حيرة الإنسان من أمر نفسه، أو أمر قضية من القضايا، ويراد للحوار أن يخرجه منها، وهذا يفترض أن تكون المرادَّة في الحوار هينة لينة.

في حين يقوم الجدل ابتداء على اعتقاد المتجادلين أنهما يمتلكان حقائق مختلفة ومتغايرة تصل أحياناً إلى حدود التباين أو التجاهل ويسعى كل منهما إلى طرح ما يملكه من حقائق أمام الآخر في عملية تصارع يحاول كل منهما الإيحاء بقيمة الحقيقة التي يمثلها ويوظف في ذلك كل الأدلة والبراهين لا لأجل إقناع الطرف الآخر، ولكن بهدف إثبات الذات على الآخر[4].

---

(١) تأليف أحمد عبد الفتاح: ١/ ١٧٧.

(٢) «موسوعة نظرة النعيم»: ٢/ ١٥١.

(٣) ينظر «مجلة المنطلق» العدد ١٠٥. مقال: «الحوار والجدل في القرآن الكريم» لنجيب نور الدين: ٥٤. وما بعدها.

(٤) المرجع السابق: ٥٦. وينظر «مفاهيم قرآنية» للدكتور محمد أحمد خلف الله. =

ويؤكد محمد صادق فضل الله ما سبق من خلال التنبيه على ضرورة ربط المصطلحين بالسياق التاريخي الذي واكب استعمالهما ويخلص إلى أن مصطلح الحوار رافق تجربة التغيير والتأسيس والبناء في حين ارتبط الجدل بتجربة السقوط والعجز عن التغيير... و«هكذا يرتبط الحوار بالتغيير والبناء والعلم المثمر في حركة المجتمع، فضلاً عن أنه يشكل توحيداً للجهود البشرية، لا بمعنى الوحدة العددية، وإنما بمعنى تلاقي العقول والجهود أمام عقبة ما... على العكس من الحوار، يرتبط الجدل بتفتيت طاقات الإنسان وإضاعتها مما يؤدي إلى أرضية جذبة تستعصي على التثمير»[1].

فالحوار بهذه الأبعاد حالة متقدمة من حالات التواصل والتبادل القائم على مستوى رفيع المعرفة والأخلاق، والمتوجه إلى تحصيل الحقيقة والسعي إليها، والجدل بعكس ذلك.

لكن أصحاب هذا الرأي لا يتحرجون من الإقرار بإمكانية استعمال الجدل في محل الحوار ويعتبرون ذلك استثناء ـ من القاعدة ـ يمثل حالة تطور إيجابية لمفهوم الجدل[2].

والملاحظة أن هذا الاستدراك لا يؤكد الأصل ويتممه بل يعود عليه ـ في أقل الأحوال ـ بالتشويش إن لم نقل النقض؛ فما معنى أن ننسب للجدل كل المعاني السلبية ثم نقر في الأخير بإمكانية خروجه عن هذه الدلالة إلى ضدها.

للخروج من هذا الإشكال، يقدم حسين فضل الله[3] تصوره لطبيعة

= سلسلة عالم المعرفة عدد ٧٩: ١٥٧.

(١) مقال: «من نفي الهذيان إلى نشر المقابسة». «مجلة المنطلق» العدد ١٠٥: ٤٠ـ ٤١.

(٢) المرجع السابق: ٤٢ و٥٩.

(٣) وهو ممن يقولون بالتمايز بين مصطلحي الحوار والجدل، لكن حسب تصور دقيق وقوي يسمح لنا بالقول: إن حسين فضل الله يمثل فريقاً ثالثاً في هذه المسألة.

العلاقة بين مصطلحي الحوار والجدل، والقائم على اعتبار **الحوار اسم جنس تدخل تحته معانٍ منها الجدل**. وينطلق لتأسيس ذلك من كون كل من الحوار والجدل أشكال للتعاطي الفكري مع الذات والمحيط: فالإنسان عندما يتحرك من أجل إعطاء فكرته صفة الوضوح لئلا تبقى هناك حاجة للاستفهام أو المعارضة الناتجة عن خفاء بعض القضايا المسلمة فهو إنما يمارس الحوار ـ الذاتي أو المشترك ـ «الذي يتدرج فيه الفكر من نقطة إلى نقطة أخرى، ومن مرحلة إلى مرحلة ثانية ليجمع في إطاره كل النقاط وكل المراحل»(١).

«وقد يحدث له في حالة أخرى أن يخوض الصراع من أجل فكرته، ضد المعارضين له فيتحول الموقف إلى صدام تتجاذبه حالة الكر والفر، والهجوم والدفاع، وتهيمن عليه أجواء التوتر الفكري والنفسي والكلامي، من أجل الوصول إلى الغلبة إن كان هناك مجال للغلبة أو إلى التفاهم إن كان هناك سبيل إليه. وهذا ما توحيه لنا كلمة الجدل»(٢).

إن الحوار، حسب رأي حسين فضل الله، انطلاق للأفكار في مجال العرض. والجدل انطلاقها في ميادين الصراع. وهذا ما يجعل كلمة جدل ترتبط بالحوار الذي يعيش في أجواء الخلاف الفكري والعقدي في حين توحي كلمة حوار بأوسع من ذلك.

وإلى قريب من هذا ذهب الدكتور عبد الحليم حفني عند قوله: «تعبير المجادلة محصور لغة واستعمالاً في محيط الخصومة، أو للدلالة على غير المرغوب فيه، وليس من الميسور التوسع في مدلوله واستعماله. أما لفظ التحاور فمع دلالته على المراجعة يمكن التوسع فيه للدلالة على موقف الخصومة، وموقف غير الخصومة، ما دام كلا الطرفين يراجع الآخر بكلام

---

(١) «الحوار في القرآن: قواعده. أساليبه. معطياته»: ١٥.

(٢) نفسه.

ومنطق»[1].

إن اعتبار الجدل من جنس الحوار، يمكننا من القول بوجود مساحة دلالية مشتركة بين المصطلحين دون نفي التمايز بينهما. ويعد هذا التصور أقوى ما يمكن أن يستند عليه أصحاب هذا الفريق.

هذا عن موقف الدارسين، وحتى أبين وجهة نظري في الموضوع أحب أن أنبه على ضرورة الوقوف عند دلالات المفردتين في الاستعمال القرآني والنبوي لأنني التزمت في مقدمة هذا البحث أن أتناول مفهوم الجدل من خلال التوظيف القرآني له.

فماذا عن دلالات الحوار والجدل في الاستعمال القرآني والنبوي؟.

(د) الجدل والحوار في الاستعمال القرآني والنبوي:

* مفهوم الحوار في الاستعمال القرآني والنبوي:

١ـ مفهوم الحوار في القرآن:

وردت كلمة «حور» ومشتقاتها في القرآن الكريم ثلاث مرات[2].

قال تعالى:

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾[3].

«أي يُراجعه في الكلام ويجاوبه، والمُحَاورة المُجَاوبة، والتَّحَاور

---

(١) «أسلوب المحاورة»: ١٤.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٤].
وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٧].
وقوله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ﴾ [المجادلة: ١]. ينظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن». فؤاد عبد الباقي: ٢٢٠.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٣٤.

التَّجَاوب»[1].

وقيل: «أي يُخاصمه لأن كَلامه مما يُرجِع على مخاصِمِه كَلامَه ويردُّه إليه»[2].

ويقول الطاهر بن عاشور (ت. ١٣٩٣هـ): «والمحاورة مراجعة الكلام بين متكلمين»[3].

وفي معنى الحوار الوارد في قوله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾[4].

يقول السجستاني (ت. ٣٣٠هـ): «تحاوركما: محاورتكما أي مراجعتكما القول»[5].

ويقول الألوسي (ت. ١٢٧٠هـ): «والتَّحَاور المرادَّة في الكلام»[6].

ومعاني الحوار، بما هو **مراجعة للقول ومرادة في الكلام** لا تقتصر على هذه المواقع الثلاثة بل تتعداها لأكثر من ذلك. فمن المشاهد الحوارية ما أورده الله تعالى حكاية عن حال الظالمين يوم القيامة عند قوله سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾[7].

«ورَجْع القول: الجواب. وَرَجْع البعض إلى البعض: المجاوبة والمحاورة. وهي أن يقول بعضهم كلاماً ويجيبه الآخر عنه وهكذا؛ شُبِّه

(١) «الجامع لأحكام القرآن». القرطبي: ١٠/ ٤٠٠.
(٢) «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ»: ١/ ٥٣٤.
(٣) «التحرير والتنوير»: ١٥/ ٣١٩.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ١.
(٥) «غريب القرآن»: ١٥٥.
(٦) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني»: ١٥/ ٣.
(٧) سورة سبأ، الآية: ٣١.

الجواب عن القول بإرجاع القول كأن المجيب أرجع إلى المتكلم كلامه بعينه، إذ كان قد خاطبه بكِفَائِه وَعَدْله»[1].

وإذا استحضرنا عدد المرات التي ورد فيها فعل «قال» بمشتقاته وتصاريفه[2] علمنا مدى الحضور القوي لمعاني الحوار في القرآن.

٢ـ مفهوم الحوار في السنة:

لا يقل هذا الحضور لمعاني الحوار في القرآن عنه في كلام رسول الله ﷺ وسيرته. حيث يطلعنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث على ستة عشر موضعاً[3] وردت فيها صيغ مشتقة لفعل «حَوَر» منها ما جاء بمعنى: «المراجعة في قول وغيره».

ففي الحديث الذي رواه أبو الدرداء (ت. **٣٢هـ**) قال: «كانت بين أبي بكر وعمر مُحَاوَرة ـ ثم ذكر بقية الحديث ـ»[4].

قال الدكتور عبد المتعال: «والمحاورة: المراجعة»[5].

ومنه حديث: «**نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر**»[6].

أي من النقصان بعد الزيادة. وقيل: من فساد أمورنا بعد صلاحها. وقيل من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا معهم. وأصله من نقض العمامة

---

(١) «التحرير والتنوير»: **٢٢/ ٢٠٤**.

(٢) أكثر من ألف وسبعمائة مرة. ينظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»: **٥٥٤** إلى **٥٧٨**.

(٣) «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي». ابتدأ ترتيبه وتنظيمه ونشره: أ. ى. ونسنك. وي. ب. منسنج. وأتبع نشره: ي. بروخمان: **١/ ٥٢٦**.

(٤) أخرجه البخاري في «كتاب التفسير» الباب الثالث رقم الحديث: **٤٦٤٠**. ينظر «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني: **٨/ ٣٨٦**.

(٥) «غريب كلمات صحيح البخاري»: **٨٩**.

(٦) أخرجه الإمام الترمذي حديث رقم **٣٤٣٩**. ينظر «سنن الترمذي»: **٥/ ٤٩٧**.

بعد لفها. وكل هذا قريب بعضه من بعض في المعنى لأنه رجوع من حال إلى حال. وهذا من معاني الحِوار[١].

ومنه حديث علي (ت. ٤٠هـ) رضي الله عنه: «حتى يرجع إليكما ابناكما بِحَوْر ما بعثتما به»[٢].

أي جواب ذلك. يقال كلمته فما رد إليّ حَوْراً: أي جواباً[٣].

ومنه ما أورده ابن هشام (ت. ٢١٨هـ) عن مسير خالد بن الوليد (ت. ٢١هـ) بعد الفتح إلى بني جذيمة من كنانة قال: انفلت رجل من القوم فأتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال رسول الله ﷺ: «**هل أنكر عليه أحد؟ فقال: نعم، فقد أنكر عليه رجل أبيض رِبْعَة[٤] فَنَهِمَه[٥] خالد فسكت عنه وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب، فراجعه فاشتدت مراجعتهما** ـ ثم ذكر بقية الحديث ـ»[٦].

أما مواقفه ﷺ الحوارية التي اعتمد فيها أسلوب السؤال والجواب فتتبعها في مجالسه التعليمية ومواقفه الدعوية فهي أكثر من أن تحصى[٧].

وهكذا يتبين أن دلالة الحوار على معاني المراجعة في القول والمرادة

---

(١) ينظر «النهاية في غريب الحديث والأثر»: ١/ ٤٥٨. و«غريب الحديث» لابن سلام الهروي: ١/ ٢٢٠. و«اللسان»: ٤/ ٢١٧.
(٢) «النهاية في غريب الحديث»: ١/ ٤٥٨.
(٣) ينظر «النهاية في غريب الحديث»: ١/ ٤٥٨.
(٤) «رجل رِبْعَة أي مربوع الخلق لا طويل ولا قصير». «مختار الصحاح»: ٢٢٨.
(٥) «نَهِم الإبل زجرها وصاح بها لتجدَّ في سيرها». المرجع السابق: ٦٣٥.
(٦) «السيرة النبوية» لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري: ٤/ ٦٢.
(٧) ينظر «الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم». عبد الفتاح أبو غدة: ٩٢ وما بعدها. و١٣٥ وما بعدها. وينظر «حياة الصحابة» للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي: «١/ ٤٥ إلى ٢٠٢.

في الكلام حاضرة في الاستعمال القرآني والبيان النبوي[1].

* مفهوم الجدل في الاستعمال القرآني والنبوي:

١ـ مفهوم الجدل في القرآن:

وردت لفظة الجدل، والجدال، وجادل ومشتقاتها في القرآن الكريم تسعاً وعشرين مرة[2].

قال تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[3].

«أي تراجعك الكلام في شأنه وفي ما صدر عنه في حقها من الظهار»[4].

وقال تعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ﴾[5].

---

(١) قال الراغب ـ وهو الخبير في ضبط دلالة الألفاظ القرآنية ـ محدداً معنى المحاورة في القرآن: «والمُحَاوَرة والحِوار المرادَّة في الكلام ومنه التَّحَاور». «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٣٥. وينظر «عمدة الحفاظ»: ١/ ٥٣٤. و«معجم ألفاظ القرآن الكريم»: ١٥٩ و«تذكرة الأريب»: ٢/ ٢٠٨.

(٢) في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].
وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحج: ٣].
وقوله سبحانه: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]. ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١.

(٤) روح المعاني ١٥/ ٢.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «وقوله: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1] أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين جانب وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[2]»[3].

وقال عز من قائل:

﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾[4].

«والجدال: المناقشة والمشادَّة حتى يغضب الرجل صاحبه»[5].

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «المراد بالجدال هاهنا المخاصمة. قال ابن جرير حدثنا عبد الحميد بن حسان حدثنا إسحاق عن شريك عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾[6] قال: أن تماري[7] صاحبك حتى تغضبه»[8].

وقال سبحانه:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾[9].

---

(١) نفسها.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٥٥٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٥) «في ظلال القرآن»: سيد قطب: ١/ ١٩٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٧) المراء كلام فيه بعض الشدة، ينظر «مقاييس اللغة»: ٣١٤.

(٨) «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٢٢٠.

(٩) سورة غافر، الآية: ٣٥.

نبه ابن حزم (ت. ٥٤٧هـ) على أن هذه الآية تندرج ضمن الآيات التي تولت بيان الجدال المذموم والجدال المحمود الواجب، فالواجب هو الذي يُجَادِل متوليه لإظهار الحق. والمذموم وجهان أحدهما من جادل بغير علم. والثاني: من جادل ناصراً للباطل[١].

بهذا يتبين أن الجدال في الاستعمال القرآني: **مخاطبة تتخذ شكل المراجعة في الكلام**. فما كان منها قائماً على سلطان الحجة والدليل لنصرة الحق المبين فذلك الجدال المحمود الواجب، وأما ما سوى ذلك فمذموم وصاحبه في الدارين ملوم[٢].

٢ـ مفهوم الجدل في السنة:

لم يخرج البيان النبوي في توظيفه لمصطلح الجدل[٣] عن المفهوم القرآني الذي أعطي للجدل؛ ففي الحديث الذي رواه أبو أمامة الباهلي (ت. ٨١هـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلى هذه الآية:** ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[٤]»[٥].

قال ابن الأثير (ت. ٦٠٦هـ) في بيان معنى الجَدَل في هذا الحديث: «الجَدَل، مقابلة الحجة بالحجة. والمُجَادَلة: المناظرة والمخاصمة، والمراد به في هذا الحديث الجدل على الباطل وطلب المغالبة به فأما الجَدَل لإظهار الحق فإن ذلك محمود لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ

---

(١) «الإحكام في أصول الأحكام»: ١/ ٢٣.

(٢) يكاد الإجماع ينعقد بين المفسرين على أن الجدال في القرآن نوعان محمود ومذموم. ينظر «الجامع لأحكام القرآن»: ٩/ ٢٨.

(٣) يطلعنا «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث» على ستة وعشرين موضعاً وردت فيها لفظة الجدل ومشتقاتها: ١/ ٣٢٧ـ ٣٢٨.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.

(٥) أخرجه الترمذي من حديث حجاج بن دينار. باب «ومن سورة الزخرف» وقال: حديث حسن صحيح. ينظر «سنن الترمذي»: ٥/ ٣٧٨.

أَحْسَنُ﴾[1]»[2].

وروى البخاري (ت. ٢١٠هـ) قصة كعب بن مالك (ت. ٤٠هـ) وتخلفه عن غزوة مؤتة في حديث طويل نمسك منه قول الصحابي الجليل كعب في لقائه مع رسول الله ﷺ فور عودته من الغزوة. قال كعب ـ راوي الحديث ـ: «فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً»[3]. قال عبد المتعال: «ولقد أعطيت جدلاً: أي حجة ومدافعة»[4].

قال الإمام ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ) في شرح هذا الحديث: «والله لقد أعطيت جدلاً: «أي فصاحة وقوة في الكلام، بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إليّ بما يُقبَل ولا يرد»[5].

وهكذا يتبين أن البيان النبوي قد وظف مصطلح الجدل بمفهومه القرآني.

(هـ) نتائـــج:

بعد هذا البيان لمفهومي الحوار والجدل في القرآن الكريم والسنة النبوية، واستحضاراً لما سبق يمكننا أن نخلص إلى مجموعة من النتائج، سأعرض لها في سياق بسط موقفي من طبيعة العلاقة بين المصطلحين، والتحديد المفهومي الذي اخترته لمصطلح الجدل.

ولن أتمكن من ذلك دون تحليل المواقف السابقة ومناقشتها لنتبين

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) «النهاية في غريب الحديث»: ١/ ٢٤٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، الباب رقم ٧٩، حديث رقم ٤٤١٨. ينظر «فتح الباري»: ٨/ ١٥٠.

(٤) «غريب كلمات صحيح البخاري»: ٨٩.

(٥) المصدر السابق. وينظر «صحيح البخاري شرح الكرماني»: ١٦/ ٢٢٢.

مكامن القوة فيها الواجب الحفاظ عليها، ومواطن الضعف فيها لنتجاوزها.

١ـ من المتفق عليه بين الدارسين أن الحوار والجدل، شكلان من أشكال التواصل والتفاعل مع المخاطب، عمودهما المراجعة في القول والكلام، وغايتهما التأثير في المخاطب. وعلى طبيعة هذه المراجعة والمرادة وغاية هذا التأثير يتوقف تحديد طبيعة هذا الشكل التواصلي، حوار أم مجادلة.

والقرآن الكريم حين حدد طبيعة كل من الحوار والجدل لم يغفل التنبيه على غايتهما، ليبرز بذلك قيمتهما المتوقفة على ما يحققانه من إفهام وهداية.

قال تعالى مذكراً الإنسان بنعمة البيان[1] التي خصه بها من بين سائر المخلوقات:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[2].

والبيان[3] هو الكشف عما في الضمير لمخاطب تريد إفهامه وهدايته.

---

(١) وهل الحوار والجدل إلا بيان وتبيين لأن الجدل «طبيعة وجبلة في الفطرة الإنسانية ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]. وهو يعود بمعناه العام إلى نزعة البيان والإفصاح المودعة فطرياً في الإنسان». «كتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم» لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن نجم بن عبد الوهاب المعروف بابن الحنبلي. مقدمة المحقق: ١٠. ويرى الألمعي أن الحوار والجدل ألفاظ ترجع في نهاية أمرها إلى طريقة البيان والتبيين التي أودعها الله في بني الإنسان جبلة وطبعاً. ينظر «مناهج الجدل»: ٢٥.

(٢) سورة الرحمٰن، الآيات: ١ـ ٤.

(٣) يذهب ابن حجر إلى أن البيان يدل في معناه العام على ما تقع به الإبانة عن المراد بأي وجه كان. ينظر «الفتح»: ١١/ ٤٠٢. و«البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته؛ ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار=

٢ـ ثم إن الذين قالوا باستعمال مفردة حوار عوض، جدل قد تأثروا بأمرين:

أولهما: «الدلالة اللغوية»[١] لكلمة جدل؛ فقد ركزوا على معنى «الصراع» الذي توحي به اللفظة وما يتبعه من معاني «المنازعة» و«المغالبة».

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «الجَدَل المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة. وأصله من جَدَلْت الحبل أي أحكمت فتله... وقيل: الأصل في الجِدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالَة وهي الأرض الصلبة»[٢].

وأنا لا أرد أي معنى لغوي يمكن أن توحي به لفظة «جدل»، بل هو عندي جدير بكل اعتبار، غير أني لا أقبل الوقوف عند معنى واحد أو بعض المعاني دون اعتبار غيرها. لأن الجمع بأطراف كل المعاني الموضوعة للفظة في اللغة سيمكننا من الفهم العميق لدلالاتها.

وإذا كنا قد سلمنا بأن مادة «ج، د، ل» ترجع في جميع تصريفها إلى معنى القوة والامتناع والشد والإحكام أو إلى معنى الإحكام وما يقتضيه من قوة وامتناع[٣]، فإنه من الممكن أن نفهم باقي المعاني الجزئية التي يفيدها الجدل في اللغة على ضوء هذا المعنى الجامع.

فالصراع مثلاً يدل على إسقاط حجج الخصم في مقام النطق بما هو

= الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى. فذلك هو البيان في ذلك الموضع». «البيان والتبيين» لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ: ١/ ٩٩.

(١) جعلتها بين قوسين لأنبه على أن التأثر حصل بفعل التعاطي مع جانب من جوانب الدلالة اللغوية للجدل، لا كل الدلالة. كما سيتبين بعده.

(٢) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٨٧.

(٣) ينظر خلاصة دراسة الجدل في لسان العرب.

أقوى منها[١]. كما يمكن أن نفهم معنى السطو[٢] على أنه سطو بالحجة على حجة الخصم كسطوة الأَجْدل ـ الصقر ـ على الطير[٣].

وهكذا يمكن أن ننزل هذا المعنى الكلي الجامع على كل المعاني الجزئية باعتبار ما تشترك فيه. وبهذا نُبعد عن الأفهام كل تلك المشوشات التي تحجب عنا إدراك المعنى الكلي للجدل.

إن مراعاة المعنى الكلي الذي تفيده كلمة جدل في اللغة يمكن من حسن فهم وتوجيه المعاني الجزئية التي تندرج ضمنه.

ولا أعتقد أن أحداً يعترض على استعمال مفردة «الجدل» بمعناها الكلي الجامع أو حتى بمعانيها الجزئية الأخرى.

إذا سلمنا بهذا جاز أن ننتقل إلى الأمر الثاني الذي قد يؤتى من قبله بعضنا فَيُحمِّل مصطلح الجدل ما لا يحتمل.

الثاني: يتجلى في تأثر بعض الدارسين بمفهوم الجدل عند المناطقة[٤] فلم يراع عند استعماله لمصطلح الجدل التمييز بين الجدل المنطقي والجدل كما يفهمه العلماء والأدباء، ذلك أن «الجدل المنطقي لا تعتبر فيه الحقيقة أو عدمها بل المعتبر عموم الاعتراف والتسليم من الخصم، فهو يستهدف إلزام الخصم وإذعانه أو انقطاعه»[٥].

يقول أفلاطون (ت. ٣٤٨ق.م): «إن المحاورة تُحَدِّد موضوعاً للدراسة، وليس القصد منها الخروج بنتيجة بصدد المشكلة المعروضة، بقدر ما تجعلنا أقدر على الجدل في كل الموضوعات. فهدف المحاورات، إذن،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عند من قال إن أصل الجَدل من الأَجْدل وهو الصقر. ينظر المرجع السابق.

(٣) نفسه.

(٤) وهم الذين عرفوا بالمخاصمة والمحاورة وتفتيق الحجج.

(٥) «مناهج الجدل في القرآن الكريم»: **٢٣**.

ليس إمدادنا بالمعلومات والمعارف بقدر ما تقدمه من مساعدة على التدرب على فن الجدل»[١].

ومن كان هذا همه لن يتحرج في الاستعانة على إلزام خصمه بأي نوع اتفق من الأقاويل بالحجة أو بالشبهة[٢].

أما الجدل عند العلماء والأدباء فإنه يرتكز على محور الحقيقة ويعتمد على مقابلة الحجة بالحجة بما يظهر بطلان موقف الخصم ويفتله عنه إلى غيره[٣].

إن شيوع استخدام الجدل بهذا المعنى السلبي هو ما جعلنا نقبل عذر الذين استعاضوا عن مصطلح الجدل بمصطلح الحوار تفادياً لكل تشويش.

يقول حسين فضل الله في معرض بيانه لمبررات اختيار استعمال مصطلح الحوار: «إن كلمة «الجدل» أخذت مدلولاً يوحي بالطريق التي يتبعها المتناظران، أو المتجادلان، ليغرقا حديثهما، أو مناظرتهما بالكلام العقيم الذي قد يقترب إلى الترف الذهني... بما يثيره من قضايا جانبية أو مناقشات لفظية تخضع الفكرة إلى متاهات لا يعرف الإنسان كيف تنتهي ولا إلى أين تستقر»[٤].

هذه إذن بعض الأسباب الكامنة وراء الخروج بمصطلح الجدل عن معناه اللغوي ومفهومه الجامع.

ومن المفيد أن ننبه على موقف من احتفظ باعتدال الميزان؛ فلم يمل بالمصطلح إلى ذات اليمين أو ذات الشمال. وعبر عن هذا الموقف

---

(١) «الحوار في القرآن»: ٢٣ نقلاً عن «تاريخ التفكير الفلسفي»: ١/ ١٧٠.
(٢) ينظر «تلخيص كتاب الجدل لأرسطو» لابن رشد: ٣٠.
(٣) ينظر «مناهج الجدل في القرآن الكريم»: ٢٣.
(٤) «الحوار في القرآن»: ١٨.

كثيرون، نقف مع بعضهم في هذا المقام:

يقول أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت. ٣٣٧هـ) في تعريف الجدل والمجادلة: «وأما الجَدَل والمُجَادَلة فهما قول يُقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين. ويُستعمل في المذاهب، والديانات، وفي الحقوق، والخصومات، والتنصل[1] في الاعتذارات، ويدخل في الشعر والنثر»[2]. ثم بين أنه قسمان محمود ومذموم»[3] فأما المحمود فهو الذي يُقصد به الحق ويستعمل به الصدق. وأما المذموم فما أريد به المماراة والغلبة. وطُلب به الرياء والسمعة»[4].

وهذا ما نبه عليه محمد التومي بقوله: «الجدل عبارة عن قدرة كلامية، وبراعة حجابية، قد تستخدم لإثبات الحق، لو تاقت النفس إلى سلوك الخير، أو للتشبث بالباطل، لو نزعت إلى اتباع الهوى»[5].

وجدل القرآن، كما عرفه الإمام السيوطي (ت. ٩١١هـ): «احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه»[6].

وجدل القرآن الكريم هو «براهينه وأدلته التي اشتمل عليها وساقها لهداية الكافرين وإلزام المعاندين في جميع ما قصد إليه من تبيان الحقائق

---

(١) تنصل فلان من ذنبه: تبرأ. «مختار الصحاح»: ٦١٨.

(٢) «نقد النثر»: ١١٧.

(٣) إن تقسيم الجدال إلى محمود ومذموم لا يعد ـ في تصوري ـ تطوراً نوعياً ودقيقاً في دلالة مفهوم الجدل. وإنما هو إشارة إلى الحالات التي يخرج فيها مفهوم الجدل عن مفهومه الحقيقي الذي وضع له و«الشيء إذا خرج عن حده انقلب إلى ضده» كما في الحكمة المأثورة. وكل مصطلح يتجاذبه جانبا التفريق والإفراط وهما مذمومان، والمحمود لزوم الوسطية والاعتدال، وهي الاحتفاظ للمصطلح بمفهومه الأصلي.

(٤) «نقد النثر»: ١١٧.

(٥) «الجدل في القرآن الكريم فعاليته في بناء العقلية الإسلامية»: ١٤.

(٦) «الإتقان في علوم القرآن» وبهامشه «إعجاز القرآن»: ٢/ ١٧٢.

وترسيخها في أذهان الناس»[1].

والجدل بهذا المفهوم لم يرفضه الإسلام بل سمع الله قول التي جادلت نبيه ﷺ في زوجها[2].

٣ـ ومهما تعددت العبارة، فإن مفهوم الجدل القرآني لا يخرج عن كونه: «**مخاطبة بين اثنين يسعى كل طرف فيها إلى بيان ما معه من الحق لأجل إفهام صاحبه وهدايته بالحجة والدليل**».

والجدل بهذا المفهوم لا يتميز عن الحوار[3]، بل تتسع مساحة اشتراكهما إلى الحد الذي يسمح بقبول استعمالهما بشكل استبدالي. بل إن ثمة مبررات تستدعي استخدام مصطلح الجدل عوضاً عن مصطلح الحوار، أذكر منها:

(أ) إن شيوع استعمال الجدل ببعده السلبي، يوجب علينا التنبيه على دلالته الإيجابية مما يفرض إعادة الاعتبار لهذا المصطلح دفعاً لتشويش أعظم وهو خشية أن ينسينا الإقرار «بواقع الاستعمال السلبي للمصطلح» - وهو فرع واستثناء البعد الإيجابي للمصطلح - وهو الأصل -. وهذا يدخل في باب: «وجوب إظهار العمل بالشيء الحسن إذا خشي اندراسه».

(ب) كما أننا سننسج على منوال القرآن الكريم الذي استعمل مصطلح الجدل إلى جانب الحوار، بل لقد استخدم الجدل أضعاف ما وظف كلمة الحوار.

وقد سار سلفنا الصالح على هذا النهج، فاستخدموا مصطلح الجدل،

---

(١) «كتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم». مقدمة المحقق: ٨.

(٢) قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]. و«السماع مجاز عن القبول والإجابة» «روح المعاني»: ١٥/٣.

(٣) راجع مفهوم الحوار في اللغة والاصطلاح.

وقليل منهم من استعمل مصطلح الحوار وإن كان مفهومه حاضراً.

(ج) ثم إن مفهومي الجدل والحوار وإن كانا يشتركان في ضرورة اعتماد الحجة والدليل لأجل الإقناع، إلا أننا نجد في مصطلح الجدل ميزة إبراز هذا الشرط؛ فالجدل قوة وإحكام للدليل الذي عليه يتأسس الإقناع فهاهنا فائدة زائدة في استعمالنا لمصطلح جدل.

(د) غير أن هذا الكلام لا يمنعنا من قبول استعمال مصطلح حوار إذا كان لغرض مراعاة الأمر الواقع ودفعاً للتشويش، لكننا في الوقت ذاته لا نقبل رفض استعمال مصطلح الجدل لغرض التواصل البناء الذي يسعى إلى الحقيقة مستعيناً بآلات البيان وسلطان الحجة والبرهان.

إنني أقول بضرورة استعمال الجدل إلى جانب الحوار، وباستعمال الحوار إلى جانب الجدل، كيف لا «**والحوار ـ عندي ـ مجادلة بالتي هي أحسن**» وأقيد الجدل ب» التي هي أحسن» تأسياً بأسلوب القرآن الكريم وبيان سيد المرسلين ﷺ ثم لأنبه على أن الجدل وضع في الأصل ليدل على معاني الإحكام والقوة وهي معان حسنة في ذاتها بل أحسن.

ومن اللطائف التي يحسن أن نختم بها دراستنا لمفهوم الجدل القرآني ما نبه عليه الإمام الألوسي (ت. ١٢٧٠هـ) عند قوله تعالى:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[١].

قال: وقرىء: ﴿تحاورك﴾»[٢].

قرىء: تحاورك... أي أن «تجادلك» وردت في بعض القراءات «تحاورك». وتعدد وجوه القراءات من أدوات التفسير كما نص عليه علماؤنا[٣].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١.

(٢) «روح المعاني»: ١٥/٢.

(٣) «مباحث في علوم القرآن». مناع القطان: ١٨١.

وهذا ما يؤيد ويؤكد ما خلصنا إليه من أن «**الحوار مجادلة بالتي هي أحسن**».

هذا وأنبه القارىء الكريم إلى أنني سأستعمل مصطلح الجدل في هذه الدراسة لأعبر به عن معاني المرادة في الكلام التي يسعى كل طرف فيها لبيان ما معه من الحق[1] وتبليغه بالوجه الذي يحقق الإفهام ويمهد سلوك سبيل الرشاد[2].

وأرى أن النتائج التي خلصنا إليها بعد دراستنا لمفهوم الجدل تخول لنا هذا الاستعمال ويمكن اعتبارها أسساً علمية يستند إليها هذا الاختيار.

وسيلمس القارىء العزيز أن القلم أحياناً يسبق إلى توظيف مصطلح الحوار في مقام المجادلة، فليعذرنا في ذلك، ولا ضير في المسألة ما دام الحوار ـ كما بينت ذلك ـ مجادلة بالتي هي أحسن.

هذا عن مفهوم المجادلة، **فماذا عن مفهوم أهل الكتاب؟**



(١) قال تعالى: يحكي حال طائفة من أهل الكتاب بعد أن بلغ معهم الجدل النبوي هدفه وهو التعريف بالحق ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣]. فالجدل تبليغ للحق وتعريف به.

(٢) فالجدل القرآن لا يقصد لذاته، بل هو وسيلة للدعوة إلى سبيل الله تعالى قال عز من قائل: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢ــ مفهوم أهل الكتاب

بداية لا بد من التنبيه على أهمية الوقوف عند دلالات مفهوم أهل الكتاب[١]. ولعل استحضار الأسئلة التي تواجه الدارسين لهذا المفهوم يعكس حجم الإشكال الناتج عن غياب تحديد دقيق لمعاني هذه العبارة.

---

(١) وردت عبارة ﴿أهل الكتاب﴾ وما في معناها كـ ﴿أوتوا الكتاب﴾ و«﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ و﴿يتلون الكتاب﴾ و﴿أورثوا الكتاب﴾ و﴿يقرؤون الكتاب﴾ ثمانية وسبعين مرة:

كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا﴾ [آل عمران: ٦٤].

وفي قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٢٣].

وقوله جل جلاله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

وعند قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

ينظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»: ٥٩٢ـ ٥٩٥.

هذا الحضور المكثف لمفهوم أهل الكتاب في القرآن الكريم يوازيه حضور مهم في الحديث النبوي الشريف؛ فقد وردت عبارة أهل الكتاب وما في معناها في الحديث النبوي ما لا يقل عن أربعين مرة. ينظر «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي»: ٥/ ٥٣٣ـ ٥٣٧.

حضور يبرز أهمية هذه الفئة. فمن يمثل هذه الطائفة؟

ونذكر من هذه الأسئلة ما يأتي:

- هل يصح الحديث عن أهل الكتاب بعد شهادة الوحي بتحريفهم للكتب المنزلة عليهم؟[1].

- هل لهذه الطائفة وجود بعد البعثة المحمدية؟[2].

- إذا قبلنا باستمرار وجود أهل الكتاب بعد البعثة، فمن يمثلهم في الوقت الحاضر؟[3] خاصة إذا علمنا باختلافهم في الإيمان ببعض أجزاء التوراة والإنجيل المحرفة، وكذا في الإيمان ببعض أنبيائهم؟.

أسئلة مهمة أرى أنها ترجع في مجموعها إلى السؤال المركزي والمحوري: من هم أهل الكتاب؟ أو بتعبير آخر: من هو الكتابي؟

هذا ما سأحاول التفصيل فيه في هذا المقام من خلال التركيز على الضوابط لهذا المفهوم. حتى يسهل تمثل أبعاد مفهوم أهل الكتاب ويكون تنزيله في الواقع عن بينة.

وسيتم ذلك عبر الخطوات الآتية:

(أ) الكتب السماوية.

(ب) أهل الكتاب.

(ج) اليهود أهل التوراة، والنصارى أهل الإنجيل.

---

(١) وهذا السؤال يطرحه كل من يربط وجود أهل الكتاب بوجود التوراة والإنجيل التي لم يطلها تحريف.

(٢) في اعتقاد البعض لم يعد لأهل الكتاب امتداد بعد البعثة المحمدية؛ فليس ثمة إلا مؤمن وكافر.

(٣) صار من الضروري اليوم تحديد مواقع كثير من الطوائف غير المسلمة وأيها يمثل أهل الذمة أو أهل الكتاب حتى يتسنى التعامل معها في إطار هذه المواقع حتى لا نظلم بريئاً أو نوالي عدواً. ينظر «مصطلحات إسلامية». محيي الدين حسن القضماني: ١٥.

(د) قاعدة في مفهوم أهل الكتاب.

(أ) الكتب السماوية[1]:

«لله عز وجل كتب: نزلت قبل القرآن، المعروف منها ـ عند العامة ـ: التوراة والإنجيل، وقد أخبر الله عز وجل: أنه أنزل غيرهما؛ فقال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾[2] وليس يُعرف تلاوة كتاب إبراهيم. وذكر زبور داود؛ فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾[3]»[4].

وقال الإمام الشهرستاني (ت. ٥٤٨هـ): «التوراة[5] هو أول كتاب نزل من السماء أعني أن ما كان نزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء ما كان

---

(١) قال الراغب مبرزاً معنى الكتاب حسب ما تعارف عليه الناس: «الكتب في التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وقد يقال ذلك للمضموم إلى بعض باللفظ... ولهذا سمي كلام الله وإن لم يكتب كتاباً كقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾[البقرة: ١] وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠]. «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٤٠. وينظر أيضاً «كتاب المغرب في ترتيب المعرب» للإمام أبي الفتح ناصر الدين عبد السيد بن علي المطرزي (ت٦١٦ .هـ): ٤٠٠. و«الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية». عبد الملك بن محمد الثعالبي: ٢٣٥.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٩٦.

(٤) «أحكام القرآن» للإمام الشافعي. جمعه الحافظ أبو بكر بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي النيسابوري صاحب السنن (ت٤٥٨ .هـ): ٢/ ٥٤.

(٥) يذهب الإمام الشهرستاني إلى أن ألواح موسى ما هي إلا مختصر لما ورد في التوراة، ينظر «الملل والنحل» للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني بهامش «الفصل في الملل والأهواء والنحل» للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري: ٢/ ٤٩. وأصل اللوح من لاح أي لمع. وألواح موسى سميت ألواحاً للمعان وضياء مبادئها ومبانيها ومعالمها ومفاهيمها ولأنها غيرت وجه الشرك وسفهته وكانت مكتوبة على ألواح. ينظر «مختار الصحاح»: ٥٦٧. و«دراسات في اليهودية بين الملة والنحلة» للدكتور محمد حسن جبر: ٦٠.

يسمى كتاباً بل صحفاً»[١].

فمسمى كتاب الله لا يصدق إلا على التوراة والإنجيل والقرآن، أما صحف إبراهيم وشيت وزبور داود فلا تدخل ضمن كتب الله التي أنزل على أنبيائه «لأن هذه الصحف لم تكن فيها شرائع إنما هي مواعظ وأمثال»[٢].

وورد في معجم ألفاظ القرآن الكريم: «الكتاب: اسم جنس يراد به الكتب السماوية، وحيثما ذكر في القرآن الكريم التركيب الإضافي «أهل الكتاب» فإنما أريد بالكتاب التوراة والإنجيل. . . وكذلك إذا ذكر التركيب الإسنادي «أوتوا الكتاب» أو «أتيناه الكتاب»[٣]».

وعليه فحيثما ذكرت أهل الكتاب فإنما أقصد بالكتاب التوراة أو الإنجيل أو إياهما جميعاً.

(ب) أهل الكتاب[٤]:

مر معنا أن المراد بالكتاب - في قولنا «أهل الكتاب» - التوراة

---

(١) «الملل والنحل»: ٢/ ٤٩.

(٢) «المغني» ويليه «الشرح الكبير» للإمامين موفق الدين بن قدامى وشمس الدين بن قدامى المقدسي: ١٠/ ٥٦٩.

(٣) منشورات مجمع اللغة العربية: ٥٤٥ وهذا ما أكده الراغب بقوله: «حيثما ذكر الله تعالى أهل الكتاب فإنما أراد بالكتاب التوراة والإنجيل وإياهما جميعاً». «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٤٢.

(٤) أهل الكتاب والأميون هما الفرقتان المتقابلتان قبل البعثة. والأمي من لا يعرف الكتابة. فكانت اليهود والنصارى بالمدينة والأميون بمكة. ذلك أن النور الوارد من آدم عليه السلام إلى إبراهيم قد انقسم على شعبين شعب في بني إسرائيل وشعب في بني إسماعيل. وكان النور المنحدر من سيدنا إبراهيم إلى بني إسرائيل ظاهراً في أهل الكتاب والنور المنحدر منه إلى بني إسماعيل مخفياً في الأميين. وكان يستدل على النور الظاهر بإظهار النبوة في الأشخاص، ويستدل على النور المخفي بإبانة المناسك مع ستر الحال في الأشخاص. وقبلة الفرقة الأولى بيت المقدس، وقبلة الفرقة الثانية بيت الله الحرام. وشريعة الأولى ظواهر الأحكام وشريعة الثانية رعاية المشعر الحرام. ينظر =

والإنجيل أو هما معاً. فأهل الكتاب إذن هم أهل التوراة ـ وهم اليهود ـ وأهل الإنجيل ـ وهم النصارى ـ ومن دان دينهم[(١)].

وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء[(٢)] وبه قال أهل التأويل حيث اعتبروا أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ـ بفرقهم المختلفة[(٣)] ـ ومن دان دينهم واستدلوا على ذلك بقوله تعالى:

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾[(٤)].

قال الإمام ابن جرير (ت. ٣١٠هـ) في تفسير هذه الآية: «فأما الطائفتان اللتان ذكرهما الله، وأخبر أنه إنما أنزل كتابه على نبيه محمد لئلا يقول المشركون لم ينزل علينا كتاب فليس علينا حجة فيما نأتي ونذر إنما الحجة على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا، فإنهما اليهود والنصارى. وكذلك قال أهل التأويل»[(٥)].

ويقول ابن القيم (ت. ٧٥٠هـ) مستدلاً بالآية على أن المقصود

= «الملل والنحل»: ٢/ ٤٧ـ ٤٨.

(١) ينظر «المغني»: ١٠/ ٥٦٩.

(٢) ينظر «الموسوعة الفقهية» إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية: ٧/ ١٢١ـ ١٤١. وينظر «مصطلحات إسلامية»: ٩٩. وقد فصل الفقهاء في مفهوم أهل الكتاب والطوائف التي يصدق عليها هذا الاسم في «كتاب الجزية» باب «من تجب عليهم الجزية» وعند حديثهم عن «أهل الذمة». ينظر «المغني»: ١٠/ ٥٦٨ وما بعدها.

(٣) شهد القرآن بتفرق اليهود والنصارى إلى فرق ولم يخرجهم هذا الانقسام عن مسمى اليهود والنصارى.
قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].
وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [فصلت: ٤٥].
للإطلاع على فرق اليهود والنصارى ينظر في «الفصل في الملل والنحل»: ١/ ٤٨ و١/ ٩٨. و«الملل والنحل»: ٢/ ٥٤ و٢/ ٦٢. وينظر «مصطلحات إسلامية»: ١١٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٦.

(٥) «جامع البيان في تفسير القرآن» ٨/ ٦٩ بتصرف.

«بالطائفتين»: اليهود والنصارى: «فالله سبحانه حكى هذا عنهم[1]، ولم ينكره عليهم ولم يكذبهم فيه»[2].

ولمكانة السنة النبوية المبينة لكلام الله عز وجل، نورد حديثين لرسول الله ﷺ يحددان المقصود بأهل الكتاب.

الأول: أخرجه الإمام مسلم (ت. ٢٦١هـ) عن أبي هريرة (٥٩هـ) أن رسول الله ﷺ قال: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا**»[3] فبين أن المقصود بأهل الكتاب: أهل الكتابين.

الثاني: أخرجه الإمام البخاري (ت. ٢١٠هـ) من حديث ابن عمر (٧٣هـ) أن رسول الله ﷺ قال: «**مثلكم ومثل أهل الكتابين من قبلكم كمثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل لي من غدوة إلى نصف النهار على قيراط فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر، فعملت النصارى. ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى مغيب الشمس على قيراطين فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى قالوا: كنا أكثر عملاً وأقل عطاءاً، قال: هل نقصتكم من حقكم. قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشياء**»[4] فبين أن المقصود بأهل الكتاب: اليهود والنصارى.

وممن انفردوا بموقفهم الخاص من هذه المسألة: الإمام الشافعي (ت. ٢٠٤هـ)؛ حيث اشترط ـ زيادة على ما أجمع عليه الفقهاء ـ أن يكون

---

(١) أي حكاه عن المشركين من قريش.

(٢) «أحكام أهل الذمة: ١/ ٢.

(٣) أخرجه مسلم، الكتاب الأول، الباب ٥٧ الحديث رقم: ١٩٩. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٢/ ١٢٥.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب «من أدرك ركعة من العصر». ينظر «الفتح»: ٢/ ٢٢٦ـ ٢٢٧.

الكتابي من بني إسرائيل. فمن دان من العرب دين اليهودية والنصرانية لا يعد كتابياً لأن أصل دين العرب كان الحنفية ثم ضلوا بعبادة الأوثان وإنما انتقلوا إلى دين أهل الكتاب بعده لا بأنهم كانوا الذين دانوا بالتوراة والإنجيل فضلوا عنها وأحدثوا فيها.

وقد نقل في ذلك أخباراً منها ما رواه ابن جرير (ت. ٣١٠هـ) عن عطاء قال: «ليس نصارى العرب بأهل كتاب إنما أهل الكتاب بنو إسرائيل الذين جاءتهم التوراة والإنجيل، فأما من دخل فيهم من الناس فليسوا منهم»[١].

فمن دان دين أهل الكتاب الذين أنزل عليهم التوراة والإنجيل لم يكونوا أهل كتاب إلا لمعنى لا أهل كتاب مطلقاً[٢].

ومن دخل مع «أهل الكتاب حقيقة»[٣]، فقد أقحم نفسه فيما لا يجب عليه وإقحامه لا يدخله فيهم في نظر الدين، على الأقل عندنا نحن المسلمين[٤].

ولا أرى وجهاً للتقيد بهذا القيد في تحديدنا لمفهوم أهل الكتاب، خاصة وأن رسول الله ﷺ تعامل مع أهل الكتاب **بأديانهم لا بآبائهم**. وقد فصل ابن القيم (ت. ٧٥٠هـ) في هذه المسألة بقوله: «العرب أمة ليس فيها في الأصل كتاب، وكانت كل طائفة منهم تدين بدين من جاورها من الأمم... فأجرى رسول الله ﷺ أحكام الجزية، ولم يعتبر آباءهم، ولا من دخلوا في دين أهل الكتاب: هل كان دخولهم قبل النسخ والتبديل أو

---

(١) «الأم». الشافعي: ٣/٧.

(٢) ينظر «أحكام القرآن»: ٢/٥٧.

(٣) أو بتعبير الإمام الشافعي: «أهل الكتاب مطلقاً».

(٤) ينظر كتاب «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء» د. رؤوف شلبي: ٣١٦.

بعده[1]. ومن أين يعرفون ذلك، وكيف ينضبط وما الذي دل عليه وقد ثبت في السير والمغازي، أن من الأنصار من تهود أبناؤهم بعد النسخ بشريعة عيسى، وأراد آباؤهم إكراههم على الإسلام، فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[2] وأكثر من أخذ منهم النبي ﷺ الجزية العرب من النصارى واليهود والمجوس، ولم يكشف عن أحد منهم متى دخل في دينهم، وكان يعتبرهم بأديانهم لا بآبائهم»[3].

وفي هذا أيضاً رد على من قال بأن اليهود والنصارى الحاليين ليسوا من أهل الكتاب اعتباراً للتحريف والتغيير الذي طال التوراة والإنجيل السماوين[4].

ولا أرى مبرراً لربط استمرار وجود أهل الكتاب بوجود التوراة والإنجيل السماوية فقد وجدنا القرآن الكريم خاطب اليهود والنصارى بأهل الكتاب في الوقت الذي شهد بانحراف عقيدتهم وتبديلهم لما أنزل عليهم. من ذلك قوله تعالى:

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ﴾[5].

فهم لم يقيموا التوراة والإنجيل المنزلة إليهم من ربهم، بل حرفوها وانحرفوا عن تعاليمها إلى حد الكفر[6]. ورغم ذلك لم تسحب عنهم صفة

---

(١) **النسخ**: أي بعد نزول القرآن الكريم الذي نسخ ما قبله.
التبديل: التحريف الذي طرأ على التوراة والإنجيل.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٣) «زاد المعاد في هدي خير العباد»: ٣/ ١٥٨.

(٤) ممن قال بذلك د. الوافي في أبحاث في الإسلام والاجتماع: ١/ ١١١.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٦) قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٨]. ومثل هذا في القرآن كثير. ينظر «معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم». تصنيف =

أهل الكتاب.

ويُعرَض في هذا المقام سؤالٌ وجيه مفاده: إذا كان هذا هو حال اليهود والنصارى مع كتب الله السماوية المنزلة عليهم، فما السر في استمرار مخاطبتهم بأهل الكتاب؟

إجابة على ذلك أحب أن أؤكد أولاً أن القرآن الكريم قد ميز أهل الكتاب عن غيرهم من المشركين لأنهم يؤمنون في أصل دينهم بالتوحيد والنبوات والوحي، ولأن أحبارهم يقرؤون في كتبهم عن النبي الخاتم الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، والذي أخذ على أنبيائهم الميثاق أن يؤمنوا به[(١)].

ثم إن مع أهل الكتاب من التوحيد وبعض آثار الأنبياء ما ليس مع عباد الأصنام، ويؤمنون بالمعاد والجزاء والثواب بخلاف عبدة الأصنام، لهذا ميزهم القرآن عن غيرهم[(٢)].

هذا «ولله تعالى حكم في إبقاء أهل الكتابين بين أظهرنا، فإنهم مع كفرهم شاهدون بأصل النبوات والتوحيد واليوم الآخر والجنة والنار وفي كتبهم من البشارات بالنبي ﷺ وذكر نعوته وصفاته وصفات أمته ما هو من آيات نبوته، وبراهين رسالته، وما يشهد بصدق الأول والآخر. وهذه الحكمة تختص بأهل الكتاب دون عبدة الأوثان»[(٣)].

فبقاء أهل الكتاب واستمرار مخاطبتهم بهذه الصفة من أقوى الحجج

= الدكتور عبد الصبور مرزوق: ٣١٤ ـ ٣١٩. تجد فيه السمات العامة لأهل الكتاب، وسيتأكد لك أنه لا مجال للربط بين صفة أهل الكتاب في القرآن الكريم ووجود الكتب السماوية الصحيحة.

(١) ينظر «مصطلحات إسلامية»: ١٠٠.

(٢) ينظر «أحكام أهل الذمة»: ١/ ١٠ و«الفصل في الملل والنحل»: ١/ ٩٨.

(٣) «أحكام أهل الذمة»: ١/ ١١.

على منكري النبوات والمعاد والتوحيد، وقد قال تعالى لمنكري ذلك:

﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ذكر هذا عقب قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾[2].

ومن اللطائف في هذا الباب ما أورده شراح الحديث عند كلامهم في حديث نزول عيسى عليه السلام[3] الذي يشهد له قوله تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[4].

قال صاحب الفتح (ت. ٨٥٢هـ): «و﴿إن﴾ بمعنى ما، أي لا يبقى أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا نزل عيسى إلا آمن به»[5].

وقال الكشميري (ت. ١٣٥٢هـ) ـ في نفس السياق ـ: «ثم إن هاهنا دقيقة أخرى وهي أن شرعنا قد تحمل وجود الكتابي، وأما عيسى عليه الصلاة والسلام، فلا يتحمل اليهودية والنصرانية بعد نزوله، كما أخبر به النبي ﷺ أنه يضع الجزية ولا يقبل منهم إلا السيف أو الإسلام»[6].

ومن اللطائف أيضاً أن المصطفى ﷺ احتفظ بصفة أهل الكتاب حتى للذين آمنوا ودخلوا في الإسلام من أهل الكتاب. فعن أبي بردة (ت. ٤٢هـ) أنه سمع أباه عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين** ـ وذكر منهم ـ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٢) نفسها.

(٣) أخرجه البخاري. كتاب الأنبياء. باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام. رقم الحديث ٣٤٤٨ ينظر «الفتح»: ٧/ ١٦٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٩.

(٥) «الفتح»: ٧/ ١٦٧.

(٦) «فيض الباري» للكشميري: ٣/ ١٩٤ـ ١٩٥.

ومؤمن أهل الكتاب الذي كان مؤمناً ثم آمن بالنبي ﷺ فله أجران»[1].

(ج) اليهود أهل التوراة، والنصارى أهل الإنجيل:

اتضح أن المراد بأهل الكتاب: أهل التوراة وأهل الإنجيل. وأحب في هذا المقام أن أعرض للأسس العلمية التي انبثق عنها اختياري استعمال لفظتي «اليهود» و«النصارى» عوض بني إسرائيل والمسيحيين.

١ـ اليهود أهل التوراة:

بنو إسرائيل، واليهود اسمان اشتهر بهما قوم موسى عليه السلام[2].

(أ) بنو إسرائيل:

بنو إسرائيل نسبة إلى إسرائيل ـ وهو يعقوب عليه السلام ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ـ قال تعالى:

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾[3].

وقال عز من قائل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير باب فضل من أسلم من أهل الكتابين رقم الحديث ٣٠١١. ينظر «الفتح»: ٦/ ٥٢٣ـ ٢٥٤.

(٢) من الدارسين من يضيف اسماً ثالثاً وهو العبرانيون أو العبريون. ويرى د. سعد المرصفي أن سبب تسميتهم بذلك يرجع إلى إبراهيم عليه السلام نفسه، فقد ذكر في سفر التكوين باسم «إبراهيم العبراني» لأنه عبر الفرات وأنهار أخرى. ينظر «موسوعة الرسول ﷺ واليهود وجها لوجه». الكتاب الأول: أسطورة الوطن اليهودي: ٣٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

(٤) سورة مريم، الآية: ٥٨.

وبنو إسرائيل[1] وإن صحت لهم هذه النسبة ليعقوب عليه السلام فإن وراثتهم له ولغيره من أولياء الله لا تصح بعدما ناصبوا العداء لمحمد رسول الله ﷺ الوارث الديني والإيماني ليعقوب عليه السلام والأنبياء من ذريته ـ فلم يعد يربطهم بنبي الله إسرائيل إلا النسب والجنس، أما الوراثة والخلافة فقد انتقلت لرسول الله ﷺ ولأمته. ذلك أن القرآن يفرق بين صلة النسب وبين وراثة الدين والإيمان والعقيدة[2]: أي بين النسب الطيني وبين النسب الديني[3].

فطالما خسروا هذا النسب الديني[4]، والتكريم الإلٰهي بنسبتهم لنبي الله إسرائيل ـ يعقوب عليه السلام ـ وجب الاحتفاظ في مخاطبتهم بالاسم الذي عرفوا به في التاريخ وهو «اليهود».

(ب) اليهود:

اختلف اللغويون والمفسرون والدارسون لتاريخ اليهود في طبيعة هذا الاسم: هل هو اسم مشتق أم جامد؟ وإذا كان مشتقاً أم جامد؟ وإذا كان

---

(١) قيل: إن إسرائيل كلمة عبرانية مركبة من «إسرا» بمعنى عبد أو صفوة، ومن «إيل» وهو الله فيكون معنى الكلمة عبد الله أو صفوة الله. ينظر «الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه»: الكتاب الأول: ٣٧.

(٢) ينظر «الشخصية اليهودية في القرآن»: ٢٠.

(٣) قال تعالى على لسان سيدنا زكرياء عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥، ٦]. ﴿يَرِثُنِي﴾ أي يرث النبوة وهي نسب إيماني، ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ نسبهم الطيني.

(٤) من الملاحظ أن اليهود يحرصون كل الحرص على الاحتفاظ باسم «بني إسرائيل» حتى يثبتوا لأنفسهم وللعالم أنهم ما زالوا على دين إسرائيل، وأنهم شعب الله الذي فضلهم على العالمين. يظهر ذلك من خلال تسمية دولتهم: «إسرائيل»، وإذاعتهم: «صوت إسرائيل»، وبنكهم المركزي: «بنك إسرائيل». حتى الأراضي التي احتلوها يطلقون عليها أسماء توراتية: «يهوذا»، و«السامرة»، و«أورشليم»...». ينظر «الشخصية اليهودية في القرآن»: ٤٣.

مشتقاً فما أصل هذا الاشتقاق. ويمكن حصر مواقفهم في ثلاث:

ـ الذين قالوا إن اليهود اسم مشتق اختلفوا في أصل الاشتقاق إلى فريقين:

الأول: يذهب إلى أن اليهود مشتق من «هاد» إذا رجع وتاب.

قال الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ): «وهاد الرجل وتهود، وهود ابنه. وهاد المذنب إلى الله: رجع وتاب»[1].

وقال الإمام الشهرستاني (ت. ٥٤٨هـ): «يهود في الأصل من قولهم: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[2]»[3]. وسمي اليهود بذلك لما تابوا من عبادة العجل[4].

قال أبو بكر الأنباري (ت. ٣٢٨هـ): «اليهودي سمي يهودياً لتوبته في وقت من الأوقات لزمه من أجلها هذا الاسم، وإن كان غير التوبة ونقضها بعد ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[5]»[6].

فاسم اليهودي ـ حسب هذا القول ـ يحمل معاني التوبة والرجوع إلى الله.

الثاني: يرى أن كلمة يهود مشتقة من «التهود» وهو الصوت الضعيف اللين الفاتر، وسموا بذلك لأنهم يتهودون عند قراءة التوراة[7].

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «وتهود في مشيته إذا مشى مشياً رفيقاً

---

(١) «أساس البلاغة»: ٧٠٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٣) «الملل والنحل بهامش الفصل في الملل والأهواء والنحل»: ٢/ ٤٩.

(٤) ينظر «النصارى في القرآن والتفسير»: ٤٦ نقلاً عن البيضاوي في تفسيره: ١/ ١٥٨ـ ١٥٩.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٦) «الزاهر في معاني كلمات الناس»: ٢/ ٢٢٥.

(٧) ينظر «بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود». عبد الله الجميلي: «١/ ٣١.

شبيهاً باليهود في حركتهم عند القراءة»[١].

ـ أما الذين قالوا بأن كلمة يهود اسم جامد، فقد رجحوا أنها كلمة معربة من «يهوذا» وهو اسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام[٢]. فقلبت العرب الذال دالاً لأن الأعجمية إذا عربت غيرت عن لفظها[٣] وأدخلت الألف واللام على إرادة النسب فقيل: «اليهود»[٤].

يقول السيد أحمد ديدات: «يهوذا هو أب السلالة اليهودية، ومن كلمة يهوذا اشتقت كلمة اليهودية ويهوذا هذا هو ابن يعقوب عليه السلام»[٥].

والذي يمكن الاطمئنان إليه بعض عرض هذه الأقوال أن كلمة يهودي تحمل في بعدها الإيجابي معاني التوبة والرجوع، لكن اليهود لم يثبتوا على هذا الحال بل نقضوا العهد والميثاق مع الله ورسوله. فجاز أن تسحب عنهم هذه المعاني الجليلة التي وصف بها سلفهم الصالح.

فالواجب إذن أن يطلق عليهم هذا الاسم: اليهود، مجرداً عن كل مدح[٦]. قال الإمام الشهرستاني (ت. ٥٤٨هـ) مؤكداً هذا الموقف: «يهود

---

(١) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥٤٤. وينظر «أساس البلاغة»: ٧٠٧.

(٢) وقصة هذه التسمية تبدأ عندما أوصى نبي الله يعقوب لأحد أبنائه ـ وهو يهوذا ـ أن يكون سيد إخوانه وأن يتولى أمرهم ثم أطلقت لفظة يهوذا أو اليهود على أولئك الذين رضوا بأن يكونوا تحت لواء يهوذا، أما الذين دانوا بالولاء الأسري لنعرة الاسم والصفة القديمة التي خلعت على الأب «إسرائيل» فكانوا يحافظون على تداول التنادي بإسرائيل.
وهذا التقرير حول الاستعمال التاريخي للتسميتين «الإسرائيليون» و«اليهود» هو ما يستفاد بالرؤية العلمية من السياق العام لآيات التوراة. ينظر «التاريخ اليهودي العام» صابر طعيمة: ٣٤ـ ٣٥.

(٣) ينظر «الجامع لأحكام القرآن»: ١/ ٤٣٢ـ ٤٣٩. و«النصارى في القرآن والتفسير»: ٤٦ـ ٤٧. وينظر «بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم»: ١٥٧.

(٤) «بذل المجهود»: ١/ ٣١.

(٥) «هذه حياتي»: ٧٠.

(٦) إن المتتبع للمواقع التي ورد ذكر اليهود فيها يخلص إلى أن القرآن لم يذكر اليهود =

في الأصل من قولهم: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[1]، وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح»[2].

فاليهود هو الاسم الذي يليق بهذا الشعب الملعون، وهو يلقي عليهم ظلاله من اللعن والذم والمقت والغضب[3].

هذا، ويفضل بعض الدارسين استعمال «يهود» بالتنكير لما في التنكير من التحقير والتصغير[4].

وبالرجوع إلى سنة المصطفى ﷺ يتبين الاستعمال الواسع للفظة «يهود» مع حضور لكلمة «اليهود»[5]. فلا أرى وجهاً لاشتراط استعمال يهود

= إلا في معرض الذم واللوم واللعنة. وقد نزه القرآن أنبياء بني إسرائيل وصالحيهم عن أن يتصفوا بصفة يهودي. قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٢) «الملل والنحل وبهامشه الفصل في الملل والأهواء والنحل»: ٢/ ٤٩. وينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥٤٤.

(٣) ينظر «الشخصية اليهودية في القرآن الكريم»: ٤٢.

(٤) المرجع السابق: ٢٨.

(٥) من ذلك ما أخرجه الإمام مسلم ـ كتاب المساجد باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ـ عن عروة بن الزبير (٩٤هـ) عن عائشة (٥٧هـ) رضي الله عنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة من اليهود. وهي تقول: هل شعرت أنكم تفتنون في القبور؟ قالت: فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «**إنما تفتن يهود**» قالت عائشة: فلبثنا ليالي، ثم قال رسول الله ﷺ: «**هل شعرت أنه أوحي إليّ أنكم تفتنون في القبور؟**» قالت عائشة: فسمعت رسول الله ﷺ بعد، يستعيذ من عذاب القبر. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ٧٢.

وأخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: ليتبع كل أمة ما كانت تعبد. فلا يبق أحد، كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق أحد، كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغير أهل الكتاب. تدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم** =

دون اليهود. ولا أمانع من استعمال الكلمتين.

هذا عن اليهود ـ أهل التوراة ـ فماذا عن النصارى أهل الإنجيل؟

٢ـ النصارى أهل الإنجيل:

إن المتأمل في كتابات الدارسين للنصرانية والمسيحية يدرك أن ثمة إجماعاً بوجود فرق جوهري بين المسيحي والنصراني. لكن الاختلاف بين المهتمين بهذه المسألة يبدأ عند تحديد التسمية التي تصدق على الاتباع الحقيقيين لنبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام.

يمكن حصر الموقف من المسألة في اتجاهين:

الأول: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن «النصارى» هم الاتباع الحقيقيون لنبي الله عيسى عليه السلام.

ويستدلون بشهادة القرآن الكريم عند قوله عز وجل:

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت﴾(١).

فقد سمى القرآن الكريم بنص هذه الآية من استجاب لدعوة المسيح عيسى عليه السلام ونصره وآزره بالنصارى(٢).

= تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا. فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنهم سراب يحطم بعضها بعضاً. فيتساقطون في النار». ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»، كتاب الإيمان، باب في معرفة طريق الرؤية: ٣/ ١٦.

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.

(٢) اختلف الدارسون في أصل كلمة النصارى: فمن قائل: إن النصارى سموا بذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: ١٤]. فسموا بذلك لنصرتهم عيسى عليه السلام في أول الأمر أو لنصر بعضهم بعضاً وقيل: إنما سموا نصارى لأنهم كانوا بقرية يقال لها =

كما أن النصارى هم أقرب إلينا مودة[1].

وتقوية للحجة، يلفت أصحاب هذا الاتجاه الانتباه إلى مسألة مفادها: أن أهل الإنجيل يفضلون صفة النصراني على المسيحي حتى إنك لا تكاد تجد في الإنجيل نصاً يسمى اتباع السيد المسيح بالمسيحيين. بل لا تجد ذكراً إلا «للنصارى» باعتبارهم يمثلون أنصار عيسى عليه السلام وأتباعه الحقيقيين.

الثاني: وينطلق أصحاب هذا الاتجاه للاستدلال على أن المسيحيين هم أتباع السيد المسيح حقاً من الدلالات اللغوية للفظة «المسيحي». فالمسيحي لغة تتضمن معاني الانتساب للسيد المسيح عليه السلام.

والنصرانية بنص القرآن كفر. قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[2].

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[3].

«ولم ترد هذه التسمية: المسيحيين، في القرآن ولا في السنة، وهي تسمية لا توافق واقعهم، لتحريفهم دين المسيح عليه السلام وتبديلهم التوحيد بالشرك، فالأولى أن يطلق عليهم نصارى»[4].

كما أن فريقاً من القسيسين يفضلون اسم المسيحي على النصراني.

= ناصرة ينزلها عيسى ابن مريم، فهو اسم تسموا به وإن لم يؤمروا به ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥١٦، و«الزاهر في معاني كلمات الناس»: ٢/ ٢٢٥. و«النصارى في القرآن والتفسير»: ٣٤ و٥١.

(١) قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٤) «دراسات في الأديان»: ١٠٣.

وقد صرح القس صموئيل مشرقي أنه من نكد الدنيا على المسيحيين أن أطلق عليهم منذ الفتح العربي اسم نصارى على خلاف الحقيقة، ثم بين أن اسم نصارى يطلق على فرقة من اليهود، آمنت بعيسى عليه السلام على أنه رسول المسيح المنتظر لا أنه هو المسيح المنتظر. أما المسيحيون فهم الذين ـ حسب قوله ـ آمنوا بعيسى على أنه الإله، أو إله. ويؤمنون بأنه لا يصح العمل بشريعة التوراة، ويؤمنون أيضاً مع ذلك بأن عيسى هو الذي أنبأت التوراة عن ظهوره(١).

٣ـ الكلمة الحق في النصرانية:

الكلمة الحق في النصرانية هي ما جاءنا من الله عز وجل في كتابه:

في القرآن الكريم نجد أن الله عز وجل سمى أتباع المسيح عليه السلام:

حواريين: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت﴾(٢).

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «الحواريون أنصار عيسى عليه السلام»(٣).

مؤمنين، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا

---

(١) ينظر «حكم المرتد عند المسلمين وأهل الكتاب» د. أحمد حجازي السقا، القسم الأول: ١٨٢ـ ١٨٣. نقلاً عن الكتاب الثاني والثمانون، الصادر عن الكنيسة المركزية «لمجمع الله الخمسيني» القاهرة.

(٢) سورة الصف، الآية: ١٤.

(٣) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥١٦. والمعنى الغالب أن الحواريين تعني الصفوة التي أخلصت في تصديقها لنصرة عيسى عليه السلام. فكان هؤلاء هم القوة الدفاعية لمواصلة التبليغ والإرشاد، بما أوتوا من إيمان وقوة، وكان لهم أثرهم الملموس الذي ذكره الله تعالى حين قال: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]. ينظر «أصول المسيحية» ص ٨٣ـ ٨٥.

يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

في حين نجد تسمية النصارى مقرونة بتأليه السيد المسيح عليه السلام: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[2]. ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[3]. لذلك نكون قد جانبنا الحق إذا سمينا النصارى مسيحيين ونسبناهم نسبة زور إلى رسول معظم من رسول الله عليهم الصلاة والسلام[4].

وبهذا البيان نخلص إلى أن النصارى[5] هو الاسم الذي أطلقه القرآن الكريم على الأمة التي اعتقدت في عيسى عليه السلام أنه الإلٰه أو ابن الله ـ حاشا من أسلم منهم وآمن أن عيسى نبي الله عليه السلام وهم

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٨٤، ٨٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٧.

(٤) يقول الدكتور داود علي الفاضلي: «إن مدلول لفظتي المسيحية والنصرانية بينهما تباين شاسع، إذ المسيحية هي تلك التعاليم التي أنزلها الله على عيسى ابن مريم في الكتاب المعروف بالإنجيل، كما ذكر تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]. والنصرانية: إنما هي تلك التعاليم والأقوال المنسوبة إلى من ادعوا النصرة لتعاليم عيسى من بعده. ولذلك ترى العقائد الضالة التي حكم عليها تعالى بالكفر منسوبة إلى النصارى، كعقيدة الثالوث والألوهية والبنوة. أما إذا قلت العيسوية فإنها تعني المسيحية، اختلفت النسبة فجاءت المسيحية نسبة إلى الصفة، والعيسوية نسبة إلى الاسم والمسمى واحد هو عيسى ابن مريم كما ذكر تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. «أصول المسيحية»: ٣١١.

(٥) سار سلفنا الصالح على هدي كتاب الله عز وجل فلم تختلط عليهم المفاهيم ولا الألفاظ، بل سموا الأشياء بمسمياتها. فلا تجدهم يذكرون أمة المسيح عيسى ابن مريم باسم النصارى ولا قوم موسى عليه السلام إلا باسم اليهود. ينظر «الملل والنحل بهامش الفصل في الملل والأهواء والنحل»: ٢/٤٨ و٥٩.

الحواريون[1] ـ وهذا الاسم ـ النصارى[2] ـ هو الذي يجب أن نلتزمه مع نصارى اليوم[3].

وعليه فاليهود والنصارى هو اللقب المناسب لأهل التوراة ولأهل الإنجيل.

(د) قاعدة[4] في مفهوم أهل الكتاب:

من خلال ما سبق يتبين أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى بفرقهم

---

(١) «ليعلم كل مسلم أن هؤلاء الذين يسمونهم النصارى ويزعمون أنهم كانوا حواريين للمسيح عليه السلام كباطرة، ومتى الشرطي، ويوحنا، ويعقوب، ويهوذا الأخساء لم يكونوا قط مؤمنين فكيف حواريين، بل كانوا كذابين مستخفين بالله تعالى إما مقرين بإلٰهية المسيح عليه السلام معتقدين لذلك غالبين فيه... وإما مدسوسين من قبل اليهود كما تزعم اليهود لإفساد دين اتباع المسيح عليه السلام وإضلالهم... وأما الحواريون الذين أثنى الله عليهم فأولئك أولياء الله حقاً، ندين الله عز وجل بحبهم ولا ندري أسماءهم لأن الله تعالى لم يسمهم لنا». ينظر «الفصل في الملل والأهواء والنحل وبهامشه الملل والنحل»: ٢/ ٣٨ـ ٣٩.

(٢) يطلق عليهم هذا الاسم مجرداً من معاني النصرة أو المآزرة ما داموا قد انحرفوا عن تعاليم السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. وقد بين الراغب أن النصارى في الأصل تدل على معاني التشريف والتكريم ثم صار هذا الاسم لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم وإن لم يكن فيه معنى المدح. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥٤٤.

(٣) يقول القضماني: «وكان اسم النصارى يطلق غالباً على اتباعها ـ أي على اتباع النصرانية ـ في بلاد الشام، كما يعرف اتباعها في مصر بالأقباط، أما في دولة الرومان الشرقيين البيزنطيين فعرفوا بالروم، وعند اللاتينيين في غرب أوروبا عرفوا بالفرنجة. ولكنهم اليوم يسمون جميعاً مسيحيين نسبة إلى المسيح عيسى عليه السلام مع أنهم ابتعدوا عما جاءهم به من عند الله سبحانه». «مصطلحات إسلامية»: ١١٠ وأرى أن صفة نصراني تعم أتباع النصرانية أينما كانوا، ولا ضير أن نقول: نصارى مصر أو الأقباط، ما دام واضحاً عندنا الحدود الفاصلة بينما عليه النصارى وما جاء به نبي الله المسيح عيسى عليه السلام.

(٤) بتتبع معاني مادة «ق، ع، د» في اللغة، يتضح أنها تعود في مجموعها إلى معاني اللبث والإقامة والاستقرار. وهو نفس المعنى الذي نجده للقاعدة في الاستعمال القرآني =

....

= والبيان النبوي. (ينظر «مقاييس اللغة»: ٣/ ١٠٨/ ١٠٩. و«معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٠٩. و«النهاية في غريب الحديث والأثر»: ٤/ ٨٧). في الاصطلاح العام، تُعرف القاعدة على أنها الضابط أو الأمر الكلي المنطبق على جميع جزئياته («المصباح المنير»: ١٩٥. قام بإخراج هذه الطبعة د. إبراهيم أنيس ود. عبد الحليم منتصر وعطية الصوالحي ومحمد خلف الله: ٢/ ٧٤٨) وتتميز القاعدة الفقهية بكونها «حكم أكثري لا كلي ينطبق على أكثر جزئياته لتعرّف أحكامها منه» («غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر» لزين العابدين إبراهيم الشهير بابن نجيم المصري، شرح أحمد بن محمد الحنفي الحموي: ١/ ٥١). أو هي «كل كلي هو أخص من الأصول وسائر المعاني العقلية العامة، وأعم من العقود، وجملة الضوابط الفقهية الخاصة» («القواعد» تأليف: أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المقري. تحقيق ودراسة: أحمد بن عبد الله بن حميد). ويرى الدكتور الروكي أن هذا التعريف الذي قدمه المقري هو ألصق تعريف بالقاعدة الفقهية (ينظر «قواعد الفقه الإسلامي من خلال كتاب الإشراف على مسائل الخلاف» للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي. تأليف: الدكتور محمد الروكي: ١٠٨). والملاحظ أن هذه التعاريف تشترك في ذكر خصائص القاعدة الفقهية: فهي حكم شرعي يستوعب كثير من الجزئيات. وهذا ما أجمله الدكتور الروكي في قوله: «هي حكم كلي مستند إلى دليل شرعي، مصوغ صياغة تجريدية محكمة، منطبق على جزئياته على سبيل الاطراد أو الأغلبية» («نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء»: ٤٨). وقد ميز الفقهاء واللغويون بين مفهوم القاعدة ومفهوم الضابط؛ فالقاعدة تجمع فروعاً من أبواب شتى والضابط يجمع فُروعَ باب واحد (ينظر «الأشباه والنظائر في النحو» للسيوطي: ٩ و«القواعد الفقهية» لأحمد الندوي: ٤٨. و«شرح القواعد الفقهية «لأحمد الزرقا: ٣٤) فالغالب في ما اختص بباب وقُصد به نَظْم صور متشابهة أن يسمى ضابطاً. (ينظر كتاب «المواهب السنية على شرح الفرائد البهية نظم القواعد الفقهية بهامش الأشباه والنظائر في الفروع» للإمام السيوطي: ٢٨). واهتم الفقهاء ببيان أهمية فن التقعيد، وضرورة خوض غماره. يقول الإمام القرافي (ت٦٨٤ .هـ): و«من ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب». ويقول ابن رجب (ت٧٩٥ .هـ): «أما بعد، فهذه قواعد مهمة، وفوائد جمة؛ تضبط للفقيه أصول المذهب، تطلعه من مآخذ الفقه على ما كان عنه قد تغيب، وتنظم له منثور المسائل في سلك واحد، وتقيّد له الشوارد، وتقرب عليه كل متباعد، فليمعن الناظر فيه النظر» («القواعد في الفقه الإسلامي» للحافظ =

المختلفة ومن دان دينهم[1].

فكل طائفة تبث عملها بأصول الشريعة الموسوية أو العيسوية[2] فهي من أهل الكتاب.

ولا يضر أن يقع بين هذه الطائفة وبين اليهود والنصارى اختلاف في الفروع، لأنها فروع قد يختلفون بينهم فيها، أما الاختلاف في أصل ما يحلون من الكتاب ويحرمون فيخرج عن مسمى أهل الكتاب[3].

ويمكن صياغة ما سبق عن النحو الآتي:

«**كل طائفة وافقت أحداً من أهل الكتابين ـ اليهود والنصارى ـ في نبيهم وكتابهم فهي منهم، وإلا فلا**»[4].

= أبي الفرج عبد الرحمـٰن بن رجب الحنبلي: ٢. وينظر «المنثور في القواعد «للإمام الزركشي د. تيسير: ٩٣. و«الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية» للإمام السيوطي تحقيق: محمد تامر وحافظ عاشور ٢/ ٢٨). وأنبه القارىء الكريم إلى أني سأوظف مفهوم القاعدة كما في اصطلاح الفقهاء فالقواعد المذكورة في هذه الرسالة أحكام شرعية تستند إلى أصول شرعية، وتندرج تحتها جزئيات تشترك جلها في الحكم العام. وسأحرص على التميز بين مفهوم القاعدة والضابط ما وسعني الأمر.

(١) على ضوء هذا الشرط: أي العمل بدينهم نفهم حديث «**المرء مع من أحب**» ـ أخرجه مسلم عن أنس بن مالك، كتاب البر والصلة والآداب، باب «المرء مع من أحب». انظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١٥٢ ـ ذلك أن الموالاة القلبية لأهل الكتاب لا تسلك بالمرء مسلكهم حتى يعمل بأصولهم.

ويبقى الحديث أصلاً في أن المرء يُبعث ويحشر في الآخرة مع من أحب. فعن محمد بن سيرين قال: «قال عبد الله بن عتبة: «ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر، قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٥١]. ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٥٩١.

(٢) وذلك بأن يثبت موافقتها لأحد أهل الكتابين في نبيهم وكتابهم.

(٣) ينظر «الأم»: ٣/ ٧. وانظر «الموسوعة الفقهية»: ٧/ ١٤٠.

(٤) حذوت في هذه الصياغة حذو تعبير ابن قدامة في «المغني»: ١٠/ ٥٦٩.

٣ ــ دلالات عنوان الرسالة

في ختام دراستنا للمفاهيم الأساسية في هذه الرسالة، أحب أن أقف عند الدلالات العامة للعنوان بعد أن أدركنا أبعاد المفاهيم الأساسية فيه.

فالعنوان الذي اخترته لهذه الرسالة هو: «**مجادلة أهل الكتاب في القرآن الكريم والسنة النبوية**»، قصدت من ورائه التنبيه على ضرورة السعي لاكتشاف معالم الخط الإسلامي التي تضبط جدالنا مع أهل الكتاب. لأن ذلك سيمكننا من الإجابة على الأسئلة الكبرى التي تعترض سبيل تعاملنا مع أهل الكتاب.

هذه المعالم، ستشكل الكليات التي تضبط لنا ما تفرق من الأحكام ـ المبثوثة في ثنايا النصوص القرآنية والنبوية ـ المرتبطة بتعاملنا مع اليهود والنصارى. وستكون المعيار والميزان الذي نزن به كل سلوك يتعلق بمجادلتنا لأهل الكتاب.

هذا عن دلالات وأبعاد المفاهيم الأساسية في هذه الرسالة.

ويمكننا الآن أن نمر إلى الباب الأول، **لدراسة الإشكال المرتبط بأطراف المجادلة.**





الباب الأول

أطراف المجادلة

ويشتمل على:

تمهيد

الفصل الأول : في معرفة من نجادل.

الفصل الثاني : معالم في شخصية أطراف المجادلة.

تمهيد:

ليس غريباً أن نخصص الخطوة الأولى من دراستنا لقواعد المجادلة مع أهل الكتاب، للحديث عن أطراف هذه المجادلة وهما:

الطرف المسلم وهو: المجادل.

والطرف الكتابي وهو: المجادل.

ذلك أن الحديث عن المجادلة وموضوعها وأسلوبها لا يستقيم في غياب استحضار أطراف هذه المجادلة.

فالأصل إثبات الذات قبل الكلام عن صفاتها. والتَّحقق من المسميات قبل البحث عن أسمائها. ثم إن المجادلة قائمة في الأصل على وجوب معرفة الرأي المخالف والرد على صاحبه بما يحمله على العدول عنه إلى غيره عن قناعة، وعليه فمعرفة حامل الرأي واجبة أيضاً من باب «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

إذا ثبت هذا جاز لنا أن نطرح السؤال ـ الذي جعلته محور هذا الباب ـ الأساسي والمفتاح لكلامنا عن أطراف المجادلة ألا وهو: «**من يجادل من**»؟.

وسنجيب عن هذا السؤال، بذكر المعالم الكبرى التي تُميِّز «من».

ويُفترض في من يطرح هذا السؤال أن يكون واعياً بأهمية، بل ضرورة معرفة الصفات المميزة لـ «من».

لذا وجب التقديم للجواب عن السؤال السابق، بذكر المقدار الذي تُسهم به معرفتنا بالمخاطبين في تحقيق أهداف المجادلة.

ثم إنه من الطبيعي أن نبحث في حقيقة «من»، هل هو على عمومه[1] ـ كما يفيد الاسم الموصول ـ أم هو من العموم الذي يراد به الخصوص. وهنا يطرح هذا السؤال: «**من المخصوص بالمجادلة؟**».

بناء على ما سبق اخترت تقسيم الكلام في هذا الباب على فصلين، وأربعة مباحث:

الفصل الأول: في معرفة من نجادل، ويندرج تحت هذا الفصل مبحثان:

الأول: خصصته للحديث عن ضرورة معرفة من نجادل.

الثاني: لبيان المستثنون من المجادلة.

الفصل الثاني: في ذكر بعض معالم شخصية أطراف المجادلة. وسيتم التطرق إلى ذلك من خلال مبحثين:

المبحث الأول: للوقوف عند بعض المعالم المميزة لشخصية الكتابي.

المبحث الثاني: في ذكر المعالم المميزة لشخصية المسلم المجادل.

وعليه فسيكون تصميم هذا الباب على النحو الآتي:

الفصل الأول: في معرفة من نجادل.

المبحث الأول: ضرورة معرفة من نجادل.

المبحث الثاني: المخصوصون بالمجادلة.

الفصل الثاني: معالم في شخصية أطراف المجادلة.

---

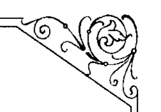
(١) الأسماء الموصولة من ألفاظ العموم كما ثبت في أصول الفقه.

المبحث الأول: معالم في شخصية الكتابي.

المبحث الثاني: معالم في شخصية المسلم المجادل.

قاعدة في بيان أطراف المجادلة.





الفصل الأول

في معرفة من نجادل

ويشتمل على

تمهيد

تمهيد:

المتجادلون هم الركن الأول في عملية المجادلة، فلا يتصور أن تقوم المجادلة في غياب هذا الركن.

كما أنه لا يعقل الخوض في موضوع المجادلة وأسلوبها، قبل المعرفة بأطراف المجادلة.

وحتى نأتي المجادلة من بابها، وجب الوقوف عند الطرف الكتابي حتى تتحقَّق المعرفة به. وسأفرد هذا الفصل لبيان ضرورة معرفة المجادل الكتابي، ولتمييز الفئة التي تصلح أن تكون طرفاً في المجادلة بالتي هي أحسن.

وستتم هذه الدراسة من خلال مبحثين:

المبحث الأول: للتنبيه على ضرورة معرفة من نجادل.

المبحث الثاني: لبيان المخصوصين بالمجادلة.

نتائج وقاعدة.



المبحث الأول

ضرورة معرفة من نجادل

إن مجادلة الغير تعني أن تقنعه بما معك من الحق مستنداً في ذلك على الحجج القوية والأدلة البيّنة.

وأول درجات الإقناع حُسن الإفهام. ولا غرابة إذا جعلت العرب مدار البلاغة على حسن الإفهام، فقد قيل لعمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ قال: تخير اللفظ في حُسن الإفهام»[1].

وعليه فباب المجادلة مسدود على من لم يراع أفهام الناس ومعارفهم[2].

وكيف نراعي أفهام الناس وليس لنا زاد من المعرفة بأحوالهم ـ النفسية والعقلية ـ وأماكنهم ـ من حيث معرفة عادات القوم وتقاليدهم وطريقة عيشهم ـ وأزمنتهم ـ من حيث معرفة الأفكار السائدة فيه ـ[3].

---

(١) «البيان والتبيين»: ج ١/ ١٣٧.

(٢) بين الإمام الشاطبي أن مقصود المناظرة ـ وهي شكل من أشكال المجادلة ـ رد الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه الخصم السائل معرفة الخصم المستدل، لأن رده بغير ما يعرفه من باب تكليف ما لا يطاق. ينظر «الموافقات»: ٤/ ٢٤٧.

(٣) نبه الإمام ابن القيم على ضرورة مراعاة أحوال الناس وطبيعة الزمان والمكان عند إصدار الأحكام والفتوى، وذلك من خلال القاعدة النورانية التي نصها: «تغير الفتوى =

إن معرفتنا بأحوال من نخاطبهم وما هم فيه من حياة اجتماعية، وما يسود أوساطهم من أفكار وتصورات لمن أهم وسائل التَّبصير بالحق[1] لأن ذلك سيمكننا من اختيار الألفاظ التي تستحسنها الآذان والحجج التي لا تردها الأذهان.

إن اشتغالنا بمعرفة المرجعية الفكرية لِمَن نُخاطب، شرط لكي يحقق خطابنا النفاذ إلى خبايا الطوايا[2]، ولنستنقذ من شاء الله لهم الهداية. نفعل ذلك ونحن على بينة من استعداد المخاطب وارتداده واعتداده بنفسه، وغروره.

ثم إن تهممنا بمعرفة ما هو حشو الأدمغة وما عليه الناس ضروري لنتمكن من معرفة معادن الناس، فالناس معادن[3]. ثم إن ذلك يمكننا أيضاً من الحكم بموضوعية على أسباب السلوك العدواني تجاه الإسلام.

وقد عالج القرآن الكريم هذا المبدأ، من خلال التأكيد على ضرورة تحقيق التعارف بين الناس مهما تعددت انتماءاتهم ومهما تفرقت أوطانهم.

= واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد». ينظر «إعلام الموقعين»: ٣/ ١١ و٣٦.

(١) ينظر «الموجز في معاملة غير المسلمين في الإسلام». المحور الخاص بتبصير المسلمين لغيرهم بالإسلام. د. وهبة الزحيلي: ١٣٢. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. فلكي تحقق المجادلة أهدافها لا بد أن تكون على بصيرة، والبصيرة هي المعرفة والبيان والحجة الواضحة التي تُميز الحق من الباطل. فلا بد إذن لتحقيق التَّبصير بالحق من معرفة شاملة بمن نخاطب.

(٢) ينظر «قواعد الدعوة الإسلامية». الدكتور الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٣) أخرج البخاري في كتاب المناقب باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**» ينظر «الفتح»: ٧/ ٢٠٩.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾[1].

قال صاحب محاسن التأويل: «أفاد قوله تعالى:

﴿إِنَّ﴾ حصر حكمة جعلهم شعوباً وقبائل فيه، أي إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً»[2].

ويقول الإمام القرطبي (ت. ٦٧١هـ): «خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهاراً وقبائلاً وشعوباً، وخلق لهم منهم التعارف، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدَّرها وهو أعلم بها»[3].

فالآية صريحة في وجوب «بثّ التعارف والتواصل بين القبائل والأمم»[4].

ثم إن هذا التعارف ليمتد حتى يشمل دراسة واقع الناس وما هم عليه من أفكار وعادات[5].

وقد جعل الله لنا في هذا التعارف والمعرفة بواقع الناس حكماً ومقاصد، منها ما اختص الله بعلمه ومنها ما أطلعنا عليه، كما في قوله

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣. لما كان التعارف سبباً لبروز الأنانيات وحب الظهور، وبروز الكفاءات الدنيوية، نبّه الحق سبحانه على أن معيار التفاضل هو: ما وقر في القلب من تقوى الله عز وجل وصدقه العمل قال تعالى بعد آية التعارف: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

(٢) «محاسن التأويل» لمحمد جمال الدين القاسمي: ١٥/ ٥٤٦٩.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: ١٦/ ٣٤٢.

(٤) «تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار». تأليف: محمد رشيد رضى: ٢٦/ ٢٦١.

(٥) يقول صاحب المنهاج الرباني في معرض بيانه لدلالات التعارف الواردة في آية التعارف: «إن هذا التعارف الواسع الممتد لإيحاء آخر بفهم الواقع حتى يصدق التعارف ويستقيم من خلال منهاج الله». «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية»: ٢٩٠.

تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾[1].

«أي ولتستبين يا محمد، أو يا مخاطب سبيل المجرمين»[2].

وهذه إحدى مميزات المنهج القرآني الذي «لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب. إنما يُعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً»[3].

فاستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات، لأنه باستبانة سبيل المجرمين تستبين سبيل المؤمنين. وهذا ما يعلمنا الله أياه في قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[4].

فطريق المنعم عليهم تخالف تماماً طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

ووسيلة هذه الاستبانة لسبيل المجرمين، هي التعارف. فبالتعارف نطّلع على أحوال الناس وطبائعهم وسلوكهم، وهذا يُمكّننا أن نُنزل الناس منازلهم.

وكما دعانا رسول الله ﷺ إلى إشاعة روح التعارف بين المؤمنين[5]

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٣٠.

(٣) «في ظلال القرآن»: ٢/ ١١٠٥.

(٤) سورة الفاتحة، الآيات: ٥ـ ٧.

(٥) تعلمنا السنة النبوية أهمية التعارف وتحضنا على إشاعة روح التواصل. يقول المصطفى ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»** أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء. باب الأرواح جنود مجندة. ينظر «الفتح»: =

حرضنا على التزام هذا السلوك مع الناس أجمعين.

ونعرض هذا المشهد من مشاهد السيرة النبوية لنتبين من خلاله كيف كانت معرفته ﷺ بالناس ـ حتى الأعداء منهم ـ عنصراً حاسماً في انتصار الإسلام والتمكين لدين الله في الأرض.

تروى كتب السيرة أنه في الحديبية وقبل عقد الصُّلح ـ الذي كان فتحاً بنص القرآن[1] ـ عرفت العلاقة بين رسول الله ﷺ وأعدائه من قريش توتراً كاد يؤدي إلى حرب حقيقية. ولم يبق أمام قريش إلا التفاوض. ودخلت الجماعة المؤمنة بقيادة رسول الله ﷺ في اختبار يتوقف مصير الإسلام على النجاح فيه.

تقول الرواية: «ثم بعثوا مكرز بن حفص بن الأخيف، أخا بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: **هذا رجل غدر**؛ فلما

= ٧/ ١٣. وتآلف الأرواح بالمودة والمحبة آية من آيات الله، يعرضها البيان النبوي في قوله ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد**» أخرجه الإمام مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب. باب تراحم المؤمنين. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١١٤. ومن أعظم وسائل تحصيل المودة بين المؤمنين التعارف «فما تعارف منها ائتلف».

بل إن الرسول ﷺ قد شنع على من ترك هذا الخلق ـ خلق التعارف ـ فقال ﷺ: «**ثلاث من العجز** ـ وذكر منها ـ **أن يلقى الرجل فيفترقان قبل أن يعرف اسمه واسم أبيه ومن أي القبائل هو؟**» ينظر: «مجمع الزوائد». باب حق المسلم على المسلم: ٨/ ١٨٦.

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]. «وقد نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية. روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال: «إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية». وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه». ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ٣٢٦.
وهذا ما نبه عليه ابن قيم الجوزية بقوله: «كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ـ يقصد فتح مكة ـ، أَمِن الناس فيه، وكَلَّم بعضهم بعضاً، وناظره في الإسلام، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه، والدعوة إليه، والمناظرة عليه، ودخل بسببه بشر كثير في الإسلام». «زاد المعاد»: ٣/ ٤١٩.

انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه. قال له رسول الله ﷺ نحوا مما قال لبديل وأصحابه[1] . . . ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زيان، وكان يومئذ سيد الأحابيش، . . . فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا من قوم يتألهون**»[2]، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدي يسير عليه من عرض الوادي[3] في قلائده[4]، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله[5]، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك قال فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك. قال ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن الحليس غضب عند ذلك وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له! والذي نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. قال: فقالوا له: مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به»[6].

فانظر كيف عرف الغدر من مكرز فاتقى شره، وكيف تعامل مع ما يميز الأحابيش من تعظيم أمر الله، فقوى به موقفه وهز به تعنت قريش.

وهكذا كان لمعرفته ﷺ بطبائع أعدائه[7] الدور المهم في حسم

---

(١) قال له: إنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته. ينظر «السيرة النبوية»: ٣/ ٢٨٥.

(٢) أي يعظمون أمر الإلـٰه، ومن قوله رؤبة:

سـجـن واسـتـرجـعـن مـن تَـأَلـه

أي: من تنسك وتعظيم لله سبحانه». ينظر «الروض الأنف» للإمام السهيلي: ٤/ ٣٤.

(٣) **عُرض الوادي**: أي جانبه. **وعُرض الشيء**: ناحيته. ينظر «مختار الصحاح»: ٤٠٦.

(٤) **القلائد**: ما يعلق في أعناق الهدي ليعلم أنه هدي. المرجع السابق: ٥١٣.

(٥) **محله**: أي موضعه الذي يُنحر فيه من الحرم.

(٦) ينظر «السيرة النبوية»: ٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧. وينظر «فتح الباري»: ٥/ ٦٨٩ وما بعدها.

(٧) من المواقف التي أكد فيها رسول الله ﷺ ضرورة مراعاة أعراف الناس ما أورده البخاري في كتاب الجهاد والسير باب دعوة اليهود والنصارى وعلى ما يقاتلون عليه؟ عن =

الموقف لصالح الإسلام.

وقد ركزت التربية النبوية هذا المبدأ ـ مبدأ التعارف والمعرفة المسبقة بالشيء ـ وصاغه البيان النبوي في قوله ﷺ: «**العلم إمام العمل**»[1] وفي الأثر: «**خاطبوا الناس على قدر عقولهم**»[2] وكثيراً ما كان يستفسر ﷺ عن أحوال القوم[3] حتى يكون تعامله معهم عن بينة ومعرفة.

تروي كتب السيرة[4] خروجه ﷺ إلى الطائف لتبليغ الرسالة وطلب النصرة، وما لقيه من الأذى من أهلها، غير أن القدر رتب لقاء له ﷺ مع الغلام عَدّاس، الذي أسلم على يديه.

ولحرصه ﷺ على تبليغ الحق ومقابلة المعروف بما هو أفضل ـ فقد

= أنس رضي الله عنه قال: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، فكأني ينظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه: محمد رسول الله». ينظر «الفتح»: ٦/ ٢٠٨. وهكذا احترم مبدأ الخَتم على الكتب فور علمه ﷺ بأنها من سُنن القوم الذين يُريد مخاطبتهم ودعوتهم. وكثيراً ما كان يُخبر ﷺ عن صفات الأقوام ليكون الصحابة على معرفة ودراية بالناس. فمن ذلك قوله ﷺ: «**الإيمان يَمان ها هنا، ألا إن الفُتوة وغلظ القلوب في الفَدادين عند أصول أذناب الإبل حيث يطلع قرنا الشيطان في رَبيعة ومُضر**» أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب خير مال المسلم غنم يَتبع بها شَعف الجبال. ينظر «الفتح»: ٦/ ٥٠٥. وأخرج البخاري في نفس الباب قوله ﷺ: «**رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل، والفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم**».

(١) حديث عن معاذ بن جبل: «العلم إمام العمل، والعمل تابعه» ينظر «مجموع الفتاوى»: ٢٨/ ١٣٦.

(٢) موقوف على علي كرم الله وجهه. ينظر «فيض القدير»: ٣/ ٣٧٨. ومخاطبة الناس على قدر عقولهم تفترض المعرفة المسبقة بمقدار عقولهم.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب غزوة الخندق عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**من يأتينا بخبر القوم**». ينظر «الفتح»: ٨/ ١٦٤. وهذه العبارة قاعدة في ضرورة معرفة ما عليه القوم من عدة نفسية ومادية.

(٤) «السيرة النبوية»: ٢/ ٦١.

قدّم عداس طبقاً من العنب لرسول الله ﷺ إكراماً له ـ بادر رسول الله ﷺ إلى سؤال عداس: «**من أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟**» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى. فكان السؤال الذي قَدم مَعرفة بالمخاطَب، المدخل للتعريف بالدعوة الجديدة والرسالة الخاتمة. قال ﷺ: «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**»، قال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي**»، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وبنفس الحرص على معرفة الغير، واستثمار هذه المعرفة لأجل البلاغ المبين، خاطب رسول الله ﷺ عدي بن حاتم ـ بعدما قَدمه من التكريم والحفاوة والاستقبال ـ بقوله: «**إيه يا عدي بن حاتم! ألم تك ركوسياً[1]؟**» قال: قلت: بلى. قال: «**ألم تكن تسير في قومك بالمِرْبَاع؟**» قال: قلت: بلى، قال: «**فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك**» قال: قلت: أجل والله، وقال: وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يُجعل ثم قال: «**ولعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت، لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم**» قال: «**فأسلمت**».

فكانت معرفته ﷺ بدين عدي، ومعتقداته، وأحكام شريعته، وموانع إسلامه، المدخل لتبصيره بالحق الذي سيمكّن الله له في الأرض. وكان عدي يقول: «قد مضت اثنتان، وبقيت الثالثة، والله لتكونن، قد رأيت

---

(١) ركوسي من الركوسية، وهم قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين. ينظر «السيرة النبوية»: ٤/ ١٩٤.

القصور البيض من أهل بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكونن الثالثة، ليفيضن المال حتى لا يوجد من يأخذه»(١).

وقد عَلَّم رسول الله ﷺ أصحابه ـ ومن بعدهم ـ أهمية التعامل مع الناس على ضوء المعرفة المسبقة بهم. ففي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ (ت. ١٨هـ) في مطلع وصيته ـ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن ـ: «**إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ ثم ذكر بقية الحديث ـ**»(٢).

وكانت معرفته ﷺ الشاملة بأهل الكتاب سبباً لفهم مواقف أهل الكتاب من دعوة الإسلام ففي مجادلته لوفد النصارى ختم ﷺ الموقف بقوله للحبرين: «**أسلما**»، قالا: قد أسلمنا، قال: «**إنكما لم تسلما**»، قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك، قال: «**كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير**»(٣).

وهكذا يتبين لنا كيف أن رسول الله ﷺ قد وسع دلالات مبدأ التعارف ليشمل دراسة الواقع العام لمن نريد مخاطبتهم ودعوتهم(٤).

---

(١) «السيرة النبوية» ٤/ ١٩٤ـ ١٩٥.

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد إلى الفقراء حيث كانوا، رقم ١٤٩٦. ينظر «الفتح»: ٤/ ١٢٥.

(٣) ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٩٦.

(٤) «إذا استعرضنا حياة الرسول ﷺ وحياة الصحابة الأبرار نجد أن القاعدة المرتبطة بمعرفة أحوال الناس بارزة، واضحة، قوية؛ نجد الرسول ﷺ يعرف قريشاً وأنسابها وعلاقاتها أشد المعرفة. ونجده يعرف القبائل العربية، يعرف أماكنها، ومواقعها، وعلاقاتها، وأنسابها ونفسياتها، ولهجاتها. ألم يكن يحدث كل قبيلة بلهجتها؟. كان يعرف رجالها وساداتها وأخلاقها وعاداتها وتاريخها. كان يعرف قوتها وضعفها وكان ﷺ يُتابع هذه المعرفة وينميها». «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية»: ٢٩٠ـ ٢٩١ =

وقد سار السلف الصالح على نهج القرآن وسنة خير الأنام ﷺ فأنزلوا الناس منازلهم[1] بعد أن تعمقت معرفتهم بالناس، فهذا عدي بن حاتم (ت. ٦٧هـ) ـ بعد أن أسلم وحسن إسلامه ـ يقول: أتينا عمر (ت. ٢٣هـ) في وَفْد فجعل يدعو رجلاً رجلاً ويسميهم فقلت: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال بلى: أسلمت إذ كفروا وأقبلت إذ أدبروا، ووفيت إذ غدروا، وعرفت إذ أنكروا. فقال عدي: فلا أبالي إذن[2].

قال ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ): قوله: (فقال عدي: فلا أبالي إذن) أي إذا كنت تعرف قدري فلا أبالي إذا قدمت على غيري»[3].

وهذا جعفر بن أبي طالب (ت. ١٨هـ) يؤكد لنا أهمية توظيف المعرفة بأفكار الناس وأحوالهم لتأليف القلوب على الحق وتبليغ كلمة الله إلى الناس. فقد ورد في السيرة أن النجاشي (ت. ٩هـ) صاحب الحبشة[4] طلب من جعفر بن أبي طالب أن يقرأ عليه بعضاً مما أنزل على محمد ﷺ فاختار جعفر أن يقرأ على الجموع الحاضرة ـ النجاشي وأساقفته ـ صدراً من سورة مريم التي تحكي قصة زكرياء ومريم العذراء وميلاد المسيح عليه السلام. وهذا هو الموضوع الأبلغ أثراً ولا شك في قلوب النصارى لأنه يمثل جزءاً

= بتصرف. وهذا ما نبهت عليه الدكتورة إحسان عسكر بقولها: «كان أسلوب ممارسة الرسول للعمل التبليغي فذاً، إذ بدأ في أول الأمر باستيعاب البيئة وتفهم عناصرها، وإدراك أبعادها والتعامل مع أفراده». «فنون التبليغ القرآني ونظرياته»: ٥٥.

(١) أخرج الإمام مسلم حديث: «أنزلوا الناس منازلهم» في المقدمة: ١/٦.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب قصة وفد طيىء وحديث عدي بن حاتم. رقم ٤٣٩٤ ينظر «الفتح»: ٨/ ٤٣٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تخبر كتب السيرة أن رسول الله ﷺ وجه جموع الصحابة إلى الهجرة إلى الحبشة وأخبرهم أنهم سيحلون على رجل لا يُظلم عنده أحد. فكان لمعرفته ﷺ بالنجاشي الدور الكبير في نصرة الإسلام ونجاة العُصبة المؤمنة من كيد كفار قريش الجبابرة. ينظر «السيرة النبوية»: ١/ ٢٣٨ وما بعدها.

مهماً من عقيدتهم. فما كاد جعفر أن ينهي تلاوته حتى ابتلت لحية النجاشي بالدموع، وبكت أساقفته حتى بللوا كتبهم المنشورة بين أيديهم من الدموع. ثم قال النجاشي: «إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة» ثم توجه إلى مبعوثي قريش ـ عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ـ فقال لهما: «انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما. ولا يكادون»[1].

فانظر إلى حكمة جعفر (ت. ١٨هـ) في مخاطبتهم بما يعرفون، ثم ينظر إلى أثر ذلك في المخاطبين. وقد تأسس كل ذلك على معرفته المسبقة بعقيدتهم وأفكارهم ومرجعيتهم الفكرية.

ومن المشاهد أيضاً ما روته كتب التاريخ: من أن رستم (ت. ١٤هـ) قائد الفرس قبل موقعة القادسية سأل سعد بن أبي وقاص (ت. ٥٨هـ) أمير جيش المسلمين أن يبعث لهم محاوراً. فتشاور سعد مع أصحابه في أن يرسل إليه وفداً. فقال ربعي: «إن للفرس عادات وآراء ومتى تأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على واحد». فقبل سعد رأيه، وأرسله إليهم.

وقد كان لمعرفة ربعي بن عامر بعادات الفرس وآرائهم الدور الكبير لاختيار الأسلوب الذي يفهمون والذي يكون أبلغ في مجادلتهم. وأثبتت الأحداث حكمة ربعي وحسن فعله[2].

وعلى نفس النهج سلك علماؤنا في جدالهم لأهل الكتاب. وتكفي وقفة على نماذج من مجادلاتهم لندرك عمق معرفتهم بأهمل الكتاب، بل لقد عرف بعضهم بكثرة اطلاعه على مصادر القوم حتى صارت له فيها ملكة، فسعى إلى أهل الكتاب يجادلهم كما هو الحال مع الشيخ صالح المنير الدمشقي[3].

إن المحاور المسلم مطالب أن يدرس نفسيات الناس، وذهنياتهم

---

(١) ينظر «السيرة النبوية»: ١/ ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) ينظر «الكامل في التاريخ» لابن الأثير: ٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٣) ينظر «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٢٢٤.

ليصوب خطابه إليهم فيبلغ الرسالة ويؤدي الأمانة(١).

نعم! لا بد أن يعرف المحاور المسلم، المجادل عن الدين ما يدور في خلَد من يجادلهم، وما يروج في أوساطهم مما تنمّ عنه منشوراتهم وما يَرشح من أخبار مؤتمراتهم.

لا بد أن يشتغل بهم، وبمرجعيتم الفكرية لعل كلمة بليغة تخرق متاريس المنعة التي يضعها غير المسلمين بينهم وبين الإسلام.

وخلاصة القول: إن معرفتنا بواقع من نخاطبهم(٢)، ودراستنا لنفسياتهم ومرجعيتهم الفكرية مفتاح للدخول عليهم من باب المجادلة الحكيمة المبلغة

---

(١) من المواقف المثبتة لمبدأ المعرفة بأحوال من نخاطبهم ما ورد في رد الإمام الباجي على رسالة الراهب الفرنسي والتي جاء فيها: «وعندنا من علم شريعتكم واختلاف أخباركم في ملتكم وما تورده كل طائفة من شبهكم في الأقانيم والاتحاد ومعنى اللاهوت والناسوت والجوهر وغير ذلك من تنميقات أناجيلكم ما لو أبدينا إليهما ـ يقصد الراهبين اللذين بعثهما إليه راهب فرنسا ـ اليسير منه لحيرهما وبهرهما وعلما أن عندنا، من جملها وتفاصيلها، ما لم ينته إليه أحد من أهل ملتكم، ولا وصل إلى تفريعه وتتبع معانيه أولكم وآخركم، لكنا أثرنا الرفق بهما، والإحفاء عليهما، والتأنيس لهما، وألنا لهما القول، وأبدينا إليهما نبذة خفيفة من الأمر مما لا تنفر منه نفوسهما ولا تتوجع من سماعه خواطرهما، آخذين في ذلك بأدب الله تعالى في أمثالهما». «رسالة راهب فرنسا وجواب القاضي الباجي»: ٦٥. فينظر إلى سعة معرفة الإمام الباجي بحال النصارى ثم إلى مراعاته لمذهب الراهب النصراني وإلى اختيار الأسلوب الذي يوافق مداركهما لأجل أن يكون أقرب إلى استمالتهما وأبلغ في معالجتهما. وينظر أيضاً رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى سرجواس ملك قبرص. «مجموع الفتاوى»: ٢٨/ ٦٠١ وما بعدها.

(٢) أؤكد على معرفة المحاوِر المسلم بأفكار العصر ومناهجه ومعرفة طبيعة التصورات السائدة، وبالتالي معرفة حركة العالم وحركة المعترضين والخصوم، ليقتبس من ذلك عناصر صالحة للدخول في الحكمة التي يؤتيها الله من يشاء. والحكمة من مقتضيات المجادلة بالتي هي أحسن كما سنرى. و«الحكمة في اللغة العلم، والتدبير، ووضع الشيء في موضعه، وإتقان العمل والفعل. والحكمة كذلك الحجة والبرهان». «القاموس الإسلامي». أحمد عطية الله: ج٢/ ١٢٧. وينظر «الصحاح» ج٥/ ١٩٠١ـ ١٩٠٢.

للحق، والسالكة بالخير إلى قلوب الناس وعقولهم.

وحتى يسهل التنبيه على هذه المعاني واستحضارها وتمثلها عند المجادلة مع أهل الكتاب، أحببت أن أعبر عنها من خلال القاعدة الآتية:

«**إن معرفة الغير شرط في التبصير**».

وأقصد بـ «معرفة الغير»، تلك المعرفة الشاملة لواقع من نخاطبهم[1]. واستعملت كلمة «التبصير» لأنبه على ضرورة استحضار الغاية من المجادلة وهي التبصير بالحق والتعريف به على الوجه الذي يحقق البلاغ المبين[2]. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[3].

واستعملت حرف التوكيد «إن» قصداً، لكي يرسخ في الأذهان أنه لا مطمع في مجادلة بالتي هي أحسن إلا بتحقيق أركانها، ومن أهم هذه الأركان المعرفة بمن نجادِل[4]. وكلمة «شرط» زيادة في التقرير.

هذا عن ضرورة معرفة من نجادلة، **فماذا عن المستثنى من هذه المجادلة؟**

---

(١) إن دراسة الواقع «لا تنحصر في لون من ألوان الحياة أو مجال واحد من مجالاتها، ولكنها تشمل الميادين كلها والمجالات كلها من اقتصاد، واجتماع وسياسة، وسائر العلوم الآخذة بالتزايد والاتساع، وتتناسق دراسة هذه الميادين كلها تناسقاً كاملاً من خلال العقيدة الواحدة التي تحدد منطلق هذه الدراسات وأهدافها». «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية»: ٢٨٥.

(٢) فما نطلب التوسع في علوم الناس إلا لنتزود بالمادة الفكرية نحمل عليها إلى الناس روح الإسلام وروحه.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٤) «عندما يعيش المؤمن مع منهاج الله قرآناً وسنة، فإنه يرى أن الدعوة إلى دراسة الواقع وفهمه هي إيحاء مع كل نبضة وخفقة، مع كل حكم وتشريع، مع كل عبادة وجهاد، مع كل صلة وبر، مع كل زكاة وصدقة». «دور المنهاج الرباني»: ٢٩٠.

المبحث الثاني

المخصوصون بالمجادلة

من مقتضيات معرفتنا بأطراف المجادلة، الوقوف عند دلالات «من» الوارد في سؤالنا المركزي: من يجادل من؟

وسأخصص هذا المبحث، للحديث عن «من» المرتبطة بالكتابي[1]. من خلال السؤال الآتي:

هل المجادلة بالتي هي أحسن التي نص عليها القرآن الكريم، وترجمتها السنة النبوية ـ سلوكاً عملياً ـ مبدأ نلتزم به تجاه كل من يَصْدق عليه وصف الكتابي أم أنه أسلوب ـ في التواصل ـ خاص لفئة خاصة؟[2].

الحقيقة أن هذا السؤال يرتكز على معطيات واقعية تتمثل في هذه الحرب التي أعلنها كثير من أهل الكتاب على المسلمين. فهل يجوز مع هؤلاء مجادلة بالتي هي أحسن؟ للتفصيل في الإجابة على هذا السؤال ننطلق من النص القرآني. قال الله تعالى:

---

(١) وسأحدد أبعاد «من» المرتبطة بالمحاور المسلم ضمن قضايا الفصل الثاني من هذا الباب.

(٢) نبه كثير من الدارسين على ضرورة تحديد الجهات الرئيسية المعنية بالمجادلة بالتي هي أحسن. ينظر «الحوار النافع بين أصحاب الشرائع»: ص ٧٩.

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾[1].

قال الإمام ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «قال قتادة (ت. ٢٣هـ) وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف[2]، ولم يبق معهم مجادل، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف. وقال آخرون بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[3].

وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[4]»[5].

فالآية إذن صريحة في الدعوة إلى مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٥) «تفسير القرآن العظيم»: ٥/٣٢٨.

١ ـ حكم مجادلة أهل الكتاب:

قبل أن نقف عند دلالا قوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[١].

لا بد من الإشارة إلى أن الخلاف في كون الآية محكمة أم منسوخة، خلاف محسوم من عدة أوجه[٢]. وقد أشار الإمام الطبري (ت. ٣١٠هـ) إلى بعضها بقوله: «لا معنى لقول من قال نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال وزعم أنها منسوخة لأنه لا مُبرر بذلك يَقطع العُذر ولا دلالة على صحته من فطرة وعقل»[٣].

ويقف بنا الطاهر بن عاشور (ت. ١٣٩٣هـ) على وجه آخر إذ يقول: «والمجادلة مفاعلة من الجدل، وهو إقامة الدليل على رأي اختلف فيه صاحبه مع غيره... وبهذا يُعلم أن لا علاقة لهذه الآية بحكم قتال أهل الكتاب حتى يُنتقل من ذلك إلى أنها هل نسخت أم بقي حكمها؟ لأن ذلك خروج بها عن مَهيعِها[٤]. والمجادلة تُعرض في أوقات السلم والحرب»[٥].

ويرى الإمام ابن تيمية (ت. ٧٢٨هـ): «أن القول بالنسخ إنما يصح العمل به إذا كان الحكم الناسخ مناقضاً للحكم المنسوخ كمناقضة الأمر في

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية تسعة أوجه بين فيها أن الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم محكم لم ينسخ. ينظر «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» لشيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٦٧ـ ٧٩.

(٣) «جامع البيان في تفسير القرآن» تأليف: الإمام الكبير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري. وبهامشه «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري: /٢١/٣.

(٤) مهيعها أي دلالتها الواسعة من «هاع الشيء يهيع هياعاً: اتسع وانتشر. وطريق مهيع: واضح بين». «لسان العرب»، مادة «هـ، ي، ع»: ٨/ ٣٧٩.

(٥) «التحرير والتنوير»: ٢١/ ٥ـ ٦.

استقبال المسجد الحرام في الصلاة للأمر باستقبال بيت المقدس بالشام. أما فيما يتعلق بالمسألة التي نناقش فالجمع بين الجدال المأمور به والقتال المأمور به ممكن إذ معلوم «أن كلاً منهما ينفع حيث لا ينفع الآخر، وإن استعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق»[1].

فلا مجال إذن للحديث عن نسخ آية المجادلة بآية القتال، ما دام لكل منهما سياقه، وما دام الجمع بين الحُكمين ممكن[2]: فللمجادلة مناسبتها وللقتال مواطنه. ثم إن استعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق. وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإقامة الحجة على الكافرين بطريق الجدال، وشرع في ذلك في السور المكية والمدنية حتى بعد فرض القتال، كما قال تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[3].

وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[4]»[5].

ثم إن السيرة النبوية قد حسمت هذا الإشكال، فقد بين ابن القيم (ت. ٧٥٠هـ) أن رسول الله ﷺ: «**لم يزل في جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفي، وكذلك أصحابه من بعده، وأمره أن يدعوهم**

---

(١) «الجواب الصحيح»: ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) أذا أمكن الجمع بين النصوص الواردة في مسألة معينة فهو الأولى قبل الانتقال إلى ترجيح إحداها على الآخرة. عملاً بالقاعدة «الجمع بين النصوص أولى» و«إعمالها من إهمالها».

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٥) «كتاب منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب» للشيخ الفاضل عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر آل معمر: ١٤.

سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السور المكية والمدنية... وبهذا قام الدين، وإنما جعل السيف ناصراً للحجة، وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيناته، وهو سيف رسوله وأمته»[1].

ولا تقف أدلة الرافضين لمجادلة أهل الكتاب عند القول بنسخ آية المجادلة بآية القتال، بل يوردون أدلة أخرى نذكر منها:

(أ) إن الجدال مذموم في حد ذاته، والنصوص القرآنية والنبوية صريحة في هذا الباب[2]، من ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾[4].

ومن الأحاديث ما رواه أبو أمامة الباهلي (ت. ٨١هـ) قال: «**قال رسول الله ﷺ: ما ضل قوم بعد هدى إلا لقنوا الجدل ـ ثم قرأ:** ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾[5]»[6].

وأقوال السلف الصالح صريحة في هذا الباب، فعن بكث بن مضر

---

(١) «زاد المعاد»: ٣/ ٦٤٢.

(٢) ينظر «صحيح جامع بيان العلم وفضله». الباب السادس والخمسون: «ما تكره فيه المناظرة والجدال والمراء». ابن عبد البر: ٣٦٠ ـ ٣٧٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٥٦.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.

(٦) أخرجه الترمذي من حديث حجاج بن دينار، باب ومن سورة الزخرف. وقال حديث حسن صحيح. ينظر «سنن الترمذي»: ٥/ ٣٧٨. وينظر «أحاديث النهي عن الجدال في المصنفات الحديثية»: «سنن أبي داود» باب النهي عن الجدال. «سنن النسائي» باب إياك والخصومة والجدال في الدين. «سنن ابن ماجه» باب اجتناب البدع والجدل.

(ت. ١٧٥هـ) قال: «إذا أراد الله بقوم شراً ألزمهم الجدل ومنعهم العمل»[١].

فالمجادلة بالباطل وحي من الشيطان إلى أوليائه ليدحضوا بها الحق، وهي شر وضلال.

(ب) لا جدوى من المجادلة مع اليهود والنصارى: «فنحن بدون شك لن نستطيع أن نعطي النصارى واليهود مثقالاً مما كان يحاول رسول الله ﷺ في تَوادُد لكسبهم إلى دين الإسلام والسلام، ولم يكن مطلوباً منهم إلا الاعتراف بالنبي الخاتم، وبشاراتُه مخطوطة في التوراة والإنجيل»[٢].

وما الفائدة من حوارهم والله عز وجل يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٣].

(ج) غياب التكافؤ بين طرفي المجادلة: ويستمر الدكتور عبد الرحمان الحوراني في عرضه لمبررات رفضه للمجادلة مع اليهود والنصارى ولكن هذه المرة من جهة عدم تكافيء طرفي المجادلة، يقول: «وكان الإسلام آنداك ـ أي في عهد النبوة ـ في هيبته وعظمته وعظمة رجاله: فكيف الآن

---

(١) ينظر «صحيح جامع بيان العمل وفضله»: ٣٦٢.

(٢) «الحوار النافع بين أصحاب الشرائع»: ٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٠. واستنتج بعض الدارسين من قوله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم**» أخرجه البخاري كتاب التفسير. باب ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦] ينظر «الفتح»: ٩/ ٢٢ـ ٢٣. الباب السادس والتسعون. ومن أحاديث أخرى في معناه كحديث ابن عباس: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم أنزل على نبيه ﷺ أحدث أخباراً». أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادات وغيرها. ينظر «الفتح»: ٥/ ٦٢٨. استنتجوا من ذلك أن الحوار مع أهل الكتاب والأخذ عنهم غير مسموح به في الشريعة. ينظر «حوار الرسول ﷺ مع اليهود». محسن بن محمد بن عبد الناظر: ١١ـ ١٢.

وقد تغيرت مبادىء ومفاهيم كُتبهم على مدى أربعة عشرة قرناً، وكيف وهم الآن يتحكمون بمصائر العيش والأمن في العالم بأسره وبلاد المسلمين خاصة»[1].

إن تكافؤ قوة الطرفين، واحترام بعضهما البعض شرط في المجادلة والحوار النافع. فكيف يتصور حوار بين طرفين يستعلي أحدهما على الآخر[2].

هذا عن أدلة الرافضين للمجادلة مع أهل الكتاب، أما أدلة المؤيدين فيمكن حصرها فيما يلي:

أن الآيات القرآنية والآثار الواردة في ذم الجدل إنما وردت في النهي عن الجدال بالباطل والمراء في القرآن[3].

قال أبو حامد الغزالي (ت. ٥٠٥هـ): «اعلم أن هذا الذم ـ أي ذم

---

(١) «الحوار النافع»: ٧.

(٢) ينظر «الحوار والمعادلة المفقودة». مجلة الأمة، العدد: ٦٢، السنة السادسة: تشرين الأول ١٩٨٥: ١٨. ويقول محمد السماك ـ وهو الخبير في هذا الميدان فقد مَثّل الإسلام في كثير من ملتقيات الحوار الإسلامي ـ المسيحي ـ: «لقد تعثرت كل محاولات الحوار الإسلامي ـ المسيحي التي جرت في السابق سواء بين الإسلام والفاتيكان، أو بين الإسلام والأرثوذكسية، أو بين الإسلام والكنائس الإنجيلية. وربما يعود أحد أهم أسباب هذا التعثر إلى خلل في معادلة الحوار نفسها، ذلك أن الحوار إما أن يكون بين طرفين يعترف أحدهما بالآخر، أو ينكر أحدهما الآخر، أما هنا فإن الإسلام يعترف بالمسيحية والمسيحية تنكره كدين، ولذلك لم تصل مؤتمرات الحوار إلى أبعد من حدود المجاملة». «مقدمة إلى الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٦٣.

(٣) ذكر ذلك ابن عبد البر في «صحيح جامع بيان العلم وفضله»، الباب السادس والخمسون: ٣٦٠، ثم أعقب هذا الباب بالباب السابع والخمسين والذي أورد فيه الأدلة القرآنية والنبوية ـ ومن سيرة السلف الصالح ـ الآمرة بإتيان المناظرة والمجادلة والداعية لإقامة الحجة: ٣٧٣ـ ٣٨٦. وينظر أيضاً «علم الجذل في علم الجدل»: ١٠. و«الكافية في الجدل»: ٢٢.

الجدل ـ يتناول الذي يُخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم... ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره... فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لَدَد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة من غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام»[1].

وفي تعليقه على الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها (ت. ٥٧هـ) أن النبي ﷺ قال: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**[2]»[3]. قال: «قال القرطبي (ت. ٦٧١هـ): الألد الخصم: هذا الشخص الذي يبغضه الله هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق، ورده بالأوجه الفاسدة، والشبه الموهمة»[4]. أما مدافعة الباطل بالحق فواجبة[5]. قال تعالى:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[6].

---

(١) «إحياء علوم الدين»: ٣/ ١١٩.

(٢) «**الألدّ**: الشديد اللَّدَد، أي الجدال». «الفتح»: ٥/ ٣٩٧. وقال ابن هشام: «**الألدّ**: الذي يشغب، فتشتد خصومته». «السيرة النبوية»: ٣/ ١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾. ينظر «الفتح»: ٥/ ٣٩٦.

(٤) المصدر السابق: ١٥/ ٢٩٧. فاللدد في الخصومة إذن: دفع للحق بالباطل، والدوام على الخصومة حتى بعد ظهور الحق. ينظر «ترجمة الباب الرابع والثلاثون من كتاب الأحكام من الجامع الصحيح للإمام البخاري.

(٥) وقد أمر رسول الله ﷺ بالمجادلة بالتي هي أحسن، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**» أخرجه الإمام أحمد والنسائي وصححه الحاكم. ينظر سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام» للإمام محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني: ٤/ ٧٦.
وقد أثبتت الممارسة أن المجادلة بالكلمة والحجة من أنجع الوسائل في بيان الحق، والدفاع عنه. ينظر «هذه حياتي سيرتي ومسيرتي». أحمد ديدات: ٤٢.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

وقد أفرد الدارسون لعلوم القرآن باباً للحديث عن «جدل القرآن»[1] مما يبرز أصالة مبدأ المجادلة في كتاب الله عز وجل.

ولهذا اعتبر علماؤنا تعلم علم الجدل لإظهار الحق[2] فرض كفاية، لأن فيه مصلحة عامة وهي «إظهار الحق للخلق، وإظهار الحق للخلق مصلحة عامة لأنه إذا ظهر اعتقدوه وعملوا به وإذا لم يظهر تعذر عليهم ذلك فكانوا كالمريض بغير طبيب»[3].

ثم إن في المجادلة مصالح أخرى نذكر منها:

١ ـ **دفع الشبهات عن الإسلام بقوة الحق.** يقول الشيخ رشيد رضى عند تفسيره لقوله تعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[4].

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[5].

إنما حياة الأديان بالدعوة، وقوة الحق بنفسه، وبقاء الباطل في غفلة الحق عنه. وقد يخفى الحق بخذلان أهله له، ويظهر الباطل باجتماع أهله

(١) يقول الإمام السيوطي: «اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة؛ وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به». «الإتقان في علوم القرآن»: ج٢/ ١٧٢. وينظر «البرهان في علوم القرآن». الزركشي: ج٢/ ٢٤.

(٢) يؤكد الإمام الجويني على أن الجدال لإظهار الحق محمود مأمور به عند قوله: «أما الجدال المحمود المدعو إليه، فهو الذي يحقق الحق ويكشف عن الباطل ويهدف إلى الرشد، مع من يرجى رجوعه عن الباطل إلى الحق». «الكافية في الجدل»: ٢٣.

(٣) «علم الجذل في علم الجدل»: ٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

عليه، وما تصارع حق وباطل إلا وكان الحق هو المنتصر والباطل هو المنكسر ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1] ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾[2]»[3].

ويؤكد هذا المعنى حسني يوسف الأطير بقوله: «تحتاج موافقة اليهود أو تكذيبهم إلى أدلة نقلية وعقلية، وهذه الأخيرة لا تقام أحياناً إلا بواسطة الحوار»[4].

فالمجادلة بالتي هي أحسن حق يقذف به الباطل فإذا هو زاهق كيف لا و «وضع الكلام ونشره وتمييزه ووصفه يعلي الحق ويثبته، ويدحض الباطل ويمحقه»[5].

٢ ـ التمكين لدين الله عز وجل. قال الله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[6].

«وليس التّمكين بغير جُهد مبذول ولا بغير دعوة مستمرة إلى الله وإلى نشر دينه الإسلام، سواء باللسان أو بالقلم، ومنه البحث والكتابة في ذلك

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٣) «شبهات النصارى وحجج الإسلام». تأليف: السيد محمد رشيد رضا. مقدمة المؤلف: أ.

(٤) «على هامش الحوار بين القرآن واليهود»: ١٢.

(٥) «رد الإمام الباجي على رسالة راهب فرنسا»: ٦٨.

(٦) سورة النور، الآية: ٥٥.

العلم ـ يقصد علم مقارنة الأديان[1] ـ فإن ذلك فوق أنه أداء واجب ديني، هو السبيل لسيادة الأمن والسلام في بلاد الإسلام»[2].

فلا تعارض بحمد الله بين أدلة المانعين للجدل والمثبتين له، لأن أدلة المانعين ترجع إلى ذم الجدال بالباطل، وهو كل جدال ناصر الباطل أو أفضى إليه، وأدلة المثبتين تدل على استحسان بل وجوب الجدال لنصرة الحق وإقامة الحجة والبرهان لتبليغ رسالة الله والدفاع عنها، وهذه وظيفة الرسل والدعاة والمصلحين، وبهذا يندفع الإشكال ويتضح الأمر[3].

---

(١) علم مقارنة الأديان علم يبحث في جانب من جوانب المجادلة عن الإسلام. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]. هذه الآية الكريمة تشير بوضوح إلى أنه «بمقارنة الإسلام بغيره من الأديان خصوصاً الكتابية منها، فإن الباحث سيجد في الإسلام الحق الذي يميزه ويفضله على أي دين سبقه... ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا العلم يعتبر ثغراً من ثغور الإسلام، يجب على المسلمين عامة وأولي الأمر منهم خاصة ـ سواء في الدين والدنيا ـ النهوض به، وجعله مادة أساسية في معاهدهم وجامعاتهم، فما اعتنق الإسلام واحد ممن يعتد به إلا بعد أن سلك هذا الطريق، ودرس ذلك العلم». «الميزان في مقارنة الأديان». عزت الطهطاوي: ١٠. وقد اهتم علماؤنا بهذا العلم من خلال مصنفاتهم في الرد على النصارى وغيرهم، وأدرجوا ذلك ضمن مباحث التوحيد من علم الكلام. ينظر «الفكر الإسلامي في الرد على النصارى». الشرفي: ١٤.

(٢) المرجع السابق: ١٢.

(٣) ينظر «مناهج الجدل»: ٥٤. قال ابن حجر: «وفيها ـ أي قصة وفد أهل نجران ـ جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته». «الفتح»: ٨/ ٤٢٩. من اللطائف التي يحسن إيرادها هنا ما نبه عليه الإمام الطوفي بقوله: «هذا مع أن الجدل صناعة تكاد تكون فطرية إن لم تكن كذلك حقيقة، فإنا نرى العامة بل الصبيان تقع بينهم مناظرات على القانون الصناعي من إيراد الاستفسار... وإنما العلم استخرجوا لصناعة الجدل قوانين وضوابط وأسماء وألقاباً تعرف بها، وحرروا منها ما كان نظرياً لا يدرك بالبديهة، ولهذا نرى العلماء يحيطون منها ومن غيرها بما لا يحيط به غيرهم، لأن البديهي من ذلك مشترك وزاد العلماء بالنظريات التي لا سبيل لغيرهم إليها». علم الجذل في =

أما عن شرط التكافؤ فيمكن مناقشته من خلال التأكيد على أن الإسلام يملك من القوة الذاتية والخصائص ما يهيىء العقول والقلوب لتقبله والتعلق به.

يقول الشيخ محمد الغزالي منبهاً على هذه الحقيقة: «إن الإسلام يشق مستقبله بقواه الذاتية وخصائصه العقلية، ونستطيع أن نؤكد أن العقل الأوروبي أسرع شيء إلى قبول الإسلام والابتهاج به يوم يعرفه معرفة صحيحة»[1].

فالإسلام قوي بذاته، وقوة الإسلام تتمثل في «قوة الحق» الذي يمثله ويدعو له.

غير أن هذه الحقيقة لن تحجب عنا أمراً هاماً هو أنه لا بد لهذا الحق من سواعد تحمله وتبلِّغه وتبينه للناس.

ولهذا أرسل الله رسله عليهم السلام ليبينوا للناس ما نُزِّل إليهم ويعرفوهم بالإسلام، وليبلغوا لهم كلمة الإسلام: كلمة الحق ناصعة نقية. وقد أنيطت مهمة التبليغ بعد ارتفاع النبوة بأمة الإسلام: أتباع رسول الله ﷺ[2].

قال تعالى ـ في سياق الأمر بتكوين العصبة المؤمنة المجادلة عن الحق ـ:

﴿وَلْتَكُن[3] مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

= علم الجدل»: ٢٠٩ـ ٢١٠.

(١) «مستقبل الإسلام خارج أرضه»: ١٠١. وينظر حديثنا عن مظاهر القوة في خطاب المحاور المسلم ضمن قضايا الفصل الثاني من هذا الباب.

(٢) يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

(٣) ﴿وَلْتَكُن﴾ هذه ليست كأختها ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الدالة على كمال القدرة الإلـٰهية، =

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال عز من قائل:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2].

فلا بد من أمة تخرج بهذا الحق إلى الناس كل الناس.

وعلى قدر قوة الناطق باسم الحق يتحقق المراد. لهذا أمر الله تعالى هذه الأمة بإعداد القوة، كل القوة:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا[3] ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[4].

ذلك أن الضعيف لا يعتد بقوله، أما الذي يخاطب الناس من منبر القوة، فلا شك سيسمع كلامه كل الناس.

فشرط القوة إذن أكيد[5].

وهنا يعرض السؤال الآتي: ما العمل إذا انعدم شرط القوة في المسلمين؟

بتعبير آخر: هل يعفى المسلمون من واجب المجادلة في حالة ضعفهم، كما هو حال المسلمين اليوم؟

الجواب، نلتمسه في قوله تعالى:

= بل ﴿كُن﴾ المنوطة بعمل المؤمنين، فالمعنى: كَوِّنوا أنتم يا معشر المؤمنين هذه الأمة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٣) و﴿مَآ﴾ هنا ليست بمعنى القدر الذي تستطيعون، بل ﴿مَآ﴾ بمعنى «كل»: أي الذي تستطيعون. ويؤيد هذا الفهم الآيات الآمرة ببذل الوسع، والوسع هو كل الجهد والطاقة، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٥) لهذا جعلت «صفة القوة» من الشروط الواجب توفرها في من يحاور عن الإسلام.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(1).

ووجه دلالة الآية أن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ بمجادلة غير المسلمين، رغم أن المسلمين كانوا يومها مستضعفين بمكة(2) ولم تقو شوكتهم إلا بعد تأسيس دولة الإسلام بالمدينة المنورة(3).

فحالة الاستضعاف إذن لا تعفي المسلمين من واجب المجادلة بالوسائل المتاحة والممكنة(4). مع العمل والسعي الحثيث لإعداد القوة التي تساند الحق الذي تجادل عنه.

ولعل من الحكم التي يمكن إدراكها من هذا التشبث بالحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ـ حتى في حالات الاستضعاف ـ: ثقة المؤمن ويقينه في أن الذي عليه هو الحق، فإن حاور الناس ببيان القرآن وبرهان العقل فمن موقف الذي عنده ما يعطي. وتفتحه على الواقع والناس إنما هو تفتح ذو مغزى ودلالة ووجهة: إنه مجادل عن الحق الذي اقتنع به.

ولا يعني تشبث المؤمن بخلق المجادلة أن يتعلق به إلى حد يخرج به عن حدود بيان الحق، والعمل على رد الناس إليه. ولهذا وضع الله عز وجل حدوداً تتوقف عندها المجادلة وهي: إسلام من أسلم منهم أو إقامة الحجة على من تعنت وتكبر. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:

---

(1) سورة النحل، الآية: 125.

(2) يخبرنا الإمام القرطبي أن الآية نزلت في وقت الأمر بمهادنة قريش. ينظر «أحكام القرآن»: 10/ 200.

(3) قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [آل عمران: 123]. فكانت غزوة بدر حدثاً فاصلاً بين عهد الذل والاستضعاف وعهد العزة والتمكين.

(4) وهذا الأمر منوط بالأمة الخاصة التي قال الله فيها: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: 104].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1].

«أي قد تقدم علم الشقي منهم والسعيد وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[2] ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[3]»[4].

ونقف الآن مع دليل عقلي ـ على طريقة الاستدلال العكسي ـ يثبت ضرورة القيام بواجب مجادلة أهل الكتاب بالكلمة والحجة من خلال السؤال الآتي:

إذا لم نقبل مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن فبماذا نستبدلها؟ وماذا ستكون النتيجة؟.

ونترك لشيخ الإسلام ابن تيمية (ت. ٧٢٨هـ) التفصيل في الجواب، إذ يقول:

«إن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً ﷺ وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات، وإذا طلبوا العلم والمناظرة، فقيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف، كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام، وأنه ليس دين رسول من عند الله، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف»[5].

ورحم الله ابن القيم (ت. ٧٥٠هـ) فقد أحسن البيان عند قوله: ومنها ـ أي الأحكام المستخلصة من قصة قدوم وفد نجران على رسول الله ﷺ ـ

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة القصص، الآية: ٥٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.
(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٥٥٠.
(٥) «الجواب الصحيح»: ١/ ٧٨.

جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة فليولي ذلك إلى أهله، وليخل بين المطي وحاديها، والقوس وباريها»[1].

فلا مناص من مجادلة أهل الكتاب بقوة الحق والحجة، إلى أن يتيسر لهذا الحق أن يتجسد في نموذج الأمة القوية.

هذا عن حكم مجادلة أهل الكتاب. فماذا عن موقف أهل الكتاب من مجادلة الغير؟

٢ ــ موقف أهل الكتاب من مجادلة الغير:

حسبي في هذه الإطلالة السريعة على موقف أهل الكتاب من مجادلة غيرهم[2]، أن أنبه على أهمية استيعاب رؤية الطرف الكتابي لمسألة المجادلة مع المسلمين. لأن ذلك سيمكن المجادل المسلم من إدراك مدى رغبة الكتابي في المجادلة، وأهدافه ـ الكتابي ـ منها. وهذا من شأنه أن يساعد المجادل المسلم على تحديد موقف من الانخراط في المجادلة، كما سيجعله على علم بالآفاق التي يمكن أن تمتد إليها هذه المجادلة. وهذا القدر من الإدراك مطلوب لا شك.

وسأعرض في هذا المقام لموقف الطرف اليهودي ثم الطرف النصراني من خلال مجموعة من القرارات التي اتخذت على مستوى مؤسسات عليا

---

(١) «زاد المعاد»: ٣/ ٦٣٩.

(٢) تعد محاولة داود عجك في دراسة موقف المسيحيين من الحوار الإسلامي ـ المسيحي وأهدافهم منه، مهمة في هذا الباب حيث قدم موقف الفاتيكان، ومجلس الكنائس العالمي من مسألة الحوار مع المسلمين. ثم توقف عند موقف بعض المسيحيين من هذه المسألة. ليخلص في الأخير إلى ملاحظات تقييمية للموقف المسيحي من الحوار مع المسلمين. انظر «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٣٧٦ وما بعدها.

في المجتمع المسيحي، وهي تعبر عن مواقف مبدئية من «الحوار مع غير المسيحيين». لأقف بعدها عند نموذج لدعوة بعض النصارى إلى الحوار مع المسلمين.

(أ) موقف اليهود من مجادلة غيرهم:

من المعلوم أن اليهود لا يرحبون بأن يدخل دينهم غير عرقهم، فهي ديانة مقفلة تعيش إلى حد ما داخل حدودها، ولذلك يمكننا القول إن الحوار بين أصحاب الشرائع المقصود به: «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»[1].

فاليهود يرفضون المجادلة. والنص القرآني يفتح باب المجادلة معهم متى سلموا من الظلم، وعبروا عن استعدادهم للاحتكام لسلطان الحجة والدليل دون مكابرة؛ قال تعالى:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾[2].

(ب) موقف النصارى من مجادلة المسلمين:

اهتمت الكنيسة بمسألة «الحوار مع غير المسيحيين»، فمما ورد في قرارات المجمع المسكوني: «إن الكنيسة وإن رفضت الإلحاد رفضاً باتاً، تعلن مع ذلك بصراحة أن على البشر أجمعين، مؤمنين كانوا أم غير مؤمنين، أن ينكبوا على بناء هذا العالم بالعدل، هذا العالم الذي يحيون فيه معا، ولن يتم ذلك حقاً إلا بالحوار الصريح الحكيم»[3].

فهي دعوة للحوار مع غير المسيحيين: من مسلمين، ويهود وغيرهم.

---

(١) انظر «الحوار النافع»: ٧٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦. وسيتضح الموقف القرآني من مجادلة اليهود عند الوقوف على دلالات «الذين ظلموا».

(٣) «معجم المجمع المسكوني»: ١٢٤.

وقد أعلنت الكنيسة موقفها الصريح من الحوار المسيحي - اليهودي من خلال قرار المجمع المسكوني: «أما فيما يعنينا فرغبتنا في الحوار لا تستثني منه أحداً، شرط أن يوجهه حب الحقيقة فقط، وأن يرفق بالفطنة المقتضاة»[1].

وبعد هذا تتجه الكنيسة إلى وضع معالم للطريق الممهدة لقيام حوار نافع، من ذلك دعوتها إلى تفهم وجهات نظر الغير واحترامها، وهذا ما عبرت عنه الكنيسة بقولها:

«يجب أن يمتد احترامنا وحبنا إلى كل الذين يفكرون ويعملون بطريقة مغايرة لنا، إن في القضايا الاجتماعية، وإن في القضايا السياسية أو الدينية. وبقدر ما نجتهد في تفهم نظرياتهم تفهماً داخلياً مطبوعاً بالحب والتودد، يسهل حينئذ الحوار معهم»[2].

ومن المقررات في هذا الباب، القرار الذي وجهته الكنيسة إلى الطلاب، وهذا نصه «يجب أن ينمي الطلاب المؤهلات التي تبدو في بالغ الأهمية لقيام الحوار مع الناس؛ كالقدرة على الإصغاء إلى الآخرين، والانفتاح بروح المحبة على أوضاع العلاقات البشرية المتنوعة»[3].

كما اهتمت الكنيسة بعرض صورة للحوار الذي ترجوه: «وإذا شئنا أن يكون في هذا الحوار الخلاص وحده للحقيقة والمحبة، للعقل والقلب، وجب أن يمتاز بوضوح في التعبير، وفي الوقت نفسه بالتواضع والرفق وبفطنة لائقة[4]، وبثقة من شأنها أن تعزز الصداقة، وأن توحد النفوس»[5].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) وهذه العبارة لها ما تحتها.
(٥) «معجم المجمع المسكوني»: ١٢٤.

وتبقى هذه القرارات، مواقف مبدئية من عملية «الحوار المسيحي ـ الإسلامي»، إنما تظهر قيمتها، وحقيقتها من خلال التصريف الواقعي والعملي.

ويجمل بنا في هذا السياق التنبيه على أهمية الوقوف عند نداءات النصارى أفراداً إلى أهمية قيام حوار مع المسلمين[1]، من ذلك دعوة الأستاذ نبيل مرقص، الذي «قدم دعوة للحوار في غاية الأهمية والخصوبة تحت عنوان: «حول ملامح الأزمة وإمكانية التجاوز»»[2].

يقول نبيل مرقص ـ مبيناً مضمون هذه الدعوة ـ: «إننا نحتاج جميعاً إلى أن تتسع رؤانا وتصفو نفوسنا وصدورنا، وتتطور أدواتنا الفكرية والمنهجية الجامدة، ليمكنا أن نخلق معا الأرضية المفتوحة للحوار الحقيقي الشجاع، والإمكانية العملية لإدارة الجدل الفكري الحي والخلاق بين كافة الأطراف»[3].

بعذ هذا البيان يتضح موقف كثير من أهل الكتاب من مجادلة المسلمين. وتبرز ضرورة أن يلم المجادل المسلم بحدود هذا الموقف، ودوافعه، وصور تنزيله.

٣ ــ المستثنون من المجادلة:

بعد بيان حكم مجادلة أهل الكتاب، وموقفهم من مجادلة الغير. نعود للحديث عن مواصفات الطائفة التي استثناها النص القرآني من المجادلة بالتي هي أحسن من خلال الوقوف على دلالات عبارة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(١) فكثيراً ما تعبر هذه النداءات على نية صادقة في الحوار، لأنها تتأسس على قناعة يغذيها التعايش اليومي بين النصارى والمسلمين، ثم إنها مبادرات بعيدة عن قيود المؤسسات.

(٢) «المسلمون والأقباط الالتقاء على أرضية الانتماء للحضارة الإسلامية» الدكتور محمد مورو: ٩.

(٣) نفسه.

مِنۡهُمۡۖ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[(١)].

يقول سيد قطب في معرض تدبره لهذه الآية: «فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصور على من لم يظلم منهم»[(٢)].

فالله تعالى في هذه الآية يستثني الظالمين من حركة الحوار، الذي لا يمكن أن يتحدث الإنسان معهم باللغة الأحسن، لأنهم لا يفهمونها ولا يريدون الانطلاق من مواقعها ولو كانوا كذلك لما ظلموا الناس واغتصبوا حقوقهم. هذا النوع من الناس لا بد من مواجهته مبكل الوسائل التي تردعهم وتُسقط ظلمهم[(٣)].

وبهذا نعلم أيضاً أن الجدال بالتي هي أحسن لا يصلح استعماله مع من لا يُقَدّر حقه، ولا يعرف قيمته[(٤)].

وإذا كان الحكم باستثناء «الذين ظلموا» من المجادلة بالحسنى صريحاً بنص الآية، فإن الاختلاف حاصل في معنى «الذين ظلموا». فأي دلالة تحملها هذه العبارة؟.

قال أهل اللغة: «الظُّلم: وضع الشيء في غير موضعه... وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد، ومنه حديث الوضوء: «**فمن زاد أو نقص فقد أساء وظلم**»[(٥)].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) «في ظلال القرآن»: ٥/ ٢٧٤٥.

(٣) ينظر «في آفاق الحوار الإسلامي ـ المسيحي». آية الله السيد محمد حسين فضل الله: ٣٣.

(٤) «الجدل في القرآن». محمد التومي: ٣٣.

(٥) «اللسان»: ١٢/ ٣٧٣. وينظر «معجم الألفاظ والأعلام القرآنية» لمحمد إسماعيل =

ويقول الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[2].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[3]»[4].

فمدار الظلم إذن في اللغة على **مجاوزة الحق إما بالزيادة أو النقصان أو بالعدول عن وقته أو زمانه.**

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[5].

فمن قائل: معناه «إلا الذين أبوا أن يقروا لكم بإعطاء الجزية ونصبوا دون ذلك لكم حرباً فإنهم ظلمة فأولئك جادلوهم بالسيف حتى يُسلموا أو يُعطوا الجزية»[6].

قال مجاهد (ت. ١٠٢هـ): «﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[7] يعني أهل

= إبراهيم: ج٢,/ ٤٣.

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣. عن عبد الله قال: «لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال أصحاب رسول الله ﷺ: «أينا لم يظلم؟ فأنزل الله ﴿ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]». أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب ظلم دون ظلم. ينظر «الفتح»: ١/ ١١٨.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٢.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٤) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٣٢٦.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٦) «جامع البيان»: ج ٢١/ ٢.

(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

الحرب، ومن امتنع منهم من أداء الجزية»[1].

وقال سعيد بن جبير (ت. ١٩٥هـ): «المراد بالذين ظلموا: الذين نصبوا القتال للمسلمين وآذوا رسول الله ﷺ فجادلهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية»[2].

ومن قائل: «إلا الذين ظلموا منهم وحادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح الحجة، وعاندوا وكابروا ولم يجد فيهم الرفق، فمثل هؤلاء لا ينفع فيهم إلا الغلظة:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى[3]»[4]

ومن قائل: «إلا الذين ظلموا منهم، فبدلوا في كتابهم، وانحرفوا إلى الشرك، والشرك ظلم عظيم»[5].

والقول الأول أولى ـ عندي ـ بالصواب، وإن كان المعنى الأخير مقبولاً لكنه ليس هو المراد من الآية «لأن الله تعالى ذكره أذن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب بغير الذي هو أحسن بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[6]. فمعلوم إذا كان قد أذن لهم في جدالهم، أن الذين لم يؤذن لهم في جدالهم ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾[7] غير الذين أذن لهم بذلك فيهم. وأنهم غير المؤمن. لأن المؤمن منهم غير جائز جدالة إلا في غير الحق لأنه إذا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٥/ ٣٢٩. وينظر: «تذكرة الأريب في تفسير الغريب» لأبي الفرج ابن الجوزي: ج ٢/ ٦٧.

(٢) «النصارى في القرآن والتفاسير»: ٥٣٩. نقلاً عن «تفسير المراغي»: ج ٧/ ٥ ـ ٦.

(٣) «ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري»، تحقيق: مصطفى السقا: ٨٧.

(٤) «النصارى في القرآن والتفاسير»: ٥٣٩.

(٥) «في ظلال القرآن»: ٥/ ٢٧٤٤. وينظر «النصارى في القرآن والتفاسير»: ٥٣٦ نقلاً عن «الخازن»: ج ٥/ ١٩٦.

(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٧) نفسها.

جاء بغير الحق فقد صار في معنى الظلمة في الذي خالف فيه الحق»[1].

وبهذا يتبين أن الظلم في هذه الآية لا يراد به الشرك بالله وما يتفرع عنه لأنه بهذا المعنى يصير مجموع أهل الكتاب ظالمين لأنفسهم بكفرهم بالله وتكذيبهم رسوله محمد ﷺ. فلا ميزة لبعضهم على بعض، وهذا يخالف ظاهر الآية التي فرقت بين الظالمين منهم وغير الظالمين. ولا يمكن أن يكون المراد بغير الظالمين من آمن منهم لكون المؤمن منهم لا يجادل إلا في غير الحق فإذا «جاء بغير الحق فقد صار في معنى الظلمة في الذي خالف فيه الحق».

فالظالم في هذه الآية يشمل كل معاني الجور[2] والخروج عن الحق إما بالاعتداء وإعلان الحرب أو الامتناع عن أداء الجزية، أو المس بمقدسات المسلمين.

وأرى ـ والله أعلم ـ أنه لا يمكن فهم الآية بشكل أعمق وأوسع إلا باستحضار قوله تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم[3] مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ

---

(١) «جامع البيان»: ٣/٢١.

(٢) العناد من الجور، حتى قيل: «المعانِد لا يُناظر، لأن الغرض من المناظرة إظهار الصواب، ومع عناد أحد الخصمين لا يترتب عليها المقصود». «المزن الماطر على الروض الناضر في آداب المناظر» تأليف: القاضي العلامة الحسين بن أحمد السياغي: ٤٥. فالمعاند فاته صدق الطلب للحق، فظلم بذلك، فوجب العدول عن مجادلته، إلا أن يكون الغرض إفحامه وتغليطه، ليعلم أنه غير مصيب، فهذا لا بأس به.

(٣) قال ابن عاشور: «المظاهرة المعاونة، ذلك أن أهل مكة فريقان، منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون معها البقاء بمكة، ومنهم من يُعين على ذلك، ويُغري عليه». «التحرير والتنوير»: ٢٨/ ١٥٤.

﴿ ⑨ ﴾[1].

قال سيد قطب: «رخص الله للمؤمنين في موادة[2] من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم، ورفع عنهم الحرج في أن يَبرّوهم، وأن يتحروا العَدل في معاملتهم معهم فلا يبخسوهم من حقوقهم شيئاً»[3].

ولقائل أن يقول: إن الآيتين نزلتا في مشركي قريش، والجواب: «أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب». وإلى هذا ذهب ابن جرير إذ يقول: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين مع جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتَصِلوهم وتقسطوا إليهم [لأن ذلك] غير محرم ولا منهى عنه إذا لم يكن فيه دلالة للحربي ولا لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكِراع[4] أو سلاح»[5].

والنتيجة التي نخلص إليها هو أن: كل من قاتلنا في الدين[6] أو

---

(١) سورة الممتحنة، الآيتان: ٨، ٩.

(٢) يشير إلى الآية السابعة من سورة الممتحنة: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑦﴾.

(٣) «في ظلال القرآن»: ٦/ ٣٥٤٤. يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ «البر حسن المعاملة والإكرام. والقسط العدل.. فالمقصود أن تعاملوهم بمثل ما يعاملونكم به من التقرب، فإن مُعاملة أحد بمثل ما عَامل به، من العدل». «التحرير والتنوير» ٢٨/ ١٥٣ بتصرف.

(٤) الكِراع: اسم يجمع الخيل. «مختار الصحاح»: ٥٣٢.

(٥) «جامع البيان»: ٢٨/ ٤٣ بتصرف. واستدل لذلك بحديث ابن الزبير في قصة أسماء وأمها. قال: قدمت قتيلة بنت العزة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، فأبت أسماء أن تأخذ منها وتَقبل منها وتُدخلها منزلها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرها أن تَقبل هداياها وتُدخلها منزلها. فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [الممتحنة: ٨].

(٦) هل العدوان الصليبي المستمر قتال في الدين أو خارج الدين؟ وما حكم مجادلة النصارى الصليبيين؟

أخرجنا من ديارنا أو ظاهر[1] ـ أعان وساعد ـ على إخراجنا فهو من الذين ظلموا الذين لن يكون لنا معهم لقاء[2].

وهكذا لا يسلم من صفة الظلم ـ وهي صورة من الاعتداء ـ إلا من تميَّز بالاستواء في مروءته واستعداده، وحرصه الشديد على معرفة الحق.

فلا مجادلة بالتي هي أحسن إلا مع فضلاء أهل الكتاب». والفضل الزِّيادة[3].

فمن جاءنا يسعى لحوارنا حاورناه، ومن تميز عن مجموع أهل الكتاب بزيادة علم أو حرص على معرفة الحق أو استعداد وبحث جادّ عن الحقيقة أو يأس من واقع الميوعة والعفن الذي يعج به المجتمع الجاهلي. سعينا إلى حواره وجادلناه بالتي هي أحسن. ولنا معه لقاء نرجوه قريباً[4].

---

(١) الظَّهير: المعين. . . **والمظاهرة**: المعاونة. والتَّظاهُر التعاون واستظهر به استعان به». «مختار الصحاح»: ٣٨٨. ويقول ابن القيم: «أجمع المسلمون على أن حكم الردء («الرِّدْء: العون» مختار الصحاح: ٢٣٦). حكم المباشر (أثبت هذه القاعدة في أحكام الجهاد، وحكم قطاع الطريق، والملاحظ أن حُكمها يعم في الأمور كلها صالحها وطالحها)، لأن المباشر إنما باشر الإفساد (يقصد إفساد قطع الطريق لأن العبارة وردت في معرض الكلام عن حكم قطاع الطريق) بقوة الباقين، ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه». «زاد المعاد»: ١٣٨.

(٢) من الثابت لدى الدارسين «للشخصية اليهودية» أن اليهود عناصر مختلفة ينتمون إلى دماء بعدد أجناس بني البشر. ثم إن اختلافهم إلى متدينين وعلمانيين يزيد إشكالية: من هو اليهودي؟ تعقيداً. وأرى أنه لا يعنينا الخوض في هذا الإشكال ما دام جميع اليهود ـ متدينين أو علمانيين سواء كانوا سفارديين (من أصل آسيوي وإفريقي) أو إشكنازيين (من أصل غرب وشرق أوروبا) أو صباريين (مَن وُلد على أرض فلسطين) ـ قد اشتركوا في صفة العدوان على المسلمين واتحدوا على اغتصاب أرضهم.

(٣) واستعمل الفضل بمعنى الزيادة التي تُميِّز عن المجموع. فما فَضْل من فَضُل إلا بزيادة عِلم أو خِبرة تُميِّزه عن أقرانه.

(٤) من النماذج التي تعرضها كتب السيرة لفضلاء أهل الكتاب: ورقة بن نوفل، عالم أهل الكتاب، والمصدق الأول لرسالة النبي ﷺ. ينظر «السيرة النبوية»: ١/١٧٨. «ولعل =

٤ ــ نتائج وقاعدة:

مما سبق تتضح ضرورة مجادلة أهل الكتاب، كما تبرز أهمية المعرفة المسبقة بالمجادل، ثم إن استحضار مميزات الطائفة المخصوصة بالمجادلة أم لا بد منه.

ولا يفوتني أن ألخص ما سبق من خلال قواعد الفصل، وهي كالآتي:

«ـ معرفة الغير شرط في التبصير».

«ـ لا جدال بالتي هي أحسن إلا مع من سعى وطلب ومع كل فاضل مستعد».

فالمجادلة بما هي إقناع ودعوة تتعارض مع العناد، ذلك أن صفة العناد تجعل إمكانية القبول بالحق والمجادلة بالتي هي أحسن مستحيلة.

ثم إن الاعتداء يسد باب البر، الذي أمرنا بفتحه للناس ما لم يقاتلونا في الدين أو يظاهروا[1] على ذلك. وهل المجادلة بالتي هي أحسن إلا بر وأي بر؟.

فلا يصفو لنا جو المجادلة بالتي هي أحسن إلا مع من سعى إلينا بطلبه، أو جذبنا إليه فضله ومروءته فسعينا إليه.

هذا، ومن الواجب التنبيه على أننا لن نفرط في جدال من ظلم، لكن بالتي هي أخشن، ولن تكون إلا باللغة والأسلوب الذي يفهمونه.

= الله تعالى قد جعل ورقة بن نوفل الأنموذج الأول لكل المسيحيين ليقتدوا به، ويسيروا على نهجه، حيث إنه لم يكتم العلم الذي عنده، ولم يستكبر على دعوة النبي ﷺ، ولم تأنف نفسه، وهو الشيخ الهرم، من التصديق والإيمان بنبي هو بالنسبة إليه في مثل سن أولاده». «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ١١٣.

(١) المساند في حكم المباشر كما أثبت علماؤنا رحمهم الله.

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ﴾[(١)]. أي: حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح المحجة وعاندوا وكابروا فحين إذن ينتقل من الجدال إلى الجلاد»[(٢)].

إذا كنا قد سلمنا بضرورة معرفة «من» الذي يطلب إلينا مجادلته. وإذا كنا قد حددنا مميزاته، **فماذا عن صفاته النفسية والعقلية والخلقية وهي الأبواب التي منها ندخل على محاورنا الكتابي؟**.



(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٤٠١.

الفصـل الثانـي

معالم في شخصيـة أطراف المجادله

ويشتمل على:

تمهيد

المبحث الأول : معالم في شخصية الكتابي.

المبحث الثاني : معالم في شخصية المسلم المجادل.

تمهيد:

خلصنا مما سبق إلى إدراك القدر التي تسهم به معرفتنا بالمجادل لتحقيق غاية المجادلة. كما اتضح الشرط الواجب توفره في الكتابي، ليصلح طرفاً في المجادلة.

وحتى نستكمل معرفتنا بأطراف المجادلة، لا بد من التنبيه على مجموعة من المعالم المحددة لشخصية الكتابي.

كما أن جوابنا عن السؤال المحوري في هذا الباب: «**من يجادل من؟**»، لن يستوفي حقه إن لم نقف عند «من» المرتبطة بالطرف المسلم. وذلك ببيان مواصفات المجادل المسلم، الذي يقوى دون غيره على القيام بواجب المجادلة أحسن قيام.

لهذه الاعتبارات، أفردت هذا الفصل للتعريف بشخصية أطراف المجادلة، من خلال التصميم الآتي:

- **المبحث الأول : معالم في شخصية الكتابي.**
- **المبحث الثاني: معالم في شخصية المسلم المجادل.**



المبحث الأول

معالم في شخصية الكتابي

قد يبدو أن الحديث عن شخصية الكتابي بشيء من التفصيل لا يتوافق وخطة هذه الرسالة، والتي التزمت فيها تناول الموضوع من خلال الوقوف على الكليات والقواعد العامة التي تضبط المجادلة مع أهل الكتاب؛ فكان يكفي في هذا المبحث الذي خصصناه للإجابة عن سؤال: «**من يجادل من؟**» التأكيد على القاعدة التي تنص على ضرورة معرفة المجادل المسلم بشخصية الكتابي، كما أثبتنا ذلك في المبحث الأول من الفصل الأول، وعلى التنبيه على قاعدة الذين استثنوا من المجادلة بالتي هي أحسن، كما مر معنا في المبحث الثاني.

غير أن تعاملي مع ما كتب عن شخصية الكتابي جعلنا أشعر بضرورة تخصيص مبحث لعرض بعض معالم هذه الشخصية، وذلك اعتباراً للإشكالات التي تعترض الدارس لهذه الشخصية.

فمن الواجب ـ التزاماً بأهداف الرسالة وانسجاماً مع الخطة المرسومة ـ الإجابة عن هذه الإشكالات ووضع قواعد تضبط دراستنا لشخصية أهل الكتاب.

ويمكن عرض أهم هذه الإشكالات من خلال الأسئلة الآتية:

- هل يمكن الحديث عن شخصية مميزة لأهل الكتاب؟
- ما هي المصادر المعتمدة في معرفة شخصية الكتابي؟
- بأي منهجية ندرس شخصية أهل الكتاب؟

أسئلة، تفرض الإجابة عنها تخصيص مبحث مستقل للحديث عن معالم شخصية أهل الكتاب.

وقد خصصت هذا المبحث للتفصيل في ذلك من خلال التصميم الآتي:

محور أول: أجيب فيه عن أسئلة الثلاث التي تعترض الدارس لشخصية الكتابي ويتعلق الأمر بـ:

- سؤال الشخصية.
- سؤال مصدر المعرفة.
- سؤال منهجية الدراسة.

محور ثان: فيه أعرض لمساهمتي في دراسة شخصية الكتابي عبر مجموعة من المعالم المميزة لهذه الشخصية.

المحـور الأول

الإشكالات المرتبطة بدراسة شخصية الكتابي

١ ـ شخصية الكتابي:

قبل التطرق إلى الإشكالات التي يثيرها الحديث عن شخصية أهل الكتاب، لا بد من الوقوف أولاً عن مفهوم الشخصية.

فالشخصية ـ في اللغة ـ من شخص، والشّخص: «سواد الإنسان وغيره تراه من بعيد»[1]. ومن المجاز قولهم: «شخص الشيء إذا عينه»[2].

أما في اصطلاح علماء النفس[3] والاجتماع والفلسفة فتدل على العلامات المميزة للإنسان أو لمجموعة من البشر، وليست هذه العلامات مقصورة على السحنة[4] أو القامة أو شكل الجمجمة.. بل يدخل في تحديد الشخصية عناصر أخرى أثبت وأعمق وأهم عند الباحثين، كالعادات والتقاليد، والمأثورات الشعبية والتراث الحضاري القديم والتماسك حول نواة اجتماعية قد تكون أسطورية، ولكنها مع ذلك قد ظلت نشيطة وفعالة في سبك الطباع، وتكوين الشخصية[5].

ويبرز الأستاذ تقي الدين النبهاني العناصر المساهمة في تكوين

---

(١) «مختار الصحاح»: ٣١٨. وينظر: «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢٦٣.

(٢) «أساس البلاغة»: ٣٢٣.

(٣) يرى علماء النفس، أن معنى الشخصية من أشد معاني علم النفس تعقيداً وتركيباً، لأنه يشمل جميع الصفات الجسمانية والوجدانية والعقلية والخلقية، في حالة تفاعلها بعضها مع بعض، وتكاملها في شخص معين، يعيش في بيئة اجتماعية معينة. ينظر «اليهود واليهودية والإسلام». عبد الغني عبود: ١٧، ١٨ نقلاً عن «مبادىء علم النفس العام» د. يوسف مراد: ٣٦٣.

(٤) «السحنة بفتحتين: الهيئة». «مختار الصحاح»: ٢٨١. و«أساس البلاغة»: ٢٨٨. والمراد بها هنا لون البشرة.

(٥) ينظر «الشخصية الإسرائيلية». د. حسن ظاظا: ١١ ـ ١٢.

شخصية الإنسان بقوله: «الشخصية في كل إنسان تتألف من عقليته ونفسيته، ولا دخل لشكله ولا جسمه ولا هندامه ولا غير ذلك، فكلها قشور. . . ذلك أن الإنسان يتميز بعقله، وسلوكه هو الذي يدل على ارتفاعه أو انخفاضه وبما أن سلوك الإنسان في الحياة إنما هو بحسب مفاهيمه، فيكون سلوكه مرتبطاً بمفاهيمه ارتباطاً حتمياً لا يفصله عنها. والسلوك هو أعمال الإنسان التي يقوم بها لإشباع غرائزه أو حاجاته العضوية. . . وعلى ذلك تكون مفاهيمه وميوله[١] هي قوام شخصيته»[٢].

وفي كيفية تشكّل الشخصية، يضيف تقي الدين النبهاني قوله: «حين يجري عقل الإنسان من خلال إدراكه للأمور حسب كيفية معينة تكون له عقلية معينة. وحين يجري ربط دوافع الإشباع المبلورة بواسطة امتزاجها الحتمي بالمفاهيم عن الأشياء بمفاهيم معينة عن الحياة تكون له نفسية معينة. وحين تتحد مفاهيمه عن الحياة في تحكمها به عند عقل الأشياء وعند ميله لها تكون له شخصية معينة. فالشخصية هي جعل الاتجاه لدى الإنسان في عقله للأشياء وميله لها اتجاهاً واحداً مبيناً على أساس واحد. وعلى ذلك يكون تكوين الشخصية إيجاد أساس واحد للتفكير والميول لدى الإنسان»[٣].

وعلى طبيعة الأساس الذي يحكم عملية التفكير والميول، تتوقف طبيعة الشخصية «فإن كان متعدداً كأن جعلت عدة قواعد أساساً للتفكير

(١) «الميول: هي الدوافع التي تدفع الإنسان للإشباع مرتبطة بالمفاهيم الموجودة لديه عن الأشياء التي يراد منها أن تُشبع. . . وهذه الميول وحدها ـ أي الدوافع مربوطة بالمفاهيم عن الحياة ـ هي التي تكوّن نفسية الإنسان. فالنفسية هي الكيفية التي يجري عليها إشباع الغرائز والحاجات العضوية. وبعبارة أخرى هي الكيفية التي تربط فيها دوافع الإشباع بالمفاهيم». «الشخصية الإسلامية». تقي الدين النبهاني: ج. ١/ ٥.

(٢) نفسه.

(٣) المرجع السابق، ج. ١/ ١٣.

والميول، كان للإنسان شخصية، ولكنها شخصية لا لون لها. وإن كان الأساس واحداً كأن جعلت قاعدة واحدة أساساً للتفكير والميول كانت للإنسان شخصية معينة لها لون معين»[1].

فالشخصية إذن هي مجموع **السمات ـ النفسية والعقلية ـ التي تكونت نتيجة العوالم الاجتماعية والعلمية ومجموعة العوامل الوراثية وعنها تولدت الميولات والسلوكات**[2].

هذا عن مفهوم الشخصية، غير أن مواقف الدارسين لشخصية أهل الكتاب عامة واليهود خاصة قد اختلفت في إمكانية الحديث عن شخصية يهودية بالمفهوم الدقيق للشخصية[3]:

ـ فالبعض يرى أن الذين نواجههم اليوم «كإسرائيليين»، ليسوا بحال من الأحوال امتداداً «للجنس» اليهودي القديم، وأنه ليس ثمة وجود لتراث يهودي واحد ولا لتاريخ يهودي واحد.

ذلك أن التنوع في الأصول الحضارية ـ ما يسمى بمشكلة الاختلافات العرقية ـ والثقافية للمجتمع الإسرائيلي تجعل من العسير على الباحث وضع تعريف دقيق محدد للشخصية اليهودية الإسرائيلية[4].

فالشخصية الإسرائيلية أشد تعقيداً فقد تدخل في تركيبها عناصر شتى، تجمعت في ظروف شديدة التنوع والتباين، عبر مسافات شاسعة بعيدة في الزمان والمكان، حتى أصبح من أصعب الأمور أن يصف الباحث الحدود الخارجية لهذه الشخصية ـ فضلاً عن القسمات الدقيقة، والملامح الجزئية ـ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر «الشخصية اليهودية عبر التاريخ». جودت سعيد: ٢٣ بتصرف.

(٣) ونفس الإشكال ينسحب على شخصية النصارى فواقعهم لا يختلف كثيراً عن واقع اليهود.

(٤) ينظر «الشخصية اليهودية»: ٢٩ و١٢٢.

وصفاً ناطقاً بحقيقتها، جامعاً مانعاً مقنعاً[١].

إن الواقع الخاص للتجمع اليهودي الإسرائيلي من خلال «دولة إسرائيل» في العصر الحديث هو واقع يرتبط بمعطيات جغرافية ولغوية واجتماعية وسياسية وسيكولوجية تتجاوز بكثير حدود الدين اليهودي كمصدر أوحد ووحيد لتفسير السلوك الإسرائيلي[٢].

في ظل هذا التباين والتنوع في الأصول الحضارية والثقافية لليهود في إطار التباين والاختلاف في التنشئة الاجتماعية للعناصر المكونة لليهود، يستحيل النظر إلى اليهود على أنهم جماعة ذات خصائص فريدة مميزة تجعل منهم جماعة تختلف عن بقية البشر[٣] وبالتالي لا نستطيع الحديث عن جماعة يهودية بل عن **جماعات يهودية لكل منها شخصية مميزة**[٤].

وإذا كان أنصار هذا الرأي يذهبون إلى القول باستحالة الحديث عن

---

(١) ينظر «الشخصية الإسرائيلية»: ١٠.

(٢) ينظر «الشخصية اليهودية»: ٢٩.

(٣) ينظر «الشخصية الإسرائيلية»: ٣٥.

(٤) لا يمكننا الحديث عن شخصية يهودية وإنما عن شخصيات يهودية كالشخصية اليهودية السيفاردية تتضمن بداخلها قدراً هائلاً من التقسيمات وفقاً للبلد الأصلي الذي ينتمي إليه المهاجر اليهودي حضارياً (اليهود العراقيون واليهود اليمنيون واليهود المصريون واليهود المغاربة...) كما يمكن التحدث عن شخصية يهودية اشكنازية تمثل يهود غرب وشرق أوروبا، وهم منشؤوا الحركة الصهيونية ومؤسسوا دولة إسرائيل» والقائمون على حكمها منذ إنشائها حتى الآن، وممثلوا الصفوة المتغلغلة والمسيطرة على شتى القطاعات الحاكمة في «إسرائيل» (الجيش ـ التعليم ـ الإعلام...)، كما يمكننا التحدث عن شخصية صبارية تمثل الامتداد الطائفي والحضاري والعمراني لطائفة الاشكنازين، وتمثل وفق التصور الإسرائيلي التجسيد الحي للوطنية الإسرائيلية والرصيد الحي لضمان الانتماء الإسرائيلي للحضارة الغربية وانفصالها عن حضارة الشرق العربي والتدعيم الحي للهوية الإسرائيلية الموحدة منسجمة في آرائها، ومواقفها وخصائصها واتجاهاتها السيكولوجية. ينظر المرجع السابق: ١٢٢ ـ ١٢٣.

شخصية يهودية، بل شخصيات يهودية؛ وعليه لا يمكننا الاستناد على الدين اليهودي كمصدر أوحد لفهم الشخصية اليهودية، فإن أنصار الرأي الثاني يؤكدون على:

- وجود قواسم مشتركة بين هذه الجماعات اليهودية، تصلح لأن تكون المعالم الكبرى لشخصية اليهود.

ولا يعني هذا أن الانتماء الديني هو العامل الوحيد والأساس الذي ترتكز عليه هذه الشخصية، فقد تكون الخرافة أقوى أثراً في خلق النفسية والعقلية اليهودية من الحقيقة التاريخية نفسها خصوصاً إذا اصطبغت مع الزمن بقدسية الدين، وهذا ما كان من أمر «الشخصية الإسرائيلية»[1].

وأرى أن محل الاختلاف بين الدارسين، هو في طبيعة المصدر الذي يمكن الاستناد عليه لفهم شخصية اليهود: فمن اكتفى بالانتماء الديني اليهودي كأساس لدراسة الشخصية اليهودية، شعر بالحرج أمام هذا التلون في طبيعة الشخصية اليهودية نظراً لاختلاف الظروف وملابسات التكوين الاجتماعي التاريخي وحتى العقائدي الذي خضعت له هذه الشخصية، مما اضطره للقول بتعدد الجماعات اليهودية. وهو فهم سليم ومخرج حكيم يستحضر أهمية الأساس الديني دون أن يغيب أثر العوامل الأخرى.

في حين تمكن أصحاب الرأي الثاني من التفلت من هذا الحرج بالقول بوجود معالم كبرى للشخصية اليهودية دون أن تنفي إمكانية التمييز بين الجماعات اليهودية، هذا مع التنبيه على أن هذه المعالم المشتركة قد يسهم في تشكيلها عوامل أخرى أكثر مما يسهم الانتماء للدين اليهودي - كالخرافة، ظروف تاريخية... -.

وأرى أن الموقفين يشتركان في القول بتعدد العوامل المؤثرة في تكوين

---

(١) ينظر «الشخصية الإسرائيلية»: ٣٥ بتصرف.

شخصية اليهودي وأنه لا يمكن فهم هذه الشخصية إلا باستحضارها جميعاً.

وسنكون أقدر على استيعاب هذه الحقيقة ـ حقيقة تعدد الأسس التي ترتكز عليها شخصية أهل الكتاب عمواماً ـ إذا ما وقفنا على المصادر التي يمكن الارتكاز عليها لدراسة شخصية أهل الكتاب.

٢ ــ المصادر المعرفية لدراسة شخصية الكتابي:

مر معنا أن تعدد الأُسس التي توجّه عملية التفكير والميول ـ هما قوام الشخصية ـ يُنتج شخصية ذات ألوان متعددة يصعب فهمها دون الإلمام بتلك الأسس والقواعد.

وشخصية أهل الكتاب ـ كما سبقت الإشارة ـ خير نموذج في هذا الباب.

وحتى نتجاوز هذه الصعوبة في دراستنا لأهل الكتاب ـ يهوداً ونصارى ـ وحتى لا تضطرب بين أيدينا المقاييس فيغيب عنا الإدراك الحقيقي لجوهر هذه الشخصية نحب أن ننطلق من أساس متين ونأوي إلى ركن شديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ألا وهو الوحي ـ قرآناً كريماً وبياناً نبوياً شريفاً ـ.

ثم إن إقبالنا على كتاب الله المقروء ـ القرآن الكريم ـ نلتمس منه المعرفة بحقيقة شخصية أهل الكتاب سيوجهنا إلى الانفتاح على كتاب الله المنظور ـ كتاب العالم بما يعج فيه من أحداث لا تخرج عن سنة الله في الكون ـ.

فهما مصدران إذن: كتاب الله المقروء وكتاب الله المنظور. فماذا عن مساهمة كل من هما في معرفة شخصية أهل الكتاب؟

(أ) القرآن الكريم مصدر معرفة بالنفس البشرية:

من مقتضيات إيماننا بأن الله عز وجل هو الخالق، اليقين بأنه سبحانه

العليم بمن خلق.

يقول الله عز وجل مبيناً هذه الحقيقة:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1].

يعلم سبحانه خائنة الأعين وما تخفي الصدور ويعلم الغيب والشهادة.

وأسلوب القرآن في عرض النماذج البشرية يجلي هذه الحقيقة، فهو «يقدم هذه النماذج ويحلل نفسياتها وأخلاقها ومواقفها.. يقدمها من خلال تاريخ بشري ممتد في أعماق العصور الغابرة وممتد حتى قيام الساعة. ويتصل تحليل هذه النماذج البشرية ليس في الحياة الدنيا فحسب وإنما في الآخرة يوم الحساب لترى الندامة تأكل هؤلاء في تصوير رباني رقيق... وتمضي الآيات تصف وتحلل النماذج البشرية كما تحللها السنة النبوية لتكون كلها زاداً عظيماً ضخماً للمؤمن وهو ماض في دعوته إلى ربه... إن مثل هذا الزاد لا يمكن أخذه من أي مصدر إلا من منهاج الرباني ـ كتاباً وسنة ـ فلا يستطيع أي كتاب بشري أن يوفر هذا الزاد العظيم كله»[2].

وحديث القرآن عن أهل الكتاب نموذج للبيان الرباني في تحليله للنفس البشرية[3]. يقول رب العزة:

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٢) «دور منهاج الرباني»: ٢٩٥ ـ ٣١٠ بتصرف.

(٣) «من المنطق والمعقول أن القرآن الكريم وهو كتاب الإسلام الذي ستنتقل به النبوة والرسالة على يد نبي محمد ﷺ من بيت إسحاق ويعقوب أي من بيت إسرائيل... أن يقص على رسول الله ﷺ كل ما يمكن أن يعاون في تفهم رسالة الله الخاتمة إلى الناس جميعاً، من هنا كان الخبر القرآني في كل متعلقات التاريخ الديني والسياسي لبني إسرائيل... خبراً مستفيضاً يمتلىء بالدرس والعبر. ولما كان بنو إسرائيل قطاعاً من البشر مستهدفاً من الرسالة المحمدية... ولما كانت مشيئة الله التي تستهدف بالرسالة الدينية العون الإلهي للبشر من خلال النماذج المختارة من الأنبياء والمرسلين، فإن النهج القرآني قد راح وفي تفصيل موسع وقصد بارز أن يكشف للمستقبل الإنساني عن =

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾[١].

«بهذا التقعيد المحكم والمعجز، أشار رب العزة إلى هذا المنهاج التاريخي المعجز، الذي يقص بمقتضاه أكثر الذي يختلف فيه بنو إسرائيل أنفسهم لأنه سبحانه الأعلم بمكنون صدورهم»[٢].

إن معاني القرآن ينبغي أن تعود هي المعيار لتحليل الأنفس والآفاق كما كانت عند سلفنا الصالح قبل أن تغزونا الفلسفات[٣].

يقول سيد قطب: «لقد كانت هذه الأمة تتلقى هذا القرآن لتقرر ـ وفق توجيهاته وتقريراته ـ خطتها وحركتها ولتتخذ ـ وفق هذه التوجيهات والتقريرات مواقفها من الناس جميعاً. فهذا الكتاب كان هو موجِّهها

= نوعية وأنماط الذين استجابوا والذين رفضوا العون الإلهي في إمكانية ترشيد الإنسانية وترقيها نحو الأمثل والأكمل... من هنا أفاض القرآن الكريم في الحديث عن بني إسرائيل في أطوار النبوة والرسالة باعتبار أن الرسالة الإلهية في بيت إسرائيل خاضت تجربة لم تثمر أهدافها المرجوة». «بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم». صابر طعيمة: ١٩ ـ ٢٠. وهذا ما أكده الطباطبائي بقوله: «أكثر الأمم الماضية قصة في القرآن أمة بني إسرائيل، وأكثر الأنبياء ذكراً فيه، موسى بن عمران عليه السلام». «الميزان»: ١/ ٢٠٩.

(١) سورة النمل، الآيات: ٧٤ ـ ٧٩.

(٢) «بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم»: ١٢٧.

(٣) يقول السيد أحمد محسب مرسي منبهاً على هذه الحقيقة: «كيف غاب عن الإسلاميين التحليل العظيم للعقلية اليهودية الذي أوردته (سورة البقرة) وغيرها من السور، التي فسرت كيف نشأت تلك العقلية الموروثة عن بني إسرائيل. وأن القرآن إنما يبين من خلال تلك السورة وأشباهها أن الأمم إنما تقوم وتتهدم بمعتقدات أبنائها، وما يترتب عن تلك العقائد من سلوكيات هي في الواقع صدى لما يدور في أذهان الناس من الإيمان المزيف، والعقائد الفاسدة، بل وما يتربص بالأذهان من انحرافات وأساطير». «مقولات أهل الكتاب»: ٧.

ومحرِّكها ورائدها ومرشدها.. ومن ثم كانت تغلب ولا تغلب، لأنها تخوض معركتها مع أعدائها تحت القيادة الربانية المباشرة؛ مذ كان نبيها يقودها وفق الإرشادات الربانية العلوية.. وهذه الإرشادات الربانية ما تزال، والتقريرات التي تضمنها ذلك الكتاب الكريم ما تزال. والذين يحملون دعوة الإسلام اليوم وغداً خليقون أن يتلقوا هذه التقريرات وتلك الإرشادات كأنهم يخاطبون بها اللحظة؛ ليقرروا على ضوئها مواقفهم من شتى طوائف الناس؛ ومن شتى المذاهب والمعتقدات والآراء، ومن شتى الأوضاع والأنظمة وشتى القيم والموازين.. اليوم وغداً وإلى آخر الزمان»[1].

إن المؤمنين بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم. فهذا نصف المعركة. والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة[2].

وكيف لا نُقبل على كتاب ربنا نلتمس منه المعرفة وغيرنا يقوم بذلك فأي الفريقين أولى به، قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[3].

يقول سيد قطب: «إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة، لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة ـ كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين! ـ ولا لينصفوا هذا الدين وأهله ـ كما يتصور بعض المخدوعين حينما يرون اعترافاً من باحث أو مستشرق في جانب طيب في هذا الدين! ـ كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين! لأنهم يبحثون عن منافذه ومسالكه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها! لأنهم

---

(١) «في ظلال القرآن»: ٢/ ٩٥٩.

(٢) ينظر «موسوعة الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه» الكتاب الخامس: «التآمر اليهودي على حياة الرسول ﷺ: ١٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه في النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التي يريدون ملء فراغ الناس بها! ـ ومن أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك.. وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا!»[1]. قلت: وأن نعرف ما عليه غيرنا كمعرفتنا بما معنا، والقرآن الكريم يقدم لنا هذه المعرفة.

إن معرفتنا بشخصية أهل الكتاب يجب أن نبحث عنها في تقريرات الحق، باعتبار أن هذه هي الحقيقة النهائية، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وباعتبار أن هذه التقريرات ـ بسبب كونها ربانية ـ لا تتعرض لمثل ما تتعرض لها الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء[2].

إن القرآن الكريم متى أَقبلنا عليه بقلوب مستنيرة بنور الإيمان، وعقول الحكمة ضالتها، وجدنا فيه البيان الشافي والتفصيل الكافي لكل ما يَعرض لنا من الشؤون[3].

---

(١) «في ظلال القرآن»: ٢/ ١٠٦١.

(٢) ينظر «موسوعة الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه» الكتاب الخامس: «التآمر اليهودي على حياة الرسول ﷺ»: ٣٦. يقول الأستاذ فتحي يكن مؤكداً هذه الحقيقة: «أو لا يكفي أن يكون كتاب الله حكماً بيننا وبين إسرائيل، وقاعدة نبني عليها سياستنا، ونَصُوغ قراراتنا، ونحدد مواقفنا، ونحاكم تصرفاتنا؟». «المتغيرات الدولية والدور الإسلامي المطلوب»: ١٣٨.

(٣) يقول سيد قطب مبيناً حقيقة هذا الإقبال وثمرته: «إن هذا القرآن ينبغي أن يقرىء وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعي. وينبغي أن يتدبر على أنه توجيهات حية، تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم ولتنير الطريق إلى المستقبل. لا على أنه مجرد كلام جميل يرتل؛ أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود! ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا؛ كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه لتلتمس عنده التوجيه الحاضر لشؤون حياتها الواقعة... وحين نقرأ =

هذا عن كتاب الله المقروء فماذا عن كتاب الله المنظور؟

(ب) كتاب الله المنظور كتاب العالم:

بعد الاهتداء بنور القرآن النازل به الوحي، ننظر في فعل الله بالعباد النازل به القدر. وتاريخ أهل الكتاب حافل بالأحداث والوقائع التي أسهمت في تشكّل شخصيتهم.

فمن غير المعقول أن نغمض أعيننا عن هذا المصدر الهام: كتاب العالم.

يقول الله عز وجل يأمرنا بالاطلاع على فعله سبحانه بمن سبقنا:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[1].

وقد مر معنا أن رسول الله ﷺ كان ينمي معرفته بالناس من خلال المراقبة والمتابعة ورصد الأحداث والأعداء. معرفة تستفيد من مختلف المناسبات والظروف. معرفة يَقَظة وحَذَر، تنبّه وفِطنة، قوة وطاقة، بذل وجهد وعمل.

فلا بد إذن من الاطلاع على تاريخ القوم وحاضرهم وما يخططون له في المستقبل.

نعم! لا بد من معرفة المصادر التي تؤثر في عقليتهم ونفسيتهم، والاطلاع على ما يروج في أوساطهم مما تنمِّ عنه منشوراتهم وما يرشح من

= القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد. وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهي! سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم الطريق؛ وتقول لنا: هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه. وتقول لنا: هذا عدو لكم وهذا صديق. وتقول لنا: كذا فاتخذوا من الحيطة وكذا فاتخذوا من العدة. وتقول لنا حديثاً طويلاً مفصلاً دقيقاً في كل ما يعرض لنا من الشؤون. «في ظلال القرآن»: ٢٦١.

(١) سورة الروم، الآية: ٤٢.

أخبار مؤتمراتهم.

هما مصدران إذن: كتاب الله الموحى به، نقرأه بقلوب منوّرة وعقول مرحومة. وكتاب الله المنظور، كتاب الفعل الإلهي بالناس المصدِّق لتقريرات الحق سبحانه في كتابه الموحى به[1].

هذا عن مصدر معرفتنا بأهل الكتاب، فماذا عن منهجية دراستنا لهذه الشخصية؟

٣ ـ منهجية دراستنا لشخصية الكتابي:

يعمد الدارسون في بداية عرضهم لمعالم شخصية أهل الكتاب إلى توضيح خطتهم في الدراسة[2]، ولا تعدو هذه مناهج أن تكون إحدى طريقتين:

الأولى: الوقوف عند الآيات والنصوص القرآنية التي تعرض لشخصية أهل الكتاب، ثم شرحها مع إيراد ما يوافقها من نصوص التوراة أو الإنجيل أو الأحداث التاريخية.

ونقطة الضعف في هذا المنهج أنه لا يسهم في عرض صورة واضحة عن شخصية أهل الكتاب، بل يترك الأمر هكذا، مجزأ.

الثانية: ذكر الصفات النفسية أو السلوكية ثم بسط الحديث عنها مع

(١) ينظر «موسوعة الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه «الكتاب الخامس» تآمر اليهود على حياة الرسول ﷺ: ٣٦.

(٢) يقول: د. حسن ظاظا في مقدمة كتابه «الشخصية الإسرائيلية» في معرض بيانه لمنهجية دراسته للشخصية الإسرائيلية: «من هنا عكفنا على دراسة علمية للمعطيات التي أسهمت في تكوين الشخصية الإسرائيلية، مؤثرين التأمل الهادىء والنظر في النصوص والوثائق والرجوع إلى أحداث التاريخ قديمه وحديثه، على هزات الأكمام الخطابية، وصيحات التشنج الغاضبة، على أمل أن نفتح بذلك نهجاً وقوراً نحو فهم الخطوط العريضة لهذه الشخصية»: ٧.

الاستشهاد لها بما يناسب من النصوص القرآنية والنبوية والمصادر الأخرى.

ويؤخذ على هذه الطريقة غياب التمييز بين الصفات النفسية والسلوكية وعدم الجمع بينها من خلال بيان الأصلي منها والفرعي.

وعلى العموم فالطريقتان السابقتان خطوتان لا بد منهما في دراسة شخصية أهل الكتاب، ولعل تركيبهما يفضي بنا إلى طريقة ثالثة ـ أراها الأمثل ـ وذلك بذكر الصفات النفسية الأصلية وما يرتبط بها من الصفات النفسية الفرعية، ثم بيان ما يتفرع عنها من الصفات السلوكية، كل ذلك يجب أن يكون مصحوباً بعرض الشواهد القرآنية وغيرها.

وتتجلى فوائد هذه الطريقة في:

ـ الوقوف على العمق النفسي لكثير من سلوكيات أهل الكتاب.

ـ التمييز بين الملامح الأصلية والدخيلة في شخصية أهل الكتاب. فالأصيل منها ما كان له تجذر وعمق في نفسية القوم.

ـ تيسير عملية الإدراك الشامل للمعالم النفسية والعقلية والسلوكية لشخصية أهل الكتاب من خلال الوقوف على الروابط التي تجمع كثيراً من الصفات في معالم مشتركة. وبيان علاقاتها مع باقي المعالم الأخرى.

هذه إذن دراسة لأهم الإشكالات التي تعترض الباحث في معالم شخصية أهل الكتاب. جعلتها مدخلاً لمساهمتي في هذا الباب.

المحـور الثانـي
معالم في شخصية الكتابي

حرصاً على معرفة مبصرة لا يكدرها التعصب ولا تلونها الرغبة الذاتية، وبعيداً عن أي نزعة تمجد الذات من خلال تصوير الآخرين بألوان السواد... حرصاً على كل ذلك، نقبل على آي القرآن وأحاديث سيد الأنام نلتمس منهما معرفة بالخطوط العريضة والمعالم الكبرى لشخصية الكتابي عملاً بقوله تعالى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[1].

والكلام عن جوهر شخصية أهل الكتاب من خلال الوحي المنزل ـ قرآناً كريماً وسنة نبوية صحيحة ـ من شأنه أن يضبط المقاييس المضطربة فيما يغيب عنا من الملامح النفسية لهذه الشخصية، وما يتشابه الأمر فيه علينا فنحسبه أصيلاً وهو في الحق دخيل.

وقد يستكثر القارىء الكريم من النصوص القرآنية والنبوية، فعسى أن لا يضيق بذلك، لأنها مادة هذه الدراسة. ليس لي فيها غير جهد الجمع أولاً والتدبر والاستقراء ثانياً ثم جهد التنسيق والعرض ثالثاً.

وسأركز بطبيعة الحال على المعالم التي أرى أنها تخدم الموضوع مباشرة وما أقدر أنه من جوهر شخصية الكتابي وطبيعة عقليته وتفكيره، وأصيل سمته وملامحه.

دون أن أغفل المصادر الأخرى ـ الدينية والتاريخية... ـ التي ستسهم لا شك في إغناء معرفتنا بالقوم.

واخترت أن أعرض هذه المعالم من خلال الوقوف على أمهات

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

الصفات النفسية والاعتقادية أولاً لأجل توضيحها وبيان معانيها ثم أنتقل ثانياً إلى تتبع فروعها ونتائجها الأخلاقية والسلوكية. عملاً بالقاعدة التي تقول «التصور عنوان التصرف»(١).

وسأنبه أثناء الحديث عن هذه الصفات، على ما يعتبر منها خاصاً باليهود(٢) أو النصارى وما هو عام يشمل الطائفتين.

اعتباراً لما سبق، وبعد التتبع لصفات القوم، تبين لي أنها ترجع في مجموعها إلى خمس صفات نفسية وعقلية وسلوكية كبرى. سأعرض لها من خلال التصميم الآتي:

- الحرص على الحياة.
- اتباع الهوى.
- قسوة القلب.
- الغرور.

---

(١) فالإنسان يتصرف وفق تصور مسبق للأشياء، لذا وجب الوقوف أولاً على ما له علاقة بالتصور ثم بيان التصريف العملي والسلوكي لهذه التصورات. ينظر «الإسلام والجنس» لفتحي يكن: ٢٤.

(٢) لسائل أن يسأل: ما جدوى الحديث عن صفات اليهود وصفات كثير من النصارى الصليبيين وقد استثناهم النص القرآني من المجادلة بالتي هي أحسن؟
جواباً على ذلك نذكر أن في الأمر فوائد تخدم الموضوع أذكر منها:
(أ) سيتضح لنا بعد عرض صفاتهم النفسية والعقلية والسلوكية أن في القوم من هم أبعد عن أن يكونوا طرفاً في المجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا ينضاف دليل آخر على استحالة أي مجادلة معهم، إلا أن تكون بالتي هي أخشن.
(ب) ثم إننا إذا وقفنا على صفات المستثنين من المجادلة بالتي هي أحسن ستترسم لنا ـ لا محالة ـ معالم جديدة في شخصية الطائفة التي يمكن أن يكون لنا معها لقاء، من باب «بضدها تتميز الأشياء».
(ج) هذا، وسيكون لما نعرض فائدة في بابا المجادلة بغير التي هي أحسن.
لهذه الاعتبارات وغيرها اخترت ذكر صفات القوم.

ـ الحسد.

وسأختم الكلام في كل صفة بالتنبيه على مقتضيات إدراك هذه الصفات في عملية المجادلة ما وسعني الأمر.

وسأتمم الحديث عن هذه الصفات بذكر آثار العقوبات الربانية في شخصية أهل الكتاب. ثم أجعل خلاصة هذه الدراسة تذكرة بالفوائد العملية لإدراك معالم شخصية أهل الكتاب.

المعلم الأول ـــ الحرص على الحياة:

قال الله عز وجل:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

وردت الآية في سياق الحديث عن موقف بني إسرائيل من دعوة الإسلام، وكيف أن هذا الموقف المتعنت ما هو إلا استمرار لموقفهم من رسالة موسى عليه السلام والأنبياء من بعده.

وفي معرض الرد على ادعاءاتهم الباطلة، أمر الله عز وجل نبيه المصطفى ﷺ أن يتحداهم بتمني الموت إن كانوا صادقين في أنهم المخصوصون بنعيم الآخرة. قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً[2] مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٥.

(٢) ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي مخصوصة بكم كما تزعمون». «روح المعاني»: ١/ ٣٢٧.
وعن عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ. ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٢٢١.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وبعد أن كذبهم الحق سبحانه في ادعائهم، جزم بأنهم لن يتمنوا الموت[2] لعلمهم بما قدمت أيديهم من الظلم والفساد. قال تعالى:

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾[3].

وختم الله عز وجل هذا المشهد بالكشف عن سر كراهيتهم للموت، قال تعالى:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[4].

قال الطاهر بن عاشور (ت. ١٣٩٣هـ): «وفي هذه الآية زيادة في وصفهم بالأحرصية المتجاوزة للحد[5]»[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٤.

(٢) عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لعنة الله عليه: إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: ««**لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً**» رواه البخاري. ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٨/٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

(٥) قلت: كل الناس، والمؤمنون منهم، يحرصون على الحياة. غير أن حرص المؤمن يدخل في باب التزود للآخرة ـ إذ الدنيا مزرعة الآخرة ـ حتى إذا جاء ملك الموت وأطلعه على مقامه في الجنة أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، في حين يحرص الكافر على الدنيا من حيث إنها فرصته الوحيدة للمتعة ـ فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ـ ومن حيث إنه خرب آخرته وعمر دنياه فهو يكره أن ينتقل من عمران إلى خراب. ثم إن الكافر قد عجلت له طيباته في الحياة الدنيا فقد أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب قال: «قلت ـ أي لرسول الله ﷺ ـ ادع الله فليوسع على أمتك، فإن فارس والروم وسع عليهم أعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله». وكان متكئاً فقال: «**أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**». ينظر «كتاب المظالم»، الباب الخامس والعشرون من صحيح البخاري. وينظر «فتح الباري»: ٥/٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٦) «التحرير والتنوير»: ١/٦١٧.

ويبين الطباطبائي شدة هذا الحرص بقوله: «قوله تعالى:
﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ﴾[1] الظاهر أنه عطف على الناس، والمعنى ولتجدنهم أحرص على الحياة الدنيا من الذين أشركوا الذين لا يرون بعثاً ولا نشورا»[2].

ورب سائل يسأل: فما بالهم اليوم حريصون على حياة (حق الحياة)، وغيره أحرص الناس على حياة؟

يقف بنا سيد قطب على جزء من الجواب[3] إذ يقول تعليقاً على الآية السابقة: «إنها يهود في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء. وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة. فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس. وعنت جبناً وحرصاً على الحياة.. أي حياة[4]»[5].

وكان من نتائج حرصهم على حياة أي حياة أمور نذكر منها:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٦.
(٢) «الميزان في تفسير القرآن»: ١/ ٢٢٩.
(٣) وسأقف على بقية الجواب عند الحديث عن صفة الخوف والجبن.
(٤) من لطائف الإشارات ما نبه عليه المفسرون في حكمة تنكير الحياة في قوله تعالى: ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. فالتنكير هنا يشمل معنى التنويع أي كيفما كانت تلك الحياة... ومعنى التحقير... لا يهمهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط. ينظر «التحرير والتنوير»: ١/ ٦١٧. و«الميزان في تفسير القرآن»: ١/ ٢٢٨ـ ٢٢٩.
(٥) «الظلال»: ١/ ٩٢ ويبرز أبو زهرة تجلي هذا الحرص بقوله: «إن اليهود الذين جاء المسيح مبشراً بهذه الديانة بينهم كان يغلب عليهم النزعات المادية، وكان منهم من يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بني الإنسان بل إن التوراة التي بأيديهم خلت من ذكر اليوم الآخر ونعيمه أو جحيمه، ومن فرقهم من كان يعتقد أن عقاب الله الذي أوعد به العاصين، وثوابه الذي وعد به المتقين إنما زمانه في الدنيا لا في الآخرة. «محاضرات في النصرانية»: ١١.

(أ) كراهية الموت:

يقول صاحب الميزان: «﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[1] كالدليل المبين لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[2] .. أي: ويشهد على أنهم لن يتمنوا الموت أنهم أحرص الناس على هذه الحياة التي لا حاجب ولا مانع عن تمني الدار الآخرة إلا الحرص عليها والإخلاد إليها»[3].

ويقول الله عز وجل:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾[4].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ جزم، وحكم مؤبد بكراهيتم للموت[5].

(ب) الخوف والجبن:

يا ليتهم خافوا الله عز وجل كما أمرهم:

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾[6] ولكنهم خافوا الناس: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٥.

(٣) «الميزان»: ١/ ٢٢٨.

(٤) سورة الجمعة، الآيتان: ٦، ٧.

(٥) «وإنما كان حرصهم أبلغ لعلمهم بما قدمت أيديهم من الظلم والإفساد وبأنهم صائرون إلى العذاب، ومن توقع شراً كان أنفر الناس عنه وأحرصهم على أسباب التباعد منه». «روح المعاني»: ١/ ٣٢٧ بتصرف. ويفيد كثيراً توظيف أسلوب الحرب النفسية في جلادنا مع اليهود اعتباراً لتجدر صفة الخوف من الموت فيهم ولأن من «أهم أهداف الحرب النفسية التخويف من الموت» كما بين ذلك اللواء الركن محمود شيت خطاب في مقاله: «الإسلام والحرب النفسية». ينظر فلسطين المسلمة، العدد ٢ السنة ١٤ رمضان ١٤١٦/ فبراير ١٩٩٦: ٦٢.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٠. يقول الطاهر بن عاشور: «والتقديم إذا اقترن بالفاء كان فيه مبالغة... فالمعنى هنا: ومهما يكن شيء فإياي فارهبون». «التحرير والتنوير»: ١/ ٤٥٤.

﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾[1].

فكان من خوفهم الناس أن جبنوا وتخاذلوا عن القتال في سبيل الله مع طالوت، وانسلوا عنه لواذاً إلا فئة قليلة من بينها داود[2].

وكان من جبنهم أنهم ما إن شاهدوا جيوش فرعون تتقدم نحوهم[3] حتى صاحوا قائلين ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾[4]. قال تعالى يصف المشهد:

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾[5].

«فأجابهم موسى مطمئناً لخواطرهم مذهباً الخوف من نفوسهم ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾[6]»[7].

ولما أشرف بهم على الأرض المقدسة الموعودة قال موسى عليه السلام مستنهضاً لهم محرضاً إياهم على القتال:

﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾[8].

غير أن القوم جبنوا عن القتال واعتذروا بقوة عدوهم، قالوا:

﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَاۖ فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾[9].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.
(٢) ينظر المشهد من خلال سورة البقرة، الآيات: ٢٢٤ ـ ٢٤٩.
(٣) وذلك بعد أن خرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر نحو الأرض المقدسة.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٦١.
(٥) نفسها.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.
(٧) «هؤلاء هم اليهود. فاعتبروا يا أولي الأبصار» لأبي بكر الجزائري: ٨٢.
(٨) سورة المائدة، الآية: ٢١.
(٩) سورة المائدة، الآية: ٢٢.

«والعجب من القوم أنهم اشترطوا لدخولهم الأرض المقدسة خروج العمالقة[1] منها. فيا ترى من يخرجهم منها؟»[2].

فلما حصحص الحق قالوا ـ وبئس ما قالوا ـ:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[3].

يقول سيد قطب: «إنها جبلة يهود لتبدوا هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل. ذلك أنهم أمام الخطر؛ فلا بقية للتجمل... وهكذا يحرج الجبناء فَيتوقَّحون[4]؛ ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر ولا يقدمون! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين؛ بل إنهما لصنوان في كثير من الأحيان. يُدفع الجبان إلى الواجب فيجبن فيحرج بأنه نكل عن الواجب، فيسب هذا الواجب ويتوقح على دعوته التي تكلفه ما لا يريد»[5].

---

(١) هم سكان الأرض المقدسة يومها والعماليق والعمالقة قوم من ولد عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وهم أمم تفرقوا في البلاد. «مختار الصحاح»: ٤٢٣.

(٢) «هؤلاء هم اليهود»: ٨٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

(٤) «وقَح الرجل: قل حياؤه». «مختار الصحاح»: ٦٨٠.

(٥) «الظلال»: ٢/ ٢٧٠. مما يبين أن يهود ـ ومن في حكمها ـ لا ينفع معها إلا التهديد العنيف ما أورده الدارسون عند قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: ٦٣]. ذلك أن موسى عليه السلام لما طالب القوم بالامتثال والطاعة فتأبوا عليه وتمنعوا، كان من مناسب لإخضاعهم لأمر الله تعالى ولو مؤقتاً أن يرفع الله تعالى فوق رؤوسهم جبلاً بكامله وهو جبل الطور تهديداً لهم وتخويفاً. ولما رأوه فوقهم كأنه ظُلة أذعنوا لأمر الله تعالى وتعهدوا وأعطوا عهداً وميثاقاً بأخذ الكتاب وقراءته والعمل بما فيه. ينظر «هؤلاء هم اليهود»: ٨٨. «إن الله يعلم هذه التركيبة العجيبة في نفسية اليهود لذلك قدم لهم آية مادية عنيفة رهيبة، ملأتهم رعباً وخوفاً وهولاً. «فلسطين المسلمة» العدد ٥، السنة ١٥، =

ومن العجب أن الله عز وجل أخبر أن شعور الخوف والجبن لا ينكشف إلا على يد العصبة المؤمنة. قال تعالى:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

«فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله. فلو خافوا الله ما خافوا أحداً من عباده فالعزة لله جميعا، وكل قوى الكون خاضعة لأمره، ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾[2].

فمم يخاف إذن ذلك الذي يخاف الله؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[3] وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة»[4].

ومن حقيقة القوم الواقعة أيضاً، أنهم لشدة خوفهم من المؤمنين لا يقاتلونهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر.

قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾[5].

«وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في «تشخيص» حالة منافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون في في أي زمان ومكان بشكل واضح للعيان. ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة. فما كانوا يقاتلونهم

= محرم ١٤١٨/ ماي ١٩٩٧: ٤٧.

(١) سورة الحشر، الآية: ١٣.

(٢) سورة هود، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٣.

(٤) «الظلال»: ٦/ ٣٥٢٨.

(٥) سورة الحشر، الآية: ١٤.

إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين. فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجردان[1]. حتى كأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء. وسبحان العليم الخبير»[2].

وهكذا يتبين أن الجبن والخوف مركوز في أعماق اليهود، وما ذاك إلا لكراهيتهم الموت وحرصهم على حياة، وأي حياة[3].

---

(١) قال تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

(٢) «الظلال»: ٦/ ٣٥٢٨.

(٣) يبين القرآن الكريم خاصيتين متقابلتين متناقضتين في النفس الإسرائيلية، هما: الاستعلاء من جهة، وملازمة الجبن والذلة والمسكنة من جهة أخرى. ينظر «الكنز المرصود في فضائح التلمود» تأليف: الدكتور وجسترو هلنج. ترجمة الدكتور يوسف حنا نصر الله. شرح وتعليق: د. محمد عبد الله الشرقاوي: ١١٥ـ ١١٦. ولا غرابة فاليهود عندما يشعرون بأنهم أمام قوة حقيقية تردعهم يخنسوا ويذلوا ويتمسكنوا، حتى إذا ما ضعفت هذه القوة، أو زال عنهم خطرها عاثوا وعربدوا. والتاريخ شاهد على هذا الأمر فمن ذلك ما حدث لهم مع نبي الله موسى عليه السلام بعد أن خرج ببني إسرائيل من البحر وغرق فرعون وجنوده، شعروا أنهم أصبحوا في أمن، وأنهم أصبحوا أحراراً فتكبروا وعتوا، وبدؤوا يطالبون رسولهم موسى عليه السلام بمطالب تدل على أنهم قد نسوا ما كانوا عليه من حياة الذل والهوان تحت طغيان فرعون. ينظر «التاريخ الإسلامي» لمحمود شاكر: ١/ ٥٣. وينبه صلاح العجماوي على هذه الحقيقة بقوله: «إن اليهود لا يتسمون بالشجاعة، بل الغدر ديدنهم والخيانة طريقهم والخديعة وسيلتهم، فهم يتخفون وراء أسلحة فتاكة في مواجهة قوم عزل، إذا كانت الحرب فلا شرف لقتال فهم لا يتورعون عن استخدام الأسلحة الممنوعة دولياً أو إنسانياً... فإذا صادفتهم حرب جادة كحرب العاشر من رمضان فهم الجبناء الرعاديد». «جوهر الإيمان في صحيح الأديان. التوراة والإنجيل والقرآن»: ج١,/ ٥٩. ويوم يأذن الله ببعث عباده أولي البأس الشديد ستنتهي عربدة يهود وحلفائهم الصليبيين وسيندحرون خاسئين، وما بشائر الفتح المبين في جنوب لبنان إلا طلائع لهذا البعث الرباني.

(ج) نبذ للدين واتجار بآيات الله:

يقول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ[1] ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[2].

«فكتموا ذلك[3] وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم»[4].

كان للحقد التآمري[5] الدفين في صدور اليهود، وظلمة الغربة[6]، ويأس المنفى، والانكماش على الذات، واختمار الأوهام في تلك البيئة، وتراقص الآمال أمام الأقليات اليهودية المهجورة اجتماعياً، دوافع لسعي اليهود إلى الإقبال على الدرهم والدينار لاستقطاب ثروات المجتمعات المضيفة، ولسعي كاهنهم الساحر القارىء حافظ الأسرار لتوفير النصوص

---

(١) «الاشتراء مجاز من الاستبدال لاختصاصه بالأعيان... والكلام على الحذف ـ أي لا تستبدلوا بالإيمان بالآيات، والاتباع لها ـ حظوظ الدنيا الفانية... والتعبير عن ذلك بالثمن مع كونهم مشترى لا مشترى به للدلالة على كونه كالثمن في الاسترذال والامتهان، ففيه تقريع وتجهيل قوي حيث إنهم قلبوا القضية وجعلوا المقصود آلة والآلة مقصوداً». «روح المعاني»: ١/ ٢٤٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧. «ولم يكتموا ما كتموه إلا حفظاً لما يدر عليهم من رزق الرياسة، وأبهة المقام والجاه والمال». «الميزان»: ١/ ٤٢٦.

(٣) أي ما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره.

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ١٧٢.

(٥) ينظر أسباب هذا الحقد عند حديثنا عن صفة الحسد.

(٦) قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨]. «والمراد من الأرض الجنس، أي في أقطار الأرض». «التحرير والتنوير» ٩/ ١٥٧. وهذا من عاجل العقوبة الإلٰهية على اليهود ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ﴾ [الروم: ٤١].

والفتاوى المبيحة لسرقة «الكويم»[1] الأجنبي غير الإسرائيلي، المعتبر عندهم حيواناً لا حرمة له. والسحر إلى هذا كان دين «الكبالين»[2]، وحساب الأعداد، والتنجيم، وما تدره هذه السلطة من أرباح[3].

يقول سيد قطب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[4]: «الثمن والمال والكسب الدنيوي المادي كله شنشنة يهود من قديم!! وقد يكون المقصود بالنهي هنا ما يكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبة على الأغنياء منهم الكبراء، كما ورد في موضع آخر، واستبقاء هذا كله في أيديهم يصد شعبهم كله عن الدخول في الإسلام[5] حيث تفلتت منهم القيادة والرياسة»[6].

واليهود قوم عكفوا على المادة[7]، واستغرقتهم واستولت على أهوائهم

---

(١) هو كل أجنبي من غير اليهود. ينظر «الشخصية اليهودية»: ١٢٠.

(٢) المرجع السابق: ٨٨.

(٣) يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]. وعن عمر بن الخطاب أنه قال: «الجبت السحر، والطاغوت الشيطان»... وقال: مالك الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل. ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٣١٥ ـ ٣١٦. ويقول رشيد رضا: «الجبت أطلق على السحر وعلى الساحر وعلى الشيطان والطاغوت وكل ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد، ورئيس يقلد وهوى يتبع». «تفسير منار»: ٥/ ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٤١.

(٥) إذا لم يكتفوا بكتمان الحق بل ألبسوه بالباطل إمعاناً في الكتمان. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢].

(٦) «الظلال»: ١/ ٦٧.

(٧) يبين القرآن أن بني إسرائيل كانوا قوماً «غائرين في المادة، مكبين على ما يعطه الحس من لذائذ الحياة الصورية، فقد كانت هذه الأمة لا تؤمن بما وراء الحس، ولا تنقاد إلا إلى اللذة، والكمال المادي، وهم اليوم كذلك». «الميزان»: ١/ ٢١٠.

ومشاعرهم حتى لقد كان نساكهم وسدنة الهياكل عندهم، وقد فاتهم العمل على كسب المال من أبوابه الدنيوية، يجمعون المال من نذور الهياكل، والقرابين التي يتقرب بها الناس، ويحرصون على ذلك أشد الحرص، فكانوا يأخذون القرابين من أشد الناس حاجة وفقراً[١].

ولئن اتجر أحبار اليهود في آيات الله فحرفوها[٢] ومارسوا السحر، فإن أحبار النصارى أتيح لهم أن يمارسوا التجارة في الدين تفصيلاً وجملة: إذ إن مؤسسة البابوية تعاملت مع الدولة، تارة من موقع قوة وطوراً من موقع تبعية... الكنيسة تبيع الإمبراطورية سندها فتقضي الثمن ضياعاً ومتاعاً ونفوذاً وتقاسماً للسلطة. والقساوسة ورؤساؤهم يبيعون الأفراد «مغفرة الذنوب» و«البركة» والسمعة الاجتماعية بالأصفر الرنان. إنه احتراف إذن في الاتجار بآيات الله[٣].

وهكذا استمرت المجامع المسكونية ـ الكرادلة والأساقفة ـ[٤] تحت

---

(١) ينظر «محاضرات في النصرانية»: ٢١.

(٢) بتجميع الآيات التي تحكي نوع التحريف الذي طال التوراة والإنجيل وهي الآيات: البقرة: ٤٧، والنساء: ٤٥ والمائدة: ١٤ و٤٣ نخلص إلى «أن أهل الكتاب أوتوا نصيباً من الكتاب ونسوا نصيباً منه بسبب فقد الكتاب وعدم حفظهم له كله في الصدور. ثم إن الذي أوتوه منه وبقي لهم، ما كانوا يعملون به كما يجب ولا يقيمون ما يعملون به كما ينبغي، بل كانوا يحرفونه عن مواضعه باللي والتأويل، على أنه وصل إليهم محرف لفظه لأنه نقل من قراطيس وصحف متفرقة لا ثقة بأهلها ولا بضبط ما فيها». «تفسير منار»: ٦/ ٢٨٥.

(٣) يشهد لهذا الأمر ـ فضلاً عما قيل ـ أن المواضع الثمانية التي وردت فيها عبارة «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً» وما في معناها كلها تحكي أسلوب اليهود والنصارى في تعاملهم مع آيات الله عز وجل. فهم أصحاب خبرة وسابقة في هذا الميدان. ينظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن»: ٣٨١. وينظر «اليهود تجار مبادىء». فلسطين المسلمة، العدد ٩ السنة ١٣: ٥٢.

(٤) وهي فرق نصرانية.

سلطة البابا منتخب تمارس سلطتها المطلقة بالتشريع، فتتبنى ما تراه من المعتقدات وتؤول وترسم الاتجاه الديني والسياسي للكنيسة. . . شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله كما يشاءون.

وبهذا البيان نكون قد تتبعنا كيف تفرع عن حب الدنيا كل هذا البلاء والذي بلغ مداه في الاتجار بآيات الله[1]. ورحم الله من قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[2].

---

(١) «اليهود لا تتورع في جمع المال على سلوك أي سبيل ولو كان الاعتداء على أرواح الناس بالقتل طمعاً في حطام الدنيا. فقد أخرج البخاري ـ «كتاب الديات» الباب الثامن والثلاثون. ينظر «الفتح»: ١٤/ ١٨٢ ـ عن أنس بن مالك قال: خرجت جارية عليها أوضَاح بالمدينة (أوضاح جمع وَضَح، قال أبو عبيد هي حلي الفضة، ونقل عياض أنها حلي من حجارة، ولعله أراد حجارة الفضة احترازاً من الفضة المضروبة أو منقوشة. ينظر «فتح الباري»: ١٤/ ١٨١ وينظر «مختار الصحاح»: ٦٧٦) قال فرماها يهودي بحجر قال: فجيء بها إلى النبي ﷺ وبها رمق فقال لها رسول الله ﷺ: «**فلان قتلك؟**» فرفعت رأسها فأعاد عليها قال: «**فلان قتلك؟**» فرفعت رأسها في الثالثة: «**فلان قتلك؟**» فخفضت رأسها فدعا به رسول الله ﷺ فقتله بين الحجرين».

(٢) هذا القول معروف عن جندب بن عبد الله البجلي. ينظر «الفتاوى»: ١٨/ ١٢٣. يخبرنا المصطفى ﷺ أن حب الدنيا والتنافس عليها كان سبب هلاك الأمم قبلنا، فقد أخرج البخاري ـ «كتاب الجزية والموادعة»، الحديث رقم ٣١٥٨. «فتح الباري»: ٦/ ٣٩٠ ـ عن عمرو بن عوف الأنصاري ـ وكان قد شهد بدراً ـ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة ابن الجراح إلى البحرين يأتيه بجزيتها وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين وأَمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافقت صلاة الصبح مع النبي ﷺ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له. فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم وقال: «**أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء**» قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتكم**».

المعلم الثاني ـــ اتباع الهوى:

من رحم حب الدنيا والحرص على حياة... أي حياة، يخرج مولود لا يعرف له غير الهوى إلاهاً. قال تعالى:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾[1].

وتلك حال بني إسرائيل الذين استحكمت فيهم الأهواء وقد قص الله عز وجل علينا ذلك في أكثر من ستة مواضع[2].

وقد أقام الله عز وجل الحجة الدامغة على أنهم أصحاب هوى لا دليل لهم من عقل أو نقل يستندون عليه فيما يذهبون إليه، إنما هو الهوى الذي يسوقهم قال تعالى:

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾[3].

«فاعلم أنما يتبعون أهواءهم الزائغة من غير أن يكون لهم متمسك ما أصلاً إذ لو كان لهم ذلك لأتوا به ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[4] استفهام إنكاري للنفي أي لا أضل ممن اتبع هواه... ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5] الذين ظلموا أنفسهم وانهمكوا في اتباع الهوى والإعراض عن

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

(٢) منها قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩]. وينظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن»: ٧٤٠.

(٣) سورة القصص، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٤) نفسها.

(٥) نفسها.

الآيات الهادية إلى الحق المبين»[1].

ومن مظاهر اتباعهم للهوى:

(أ) كفرهم بآيات الله وإعراضهم عن الحق[2]:

«إن الحق في هذا القرآن لبين؛ وإن حجة هذا الدين لواضحة، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده. وإنهما لطريقان لا ثالث لهما: إما إخلاص للحق وخلص من الهوى، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم. وإما مماراة في الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق»[3].

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[4].

وقال عز من قائل:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾[5].

وقد بين الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي أن من أبرز مقومات الشخصية الإسرائيلية الإلحاد[6] في العقائد الذي يتمثل في تطاولهم على الله تعالى.

---

(١) «روح المعاني»: ٢٠ ـ ٩٣.

(٢) للاطلاع على المواقع التي تبرز هذه الصفة في أهل الكتاب ينظر «معجم الأعلام والموضوعات»: ٣١٣ـ ٣١٤.

(٣) «الظلال»: ٥/ ٢٦٩٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠١.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧٠.

(٦) «ألحد في دين الله: أي حاد عنه وعدل». «مختار الصحاح»: ٥٥٥.

ومن كفرهم بآيات الله نشأ الاستخفاف بالوحي والتطاول على كتاب الله. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ[1] أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

ولم يكن الأمر مجرد استخفاف بآيات الله، بل انسلاخ عنها. ولم يكتف القوم بذلك بل رجعوا إلى كلام الله عز وجل بالتبديل والتغيير[3].

---

(١) من مظاهر لي ألسنتهم بالكتاب: أنهم يقرؤون ما افتروه من الحديث على الله سبحانه بألحان يقرؤون بها الكتاب تلبيساً على الناس ليحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب. ومن مظاهره أيضاً: الألفاظ التي جاءت على لسان سيدنا عيسى عليه السلام؛ ككلمة ابن الله، وتسمية الله أباً له، وأباً للناس، فقد كان ذلك استعمالاً مجازياً، ولواه بعضهم فنقله إلى الحقيقة بالنسبة إلى المسيح وحده. ينظر «الميزان»: ٣/ ٢٦٦، و«تفسير منار»: ٣/ ٣٤٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٨.

(٣) فالنصارى يزعمون أن اليهود بدلوا ما بين أيديهم من نسخ التوراة عناداً وحذراً من الاعتراف بإرسال المسيح عليه السلام. واليهود يزعمون: أن النصارى بدلوا ما بأيديهم من النسخ، وأن المسيح عليه السلام إنما يأتي في آخر الدور السابع، وما بأيديهم من نسخها موافق لما ادعوه. فقد أجمع الفريقان: على القول بوقوع التبديل، وكل طائفة تجعله صفداً في عنق الأخرى. ينظر «شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل». تصنيف حجة الإسلام أبي المعلى إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: ٣٢ ـ ٣٣. وفي قصة سلمان الفارسي نأخذ قول الراهب: «والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به. «سيرة ابن هشام»: ١/ ١٦١. وقال الأستاذ محمد منير الدمشقي: «وكان اليهود قد آمنوا بالتوراة وكانت ضلالتهم تحريف أحكام التوراة تحريفاً لفظياً أو معنوياً وكتمان آياتها وإلحاق ما ليس منها بها افتراء منهم وتساهلاً في إقامة أحكامها ومبالغة في التعصب لمذاهبهم واستبعاد رسالة نبينا ﷺ، وسوء الأدب والطعن بالنسبة إليه ﷺ، بل بالنسبة إلى حضرة الحق تبارك وتعالى أيضاً». «معجم آيات القرآن الكريم» بهامش «الفوز الكبير في أصول التفسير»: ٧. ويقول عبد الله الترجمان: «اعلموا رحمكم الله أن الذين كتبوا الأناجيل الأربعة هم: متى، ولوقا ومارقس ويوحنا، وهؤلاء الذين أفسدوا دين عيسى عليه السلام، وزادوا ونقصوا، وبدلوا وغيروا كلام الله تعالى مثلما أخبر سبحانه عنه في كتابه العزيز وليس هؤلاء الأربعة من الحواريين الذين أثنى الله عليهم في القرآن =

قال تعالى:

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[(١)].

وفي الأثر عن أبي هريرة رضي الله عنه (ت. ٥٩ هـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل**: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾[(٢)] فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم[(٣)] وقالوا: حبة في شعرة»[(٤)].

وهكذا نقضوا العهد[(٥)]، وخالفوا أمر الله عز وجل، وجحدوا الحق الواضح الصريح[(٦)]، فلم تعد تنفعهم حجة، ولا يقطع إنكارهم آية؛ فلو

= الشريف». «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب»: ٢٤. فالقوم إذن أهل تحريف وتبديل لآيات الله.

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٥. ينظر «معجم الأعلام والموضوعات»: ٣١٦. تجد فيه الآيات التي تعرض لهذا التحريف والتبديل إخفاء للحق. وينظر مقال «الجحود وكتمان الحق» لإبراهيم العليم. فلسطين المسلمة العدد العاشر، السنة ١٥، جمادى الثانية ١٤١٨/ اكتوبر ١٩٩٧: ٤٨. ولنفس المؤلف مقال «الجحود اليهودي للحق الواضح والصريح» نفس المرجع، العدد ١٤، السنة الرابعة، ذو القعدة ١٤١٦/ أبريل ١٩٩٦: ٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

(٣) **استاههم**: أي يزحفون. ينظر «الفتح»: ٨/ ٣٠٤.

(٤) أخرجه البخاري كتاب التفسير، الباب الرابع، ينظر «فتح الباري»: ٩/ ١٩٤. وكثيرة هي المواقف التي بدل فيها بنو إسرائيل أمر الله عز وجل وخالفوه. قال رسول الله ﷺ: «**قاتل الله اليهود لما حرم الله عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوها**» أخرجه البخاري عن جابر، كتاب التفسير، الباب السادس، ينظر «الفتح»: ٩/ ١٨٢. وقال ﷺ: «**لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» أخرجه البخاري عن ابن عباس كتاب المغازي، الباب الرابع والثمانون، ينظر «فتح الباري»: ٨/ ٤٨٧.

(٥) ينظر «نقض العهود والمواثيق». مقال لإبراهيم العلي. فلسطين المسلمة، السنة ١٥ العدد ٥ محرم الحرام ١٤١٨/ مايو ١٩٩٧: ٤٨.

(٦) المرجع السابق.

آتيتهم بكل آية ما تبعوا ما تدعوهم إليه من الحق، لعنادهم وجحودهم.

قال تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾[1]﴾[2].

فلما زاغوا عن الحق، أزاغ الله قلوبهم. واختلطت عليهم الأمور. فلم يعد بين أيديهم إلا المعيار الحسي المادي يقيّمون به الحقائق[3]

---

(١) «يخبر تعالى عن كفر اليهود، وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم». «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٣٤١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.

(٣) إن من أسرار الحكمة الإلـٰهية في إرسال سيدنا عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل أن يذكرهم بأيام الله ومنته وفضله عليهم، ويعرفهم بالجانب الروحي، وقد طغت عليهم المادة طغياناً كبيراً وليذكر قدرة الله العظيمة، وأنها فوق كل قدرة وقد هيأ الله جل علاه لهذا النبي البيئة لتكون علامة الطهر والصلاح، إذ ولدت الأم التي ستنجبه في بيت الفضيلة وتربت في مكان العبادة عند نبي من أنبياء الله وهو زكريا عليه السلام زوج خالتها، وقد عرفت بالعفة والطهر والعبادة، وقد نبتت على ذلك قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٥ ـ ٣٧]. وينظر «التاريخ الإسلامي»: ١/ ٦٣. وقد كان من حكمة امتداد أجل مناجاة أكثر مما وعدهم موسى عليه السلام أن فضح أمرهم وكشف عن أصالة الوثنية في نفوسهم، وأبان عن شدة تشعبها في طباعهم، إذ ما كان ينصرم الأجل الذي عينه لهم حتى ظنوا أن فرصتهم قد سنحت، وأن وثنيتهم المكبوتة قد آن لها أن تخرج رأسها، وتسترد أنفاسها، بعد أن غاب عنها عدوها الباطش القوي، قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٥٠]. ينظر «على هامش الحوار»: ٤٦. فالقوم قد أُشربوا عبادة المادة، وطغت على تفكيرهم حتى أصبحت هي المعيار التي تقاس به الحقائق عندهم.

فاضطربت تصوراتهم من جراء ذلك.

قال تعالى يصف موقفاً من مواقف حيرة القوم وسوء تقديرهم:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾[1].

«فهؤلاء القوم يتعلقون بالمعيار الحسي فيصلا للحقيقة دون تعقل أو تدبر سليم للعواقب، ويطلبون من الشواهد والبينات ما لا يدركون خطره، مع قصر الباع، وضيق الأفق في التصور والتقدير حتى إذا وقع الذي طالبوا، خانتهم أنفسهم، وناءوا عن احتماله، ورجعوا للذي دفعوه من قبل، وألزموا أنفسهم الحجة بذلك على رعونتهم، وسفاهة تفكيرهم، وقصورهم عن شمول التصور والتقدير»[2].

ثم إن واقعة العجل الذهبي[3] تفيد أن الإحساس المادي عند هؤلاء القوم كان أقوى من الإحساس الروحي، فهم لا يقدرون إلا ما يرونه ويلمسون وجوده، من أجل هذا كان التجسيد[4].

ولم يشذ النصارى عن هذه القاعدة فهم ـ كما أخبر القرطبي (ت. ٦٧١هـ) ـ[5] أضعف الناس عقولاً، وأقلهم فطنة وتحصيلاً، فهم لذلك يعتقدون في الله المحالات، وينكرون الضروريات ويستندون في أحكامهم

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٢) «على هامش الحوار بين القرآن واليهود»: ٣٨.

(٣) قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ٩٣].

(٤) ينظر «اليهود تاريخ وعقيدة» للدكتور كامل سعفان: ١٦١. ثم إن القوم قد أشربوا حب المادة، وهذا ما يبرزه قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ٩٣]. قال الطباطبائي: «الإشراب هو السقي، والمراد بالعجل حب العجل، وضع موضعه للمبالغة، كأنهم قد أشربوا نفس العجل». «الميزان»: ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٥) «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام» للإمام القرطبي: ٣٩٣.

إلى الخرافات. فتارة يسندون قضاياهم إلى منامة رأوها أو خرافة سمعوها، وما وعوها، وأخرى تحكم فيها «متقسس» جاهل، بمحض الجهل والهوى والأباطيل، من غير أن يستدل على جواز شيء مما يريد أن يفعل من الأفاعيل، لا بتوراة ولا بإنجيل بل قد يعرض عن نصوص الكتابين، ويتأولهما تأويلاً بعيداً عن الملتين، وربما تنزل بهم عظام النوازل فيجتمعون لها في المحافل فيتحكمون بأهوائهم، ويقولون فيهم بآرائهم، فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾[1].

(ب) الغلو في الدين:

وهذه الصفة ليست خاصة بيهود، بل إنها تعم أهل الكتاب جميعاً. يقول الله تعالى في معرض الحديث عن دعوة عيسى عليه السلام لليهود والنصارى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾[2].

«فمن الغلو في تعظيم عيسى عليه السلام جاءت كل الانحرافات. ومن أهواء الحكام الرومان الذين دخلوا النصرانية بوثنيتهم، ومن أهواء المجامع المتناحرة كذلك دخلت كل تلك المقولات على دين الله الذي أُرسل به المسيح[3]... وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ الأخيرة لأهل

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٠. وقال تعالى مبيناً استحكام الأهواء في قلوب قلوب القوم ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩] أي آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]. أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء. ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٥٨٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٧.

الكتاب؛ ليخرجوا بها من خضم الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات التي غاص فيها أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل»[1].

(ج) الكيد برسل الله:

قال تعالى:

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ[2]﴾[3].

فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ معاملة: «وما ذلك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد انصرفوا لمخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم، وربما قتلوا

---

(١) يقول القرطبي في هذا السياق: «وأما كونهم يحكمون بآرائهم وأهوائهم فيدل على ذلك: ما أودعوه كتبهم ومحافلهم، وما عليه الآن معظم عملهم، ومن طالع تلك الكتب، قضى من جهلهم وجرأتهم على الله كل عجب». «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام»: ٣٩٤.

(٢) «الظلال»: ٢/ ٩٤٦.

(٣) قال الزمخشري: «وإنما لم يقل ﴿وفريقاً قتلتم﴾، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر فقد قال عليه الصلاة والسلام في مرض موته: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري**» رواه البخاري». ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٢١٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٧. ويقول سيد قطب في نفس السياق: «ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارىء والنزوة المتقلبة. ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة منطق الإنساني ذاته. منطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت ـ غير المصدر الإنساني المتقلب ـ مصدر لا يميل مع الهوى ولا تغلبه النزوة، وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضا والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضع الميزان ذاته للنزوة والهوى!». «الظلال»: ١/ ٨٩.

بعضهم»[1].

يقول تعالى مبرزاً هذه الحقيقة:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[2].

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «يذكر أنه تعالى أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ[3]﴾[4].

إنه الهوى الذي يدفع إلى الضلال والتضليل ونقض المواثيق والكيد برموز الحق وإنه الهوى الذي يصم ويعمي. قال تعالى:

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ﴾[5].

«أي وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه»[6].

إنها الأهواء التي تقف بين كثير من أهل الكتاب وبين اتباع الحق الذي جاء به الإسلام، وليس نقص في الحجة ولا ضعف في الدليل.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٢١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٠.

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٦١٤.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٧١.

(٦) ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٦١٤.

أما الذين يتجردون من الهوى فهم يتلون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي بعث به محمد رسول الله ﷺ قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[1].

فلا مطمع إذن في رفع حجاب الهوى عن قلوب القوم إلا برغبة في الحق من قبلهم، أو بخطاب بليغ بقوة حجته، نافذ إلى الأعماق بنورانية صدق قائله.

إن عليك إلا البلاغ.

المعلم الثالث ــ قسوة القلب:

القلوب تطمئن بالإيمان[2]، وتلين بسماع الحق. فإذا ما أعرض الإنسان عن بيئة الإيمان وأخلد إلى أرض الغفلة واتباع الهوى قسا قلبه وعميت بصيرته[3]. وتلك علامة خروجه عن السبيل القويم.

وذلك ما حكاه الله عن كثير من أهل الكتاب. يقول الله عز وجل:

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[4].

يبين ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ) أسباب هذه القسوة التي أصابت أهل الكتاب فيقول: «لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله[5] الذي بأيديهم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢١.

(٢) يقول الله عز وجل: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

(٣) قال تعالى يصف حالة عمى القلوب والبصائر: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

(٤) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٥) يقول الطاهر بن عاشور: «وليس المقصود عذر الذين أوتوا الكتاب بطول الأمد عليهم لأن طول الأمد لا يكون سبباً في التفريط فيما طال فيه الأمد بل الأمر بالعكس =

واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال في دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين قلوبهم لوعد ولا وعيد»[١].

وقد صور الله عز وجل حال اليهود في عدم تأثرهم بالموعظة وبالوعد والوعيد في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[٢].

قال صاحب تفسير المنار: «والمعنى أن هذه الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف فيشقها وينفذ منها بقلة أو كثرة فيحيى الأرض وينفع النبات والحيوان. وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر والعظات والعبر، فالحكم لا تقوى على شقها والنفوذ منها إلى أعماق الوجدان، وأنوار الفطرة قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها على إنسان»[٣].

فكان حالهم مع كتاب الله، كحال الحمار الذي يحمل أسفاراً. قال ابن القيم ـ في معرض بيانه للطبائع الحيوانية في بعض البشر ـ: «ومنهم من نفسه حمارية. لم تخلق إلا للكد والعلف. كلما زيد في علفه زيد في كده. والحمار أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. ولهذا مثل الله سبحانه وتعالى به من

= وإنما المقصود النهي عن التشبه بالذين أوتوا الكتاب في عدم خشوع قلوبهم». «التحرير والتنوير»: ٢٧/ ٣٩٢.

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ٥٥٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٤.

(٣) «تفسير المنار»: ١/ ٣٥٣. ينظر «الميزان»: ١/ ٢٠٣.

حمله كتابه، فلم يحمله معرفة ولا فقهاً ولا عملاً»[1].

فكان من نتائج قسوة قلوبهم أن فسقوا عن أوامر الله تعالى:

(أ) ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2].

قال سيد في قوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[3]: «بيان لما يغشى القلوب من الصدإ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله، وحين لا تخشع... وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج»[4].

قال عز وجل يصف حال فريق من أتباع نبي الله عيسى عليه السلام:

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[5].

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين»: ٢١١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠ .فَسَقَ: فَسَقت الرُّطَبة خرجت عن قشرها، وفَسَق عن أمر ربه أي خرج. ينظر «مختار الصحاح»: ٤٧٤. وقال رشيد رضا تعليقاً على الآية: «فلا يؤمن بالنبي ﷺ وما جاء به إلا القليل منهم» «تفسير المنار»: ١/ ٣٧٩.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٦.

(٤) «الظلال»: ٦/ ٣٤٨٩». إن مما عرف به اليهود من النفسيات الخبيثة فسقهم وقساوة قلوبهم وهي من أسباب محنتهم وشقائهم. فقد نعا القرآن ذلك عليهم وسجله في غير آية من آيه... ومن مظاهر قسوة قلوبهم: جرأتهم على الكذب على الله تعالى بتحريف كلامه، وتأويل أحكامه، ونسبة كثير من النقائص إليه، تعالى الله عن ذلك وتنزه عما يصفون، ومن مظاهر قسوة قلوبهم كذبهم على الأنبياء، وقتلهم إياهم بغير حق وصدهم عن سبيل الله إلى غير ذلك من الجرائم والعظائم التي لا تصدر إلا عن ذوي القلوب القاسية الآثمة». «هؤلاء هم اليهود»: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٢٧. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**فالمؤمنون الذين آمنوا بي، وصدقوا بي. والفاسقون الذين كذبوا وجحدوا**». ينظر «جامع البيان»: ٢٧/ ٢٤٠.

فلم يراع حق الله ولم يف بما عاهد الله عليه إلا القلة المؤمنة.

ومن كل أمة كان مهتدون، وكان كثير من الفاسقين قال تعالى:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾[1].

وكان من فسق اليهود أن تمردوا على أمر الله عز وجل وأمر نبيه موسى عليه السلام بالدخول إلى الأرض المقدسة. قال موسى بعد أن تأكد من جبن يهود وقعودهم عن الجهاد:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾[2].

وقد عمر الأحبار الفاسقون «الكنيسة اليهودية» كفراً وتحريفاً وظلماً وقسوة... وكان بدء الفسق عند النصارى منذ ميلاد الدعوة المسيحية فسق تحريف لأصول الدين.

(ب) تحريف الكلم عن مواضعه:

كان من نتائج قسوة قلوبهم أن حرفوا الكلم عن مواضعه[3]. قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٥.

(٣) قال أبو عمر الداني في طبقات القراء عن أبي الحسن بن المنتاب: كنت يوماً عند القاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق، فقيل له: لم جاز التبديل على أهل التوراة، ولم يجز على أهل القرآن؟ فقال القاضي: قال الله عز وجل في أهل التوراة: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]. فوكل الحفظ إليهم، فجاز التبديل عليهم. وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]. فلم يجز التبديل عليهم. قال علي: فمضيت إلى أبي عبد الله المحاملي فذكرت له الحكاية، فقال: ما سمعت كلاماً أحسن من هذا. ينظر «الموافقات»: ٢/ ٤٥.

ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾[1].

«أي فسدت قلوبهم فقست وصار سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه وتركوا الأعمال التي أمروا بها، وارتكبوا ما نهوا عنه»[2].

وهكذا امتزجت في نفسية أهل الكتاب قسوة القلوب بالفسق فأفرزت استهانة بكتاب الله عز وجل وخروجاً عن أوامره وإصراراً على معصيته[3]. ولم يسلم من هذه الطوام إلا من آمن منهم، وإن كانوا قلة، وهم الذين وصفهم الله عز وجل بالتخشع عند تلاوة وسماع كلامه سبحانه، وبالحرص

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٣. «فجعل سبحانه ذنب النقض موجباً لهذه الآثار: من تقسية القلب، واللعنة، وتحريف العلم، ونسيان العلم». «تهذيب المدارج»: ٢٩٢. ينظر «التحريف خلق يهودي خاص» مقال لإبراهيم العلي فلسطين المسلمة، العدد ٥ السنة ١٤ دون الحجة ١٤١٦/ ماي ١٩٩٦: ٤٤.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٦/ ٥٥٩. ويبين أبو الفضل السعودي مظهراً من مظاهر تحريف الكلم عن مواضعه بقوله: «اعلم وفقك الله تعالى إنما دخل الخلل على النصارى وغيرهم ممن بضاعته في القول مزجاة من جهلهم بمقتضيات الألفاظ، وعدم المعرفة بوجوه الكلام، ولقصور أفهامهم بمعاني تأويل الظواهر، فلم يحملوها على محتملاتها بالدليل وليس ذلك بصواب، بل ينبغي دراسة ما دل عليه دليل العقل الذي لا احتمال فيه، فإذا ورد لفظ عُرض ظاهره على ما ضبطه دليل العقل، فإن لم يُنب عنه استعمل الظاهر من اللفظ ولم يؤول، وإن لم يحتمله طلب له وجه يُحمل عليه ليجمع بين اللفظين، ومقتضى العقل أن الشرع في كل ملة لا يرد بخلاف ما يقتضيه العقل، فإن العقل أصل الشرع بمعنى أنه شاهد بصحة النبوات والرسالات وافتقار العالم إلى ذلك، فإذا جاء الشرع بخلاف العقل فقد كذب أصله الشاهد له بالحقيقة». «المنتخب الجليل من تخجيل من حرف الإنجيل» للشيخ أبي الفضل السعودي المالكي: ٢٥.

(٣) وهكذا استعاضوا عن الحق الذي أنزله الله عليهم، بما أملته أنفسهم الشريرة. وهذا ما تعكسه نصوص التلمود ـ كتاب اليهود الأول ـ يقول حبنكة الميداني مبرزاً مكانة التلمود في الفكر اليهودي: «التلمود هو الكتاب الذي يحتوي على التعاليم اليهودية الشفوية، أو بعبارة أكثر تحديداً هو الكتاب العقائدي الذي يفسر ويبسط كل معارف الشعب الإسرائيلي، وتعاليمه، وقوانينه الأخلاقية، وآدابه». «الكنز المرصود»: ١١.

على معرفة الحق[1].

إن فسق كثير من أهل الكتاب عن أمر الله عز وجل، وإعراضهم عن سماع كلمة الحق لن يصدنا عن أداء واجب المجادلة، ولن يحول بيننا وبين القلة الحريصة على معرفة الحق.

المعلم الرابع ـ الغرور:

يقال: «اغتر بالشيء خُدع به. والغرور ـ بالفتح ـ الشيطان ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2]. والغرور ـ بالضم ـ ما اغتر به من متاع الدنيا. وغره يغره بالضم غروراً خدعه، يقال: ما غرك بفلان أي كيف اجترأت عليه»[3].

فالغرور إذن انخداع بأمر هو أبعد شيء عن الحقيقة.

وقد أخبرنا الله عز وجل أن كثيراً من أهل الكتاب قد خدعوا أنفسهم بأساطير وأقاويل ما أنزل الله بها من سلطان إنما هي من صنع خيالهم، افتراء على الله عز وجل. وخدعوا الناس بها طمعاً في الظهور بمظهر القوي.

ولا غرو، فالقوم قد تذوقوا مرارة الذل والمهانة بتكالبهم على الدنيا واتباعهم الأهواء، فاجترءوا على الله عز وجل، ورسله عليهم السلام والمؤمنين، بل والناس أجمعين. ولم يصدهم عن ذلك الباطل صاد، كيف

---

(1) قال تعالى في وصفهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١]. وقال عز من قائل: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤]. وينظر «معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم»: ٣١٤.

(2) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(3) «مختار الصحاح»: ٤٤٦.

وقد قست منهم القلوب. فلم يعد لأحد عندهم قدر إلا أنفسهم. قال تعالى يحكي بعض مفتريات القوم:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾[1]﴾[2].

عبارة جامعة ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[3]، تُقدم لنا المعرفة العميقة بأصول الغرور الذي أصاب أهل الكتاب.

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «أي أثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بدينهم إلا أياماً معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم واختلقوه، ولم يُنزل الله به سلطاناً»[4].

ويزيد الطباطبائي الأمر وضوحاً بقوله: «فكانت قريتهم هي الغارة لهم في دينهم، وهم مع ذلك كرروا ما افتروا على الله سبحانه ولم يزالوا يكررونه ويلقنونه أنفسهم حتى أذعنوا به أي اطمئنوا وركنوا إليه بالتلقين الذي يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بالتكرار والتلقين تغرهم في دينهم، وتمنعهم عن التسليم لله والخضوع للحق الذي أنزله في كتابه»[5].

فلم يكن لأقوالهم أساس علمي ترتكز عليه، بل مجرد أماني وظنون. قال تعالى:

---

(١) افترى الشيء: اختلقه، والاسم الفِرية. وقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]. أي مصنوعاً مختلقاً وقيل: عظيماً. ينظر «مختار الصحاح»: ٤٧٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٤.

(٣) نفسها.

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٢٥.

(٥) «الميزان»: ٣/ ١٢٥.

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾[1].

قال رشيد رضا: «وهذا هو شأن عاملتهم لا علم لهم بشيء من الكتاب، ولا معرفة لهم بالأحكام، وما عندهم من الدين فهو أماني يتمنونها، وتجول صورها في خيالاتهم، وما هم على بينة منها، وإنما هي ظنون يلهون بها»[2].

وعلى هذا الأساس ادعى أهل الكتاب أباطيل قص الله عز وجل علينا في كتابه كثيراً منها[3]، لا أساس لها ولا دليل عليها إلا أنها استحكمت في نفسية القوم بفعل التكرار[4].

(أ) زعمهم الأفضلية على الأمم:

أم هذه المفتريات، ما حكاه الله عز وجل في قوله:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(٢) «تفسير المنار»: ١/ ٣٥٨. ينظر «التحرير والتنوير»: ١/ ٥٧٣.

(٣) منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة: ١٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: ١٨]. ينظر النصوص التي تعرض لمزاعم القوم في «معجم الأعلام والموضوعات»: ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٤) فمنشأ هذا الغرور، أن القوم قد حرفوا كلام الله عز وجل من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، فلما تمكن فيهم ما حرفوا ـ بفعل الزمن والتكرار وتزيين الشيطان الغَرور ـ اعتقدوا أنه الحق وتولوا عن حكم كتاب الله اغتراراً بما قالوا واغتراراً بما وضعوا من عند أنفسهم واستغناء به عن الكتاب. ينظر «الميزان»: ٣/ ١٢٤ ـ وبين ابن القيم سلطة العادة والتكرار على النفس البشرية بقوله: «وما على العبد أضر من ملك العادات له. وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين. فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها، والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه، فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع». «تهذيب المدارج»: ١٠٤.

وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾[1].

وهذه الفرية تستند على حقيقة أن الله عز وجل فضل بني إسرائيل واصطفاهم.

قال تعالى:

﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[2].

والحقيقة الثانية أن أهل الكتاب يعلمون جيداً أن هذا التفضيل مقيد ومشروط بالوفاء بعهد الله وميثاقه الذي واثقهم به. يشهد لهذا نصوص من التوراة التي بأيديهم. فقد ورد في سفر التثنية[3] ما نصه: «ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلٰهك تأتي عليك جميع هذه اللعنات، وتدركك: ملعوناً تكون في المدينة، وملعوناً تكون في الحقل، ملعونة تكون سلتك ومعجنك، ملعونة تكون ثمرة بطنك، وثمرة أرضك، ملعوناً تكون في دخولك، وملعوناً تكون في خروجك، يرسل الرب عليك اللعنة، يلصق بك الوباء حتى يبيدك عن الأرض... يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك في طريق واحدة تخرج عليهم، وفي سبع طرق تهرب أمامهم، وتكون قلقاً في جميع ممالك الأرض، وتكون جثتك طعاماً لجميع طيور وسباع ووحوش الأرض، وليس من يزعجها»[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٨. للاطلاع على أسلوب القرآن في الرد على هذه المفتريات ينظر الفصل الأول من الباب الثالث من هذه الرسالة.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠. قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢]. «والمراد بالعالمين: الأمم المعاصرة لهم. ثم بدلوا بعد ذلك، فضربت عليهم الذلة». «التحرير والتنوير»: ٢٥/ ٣٠٥.

(٣) الإصحاح: ٢٨. الآيات: ١٥ـ ٢٦.

(٤) نقلاً عن «الكنز المرصود»: ٩٠. يقول د. محمد عبد الله الشرقاوي مؤكداً أن مضمون ما جاء في هذه الآيات فيه بقية من وحي الله تعالى، وأثارة من النبوة ولا ريب: «إن هذا التوافق غير قادح ـ البتة ـ في الحكم بتحريف التوارة وتغييرها وتزييفها... إن =

والنصوص القرآنية تؤكد هذه الحقيقة[1] يقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦۚ﴾[2].

فمعية الله للقوم ـ وهي من أعظم مظاهر التفضيل ـ مقيدة بالوفاء بميثاق الله عز وجل، لكن القوم نقضوا العهد وخانوا الأمانة، فاستحقوا لعنة الله عز وجل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾[3].

إن اعتقاد اليهود في اختيار الرب لهم ليس مجرد مفخرة يتشدقون بها،

= أحبارهم قد حرفوا هذه التوراة تحريفاً لفظياً وذلك بالزيادة في مواضع، والحذف والنقص في مواضع والتبديل في مواضع، كما حرفوه تحريفاً معنوياً. وهذا يكفي في إسقاط حجيته تماماً وإثبات بشريته ووضعه. وعلى ذلك فلا مانع من أن يبقى آثار نصوص فيه لم يغيرها التحريف، أو لم يطمسها كلية. ومقياسنا للحكم على ذلك وتبيينه هو تصديق القرآن الكريم، وموافقته له. وما يقال في التوراة يقال ـ كذلك ـ في الإنجيل والله أعلم». «الكنز المرصود»: ٩٣. وقد وافقه على ذلك جمهور الدارسين. ينظر «استخلاف بني إسرائيل ثم عزلهم» مقال للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، فلسطين المسلمة، العدد ٣ السنة ١٣، شوال ١٤١٥/ مارس ١٩٩٥: ٥١.

(١) «من تأمل الآيات القرآنية الكريمة وتأمل النصوص التوراتية يقف على حقيقة مهمة: هي أن هذا الاختيار والاصطفاء والتفضيل كان مقيداً مشروطاً... فهو لا يتحقق إلا بتحقق شرطه، وهو الإيمان بالله وطاعته، والوقوف عند أمره ونهيه، أي حفظ عهد الله الذي عاهدهم به، ورعاية ميثاقه الذي واثقهم به، فإن فعلوا ذلك كانوا شعباً مختاراً مفضلاً وإن لم يفعلوا فليس ثمة اصطفاء لهم أو تفضيل». «الكنز المرصود»: ٨٩.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٨.

بل هو برنامج: فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى، وهم الذين يبقون وحدهم في آخر الزمان، متسلطين على رقاب العالم، وهم باختيار الذين يقومون بدور البطولة على هذا المسرح الهائل، مسرح التاريخ، والأمم الأخرى ليست إلا أشخاصاً ثانوية خلقها الله لتكملة مشاهد هذه المسرحية الطويلة وحوادثها[١].

وعن هذه الفرية تفرعت أباطيل أخرى منها:

(ب) احتقارهم للأمم الأخرى:

في مقابل النصوص التوراتية والتلمودية التي تمجد شعب يهود، نجد أخرى تذكر الشعوب الأخرى بأقبح النعوت والصفات، إمعاناً في الاحتقار.

فالتلمود يبيح غش الأمميين[٢]. ورد في التلمود ما نصه: «يسمح بغش الأمي وأخذ ماله بواسطة الربا الفاحش!!، لكن إذا بعت أو اشتريت من أخيك اليهودي شيئاً فلا تخدعه ولا تغشه وإذا جاء أجنبي وإسرائيلي أمامك في دعوى، وأمكنك أن تجعل الإسرائيلي رابحاً فافعل وقل للأجنبي هكذا تقضي شريعتنا (إذا حدث هذا في مدينة يحكم فيها اليهود). وإذا أمكنك ذلك وفقاً لشريعة الأجنبي فاجعل الإسرائيلي رابحاً، وقل للأجنبي: هكذا تقضي شريعتك، فإذا لم تتمكن في كلا الحالين (بأن يكون اليهود لا يحكمون البلد والشريعة الأجنبية لا تعطي الحق لليهودي) فاستعمل الغش والخداع في حق الأجنبي!! حتى تجعل الحق لليهودي»[٣].

كما أن أرواح اليهود متميزة عن غيرها: جاء في التلمود «وتتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الابن جزء من

---

(١) ينظر «الشخصية الإسرائيلية»: ٣٨.

(٢) الأُمَميون، أو الأُميّون، أو الجوييم كلها تطلق على غير اليهود. والكلمة تحمل معاني الإذلال والاحتقار. ينظر «الشخصية الإسرائيلية»: ٤٧.

(٣) نقلاً عن «الكنز المرصود»: ٢١٢.

والده!! ومن ثم كانت أرواح اليهود عزيزة عند الله بالنسبة لباقي الأرواح، لأن الأرواح غير اليهودية هي أرواح شيطانية وشبيهة بأرواح الحيوانات»[1].

(ج) زعمهم اختصاص الجنة بهم:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ﴾[2].

«وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة له في كتبهم المنزلة فقال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾[3] وهي ما يتمناه المرء ولا يدركه... ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم»[4]. وأنى لهم أن يأتوا بالمستحيل! وأقوالهم مجرد دعاوى باطلة!.

(د) زعمهم أنهم المهتدون:

قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾[5].

هذه الأباطيل والمفتريات وغيرها[6] محاولة من أهل الكتاب لخداع

---

(١) المرجع السابق: ١٩٠. وذكر في التلمود أن نطفة غير اليهودي هي كنطفة الحيوان. المرجع السابق.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٣) نفسها.

(٤) «تفسير المنار»: ١/ ٤٢٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٣٥.

(٦) كزعمهم أن قلوبهم غلق ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة: ٨٨] أي ملأى بالعلوم والمعارف فهم في غير حاجة إلى مزيد مما جاء به محمد ﷺ ينظر «هؤلاء هم اليهود»: ١٠١. وكزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات ﴿قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ﴾ [آل عمران: ٢٤] وزعمهم أن الآخرة خالصة لهم ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤].

الناس، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.

إن إدراك المجادل المسلم لهذا البعد في شخصية من يجادلهم من أهل الكتاب، يحتم عليه السعي لدحض هذه الأباطيل بأسلوب حكيم غايته إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(١).

إن المجادل المسلم مطالب باليقظة التي تجعله على علم بجذور ما يدعيه القوم من أفضلية، وأن يسعى بالأسلوب القرآني والنبوي البليغ لدحضها وتفنيدها(٢).

المعلم الخامس ـــ الحسد:

لأن كثيراً من أهل الكتاب قد أُشربت قلوبهم حب الدنيا ومالت نفوسهم مع الأهواء حتى قست منهم القلوب، فلم يعد ثم مطمع في رجوعها إلى الحق مهما بلغت قوته.

ولأن القوم قد اغتروا بما نسجت عقولهم السخيفة من أساطير تمجد ذواتهم وترفعهم على العالم، وقد زاد من غرورهم انخداعهم بصولة باطلهم لما تخلف المسلمون عن واجب الشهادة والحضور الفاعل بين الناس.

اعتباراً لذلك، كان من الطبيعي أن يتمادى القوم في الغي، إلى الحد الذي يمكنهم من صد المؤمنين عن الحق وإعلان الحرب على كل القيم الإنسانية. فكانوا حقاً أهل فساد وإفساد.

قال تعالى يبين حرص كثير منهم على زوال كل آثار النعمة التي خص الله بها المؤمنين فضلاً منه وتكرماً.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٢) ينظر خصائص هذا الأسلوب في الباب الثالث من هذه الرسالة.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾(١).

فالحسد أحد صفاتهم المتأصلة، يقول الطاهر بن عاشور: «وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾(٢) جيء فيه «بمن» الابتدائية للإشارة إلى تأصل هذا الحسد فيهم وصدوره عن نفوسهم. وأكد ذلك بكلمة «عند» الدالة على الاستقرار ليزداد بيان تمكّنه وهو مُتعلق بـ «حسد» لا بقوله: «ود»(٣).

وتروي كتب السيرة جانباً مهماً من الوقائع التي تبرز تمكن هذه الصفة الخبيثة ـ الحسد ـ في قلوب القوم:

من ذلك ما رواه ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) من حديث سلمة بن سلامة بن وقش (ت. ٣٤هـ)، وأخرجه أحمد (ت. ٢٤١هـ) وصححه ابن حبان (ت. ٣٥٤هـ) من طريقه قال: «كان لنا جار من اليهود في المدينة، فخرج علينا قبل البعثة بزمان فذكر الحشر والجنة والنار، فقلنا له: وما آية ذلك؟ قال: خروج نبي يبعث من هذه البلاد ـ وأشار إلى مكة ـ فقالوا: متى يقع؟ قال: فرمى بطرفه إلى السماء ـ وأنا أصغر القوم ـ فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه، قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله نبيه وهو حي فآمنا به وكفر هو بغياً وحسداً»(٤).

وما تزال الأحداث تظهر أن القوم مصرون على غيهم وبغيهم وحسدهم، بل إنهم يشهدون على أنفسهم بذلك. فقد روى ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) ـ في قصة رجم اليهوديين ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا معشر يهود أخرجوا إليّ علماءكم**» فأخرج له عبد الله بن صوريا... فخلا به

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٢) نفسها.

(٣) «التحرير والتنوير»: ١/ ٦٧٠.

(٤) ينظر «الفتح»: ٧/ ٢٨١. و«السيرة النبوية»: ١/ ١٥٨.

رسول الله ﷺ، وكان غلاماً شاباً من أحدثهم سناً، فألظ به[1] رسول الله ﷺ المسألة، يقول له: «**يا ابن صوريا، أنشدك الله وأذكرك بأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلم أن الله حكم في من زنا بعد إحصانه بالرجم في التوراة؟**» قال: اللهم نعم، أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعرفون أنك نبي مرسل ولكنهم يحسدونك. قال: فخرج رسول الله ﷺ، فأمر بهما فرجما عند باب مسجده في بني غنم بن مالك بن النجار، ثم كفر بعد ذلك صوريا وجحد نبوة رسول الله ﷺ»[2].

كان الأحرى بأهل الكتاب، أن يقدروا فضل الله عليهم بأن بعث فيهم أنبياءه ورسله عليهم السلام، وأن يشركوا الله على ذلك بالوفاء بالعهد الذي قطعه عليهم أن يؤمنوا برسول الله محمد ﷺ، وأن يكونوا أول المناصرين له[3] لكن القوم نكثوا العهد، وحملهم الحسد على انتقال النبوة إلى بيت إسماعيل[4] ـ أبناء عمومتهم ـ إلى أن يكونوا أول الكافرين به[5].

روى ابن إسحاق شهادة صفية في عمها قال: «حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه؛ قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ

---

(١) «ألظ به: لزمه ولم يفارقه، وقيل الإلظاظا: الإلحاح». «مختار الصحاح»: ٥٦٠.

(٢) «سيرة ابن هشام»: ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧. و«البداية والنهاية»: ٦/ ١٧٦.

(٣) قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

(٤) قال الواقدي: قال الحارث بن عوف: «أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق (من رؤوس اليهود) يقول: إنا نحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون، وهو نبي مرسل، ويهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذبحان، واحد بيثرب وآخر بخيبر، قال الحارث قلت لسلام: يملك الأرض جميعاً، قال نعم والتوراة التي أنزلت على موسى وما أحب أن تعلم يهود بقولي فيه». ينظر «زاد المعاد»: ٣/ ٣٣٤ـ ٣٣٥.

(٥) قال تعالى مخاطباً بني إسرائيل: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٤١].

المدينة، ونزل قباء، في بني عمر بن عوف، غدا عليه أبي، حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين ـ الغلس بفتحتين: ظلمة آخر الليل[1] ـ قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت: فهششت إليهما[2] كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ (أي المبشر به في التوراة) قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت»[3].

لقد رأى اليهود في اتباع رسول الله ﷺ والإيمان به قضاء على آمالهم في عودة ملك بني إسرائيل وسيادتهم وأن في قبول الإسلام واعتناقه إنهاء كاملاً وذوباناً تاماً لشعبهم. فعزموا من ساعتئذ على عدائه ومناوأته[4] وقد فاض هذا الحسد الذي تطفح به نفوس اليهود والنصارى الصليبيين حرباً على الإسلام والمسلمين وكيداً وفساداً[5].

يقول سيد قطب: «والحسد هو ذلك الانفعال الأسود الخسيس الذي فاضت به نفوس اليهود تجاه الإسلام والمسلمين، وما زالت تفيض، وهو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدبيراتهم كلها وما تزال. وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه، ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود

---

(١) «مختار الصحاح»: ٤٥٢.

(٢) **فهششت إليهما**: انبسطت لهما وأظهرت الفرح لهما. «والهشاشة ـ بالفتح ـ الارتياح والخفة. وهش به ـ بالفتح ـ هشاشة إذا خف إليه وارتاح له. ورجل هش بش». «مختار الصحاح»: ٦٤٧.

(٣) «سيرة ابن هشام»: ٢/ ١٢٦ـ ١٢٧.

(٤) ينظر «هؤلاء هم اليهود»: ٩٥ ـ ٩٦.

(٥) قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

في زعزعة العقيدة في نفوسهم؛ وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه»[١].

ومن صور كيدهم بالإسلام[٢]:

(أ) كفرهم بالإسلام[٣]:

ففي حديث ابن عباس أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج فلما بعث رسول الله ﷺ كفروا به[٤].

ومن مظاهر كفرهم إيثارهم الشرك على الإيمان. يقول سيد قطب: «وحقد اليهود على رسول الله ﷺ وعلى القرآن وعلى الإسلام جعلهم يؤثرون الشرك ـ وهم أهل الكتاب ـ على الإسلام. وهم اليوم يؤثرون الشيوعية... أي صلة أخرى فاسدة على هذا الدين بل إنهم ينشئون هذه المذاهب الإلحادية إنشاء لمحاربة الإسلام»[٥].

(ب) تشكيكهم في الإسلام:

قال تعالى:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾[٦].

يقول الطباطبائي: «وذلك بأن يظهر عِدّة منهم الإيمان بالقرآن ويلحقوا

---

(١) «في ظلال القرآن»: ١/١٠١.

(٢) ينظر «تفجير نيران الحقد اليهودي على الإسلام» لإبراهيم العلي فلسطين المسلمة، العدد ٣، السنة ١٤، شوال ١٤١٦/ مارس ١٩٩٦: ٥٠.

(٣) ينظر «الحق والكراهية» لإبراهيم العلي. فلسطين المسلمة، العدد ٨، السنة ١٥، ربيع الثاني ١٤١٨/ غشت ١٩٩٧: ٥١.

(٤) ينظر «سيرة ابن هشام»: ٢/١٥٤.

(٥) «معركتنا مع اليهود»: ٥٣.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٧٢.

بجماعة المؤمنين ثم يرتدوا في آخر النهار بإظهار أنهم إنما آمنوا أول النهار لما كاد يلوح لهم من أمارات الصدق والحق من مظاهر الدعوة الإسلامية، وإنما ارتدوا آخر النهار لما تبين لهم من شواهد البطلان وعدم انطباق ما عندهم من بشارات النبوة وعلائم الحقانية على النبي ﷺ فيكون ذلك مكيدة تكاد بالمؤمنين فيرتابون في دينهم، ويهينون في عزيمتهم فتنكسر بذلك ثورتهم وتبطل وحدتهم. وهذا المعنى في نفسه غير بعيد وخاصة من اليهود الذين لم يألوا جهداً في الكرة على الإسلام لإطفاء نوره[1] من أي طريق ممكن»[2].

ومكر اليهود هذا مبني على قاعدة ثابتة في العقل البشري وهي أن من علامات الحق أن لا يرجع عنه من عرفه[3].

وقد بين سيد قطب أن هذه المكيدة ما زالت مستمرة حتى اليوم في شتى الصور التي تناسب تطور الملابسات والناس في كل جيل. ومثل لذلك بجيش العملاء المندسين في «صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين وأحياناً كتاباً وشعراء وفنانين وصحفيين يحملون أسماء المسلمين لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة!! وبعضهم «من علماء» المسلمين!! هذا الجيش من العلماء موجه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب، في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة، وتهوين قواعدها من الأساس. وهم بعد مسلمون!! أليسوا يحملون أسماء المسلمين؟ وهم بهذه الأسماء المسلمة يعلنون الإسلام وجه النهار!! وبهذه المحاولات يكفرون آخره!!»[4].

---

(١) قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢].

(٢) «الميزان»: ٣/ ٢٥٧.

(٣) «تفجير نيران الحقد اليهودي على الإسلام» فلسطين المسلمة، السنة ١٤، العدد ٣، شوال ١٤١٦هـ/ مارس ١٩٩٦م: ٥١.

(٤) ينظر «معركتنا مع اليهود»: ٤٨.

ومن مظاهر تشكيكهم في الإسلام:

(ج) إعلانهم الإسلام نفاقاً[1]:

(د) الطعن في الدين:

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾[2].

(هـ) الوقيعة بين المؤمنين:

ففي قصة شاس بن قيس ما يؤكد ذلك[3].

---

(١) ينظر «السيرة النبوية»: **٢/ ١٤٨** وما بعدها، لتطلع على من أسلم من أحبار يهود نفاقاً.

(٢) سورة النساء، الآية: **٤٦**. «السيرة النبوية»: **٢/ ١٨٢**.

(٣) قال ابن إسحاق: مر شاس بن قيس، وكان شيخاً عظيم الكفر، شديد الضَغَن (**الضغن والضغينة**: الحقد) على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة ـ يقصد الأنصار ـ بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث ـ يوم اقتتل فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس. «السيرة النبوية»: **٢/ ١٧٧ ـ ١٧٨** ـ وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقولوا فيه من الأشعار. ففعل. فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، فتقاولا ثم قالا أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جدعة ـ أي عدنا إلى الحرب. «أساس البلاغة»: **٨٦** فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة ـ الحرة ـ «السيرة النبوية»: **٢/ ١٧٨**، السلاح السلاح. فخرجوا إليها؛ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم. فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، أكرمكم به، وقاطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم**». فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوهم شاس بن قيس؛ =

(و) التضييق على المؤمنين:

ورد في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ لما عزم على قتال اليهود بخيبر وكان في المدينة أيضاً بعض اليهود على شكل أسر ومجموعات صغيرة لم يشاركوا في غدر بني قريظة، لذا لم يتعرض لهم المسلمون، وإنما تركوهم يعيشون في كنفهم آمنين مطمئنين على أملاكهم وأموالهم وأعراضهم، في ذمة الله وذمة رسوله وعهده. وكانت حالة هؤلاء اليهود المادية جيدة، وأكثر المسلمين يستدينون منهم، وما إن شعر هؤلاء اليهود برغبة المسلمين في غزو خيبر حتى ثار حقدهم، وبدت ضغائنهم، وظهرت عصبيتهم، على الرغم من قلتهم، وحياتهم في أمن وطمأنينة، وأن ثروتهم إنما جمعت تحت رعاية المسلمين وفي ظل حمايتهم، فأخبروا يهود خيبر بتحركات المسلمين أولاً وأرادوا إضعاف معنويات المسلمين بالتحدث عن قوة يهود خيبر، ثم رغبوا في إحراج المسلمين والتضييق عليهم بطلب ديونهم والاستعجال في ذلك. فقد روى الواقدي (ت. ٢٠٧هـ) أن أحد جند المسلمين إلى خيبر قال: فلما تجهزنا نريد خيبر، لم يبق أحد من يهود المدينة له على أحد من المسلمين حق إلا لزمه، وكان لأبي الشحم أحد اليهود عند عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي خمسة دراهم في شعير أخذه لأهله، فلزمه، فقال الأسلمي إني أرجو أن أقدم عليك فأقضيك حقك، إن شاء الله، إن الله عز وجل قد وعد نبيه خيبر أن يغنمه إياها، وكان عبد الله بن أبي حدرد ممن شهد الحديبية، فقال: يا أبا شحم، إنا نخرج إلى ريف الحجاز (خيبر) في الطعام والأموال، فقال أبو شحم: أتحسب أن قتال خيبر مثل من تلقونه من الأعراب، فيها - والتوراة - عشرة آلاف مقاتل، قال ابن أبي حدرد: أي

= فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾. [آل عمران: ١٠٠، ١٠١]. ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٧٧.

عدو الله تخوفنا بعدونا وأنت في ذمتنا وجوارنا، والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ألا تسمع إلى ما يقول هذا اليهودي، وأخبرته بما قال أبو شحم، فسكت رسول الله ﷺ ولم يرجع إليه شيئاً، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ يحرك شفتيه بشيء لم أسمعه، فقال اليهودي لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم هذا قد ظلمني وحبسني بحقي وأخذ طعامي، قال رسول الله ﷺ «**أعطه حقه**». قال عبد الله: خرجت فبعت أحد ثوبي بثلاثة دراهم، وطلبت بقية حقه فقضيته، ولبست ثوبي الآخر، وكانت علي عمامة فاستدفأت بها، وأعطاني سلمة بن أسلم ثوباً آخر في ثوبين مع المسلمين، ونفلني الله خيراً، وغنمت امرأة بينها وبين أبي الشحم اليهودي قرابة فبعتها منه بمال»[١].

هذه الواقعة وغيرها تبرز حرص اليهود على التضييق على المؤمنين، والفت في عضدهم وليس هذا بغريب على يهود.

(ز) قتال المؤمنين والسعي إلى اغتيال من تمكّنوا منه[٢]:

من كيد اليهود سعيهم إلى قتال المؤمنين. من ذلك ما أوردته كتب السيرة من احتضان اليهود لحركات النفاق التي تشن حرباً ضد المؤمنين[٣].

ثم إن من تمكنوا من اغتياله فعلوا ولم يصدهم عن ذلك صاد. فقد روى سهل بن أبي حثمة قال: «انطلق عبد الله بن سهل ومحيصة بن مسعود بن زيد إلى خيبر، وهي يومئذ صلح، فتفرقا، فأتى محيصة إلى عبد الله بن سهل

---

(١) «التاريخ الإسلامي»: ٢/ ٣٠٣. نقلاً عن «تاريخ الواقدي»: ٢/ ٦٣٤.

(٢) ينظر «معجم الأعلام والموضوعات»: ٣١٣ تجد نصوصاً قرآنية تعرض لمظاهر عداوة أهل الكتاب للمؤمنين.

(٣) ينظر «اجتماع المنافقين في بيت سويلم اليهودي». «السيرة النبوية» لابن هشام: ٤/ ١٤١. ينظر «من اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار» نفس المصدر: ٢/ ١٢٧ ـ ١٣٤.

وهو يتشحط في دمه[1] قتيلاً، فدفنه ثم قدم المدينة فانطلق عبد الرحمٰن بن سهل ومحيصة وحويصة ابنا مسعود إلى النبي ﷺ فذهب عبد الرحمٰن بن يتكلم، فقال: «كَبِّر كَبِّر» ـ وهو أَحْدث القوم ـ فسكت، فتكلما، فقال ﷺ: «**أتحلفون وتستحقون قاتلكم ـ أو صاحبكم ـ**» قالوا: وكيف نحلف ولم نشهد ولم نر؟ قال: «**فتبرؤكم يهود بخمسين**» فقالوا: كيف نأخذ أيمان قوم كفار؟ فعقله النبي ﷺ من عنده»[2].

فهذه القصة نموذج على تبطن روح العدوان في نفسية يهود إذ لم يردعهم عن اغتيال المؤمنين الصلح الذي بينهم، وهذا شأن اليهود في الأمس واليوم.

(ن) السعي إلى قتل رسول الله ﷺ[3]:

فمن المواقف التي تبين سعي اليهود إلى قتل رسول الله ﷺ:

ـ اتفاقهم على طرح الصخرة عليه ﷺ[4].

ـ تسميمهم للشاة التي أهديت له ﷺ فعن عائشة رضي الله عنها (ت٥٧ هـ) قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «**يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[5] من ذلك السم**»[6].

---

(١) يضطرب. ينظر «أساس البلاغة» ٣٢٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب الموادعة والمصالحة مع المشركين بالمال وغيره، وإثم من لم يف بالعهد. ينظر «الفتح»: ٦/ ٤١٢.

(٣) ينظر فلسطين المسلمة، العدد ٩ السنة ١٥: ٤٩. والعدد ١١ السنة ١٥: ٥١. والعدد ٢ السنة ١٦: ٥٠.

(٤) ينظر «السيرة النبوية»: ٣/ ١٧٢ وما بعدها.

(٥) **الأَبْهر**: عرق مستبطن الصلب، إذا انقطع لم يبق صاحبه. ينظر «أساس البلاغة»: ٥٥.

(٦) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، الباب الرابع والثلاثون، ينظر «الفتح»: ٨/ ٤٧٥. وسعيهم لسحر رسول الله ﷺ لا يخرج عن كيد اليهود في قتالهم لرسول الله ﷺ. =

وتتسع دائرة الكيد ونطاقه... حتى لكأن البشرية تشكو من فساد اليهود[1] ـ وما ذلك إلا بداعي الحسد ـ، قال تعالى:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ[2] عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[3].

= ينظر الحديث الذي أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، الباب الحادي عشر، ينظر في «الفتح»: ٦/ ٤٨٦.

(١) وما بروتوكولات حكماء صهيون إلا وثيقة تعرض لهذا الجانب من الكيد ضد الإنسانية. ورغم ما قيل في نسبة هذا الكتاب إلى اليهود (ينظر «الشخصية الإسرائيلية»: ٩٧ وما بعدها) ومهما يكن من أمر البروتوكولات فإن التلمود كتاب اليهود شاهد على حالهم فهو صورة صادقة التعبير عن الشخصية الإسرائيلية التي أفرزته... فهو يجلي دفائن النفسية اليهودية ويبرز مكنوناتها الغائرة... جاء التلمود على قياس النفسية الإسرائيلية التي امتلأت إلحاداً وقسوة وحقداً وحسداً، واستعلاء... ومسكنة وفساداً وتحريفاً ونقضاً وخيانة وجرماً، جاء التلمود ليأصل في النفس الإسرائيلية ويحيي هذه الخصائص أو الرذائل، ويبقيها لها ما بقيت... فالتلمود كتاب إسرائيل الأول وهو ـ بتعاليمه وعقائده ـ كتاب إسرائيل الأسود وليس أدل على ذلك من قراءة نصوصه ومطابقتها على ما يجري في واقع الحياة من حوادث وتطبيقات. ينظر «الكنز المرصود»: ٣ ـ ٤. قال تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤]. بدلالة المضارع المقتضية للتجدد والحدوث.

(٢) كان حرص رسول الله ﷺ شديداً لإطفاء نار الحقد والحسد في قلوب اليهود والنصارى، فمن ذلك أنه تزوج صفية بنت حيي بن أخطب ـ رأس اليهود وزعيمهم ـ بعد مقتله في غزوة خيبر. فتزوجها إكراماً لها، وعسى أن يلحظ اليهود هذا الإحسان إليهم فيرعوا ويسلموا، ولكن أنى لتلك النفوس المشحونة بالحقد أن تتراجع عن غيها. ينظر «التاريخ الإسلامي»: ٢/ ٣٦١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٤. ويقول تعالى في موضع آخر: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝﴾ [النساء: ٥٣]. **والنقير**: النقرة ـ أي الشق ـ التي في ظهر النواة. ينظر «مختار الصحاح»: ٦٢٨. وحاصل المعنى أن هؤلاء اليهود أصحاب أثرة شديدة، وشح مطاع، يشق عليهم أن ينتفع منهم أحد غير أنفسهم. إذا صار لهم ملك حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره. فكيف لا يشق عليهم أن يظهر نبي من العرب ويكون لأصحابه ملك يخضع لهم فيه بنو إسرائيل. وهذه الصفة لا تزال غالبة على اليهود ظاهرة فيهم فإن تم لهم ما يسعون إليه من إعادة ملكهم إلى بيت المقدس =

ويقول تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا[1] أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2].

جاء في الظلال ما نصه: «وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في اليهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيى في نطاق من التعصب الشديد؛ وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو متقطع منها؛ ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التي تربط البشرية جميعاً... وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة؛ ويتربصون بالبشرية الدوائر؛ ويكنون البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتناً يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض، وحروباً يثيرونها ليجروا من ورائها المغانم، ويروون بها أحقادهم التي لا تنطفىء، وهلاكاً يسلطونه على الناس، ويسلطه عليهم الناس»[3]. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة: ﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[4].

وصدق الله العظيم القائل سبحانه:

= وما حوله فإنهم يطردون المسلمين والنصارى من تلك الأرض المقدسة ولا يعطونهم منها نقيراً من نواة أو موضع زرع نخلة أو نقرة في أرض أو جبل. ينظر «تفسير المنار»: ٥/ ١٥٩ س ١٦٠.

(١) «البغي هنا مصدر بغى يبغي إذا ظلم. وأراد به هنا ظلماً خاصاً وهو الحسد... وقد أجاد أبو الطيب إذ أخذ هذا المعنى في قوله:

واظلم خلق الله من بات حاسداً ... لمن بات في نعمائه يتلقب»

«التحرير والتنوير»: ١/ ٦٠٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٠.

(٣) «الظلال»: ١/ ٩٠. وقد أشار الدكتور حسن ظاظا إلى سر هذا العداوة المتبادلة بين اليهود والعالم في كتابه «الشخصية الإسرائيلية»: ٤٢ و٦٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٩٠.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾[(١)].

قال ابن كثير (ت٧٧٤ .هـ): «وما ذلك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود، ومباهتة للحق، وغمط للناس، وتنقص بحملة العلم[(٢)]. قال الحافظ ابن مردويه (ت٢٣١ .هـ) عن أبي هريرة رضي الله عنه (ت٥٩ .هـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما خلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله**». وفي رواية: «**ما خلا يهودي بمسلم إلا حدثته نفسه بقتله**»[(٣)].

وقال تعالى مخبراً عن تجرد طائفة من النصارى وحرصهم على معرفة الحق، بل ومودتهم للمؤمنين[(٤)].

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[(٥)].

ويحدثنا محمد رشيد رضا عن السر في تميز طائفة من النصارى عن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٢. وهذه الحقيقة ـ أن اليهود أشد الناس عداوة لنا ـ القرآنية القاطعة الصارمة نتلقاها بالثقة واليقين والتصديق، ويشهد لها التاريخ الإسلامي في مختلف مراحله. ينظر «الشخصية اليهودية من خلال القرآن» للدكتور عبد الفتاح الخالدي: ٣٥٣. ينظر «ست جرائم يهودية». فلسطين المسلمة، السنة ١٣، العدد ١٠: ٤٩. و«عداء اليهود للرسول ﷺ» فلسطين المسلمة، السنة ١٤، العددان ١ و٢.

(٢) من مظاهر تنقصهم بحملة العلم الإلٰهي، والوحي الرباني، ما حكاه الله تعالى على لسان هارون عليه السلام، عند قوله: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٦٢٤.

(٤) ننبه أن الآية وردت في واقعة معينة، كما تبين كتب السيرة. فالأمر يتعلق بطائفة من النصارى لا كل النصارى. وقد أكد هذه الحقيقة سيد قطب عند تفسيره لهذه الآية. ينظر «الظلال»: ٢/ ٩٦٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

اليهود في قربهم من المؤمنين[١]. فيقول: «﴿ذَٰلِكَ﴾[٢] أي ذلك الذي ذكره من كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا بسبب أن منهم قسيسين يتولون تعليمهم وتربيتهم الدينية، ورهباناً يمثلون فيهم الزهد وترك نعيم الدنيا والخوف من الله عز وجل والانقطاع لعبادته، وأنهم لا يتكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر لهم أنه الحق، لأن أشهر آداب دينهم التواضع والتذلل، وقبول كل سلطة، والخضوع لكل حاكم، بل من المشهور فيها الأمر بمحبة الأعداء... فتداول هذه الوصايا ووجود القسيسين والرهبان، لا بد أن يؤثر في نفوس جمهور الأمة وسوادها، فيضعف صفة الاستكبار عن قبول الحق فيها»[٣].

إن الأساس في أقربية المودة هي الروحية التي يملكها القسيسون والرهبان، والتواضع المرتكز على أخلاقية المحبة في النصرانية، بحيث ينطلقون من خلالها للانفتاح على الآخر في دعوته ورسالته إذا كانت تلتقي معهم في ميزان القيم الروحية المشترك[٤].

---

(١) ظاهرة تميز بعض طوائف النصارى بالمودة للمؤمنين، أثارت انتباه كثير من الدارسين وقد أفرد صاحب المختار في الرد على النصارى باباً للحديث عن أسباب ذلك، وقد قال في مقدمة حديثه عنها: «فأنا مبتدىء في ذكر الأسباب التي لها صارت النصارى أحب إلى العوام من المجوس، وأسلم صدوراً ـ عندهم ـ من اليهود، وأقرب مودة، وأقل غائلة، وأصغر كفراً، وأهون عذاباً ولذلك أسباب كثيرة، ووجوه واضحة، يعرفها من نظر ويجهلها من لم ينظر». «المختار في الرد على النصارى»: ٥٨.

(٢) ينظر في آفاق الحوار ٩٤.

(٣) يقصد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

(٤) «تفسير المنار»: ٧/٧. وقد ذكر ابن عاشور أسباباً أخرى عند قوله: «ومعنى جعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه أن تعاليم الإنجيل الذي أتاه الله عيسى أمرتهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها، أو أن ارتياضهم بسيرة عيسى عليه السلام أرسخ ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى لأنه أمرهم بهم ويسره عليهم. ذلك أن عيسى =

والقرآن يجعل النصارى في مجموعهم أقرب إلى المسلمين قرباً ومودة، لكن هذا الوضع في حقيقته لا يدل على خلق معين في النصارى، لأن الحب أو الكره كلاهما ليس دليلاً على حسن الخلق أو سوئه. أما ما يميزهم ففضيلتان:

إحداهما: التواضع الذي يحمي نفوسهم من إحدى أسوء الصفات، وهي الكبرياء.

والثانية: هي انحيازهم إلى الحق وعدم جحودهم له حين يتضح لهم[1].

وأملنا أن يلتحق نصارى اليوم بنصارى الأمس الذين وفدوا على رسول الله ﷺ والذين تخشعوا عند سماع كلمة الحق لما سلموا من الاستكبار لأن في قلوبهم الرأفة والرحمة.

وما الرأفة والرحمة في قلوب بعضهم إلا علامة على استعداد متبطن لاتباع الحق متى وجد من يبعثه بقوة برهانه ونورانية قدوته الحية الماثلة.

هكذا تتبعنا كيف انطوت نفسية كثير من أهل الكتاب على الحسد، وما نشأ عن هذا الداء النفسي العضال[2] من كيد وفساد وصدق الله العظيم، الذي علمنا أن نستعيد ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾[3].

= بعث لتهذيب نفوس اليهود وإقلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيال طويلة. قال تعالى يخاطب بني إسرائيل. ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. «التحرير»: ٢٧/ ٤٢١. وقد نبه صاحب «المختار في الرد على النصارى على غيرها»: ٥٨.

(١) ينظر «إنصاف الخصم في القرآن وأثره الإعلامي» الدكتور عبد الحليم حفني: ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) «كل الأمراض النفسية والمعنوية يمكن علاجها وشفاء أصحابها منها إلا الحقد والحسد، فإن الحاقد الحسود ميؤوس من علاجه». «الشخصية اليهودية من خلال القرآن»: ٣٥٣.

(٣) سورة الفلق، الآية: ٥.

سنة الله:

يجمل بنا بعد استحضار المعالم المميزة لشخصية الكتابي أن نقف عند نموذج من العقوبات التي عجلها الله عز وجل لليهود ـ ومن سار على نهجهم ـ جزاء وفاقاً لما اقترفت أيديهم، وسيتبين أن هذه العقوبات الدنيوية قد انعكست على نفسية القوم وسلوكهم، وهذا ما سيساهم ـ لا شك ـ في تعميق معرفتنا بهم.

قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ[1] أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[2].

١ ـ ضربت عليهم الذلة والمسكنة:

«أي ألزمهم الله الذلة[3] والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[4] أي بذمة من الله لهم وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[5] أي أمان لهم، كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا

---

(١) «فقوله: ﴿ضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ [آل عمران: ١١٢]. استعارة مكنية إذ شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها... ومعنى لزوم الذلة والمسكنة لليهود أنهم فقدوا البأس والشجاعة وبدا عليهم سيما الفقر والحاجة مع وفرة ما أنعم الله عليهم. فإنهم لما سئموها صارت لديهم كالعدم ولذلك صار الحرص لهم سجية باقية في أعقابهم». «التحرير والتنوير»: ١/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

(٣) «قيل المراد بالذلة هنا الجزية، وقيل ما يحدثه في النفس فقد السلطة وهذا هو الصحيح». «تفسير المنار»: ٤/ ٦٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

(٥) نفسها. وقوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ **مستعار للعهد**: والمعنى لا يسلمون من الذلة إلا إذا تلبسوا بعهد من الله أي ذمة الإسلام، أو إذا استنصروا بقبائل أولي بأس شديد، وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم. ينظر «التحرير والتنوير»: ٤/ ٥٦. «فحبل الله تعالى هو الإسلام، وحبل الناس ما يعقد لهم من الذمة، وما يعطونه من أمان». =

أمنه واحد من المسلمين... قال ابن عباس: «أي بعهد من الله وعهد من الناس وكذا قال مجاهد: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾[1] أي ألزموها قدراً وشرعاً»[2].

فاليهود في الأصل أذلاء أينما حلوا وارتحلوا، هانت عليهم أنفسهم حين صرفوها إلى التكالب على متاع الدنيا فسعوا في الأرض فساداً، ثم هانوا عند الناس. فلم تزل الدنيا تتأذى بهم، ولم يزل المولى القوي العزيز يبعث عليهم من يسوهم سوء العذاب. وما مظاهر «العزة» التي قد تبدو بين الفينة والأخرى إلا استثناء من هذه القاعدة، ويثبت هذا الاستثناء قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[3] ولأمر ما تحرص اليهود في تاريخها على التحالف مع كل من تلمس فيه القوة[4] عسى أن يغطي عجزها ومسكنتها.

ويحاول رشيد رضا أن يجمع بين صفتي الذلة والمسكنة من جهة، وصفة الاستكبار التي عرف بها اليهود من جهة أخرى، فيقول عند قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾[5]: «هذا الخلق الذي يهون على النفس قبول كل شيء لا يظهر أثره غالباً على البدن وفي القول إلا عند الاستدلال والقهر، وكثيراً ما ترى الأذلاء تحسبهم أعزاء، يختالون في مشيتهم من الكبرياء... ولكن متى شعر الذليل بنية من نفس القاهر أو طاف

= «هؤلاء هم اليهود»: ٦٩.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٩٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٢.

(٤) ينظر «اليهود والتحالف مع الأقوياء» للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي. سلسلة كتاب الأمة، العدد ٣٢، شعبان ١٤١٢هـ/ فبراير ١٩٩٢م فقد أفرد لدراسة هذه الظاهرة.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٦١.

بذهنه خيال يد تمتد إليه استخذى واستكان، وظهر السكون على بدنه»[1].

٢ـ وباءوا بغضب من الله:

قال تعالى يعلم المؤمنين الدعاء الذي يعرضون فيه حاجتهم العظمى، وهي الهداية إلى صراط الله المستقيم الذي سار عليه من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين:

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[2]. فالمغضوب عليهم هم اليهود؛ وإنما غضب عليهم لإنكارهم رسالة النبي ﷺ وهي بديهية، والضالون هم النصارى، لخبطهم في التحقيقات العلمية، كمسألة التوحيد في التثليث، ولذا قال الحافظ ابن تيمية: إن العالم المبتدع على قدم النصارى، الجاهل المبتدع على قدم اليهود[3].

وبين الطاهر بن عاشور أن المراد بالغضب ظهور أثره من الخذلان، ومنع العناية. أما نفس الغضب فهو حاصل في الحال[4].

يقول سيد قطب مبيناً آثار هذه العقوبة[5] على نفسية القوم: «ضربت عليهم ـ أي على اليهود ـ الذلة وكتبت لهم مصيراً، فهم في كل أرض يذلون، لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين. . . ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[6] كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب، ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ

(١) «تفسير المنار»: ٣٣١ ـ ٣٣٢.

(٢) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦، ٧.

(٣) ينظر «فيض الباري»: ٤/ ١٥٤.

(٤) ينظر «التحرير والتنوير»: ٩/١١٩.

(٥) ينظر «العقوبات الربانية» لإبراهيم العليم، فلسطين المسلمة، السنة ٤، العدد ٧، صفر ١٤١٧/ يوليو ١٩٩٦: ٥٢.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

﴿ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾(1) تعيش في ضمائرهم، وتسكن في مشاعرهم»(2).

هذه العقوبات وغيرها(3) تظهر عدل الله في القوم الظالمين، الذين جعلوا شعارهم الفساد والإفساد فأذاقهم الله عز وجل من عاجل العقاب جزاء وفاقاً، وما ينتظرهم أدهى وأمر.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾(4).

وهكذا يتبين أن القوم ليسوا على شيء(5) قال تعالى:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ٦١.

(2) الظلال: ١/ ٤٤٩.

(3) من هذه العقوبة: **اللعنة**: وهي الطرد والإبعاد من الخير («مختار الصحاح»: ٥٦١). قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨].
الفرقة والشتات: قال تعالى: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: ١٤]. وينظر «حقائق قرآنية حول الفرقة اليهودية» للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، فلسطين المسلمة، العدد ١٢، السنة ١٣ رجب ١٤١٦/ ديسمبر ١٩٩٥: ٤٩.
ـ **التشريد**: قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الحشر: ٣]. وقال عز من قائل: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. أي في أقطار الأرض. ينظر «التحرير والتنوير»: ١٥٧/٩.
التنكيل بهم في الدنيا قبل الآخرة: قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٧]. ينظر «موسوعة مقارنة الأديان» العدد الأول الخاص باليهود: ٨٤ وما بعدها و٩١ وما بعدها.
ـ **المسخ**: والمسخ ارتداد عن الفطرة إلى دركات البهيمية القردية والسفالة الخنزيرية، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ [المائدة: ٦٠]. وينظر «سلسلة مقالات العقوبات الربانية» لإبراهيم العلي، فلسطين المسلمة، السنة ١٤، العدد ٧ وما بعده.

(4) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

(5) صدقت اليهود والنصارى في قولها: وقالت اليهود ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ [البقرة: ١١٣].

﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ[1] تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ﴾[2].

فما على المجادل المسلم إلا الإقدام بثقة، ويقين ليبلغ ما معه من الحق.

وختاماً لا مناص لنا من تقدير من نجادل حق قدره، حتى يحقق خطابنا إليه الغاية المرجوة وهي رده إلى الحق المبين. ولعل هذه الجولة في معالم شخصية الكتابي، تقرب للمجادل المسلم الصورة وتهيئه ليدخل على أهل الكتاب من كل باب: فيعرض عمن أعرض القرآن الكريم عنهم؛ ممن ظلموا أنفسهم واستكبروا عن قبول الحق، وظلموا الناس بالاعتداء على حرماتهم. ويقبل على من أوصى الله بمجادلتهم بالتي هي أحسن، وهو على وعي ومعرفة بمن يخاطب.

إن في القوم طوائف يعلم الله ما في قلوبهم من رأفة ورحمة تجعلهم على استعداد لقبول الحق متى وجدوا من يعرض عليهم الحق بقوة.



---

(١) ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾. هذه العبارة الحازمة الجازمة القاطعة التي أمر الله ورسوله ﷺ أن نعلنها في وجه اليهود. ولقد بلغها ﷺ كما أمر الله سبحانه. وهي العبارة نفسها التي طلب الله من كل مسلم أن يعرفها، وأن يعتقدها، وأن ينظر من خلالها إلى ما عليه اليهود والنصارى، ثم يواجه بها يهود زمانه بدون تلجلج، ولا وجل، ولا لف، ولا مواربة، لكن بتحدي وحزم ويقيم. إلا أن يستجيبوا للحق الذي أنزل الله عليه. ينظر «الشخصية اليهودية من خلال القرآن»: ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

المبحث الثاني

معالم في شخصية المسلم المجادل

يتناهى إلى علمنا بين الفينة والأخرى خبر إسلام رجال ونساء من أهل الغرب[1].

ويبلغ إلى مسامعنا، نداءات وصيحات تدعو إلى التعرف على الإسلام، وتبشر بأنه رسالة الخلاص للمجتمعات الغربية[2].

هذا الرجوع القوي ـ من بعضهم ـ أو على خجل ـ من البعض الآخر ـ إلى الإسلام، يبرز حقيقة أن الإسلام قوي في ذاته، كما يبين أن في القوم أفراداً وطوائف قد عوفيت من وباء الجحود والإصرار والاستكبار، فهم يعلنون بسلوكهم هذا، حرصهم الشديد على معرفة الحق.

هذا التهمم الفطري الذي يُجرد الإنسان الجاد في الحياة من الاعتبارات القشرية ليطلب الحق بحركة من أعماقه هو ما نأمله أن يستيقظ

---

(١) نعبر «بأهل الغرب»، وإن كان المقصود غير المسلمين عموماً.

(٢) من ذلك النداء التاريخي الذي وجهه د. بالمة رئيس وزراء السويد عام ١٩٤٨، وهو رئيس حزب الأكثرية في البرلمان إلى الشعب السويدي طلب فيه منهم أن يجعلوا من عام ١٩٨٥ عاماً يتعرفون فيه على الإسلام، ديناً وحضارة ونظاماً. ذلك لأنه لا حل في رأيه، لأزمة الحضارة والأخلاق في بلاده إلا الإسلام، لأنه منظومة حضارية وأخلاقية متكاملة. ينظر «فلسطين المسلمة»، العدد ٧ السنة١٣، صفر ١٤١٦/ يوليو ١٩٩٥.

في نفوس من نجادلهم من أهل الكتاب[1].

إن هذا الرجوع، ليضعنا أمام المسؤولية، وينبهنا على واجبنا في المجادلة. فمن يا ترى يحتضن هذه القلوب المنيبة إلى الحق؟ ومن يا ترى يروي عطش هذه العقول الظمأ إلى معرفة الأشياء كما هي؟

من يا ترى يقوم لهذه النفوس الحائرة، يطمئنها بيقينه وقوة علمه، كما قام رسول الله ﷺ في وفد عبد القيس؟ فقد روى ابن إسحاق (ت١٥١ هـ) قدوم الجارود في وفد عبد القيس ـ وكان نصرانياً ـ قال: لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، ورغبه فيه. فقال: يا محمد، إني قد كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه**»، قال: فأسلم وأسلم أصحابه»[2].

نعم! أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه. أين هم أصحاب هذه الرسالة يقدمونها بيضاء نقية؟ أين حملة هذا الدين من العلماء الراسخين يشرحون فطرة الله التي فطر الناس عليها؟ أين المكلفون بالبلاغ الشاهدون على الأمم؟[3]

إذا كنا قد نبهنا فيما سبق على ضرورة معرفة من نجادل، واعتبرنا ذلك مطلباً شرطياً لتحقيق المطلوب. فإننا في هذا المقام، نريد أن نقف عند

---

(١) إن النزوع نحو البحث عن الحقيقة موجود في الإنسان» وهو النزوع إلى اكتشاف الحقائق. كما هي، أو إدراكها على ما هي عليه، أي أن الإنسان يريد أن يتسلم المعلومات عن العالم وعن وجود الأشياء كما هي. ولقد جاء في إحدى دعوات الرسول الكريم قوله: «**اللهم أرني الأشياء كما هي**» والإنسان يبحث بفطرته عن كماله النظري، أي أن يدرك حقائق العالم. والذين أبقوا هذا الإحساس حياً ـ حس البحث عن الحقيقة ـ في أنفسهم من العلماء وتعهدوه، بلغوا مرحلة أصبح فيها طعم اكتشاف الحقيقة ألذ عندهم من أي شيء آخر» «الفطرة» للشهيد د. مرتضى مطهري: ٥٨ ـ ٦٠.

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام: ٤/ ١٨٩.

(٣) ينظر «مستقبل الإسلام خارج أرضه»: ٢٧.

حقيقة: أن بلوغ المطلوب أمر عسير المنال، إن لم نبحث عن الطالب الذي ينهض ليقول للناس بلسان حاله قبل مقاله: «نعم! أنا ضامن أن قد هداكم الله إلى ما هو خير مما كنتم عليه».

فما بد إذن، من معرفة الطالب والمطلوب.

هذا! ولن نوفق في معرفة حامل رسالة الإسلام إن لم نعرض حاله على القرآن الكريم[1]. لأنه لن يكشف ما انطوى فيك ـ أيها المسلم المجادل ـ وانطويت عليه إلا ضوء علوي نافذ في الأعماق.

فما هي إذن، المعالم الكبرى لشخصية المسلم المجادل؟. هذا ما سأعرض له من خلال الخطوات الآتية:

ـ مواصفات المسلم المجادل.

(أ) مسؤوليتنا في مجادلة أهل الكتاب.

(ب) لكل فن رجال.

ـ القوة والأمانة.

(أ) **القوة**: علم ودراية.

(ب) **الأمانة**: إيمان ومسؤولية.

---

(١) يعرض القرآن الكريم معالم الشخصية الإسلامية من خلال الآيات التي تصف صحابة رسول الله ﷺ، وتصف المؤمنين، وتصف عباد الرحمٰن، وتصف المجاهدين. ينظر «الشخصية الإسلامية»: ج١ ./١٢. ثم إن المسلم في بناء شخصيته وتكوينها لا يبدأ من فراغ، بل ينطلق سلوكاً وتطبيقاً من الكتاب والسنة متخذاً إسوته الحسنة من الرسول ﷺ. المبلغ عن ربه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]. فالواجب على المسلم أن يتبع رسول الله ﷺ اقتداء واهتداء، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ولقد ذكر القرآن الكريم الصفات الأساسية التي تكون صورة واضحة الملامح لشخصية المؤمن كما أرادها الله تعالى وهي الصورة التي تمثلها رسول الله ﷺ: لأن خلقه القرآن. ينظر «الإسلام وبناء الشخصية. دراسة تحليلية لشخصية المسلم في ضوء الكتاب والسنة» للدكتور أحمد عمر هاشم: ١٣.

١ــ مواصفات المسلم المجادل

اهتم القرآن الكريم بدراسة الشخصية الإسلامية[1]، بما يُمكّن أن يحفظ لها خصوصياتها، ويميزها عن غيرها. فما هي إذن المواصفات الكبرى لشخصية المسلم المؤهل ـ دون غيره ـ لمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن؟

أقصد بالمسلم، من رضي الإسلام أساساً لعقيدته ومنهجاً وأسلوباً في حياته[2]. إنه الملتزم بأمر الله عز وجل في دقيق الأمر وجليله. وبتعبير القرآن الكريم: هو من ارتقى من درجة الأعرابية[3] إلى درجة الإيمان، قال تعالى:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[4].

---

(١) «عالج الإسلام الإنسان معالجة كاملة لإيجاد شخصية معينة له متميزة عن غيرها. فعالج بالعقيدة أفكاره فجعل له بها قاعدة فكرية يبني عليها أفكاره ويكون على أساسها مفاهيمه... وفي نفس الوقت عالج الإسلام أعمال الإنسان الصادرة عن حاجاته العضوية وغرائزه بالأحكام الشرعية المنبثقة عن هذه العقيدة نفسها معالجة صادقة، تنظم الغرائز ولا تكبتها، وتنسقها ولا تطلقها، وتهيىء له إشباع جميع جوعاته إشباعاً متناسقاً يؤدي إلى الطمأنينة والاستقرار». «الشخصية الإسلامية»: ج١/٨.

(٢) المهم في الحكم على الإنسان بأنه ذو شخصية إسلامية هو جَعله الإسلام أساساً لتفكيره وأساساً لميوله... ومن هنا كانت للشخصية الإسلامية صفات خاصة يتسم بها المسلم ويُعرف بسماه بين الناس ويَظهر فيهم كأنه شامة، وهذه الصفات التي يتصف بها نتيجة حتيمة لتقيده بأوامر الله ونواهيه، ولتسيير أعماله بهذه الأوامر والنواهي بناء على إدراك صلته بالله، ولذلك لا يبتغي من تقيده بالشرع إلا رضوان الله تعالى. ينظر المرجع السابق: ج١/ ١٠.

(٣) الأعرابية درجة في الدين، دون الإيمان. والأعراب خليط منهم الصالحون، ومهم دون ذلك كما تعرض سورة التوبة، الآيات ٩٨ ـ ١٠٢. والإسلام الأعرابي ما هو إلا مَدرجة أولى، يفتح الأمل في الارتفاع منها إلى الدرجات العليا كلمة ﴿لَمَّا﴾ [الحجرات: ١٤] القرآنية الحكيمة.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

إنه المؤمن الذي خالط الإيمان قلبه. والإيمان بنص الحديث: «**بضع وسبعون شعبة. أعلاها قول لا إلٰه إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان**»[١].

فلا بد للمجادل المسلم من مجموع طيب[٢] من هذه الصفات الإيمانية ـ السلوكية[٣].

(أ) مسؤوليتنا في مجادلة أهل الكتاب:

ورب معترض يقول: قد ضيقت واسعاً... أليست مهمة المجادلة مسؤولية الجميع؟

إن مسؤوليتنا في مجادلة أهل الكتاب ينطق بها قوله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[٤]. إذا كان البيان النبوي من خلال هذا الحديث يحرضنا ويحملنا مسؤولية إسماع صوت الإسلام للنصارى وغيرهم[٥]، فإنه في أحاديث أخرى يوجهنا إلى أن نخاطب الناس على قدر عقولهم[٦]، ويأمرنا أن نأتي من الأمر ما

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٢/ ٤.

(٢) «المجموع الذي جمع من هاهنا وهاهنا». «مختار الصحاح»: ١١٧. ويقال فلان طيب في مجموعه، إذا كان نصيبه من شعب الخير وفيراً.

(٣) من المصنفات التي عرضت لهذه الشعب: «شعب الإيمان» للبيهقي، و«شعب الإيمان» للحليمي.

(٤) أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٢/ ١٦٠.

(٥) إنهم اليوم لا يسمعون عن الإسلام إلا شتم أعداء الإسلام للإسلام. ما بلغهم الخبر الحق. ما بلغنا نحن.

(٦) ورد في «جامع صحيح بيان العلم وفضله»، فصل «مخاطبة الناس على قدر عقولهم» =

استطعنا[١] وهو في ذلك يؤكد القاعدة القرآنية التي نطق بها قوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٢].

(ب) لكل فن رجال:

مع عموم المسؤولية في مجادلة أهل الكتاب لا يعفى مسلم من عرض الحق على الناس. وسنة الله عز وجل في الخلق[٣] تقتضي أن تنبري صفوة من الرجال لهذا الأمر فتتخصص فيه حتى تسد الحاجة ويسقط الإثم على عموم الأمة. عملاً بقوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[٤].

ورحم الله علماءنا فقد أصلوا لهذا المعنى بقولهم: «لكل مقام مقال ولكل فن رجال»[٥].

= وفيه عن عبد الله بن عتبة أن ابن مسعود قال: ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. وعن هشام بن عروة قال: قال لي أبي: ما حدثت أحداً بشيء من العلم قط لم يبلغه عقله إلا كان ضلالاً عليه وعن أبي قلابة قال: لا تحدث بحديث من لا يعرفه، فإن من لا يعرفه يضره ولا ينفعه. وقال ابن عباس رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله: ١٦٧.

(١) قال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم**» ـ أخرجه الإمام مسلم، كتاب الحيض، باب التيمم. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٤/٥٣ ـ فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى. لكن إن كان منه عجز ولا حاجة إليه، أو خيانة عوقب على ذلك. ينظر «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» لتقي الدين ابن تيمية: ١٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٣) شاء الله عز وجل أن يتفاضل الناس في الملكات والقدرات، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]. وقال عز من قائل: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢].

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٥) لكل مقام مقال، حكمة تجري على كثير من الألسنة. ينظر «مجموع الفتاوى»: =

٢ ـ القوة والأمانة

عن حذيفة (ت٣٦ هـ) قال: «جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعناه»[1] قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله إن كان نبياً فلاعنّاه لا نفلح ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: «**لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين**» فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**» فلما قام قال الرسول ﷺ: «**هذا أمين هذه الأمة**»[2].

وفي رواية أخرى: قال رسول الله ﷺ: «**ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين**»[3].

= ٣/ ٧٨. وروى الخطيب في الجامع عن أبي الدرداء قال: لكل مقام مقال. وزاد ابن عدي: ولكل زمان رجال. ينظر «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» للإمام العجلوني. حرف الميم حديث رقم ٢٠٦٩. ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد. ينظر «المختار في الرد على النصارى»: ٦٦. ويؤكد د. محمود عمارة على ضرورة التخصص في ميدان الحوار وينبه على أن مهمة المجادلة لن يتحملها إلا قوم أعدوا لذلك وليست إلى كل من هب ودب. ويستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ينظر «نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية»: ٣٨.

(١) بعد مجادلته ﷺ لوفد النصارى، وإصرارهم على قولهم في المسيح وأمه عليهما السلام. دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة: وهي الملاعنة قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١]. ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ٢٠٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران. ينظر «الفتح»: ٨/ ٤٢٧.

(٣) ينظر «السيرة النبوية» لابن هشام: ٢/ ٢٠٥.

فالقوة والأمانة هما الشرطان اللذان اعتمدهما رسول الله ﷺ في من عينه مبلغاً لرسالة الإسلام إلى النصارى. وهما الوصفان الجامعان اللذان نص القرآن الكريم عليهما في معرض الحديث عن مواصفات من اختارهم الله تعالى لتبليغ رسالاته، وهذا ما حدا بسلفنا الصالح إلى جعلهما الأساس في اختيار الأقدر على أمور الولاية. قال ابن تيمية (ت٧٢٨ .هـ) في معرض حديثه عن أركان الولاية، أو بتعبير آخر مواصفات من يريد توليته على أمر ما: «الولاية لها ركنان: القوة الأمانة، كما قال تعالى: ﴿خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[1] وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[2]، وقال تعالى في صفة جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾[3]»[4].

وحتى نتبين دلالات هذين المفهومين نقف عند قوله تعالى:

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾[5].

قال ابن عباس (ت. ٦٨هـ): «قوي فيما ولي، أمين فيما استودع»[6].

قال الإمام الطبري (ت. ٣١٠هـ): «تقول: إن خير من تستأجره للرعي القوي على حفظ ماشيتك والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها. الأمين الذي لا تخاف خيانته فيما تأمنه عليه منها»[7].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٤.

(٣) سورة التكوير، الآيات: ١٩، ٢١.

(٤) «السياسة الشرعية»: ١٤.

(٥) سورة القصص، الآية: ٢٦.

(٦) «فتح الباري»: ٥/١٩٨.

(٧) «جامع البيان»: ٢٠/٤٠.

وقال عز من قائل على لسان يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[١].

«وذكر أنه «حفيظ» أي خازن أمين، «عليم» ذو علم وبصيرة بما يتولاه»[٢]. وبهذا يظهر أن مفهوم القوة يرجع إلى معاني الكفاءة العلمية والخبرة العملية التي تجعل صاحبها متمكناً من عمله، على بصيرة من أمره. في حين يدور مفهوم الأمانة على معاني الحفظ والصيانة وعدم الخيانة وهي صفات نفسية.

وعلى هذا الأساس تجمع لنا صفتا القوة والأمانة مجموع الشروط النفسية والسلوكية، العلمية والعملية الواجب توفرها في المسلم المجادل.

وعليه فصفتا القوة والأمانة هما المعلمان البارزان الواجب توفرهما في شخصية من نختاره لمهمة المجادلة مع أهل الكتاب، **فماذا عن دلالات هذين المعلمين؟**[٣].

(أ) القوة ـ علم ودراية[٤]:

عن ابن عباس رضي الله عنه (ت. ٦٨هـ) عنهما قال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه[٥] فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٥.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٤/ ٣٣.

(٣) ورد في النظام الأساسي للجنة المشتركة الدائمة لمتابعة أعمال الحوار الإسلامي المسيحي، في المادة الثالثة المتعلقة بشرط العضوية ما يلي: «يتم اختيار أعضاء اللجنة من ذوي الكفاءة والخبرة في الديانتين الإسلامية والمسيحية». ينظر «الحوار الإسلامي المسيحي»: ٤٨٥. وفي هذا تنصيص على شرط القوة، وإغفال لشرط الأمانة. فوجب التنبيه على أن المطلوب: القوي في ميدانه، الثقة الرضي في قومه.

(٤) لتمثل أبعاد هذا المفهوم، ومقتضياته في خطابنا لأهل الكتاب، ينظر الباب الثاني من هذه الرسالة عند الحديث عن أسلوب المجادلة بالحكمة.

(٥) قَدموا مكة في عمرة القضاء. ينظر «السيرة النبوية»: ٤/ ٦.

حمى يثرب. فأمرهم النبي ﷺ أن يَرمُلوا[1] الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين ولم يمنعه أن يأمرهم الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم. وزاد أبو سلمة عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ لعامه الذي استأمن قال: «**أرملوا ليرى المشركون قوتكم**»[2].

وعند مسلم: قال ﷺ: «**رحم الله عبداً أراهم اليوم من نفسه قوة**»[3].

فالقوة[4] إذن من أهم مظاهر الشخصية الإسلامية. وكما عنى الإسلام «بصقل شخصية المسلم بتهذيب روحه وتقوية إيمانه فإنه كذلك اعتنى بقوته البدنية، وشرع ما فيه النظافة والطهارة للثوب والبدن والمكان، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[5] وأحل الطيبات من الرزق ليتغذى البدن ويقوى. وشرع رياضة البدن وتعلم الرمي «**ألا إن القوة الرمي**»[6]»[7].

وقد أشاد القرآن الكريم بهذه الصفة: القوة، في حديثه عن بعض

---

(١) **الرّمل**: المشي بسرعة. ينظر «مختار الصحاح»: **٢٥٢**.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء. ينظر «الفتح»: **٨/ ٢٩٦**.

(٣) كتاب الحج، باب استحباب الرمل بالطواف والعمرة. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: **٩/ ٧**.

(٤) **القوة**: الشدة. وجمعها قوى... وذكر أهل التفسير أن القوة في القرآن الكريم على خمسة أوجه أحدها العدد، والثاني الجد والمواظبة، والثالث البطش، والرابع الشدة. والخامس السلاح. ينظر «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر» لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي: **٤٨٩**. وفي الحديث الذي أخرجه الديلمي: «**ينقض الإسلام عروة عروة، كما ينقض الحبل قوة قوة**». **والقوة**: الطاقة من طاقات الحبل، والجمع قوى. ينظر «النهاية في غريب الحديث والأثر»: **٤/ ١٢٧**.

(٥) سورة البقرة، الآية: **٢٢٢**.

(٦) أخرجه الإمام مسلم عن عقبة بن عامر، باب فضل الرمي والحث عليه.

(٧) «الإسلام وبناء الشخصية»: **٦٣ ـ ٦٤**.

الأنبياء قال سبحانه:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[1] يريد بقوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا القوة[2] وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾[3] بمعنى أولي القوة في الطاعة والبصر في الدين.

فإظهار القوة إذن مبدأ قرآني، وسلوك نبوي.

وقد وضح شيخ الإسلام ابن تيمية (ت. ٧٢٨هـ) ضوابط يجب مراعاتها عند تنزيل هذا الشرط ـ القوة ـ على محله؛ وهي كما يلي:

الضابط الأول: القوة في كل مسؤولية بحسبها[4].

«فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب، والمخادعة فيها؛ فإن الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال: من رمي وطعن وضرب... ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[5]. وقال النبي ﷺ: «**ارموا واركبوا**»[6] والقوة في الحكم بين الناس، ترجع إلى العلم. بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام[7].

---

(١) سورة ص، الآية: ١٧.

(٢) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٣٠.

(٣) سورة ص، الآية: ٤٥.

(٤) بتعبير ابن تيمية: القوة في كل ولاية بحسبها.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٦٠. قال الإمام الرازي في مفهوم القوة من خلال هذه الآية: «قال أصحاب المعاني الأولى أن يقال أن هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة. ينظر «تفسير المنار»: ١٠/ ٦٢ ـ ٦٣.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عقبة بن عامر، كتاب الجهاد. ينظر «المستدرك على الصحيحين»: ٢/ ١٠٤.

(٧) «السياسة الشرعية»: ١٤ ـ ١٥.

مر معنا أن صفة القوة ترجع إلى معاني الكفاءة العلمية والخبرة العملية التي تجعل صاحبها متمكناً من عمله على بصيرة من أمره(١).

ثم إن شخصية المسلم تتسامى بالعلم «فهو الذي يكشف له طريق الحق والخير، وينير مسالك الحياة فيمضي فيها على هدى، مترسماً معالم الرشد والإصلاح، فتتميز شخصيته عن غيره، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)»(٣).

وبما أن القوة في كل مسؤولية بحسبها، فإن قوة محاورنا المسلم تتعلق بتحصيله للعلم(٤) الذي يمكنه من النجاح في مجادلته. ويمكن ضبط المستويات هذا العلم في ثلاث(٥):

* علمه بذاته.

* علمه بغيره.

* علمه بموضوع المجادلة وأسلوبها.

---

(١) ويصدق ذلك قول نبي الله يوسف عليه السلام لما عرض مؤهلاته لنيل الولاية على خزائن الأرض ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥]. فمعاني الحفظ ترتبط بصفة الأمانة، ومعاني العلم والتمكن تشير إلى مظاهرة القوة.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٣) «الإسلام وبناء الشخصية»: ١٧.

(٤) «وقوة الشخصية في سائر مظاهرها ومختلف أنواعها، لا بد وأن تصدر عن عقيدة صحيحة، وأن تكون في مرضاة الله تعالى: إنها قوة في الدين على أساس العلم والنور والبصر والهدي». المرجع السابق: ٦٤ بتصرف.

(٥) يمكن أن ندرج هنا علمه بالله تعالى كمستوى من مستويات العلم مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]. الذي بينه قول الصحابي جندب بن عبد الله: «تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن» أخرجه ابن ماجه، باب في الإيمان. ينظر سنن ابن ماجه: ١/ ٢٣ و«مجموع الفتاوى: ١٠/ ٤٠١. فالعلم بالله علم بطريق الإيمان. وقد اخترت أن أدرج هذا العلم في صفة الأمانة وهي المظهر الثاني لشخصية المجادل المسلم.

* علمه بذاته:

بأن يكون على بصيرة واستيعاب للمهمة الجليلة الشريفة التي اضطلع بها، إنها مسؤولية رد الخصم إلى الحق. وهذا يستوجب من المسلم أن يكون على بصيرة من أمره، وعلم بالحق الذي يعرضه.

يقول الدكتور وهبة الزحيلي في هذا السياق: «قبل أن نُبَصِّر العالم بالإسلام يجب بداهة أن يكون المسلمون في ديار الإسلام على بصيرة صحيحة بالإسلام، ووعي تام به، وإدراك لمعانيه وأحكامه وآدابه وأن يكونوا قدوة حسنة فعلية وترجماناً صادقاً لصورة الإسلام الصحيحة في الاعتقاد والخلق والمعاملة، لهذا كانت قاعدة النبي ﷺ في دعوته كونه ذا بصيرة بها، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾[1]»[2].

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨. قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: ﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء المجازي المراد به التمكن. والمعنى ادع إلى الله ببصيرة متمكناً منها. **والبصير**: صاحب الحجة، لأنه بها صار بصيراً بالحقيقة». «التحرير والتنوير»: ١٣/ ٦٥. فكان في الإتيان بأداة (على) ما يدل على العلو والثبات والاستقامة. وهذا بخلاف الضلال والريب، فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه، وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. فطريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين. ينظر «تهذيب مدارج السالكين»: ٢٤.

(٢) «الموجز في معاملة غير المسلمين»: ١٢٩.

وتعالوا بنا نقف مع نموذج لحامل الرسالة[1] نتصت إلى قوة إيمانه بما حمل من مسؤولية وإلى حسن عرضه لقضيته التي خرج من أجلها من تخوم الجزيرة العربية إلى بساط رستم: قال ربعي بن عامر[2]: «الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من شاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[3].

وقال المغيرة (ت. ٥٠هـ) ـ لما سأله عامل كسرى: من أنتم؟ ـ: «نحن أناس من العرب كنا في شقاء شديد وبلاء شديد نمص الجلد والنوى من الجوع، ونلبس الوبر والشعر ونعبد الشجر والحجر، فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السماوات ورب الأرضين ـ تعالى ذكره وجلت عظمته ـ إلينا نبياً من أنفسنا نعرف أباه وأمه فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية. فأخبرنا نبينا ﷺ عن رسالة ربنا أنه من قتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط. ومن بقي منا ملك رقابكم»[4].

حري بالمجادل المسلم أن يتمثل هذه اللوحة المشرقة النصاعة الألوان، فهماً وممارسة[5]. وجميل أن نسأل أنفسنا دائماً عند بداية أي

---

(١) من مظاهر وراثة الإسلام لكل الرسالات السابقة: رحلة الإسراء والمعراج «وقد كانت رحلة الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوجيه الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين ﷺ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول ﷺ لمقدسات الرسالة قبله واشتمال رسالته على هذه المقدسات». «معركتنا مع اليهود»: «٦٢.

(٢) لما سأله رستم من أنتم؟ وماذا تريدون؟

(٣) «الكامل في التاريخ»: ٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة ممع أهل الذمة، ينظر «الفتح»: ٦/ ٣٩١.

(٥) سنقف مع هذا الموقف وغيره بشيء من التدبر في الباب الثالث من هذه الرسالة، =

*** علمه بغيره[1]**

أي بمن يريد محاورته؛ بأن يلم بشخصيته وبيئته وكل ما يؤدي إلى المعرفة بحال من يخاطبه[2].

معرفة لا تبخس الناس قدرهم بل تضعهم في منازلهم. وتعرف ما لهم وما عليهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[3].

*** علمه بموضوع المجادلة وأسلوبها: [4]**

لأن الجهل بموضوع المجادلة سيؤدي إلى المهاترات والشتائم ليغطي كل طرف عجزه وجهله بالأفكار المعروضة. ثم إنه ليست كل المواضيع قابلة بأن تكون موضوع مجادلة ولا تصلح أن تثار في أي مناسبة. بل يجب إثارة الموضوع المناسب في الوقت المناسب بالأسلوب المناسب حتى يستطيع مخاطبة الناس بما يفهمون. بالكلمة المناسبة والأسلوب الحسن.

ومتى ألم المجادل المسلم بهذه المجالات أمكنه بيان وجه الحق في الموضوع المختلف فيه. وذلك هو هدف المجادلة.

هذا، ويطلب من المجادل المسلم أن يوظف كل طاقاته ـ إذ القوة

= فلينظر هناك.

(١) يمكن الاستفادة في هذا الباب بمراجعة المباحث السابقة.

(٢) ويندرج ضمن هذا الباب: «الفقه بواقع من يجادله وذلك بدراسة بيئته وطبيعة بلده وشعبه ومعرفة تاريخه والإلمام بالتجارب الحوارية السابقة مع بني جنسه وإمكانية الاعتماد على أبناء جنسه في حواره فإن الناس أقرب إلى الاستجابة من أبناء جنسهم ولغتهم ومعاصريهم». ينظر «الموجز في تبصير غير المسلمين»: ١٣٢ بتصرف. و«الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: ٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٨٣.

(٤) يستفاد من فصول الباب الثاني والثالث من هذه الرسالة.

الطاقة ـ من الكياسة واللباقة والاستفادة من التجارب وحسن التخلص من المآزق[1] وهذا ما سيجعل محاورنا على قدر مهم من الحكمة. ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2].

وأنبه هنا على أن المسلم مطالب أن يلم في كل باب ـ من أبواب العلم: علمه بنفسه، وبغيره، وبموضوع المجادلة وأسلوبها ـ بالكليات التي تضبط ذلك الباب. هذا هو الحد الأدنى الذي لا يعذر أحد بجهله، ومن لمس من نفسه الاستعداد للتوسع والتعمق فليفعل ـ وهذا حال أهل الاختصاص ـ[3].

هذا عن شرط القوة، فماذا عن شرط الأمانة؟.

(ب) الأمانة إيمان ومسؤولية:

*** مفهوم الأمانة:**

الأمانة هي الوصف الثاني في من يُمثل صوت الإسلام في عملية

---

(١) من المواقف الحوارية المعاصرة التي تبرز قوة الخطاب والحكمة في التخلص من المآزق ما أورده الإمام الكشميري بقوله: «اتفق لي مرة أن أسقفاً من النصارى سأل مسلماً إن نبيكم لو كان صادقاً، فلم قتل ستمائة نفس من اليهود؟ وأنا ينظر ما يجيب، فرأيت المسلم عاجزاً عن الجواب، فبادرت إليه. وقلت له: وهل تخبرني كم مرة عفا عنهم مع غدرهم. فما جزاء الغدر في شريعتكم؟ فسكت، ثم قلت له: أخرج الباب التاسع أو السادس عشرة من يوحنا. فجعل يقرأه. حتى إذا بلغ على «فارقليط»، قلت له: من هو؟ قال: هو روح القدس، قلت له: وهل كان روح القدس يفارقه تارة أو يلازمه كل حين. فما يقول عيسى عليه الصلاة والسلام: إن فارقليط لا يجيء ما لم أذهب عنكم، فبهت، ثم قلت: أنا أعلم بكتابكم منكم، فجعل يستفسرني عن أشياء، وأنا أجيبه. فلما دنا المنزل وانصرف إليه. قام لي وأكرمني». «فيض الباري»: ٤/ ٩٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: **٢٦٩**. ينظر معاني الحكمة عند الحديث عن أسلوب المجادلة بالحكمة، في الفصل الأول من الباب الثالث من هذه الرسالة.

(٣) الرسالة التي بين يدي القارىء الكريم، مساهمة في استخلاص هذه الكليات تسهيلاً لعملية الفهم والتنزيل.

المجادلة مع عملية المجادلة مع أهل الكتاب ـ كما بين ذلك حديث حذيفة وبعث أبي عبيدة بن الجراح[1]. «والأمانة في نظر الشارع واسعة الدلالة، وهي ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعاً شعور المرء بتبعية في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه. على النحو الذي فصله الحديث الكريم: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[2]»[3].

قال ابن تيمية (ت. ٧٢٨هـ): «الأمانة ترجع إلى خشية الله، وأن لا يشتري بآياته ثمناً قليلاً وترك خشية الناس؛ وهذه الخصال الثلاث التي اتخذها الله على كل حكم على الناس، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[4]»[5].

وقد بين ابن قيم الجوزية (ت. ٧٥٠هـ) معنى «الأمين» في وصف أبي عبيدة بن الجراح بقوله: «هو الذي لا غرض له ولا هوى، وإنما مراده مجرد مرضاة الله ورسوله، لا يشوبها بغيرها، فهذا هو الأمين حق الأمين، كحال أبي عبيدة بن الجراح»[6].

وقال الإمام النووي: «أما الأمين فهو الثقة الرضي»[7].

والذي اختاره في معنى الأمانة أنها تدور على معاني الحفظ والصيانة وعدم الخيانة، أو في عبارة وجيزة هي الإيمان وما يتفرع عنه من معاني

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العتق. باب كراهية التطاول على الرقيق. ينظر «الفتح»: ٥/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩.

(٣) «خلق المسلم». محمد الغزالي: ٥١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٥) «السياسة الشرعية»: ١٥.

(٦) «زاد المعاد»: ٣/ ٦٤٤.

(٧) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٥/ ١٥٥.

الاستقامة.

والأمانة ثمرة الإيمان؛ قال ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»**(١).

وفي الحديث: **«المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم»**(٢).

ولتربية الإيمان في القلوب قواعد... يسأل عنها ـ الصادق في طلبه ـ رجالات التربية الإيمانية، إذ لكل فن رجال. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(٣).

ونذكر هنا بعض المعالم على سبيل الاستئناس.

*** معالم في طريق الإيمان:**

قال تعالى:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾(٤).

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ يشهد هذا النص أن الإيمان يدخل إلى القلوب بالمواظبة على شعائر الإسلام... ويشهد لهذا المعنى قوله سبحانه في الحديث القدسي: **«وما تقرب إليّ عبدي بأحب مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»**(٥).

ومجموع هذه الفرائض والنوافل يدخل في ذكر الله الذي أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٦).

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٤٢٢) عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث فضالة بن عبيد. ينظر «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للحافظ زين الدين أبي الفرج بن رجب الحنبلي: ١/ ٣٨.

(٣) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع. ينظر «الفنح»: ١٣/ ١٤٢.

(٦) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

ومن أهم الفرائض: **الصلاة**.

«قال رسول الله ﷺ لمعاذ (ت. ١٨هـ)، لما بعثه إلى اليمن: «**يا معاذ إن أهم أمرك عندي الصلاة**» وكذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت. ٢٣هـ) يكتب إلى عماله إن أهم أموركم عندي الصلاة. فمن حافظ عليها وحفظها حفظ دينه، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة»[١] ذلك لأن الصلاة عماد الدين... وهي تعين الناس على ما سواها[٢]، كما قال تعالى:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[٣].

وقد شهد رسول الله ﷺ بالإيمان لمن حافظ على الصلوات بالمسجد؛ قال ﷺ: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان**»[٤].

فلا غرو إذن إذا قلنا إن الصلاة ـ وكذا باقي العبادات ـ من أهم الأسس التي تنبني عليها شخصية المسلم «فهي دعائم الإسلام، وهي التطبيق العملي للعقيدة، والعبادات بدورها تثمر السلوك الصحيح، والخلق القويم، وترسم لشخصية المسلم، الخطوط العريضة والملامح المشرقة، فيعيش حياته في إيقاعها الهادىء الهادف، موصولاً بربه حانياً على مجتمعه. ففي كل عبادة من عبادات الإسلام يستشعر بنبض الإيمان في أعماقه، فلا يصدر

---

(١) «السياسة الشرعية»: ٢٣.

(٢) «أثبتت الصلاة فاعليتها في تطهير النفوس، وتقويم الأخلاق، وتقوية الإيمان ورفع المعنويات، لأنها تصل العبد بمصدر القوة وهو الله تعالى القوي المتين فيقوى بذلك؛ ولهذا فرضت على بني إسرائيل بمجرد حصول أدنى قدر من الاستقلال الشخصي كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧]. «هؤلاء هم اليهود»: ٨٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٤) أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخضري. باب ومن سورة التوبة. ينظر «سنن الترمذي»: ٥/ ٢٧٧.

إلا عن حق ولا ينبعث من حياته إلا الخير»[١].

ثم إن الإيمان شرط في من يريد بيان وجهة نظر الإسلام في القضايا المختلف فيها[٢]، إذ هو القوة التي تجعل منه محاوراً موفقاً، ينطلق في مجادلاته لأهل الكتاب لا من باب المتسامح المتخاذل بل من باب القوي فهو لا ينبهر بما عند الغير من زخرفة الباطل، وإنما يزنه بميزان الحق. فعلى قدر تحققه من معاني الاستعلاء الإيماني[٣]، يتهيأ لحمل الرسالة[٤] لأنه تحرر من جاذبية الأرض[٥] التي تحول بينه وبين الصدع بالحق، ورد الخصم إليه.

فالإيمان إذن شرط في المجادل المسلم. ولا بد من تربية إيمانية[٦]

---

(١) «الإسلام وبناء الشخصية»: ٢٢.

(٢) ينظر المرجع السابق: ١١.

(٣) قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]. ينظر محور استعلاء الإيمان من كتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب: ١٧٨ وما بعدها.

(٤) قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(٥) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]. يقول سيد قطب «إنها ثقلة الأرض، ومطامع الأرض، وتصورات الأرض، ثقلة الخوف على الحياة، والخوف على المال والخوف على اللذائذ والمتاع، ثقلة الدعة والراحة والاستقرار، ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب، ثقلة اللحم والدم والتراب. إن النفرة للجهاد في سبيل الله انطلاق من قيد الأرض، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم، وتحقيق للمعنى العلوي للإنسان، وتغليب لعنصر الشوق المجنح في كيانه على عنصر القيد والضرورة، وتطلع إلى الخلود الممتد، وخلاص من الفناء المحدود. وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله، إلا وفي العقيدة دخل، وفي إيمان صاحبه بها وهن». «معركتنا مع اليهود»: ٩٤ ـ ٩٥.

(٦) التربية تغيير لما بالنفس، وتطهير ونماء. وهي التزكية. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]. =

تبعث في قلوبنا الطمأنينة التي منها تأتي القوة التي تحملنا إلى الناس لنبلغهم الحق الذي معنا، ونردهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، لا نخاف في الله لومة لائم(١).

* **القوة الأخلاقية:**

الأمانة خلق، والأمين هو الذي لا تخاف خيانته فيما تأمنه عليه(٢).

فالأمين حق الأمين(٣) في مضمار المجادلة بالتي هي أحسن - من يستشعر قدر الأمانة التي يحملها، والرسالة التي يريد أن يبلغها، لذا فهو

= وتلك كانت مهمة رسول الله ﷺ الأولى قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. لذا اهتم الرسول ﷺ بإعداد الصحابة بعناية في المرحلة المكية من الدعوة ورباهم أحسن تربية فخرجوا إلى العالم قادة ترنو لهم الدنيا بإعجاب وحفاوة. ويشكو اليوم كثير من الشباب والدعاة من النقص في هذا الجانب، فوجبت العناية به، وجعله في سلم الأولويات. ينظر «الأسلوب النبوي»: ٤٧١. و«مستقبل الإسلام خارج أرضه»: ٣٦. «وهؤلاء هم اليهود»: ٧١.

(١) من ثمرات الإيمان الشجاعة في تبليغ كلمة الحق، أو ما يصطلح عليه بعضهم بـ «الشجاعة الأدبية» وهي من أهم سمات الشخصية الإسلامية ينظر «الإسلام وبناء الشخصية»: ٧٢.

(٢) ورد في تفسير قوله تعالى ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۝٢٦﴾ [القصص: ٢٦] قال لها أبوها: وما علمك بذلك؟ قالت له: أما قوته فما رأيت من علاجه ما عالج عند السقي على البئر - حيث رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال - وأما الأمانة: فما رأيت من غض البصر عني - حيث قال لها: امضي فمشت بين يديه فضربتها الريح فنظر إلى عجزيتها (العجز بضم الجيم مؤخر الشيء، يذكر ويؤنث هو للرجل والمرأة جميعاً وجمعه أعجاز. ينظر «مختار الصحاح»: ٣٩٤). فقال لها موسى امشي خلفي فإذا اختلف عليّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه فإنا لا ننظر إلى أدبار النساء. ينظر «جامع البيان» ٢٠/ ٣٩ - ٤١ و«تفسير القرآن العظيم»: ج ٥/ ٢٧٣ و«زاد المسير في علم التفسير» لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي: ٢١٥.

(٣) عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ - لوفد نجران -: «**لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين**» أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه. ينظر «صحيح المسلم في شرح النووي»: ١٥/ ١٥٥.

يبذل وسعه في عرضها والتعريف بها والتنبيه عليها: بالكلمة والبسمة، بالحال والمقال، بكل ما أوتي من قوة.

ولا شك أن استقامة المحاور المسلم في خلقه وسلوكه من أهم وسائل النجاح في مهمته. فلا قبول يرجى لأي مشروع أو قضية ما لم يكن أصحابها عنواناً صادقاً لها، وما لم يكن انتماؤهم لها يزيدها تشريفاً.

وهذا ما يؤكده الأمر الإلٰهي ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾[1].

قال ابن عاشور (ت. ١٣٩٣هـ) في فهم هذه الآية: «وإنما أمر بالاستقامة أي الدوام عليها، للإشارة إلى أن كمال الدعوة إلى الحق لا يحصل إلا إذا كان الداعي مستقيماً في نفسه»[2].

وكثيرة هي المواقف[3] التي تثبت هذا الأصل من ذلك ما أورده ابن قيم الجوزية (ت. ٧٥٠هـ) عن نصارى الشام وتأثرهم بحال الصحابة الذين وفدوا عليهم، قال: «ولهذا لما رآهم ـ يقصد الصحابة رضوان الله عليهم ـ نصارى الشام، وشاهدوا هديهم وسيرتهم، وعدلهم وعلمهم، ورحمتهم وزهدهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء»[4].

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٥.

(٢) «التحرير والتنوير»: ٢٥/ ٦١.

(٣) إذا تتبعت سيرة المصطفى ﷺ، وجدته قرآناً يمشي على الأرض في خلقه وهديه مع الناس. ومن معالم سلوكه النبوي مع أهل الكتاب ـ في باب المجادلة ـ: الدفع بالتي هي أحسن رفقاً بالخلق وملاطفة.

(٤) «زاد المعاد»: ٣/ ٣١٦. «لا يتم كسر القيود إلا برؤية مثل ورؤية نماذج من البشر تقدم أمثلة رائعة. فالإنسان يرهب القوة ويحترم البطولة، وتأخذ المعاني الرائعة بجماع قلبه، وتسري إلى فؤاده، فتوقظ مشاعره، وتفتح أمامه معاني الحق، ويسهل عليه اتباعه. وأعلى درجات القوة: قوة الحق، والدعوة إليه، والصبر في سبيله». «نظرة النعيم»: =

لهذا أرى أن الأخلاق الحسنة، من القوة الواجب على المحاور المسلم أن يعدها ـ إلى جانب قوة الحق الذي يعرضه ـ في مجادلته مع أهل الكتاب.

* **آداب المجادلة:**

يحسن بنا ونحن نتحدث عن مكانة الأخلاق في تحقيق أهداف المجادلة أن نشير إلى بعض الآداب الضرورية في هذا الباب.

فالأدب في الأصل الدعاء، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس: مدعاة ومأدبة.

قال الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ): «وأدبهم على الأمر: جمعهم عليه، وتقول: أدبهم عليه، وندبهم إليه»[١].

وسمي الأدب أدباً لأنه يأدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح[٢].

والأدب في الاصطلاح: «رياضة النفوس ومحاسن الأخلاق، ويقع على كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل»[٣].

وقيل: «هو عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ»[٤].

وواضح أن المجادلة بالتي هي أحسن تستلزم آداباً عالية؛ فطرح موقف من قضية ما على مائدة التشريح، والنظر إليه بعدسات فاحصة، والتأمل في أصوله وجزئياته بتبصر، يتطلب مخاطبة صاحبه برفق، والتدرج به لإدراك ما

= ٢/ ٣٤٩ بتصرف نقلاً عن كتاب «المسؤولية» للشيخ محمد أمين المصري: ٣٧ ـ ٤٠.

(١) «أساس البلاغة»: ١٤.

(٢) انظر «اللسان» مادة أدب.

(٣) «نظرة النعيم»: ٢/ ١٤١، نقلاً عن التوقيف على أمهات التعاريف.

(٤) المصدر السابق.

فيه من إيجابيات وسلبيات بتؤدة ولين، مما يجعل المجانب للصواب يتزحزح عن موقفه، دون شعور بالهزيمة، ويقبل غيره دون شعور بالنقص[1].

وهذا ما نبه عليه الإمام الجويني (ت. ٤٧٨هـ) بقوله: «وأحسن شيء في الجدال: المحافظة من كل واحد من المتجادلين على أدب الجدل؛ فإن الأدب في كل شيء حليته، فالأدب في الجدل يزين صاحبه، وترك الأدب فيه يزري به ويشينه»[2].

«وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره. فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب»[3].

ثم إن الأدب يبعث الثقة في قلوب من نجادلهم[4]. لذا وجب التنبيه على آداب الجدل وشروطه التي «إن استعملها الخصم وصل إلى بغيته، وإن لم يستعملها كثر غلطه واضطرب عليه أمره»[5].

ومن هذه الآداب ما يشترك فيه الخصمان، ومنها ما يختص بكل واحد منهما؛ فأما الأول ـ وهو ما يشتركان فيه ـ فيلزم كل واحد منهما:

ـ **قصد إظهار الحق** في مناظرته، لا قصد إظهار فضيلته، وأن لا يبالي

---

(١) انظر «الجدل في القرآن» لمحمد التومي: ٢٧.

(٢) «الكافية في الجدل»: ٥٣٨.

(٣) «نظرة النعيم»: ٢/١٤٩.

(٤) لقد كانت ثقة المجتمع في رسول الله ﷺ مبنية على وضوح سلوكه، ومعرفة تامة بأخلاقه، ومعاملة مستمرة تظهر في كل يوم جليل خلقه، ونفيس صدقه، وعظيم وفائه، ورفيع محبته للناس جميعاً. وكانت ثقته ﷺ بنفسه قائمة على ثقته بربه، وثقته بالحق الذي يدعو إليه، وثقته بنصر الله عز وجل. انظر «الدعوة الإسلامية في عهدها المكي»: ١٥٥.

(٥) «كتاب الجدل على طريقة الفقهاء»: ٢.

قامت الحجة له أو عليه[1]. وإلى هذا أشار محيي الدين يوسف بن عبد الرحمٰن بن الجوزي (ت. ٦٥٦هـ) بقوله: «أول ما تجب البداية به حسن القصد في إظهار الحق ـ طالباً لما عند الله تعالى ـ فإن من أنس بنفسه الحيد[2] عن الغرض الصحيح، فليكفها بجهده، فإن ملكها، وإلا فليترك المناظرة في ذلك المجلس»[3].

لهذا وجب أن تكون المجادلة تعاوناً على طلب الحق، وذلك كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يديه، أو على يد من يعاونه[4].

ـ **تفهم كل طرف من الفريقين المتجادلين وجهة نظر الطرف الآخر** إذ «الأصل في الجدال المثالي الذي يلتزم فيه جانب الحق والأدب، أن يتفهم كل طرف من الفريقين المتجادلين وجهة نظر الطرف الآخر، ويعرض فيه كل طرف أدلته التي رجحت لديه استمساكه بوجهة نظره، ثم يأخذ في تبيين الحقيقة من خلال الانتقادات التي يوجهها الطرف الآخر على أدلته»[5].

ومن الآداب أيضاً[6]:

ـ تحديد السؤال والجواب، وترك المداخلة، والانتظار والإمهال إلى أن يأتي الخصم على آخر كلامه، وينتظر آخر معانيه.

ـ والإقبال على خصمه، والإصغاء إليه دون غيره.

ـ وألا يخرج من مسألة إلى أخرى حتى يستوفي الكلام في الأولى.

---

(١) «علم الجذل»: ١٣.

(٢) الحيد من حاد يحيد حيدة وحيوداً وحيدودة: أي مال عنه وعدل. انظر «مختار الصحاح» ١٦٨.

(٣) «الإيضاح لقوانين الاصطلاح»: ١٣٥.

(٤) «نظرة النعيم»: ٢/ ١٥١، نقلاً عن إحياء علوم الدين.

(٥) «مناهج الجدل»: ٤٣١.

(٦) انظر «كتاب الجدل على طريقة الفقهاء»: ٢.

ـ واستعمال الحسن الجميل، دون التشنيع والتقبيح.

ـ وحفظ المقول لئلا تجري مناكرة لما قيل، أو دعوى ما لم يقل، ولا يغير كلامه بما يحيل المعنى.

ـ ولا يلغو في نوبته، لأن ذلك يعمي عين البصيرة، ويكسر حدة الخاطر.

قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾[(١)].

ـ «وإذا زل خصمه فليوقفه على زلله، غير مخجل له ـ بالتشنيع عليه ـ فإن أصر أمسك عنه، إلا أن يكون ذلك الزلل مما يحاذر استقراره عند السامعين، فينبههم على الصواب فيه، بألطف الوجوه جمعاً بين المصلحتين»[(٢)].

ومما يخص كل واحد من الفريقين:

ـ المحافظة من كل واحد من المتجادلين على مرتبته[(٣)]:

(أ) **فمرتبة المجيب**: التأسيس والبناء، فلا يتعدى عن هذه المرتبة إلى غيره.

(ب) **ومرتبة السائل**: الدفع والهدم.

فحق المجيب أن يبني مذهبه الذي سئل عنه على أساس قويم، وأصول صحيحة من الأدلة وغيرها. وحق السائل ومرتبته في سؤاله إن رام تصحيحاً، أن يكشف عن عجز المسؤول من بناء مذهبه على أصل صحيح. أو بيان عجزه عن الخروج مما ألزمه مما له من القول الفاسد.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) «الإيضاح لقوانين الاصطلاح»: ١٣٥.

(٣) انظر «الكافية في الجدل» ٥٣٨.

ومتى تم للسائل فقد استعلى، ويكفيه عن الاشتغال بأمر زائد يدل على انقطاعه. وإن تم للمجيب بما أقام من البرهان على ما ادعاه تعجيز السائل عن القدح في ما أقام بنقد أو معارضة أو اشتراك فيما أقام، فقد استعلى المجيب وانقطع السائل[1].

هذه بعض من الأصول والآداب التي تثمر الهدى، ومتى تمسك بها المجادل اهتدى.

ضابط في آداب المجادلة:

الضابط العام الذي يضبط آداب المجادلة هو ما عبر عنه أمام الحرمين بقوله: «ومعظم الأدب في كل صناعة: استعمال ما يختص بها، والاشتغال بما يعود نفعه إلى تقويمها، والإعراض عما لا يعود بنفع إليها»[2].

فكل أدب يعود بالنفع على المتجادلين، ويحقق غاية المجادلة ـ وهي بيان وجه الحق في الأمر المختلف فيه ـ وجب الأخذ به، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ولا بأس من التنبيه على أن الخلق الحسن هو ثمرة الإيمان بل معيار قوته، فقد «وضح صاحب الرسالة ﷺ أن الإيمان القوي يلد الخلق القوي حتماً، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان، أو فقدانه، بحسب تفاقم الشر أو تفاهته. قال ﷺ: «**الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر**»[3]»[4].

---

(١) المصدر السابق: ٥٣٩.

(٢) «الكافية في الجدل»: ٥٣٨.

(٣) رواه الحاكم والطبراني. وحديث «**الحياة شعبة من الإيمان**» أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان. باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٢/ ٤.

(٤) «خلق المسلم»: ١٠.

فحسن الخلق من قوة الإيمان[1].

بهذا نخلص إلى أن الأمانة تعود في النهاية إلى معاني الإقبال على الله عز وجل ـ بالفرض والنفل ـ وما يثمره هذا الإقبال من إيمان وخلق حسن ومسؤولية.

فالأمانة إذن: إيمان وأخلاق ومسؤولية.

هكذا يتبين أن المؤمن القوي الأمين، هو القادر على أن يفهم بقوة حجته وبيان خطابه، وأن يمثل بالسلوك القويم، أن الحق الذي يدعو إليه الإسلام أحق أن يتبع.

الضابط الثاني: الواجب في كل مسؤولية الأصلح بحسبها[2].

عقد ابن تيمية (ت. ٧٢٨هـ) فصلاً تحت عنوان: «قلة اجتماع الأمانة والقوة في الناس» وأورد فيه قولة عمر بن الخطاب (ت. ٢٣هـ): «اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر[3] وعجز الثقة»[4] ثم قال: «فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية: وأقلهما ضرراً فيها؛ فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع، وإن كان فيه فجور فيها، على الرجل الضعيف العاجز، وإن كان أميناً... فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه[5]... وقد قال النبي ﷺ: «**إن الله يؤيد هذا**

---

(١) «إن الإيمان هو مناط تكوين القيم الخلقية والاجتماعية ونحوها، وهو أيضاً مصدر الإلزام الخلقي، لأنه هو المسيطر على كل غرائز الإنسان وشهواته، والمتحكم في أحاسيسه ودوافعه». مقال «في معنى الحياة والنفس الإنسانية». بقلم عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الرحمٰن بن ملوح. «نظرة النعيم»: ١/ س، و.

(٢) بتعبير شيخ الإسلام: «الواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها».

(٣) **الجلد** ـ بفتحتين ـ **والجلادة**: القوة والصلابة. ينظر «مختار الصحاح»: ١١٤.

(٤) يشكو رضي الله عنه من قلة اجتماع القوة والأمانة في الرجل الثقة.

(٥) أصل هذه العبارة فتوى للإمام أحمد بن حنبل.

الدين بالرجل الفاجر»[1][2]. ثم أورد الحالة الثانية فقال: «وإن كانت الحاجة في الولاية إلى الأمانة أشد، قدم الأمين مثل حفظ الأموال ونحوها»[3]. وعن الحالة الثالثة يقول: «وأما استخراجها ـ أي الأموال ـ وحفظها، فلا بد فيه من قوة وأمانة، فيولي عليها شاد[4] قوي يستخرجها بقوته، وكاتب أمين يحفظها بخبرته وأمانته»[5].

ثم نبه في الأخير على أنه وإن جاز تولية غير المؤهل للضرورة، إذا كان أصلح الموجود، فإن الواجب يقتضي السعي في إصلاح الأحوال، حتى يكمل في الناس ما لا بد لهم منه[6].

وأرى أن مهمة محاورنا تحتاج إلى القوة والأمانة، ولهذا لا مناص من الاحتفاظ بمفهوم المجموع الذي نبهنا عليه سابقاً. فلا نقدم إلا من له مجموع أفضل وحظ أوفر من خصال القوة والأمانة[7]. وهذا ما تعرض له القاعدة الآتية:

* **«القوي بعلمه، الأمين بحفظه هو المجادل عن الحق دون غيره»**.

فالقوة والأمانة هما الشرطان الواجب توفرهما في من يريد تمثيل الإسلام في عملية المجادلة مع أهل الكتاب، ذلك أن:

---

(١) أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة. كتاب الإيمان. باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٢/ ٩٨.

(٢) «السياسة الشرعية»: ١٦.

(٣) المرجع السابق: ١٩.

(٤) **الشادي**: الجامع للشيء. يقال **شدا من العلم شيئاً**: أخذ، فهو شاد، جمع شداة وشادون. «لسان العرب» ١٤/ ٤٢٥.

(٥) «السياسة الشرعية»: ١٩.

(٦) نفسه.

(٧) بمفهومها الواسع الذي عرضناه سابقاً.

* «**العلم عماد، والتقوى زاد وبهما يتحقق المراد**».

فالعلم هو مظهر القوة، والتقوى أمانة وبهما يحقق المؤمن غاية المجادلة، وهي رد الخصم إلى الصواب.

الضابط الثالث: في معرفة الأصلح وكيفية تمامها.

«وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية، ومعرفة طريقة المقصود؛ فإذا عرفت المقاصد والوسائل تم الأمر»[1].

فلا بد عند الاختيار من استحضار الغايات والمقاصد، وكذا الوسائل والأساليب؛ فمن كان أقدر على تمثل الغايات وسلوك الوسائل الأنجع فهو الأولى وإلا فغيره أولى. وليكن همنا الأول: اختيار الرجل المناسب للمهمة المناسبة. وإن كان في كل المؤمنين خير كما قال رسول الله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**»[2].

قاعدة في بيان أطراف المجادلة:

في ختام هذا الباب لا بأس من ذكر القواعد والضوابط التي تذكرنا بما سبق ونجمله في عبارات جامعة، حتى يسهل استحضار تلك المعاني، ويسهل تنزيلها على أرض الواقع:

- القواعد المرتبطة بالطرف الكتابي:

* «**معرفة الغير شرط في التبصير**».

* «**لا جدال بالتي هي أحسن إلا مع من سعى وطلب، ومع كل فاضل مستعد**».

---

(١) «السياسة الشرعية»: ٢٢.

(٢) أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة. كتاب القدر، باب الإيمان بالقدر والإذعان له. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١٧٥.

ـ **قاعدة في مواصفات المسلم المجادل:**

* **«القوي بعلمه، الأمين بحفظه هو المجادل عن الحق دون غيره».**

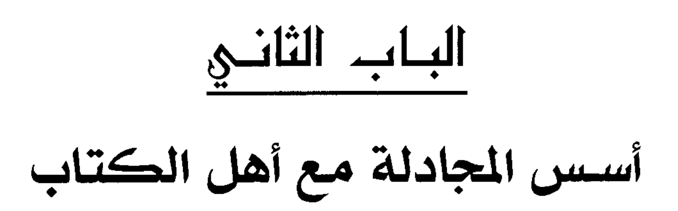
بهذا البيان نخلص إلى أهمية الوقوف عند أطراف المجادلة، من حيث ضرورة معرفة المجادل، معرفة تميز بين من يصلح أن يكون طرفاً في المجادلة بالتي هي أحسن عن غيره، ومن حيث الإلمام ببعض المعالم الكبرى في شخصيته. دون إغفال التنبيه على معالم شخصية المسلم القادر على عرض الحق بقوة وأمانة.

وكل هذا، يندرج ضمن الإجابة عن السؤال المحوري لهذا الباب: **من يجادل من؟.**

إن استحضار القواعد التي تضبط معرفتنا بأطراف المجادلة، وتمثلها لهو المدخل السليم في مجادلتنا لأهل الكتاب.

هذا عن أطراف المجادلة؟ فماذا عن موضوعها وأساسها؟





الباب الثاني

أسس المجادلة مع أهل الكتاب

ويشتمل على:

تمهيد

تمهيد:

المجادلة تجاوب بين طرفين لبيان مقتضى نظرتهما في موضوع معين[١].

والمجادلة فرصة لعرض ما مع الطرفين من الحق في الموضوع المختلف فيه. لذا أضحى من الضروري الإلمام بتفاصيل الموضوع المختلف فيه باعتباره الأساس الذي قامت عليه المجادلة بداية.

وأرى أن تحديد الموضوع المختلف فيه، والمواضيع التي يمكن أن تمتد إليها المجادلة أمر ضروري إذا أردنا أن يكون حوارنا قاصداً[٢].

وقد أثبت الواقع العملي أهمية هذا الأمر[٣]، فقد لوحظ في حوارات سابقة مع أهل الكتاب أنه تم التطرق إلى قضايا لا يقبل شرعاً أن تكون موضوع مجادلة[٤].

---

(١) ينظر مفهوم المجادلة ضمن المفاهيم الأساسية في هذه الرسالة.

(٢) الحوار القاصد هو الذي يحقق المقاصد المرجوة منه، وكل زيغ عن هذه المقاصد يفقد المجادلة قيمتها ومعناها.

(٣) أي أهمية معرفة أسس المجادلة وهي القضايا التي يمكن أن تكون موضوع مجادلة.

(٤) كموضوع الدعوة إلى الله عز وجل: الذي عُرض للنقاش في «مؤتمر ممثلي الأديان» المنعقد بإندونيسيا عام ١٩٦٧م. و«المؤتمر الإسلامي ـ المسيحي الدولي الأول» بقرطبة عام ١٩٧٤. و«ندوة الحوار الإسلامي المسيحي» بطرابلس ليبيا ١٩٧٦م. (ينظر «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٢٤٦ وما بعدها. وهذه «حياتي»: ٩٩ ـ ١٠٠. و«الإسلام والمستقبل» سلسلة اقرأ العدد ٤٠١: ١٥٤) وخرج أطراف المجادلة بقرار أن =

ويظهر أن الاضطراب في موقف الطرف المسلم يرجع إلى غياب تصور واضح يضبط قضايا المجادلة، نتمكّن من خلاله معرفة الحدود التي يجب أن تقف عندها المجادلة مع أهل الكتاب.

ويبقى سؤال: علامَ نتحاور؟ أو: ما هي أسس المجادلة مع أهل الكتاب؟[١] المفتاح لتبين معالم التصور المطلوب لموضوع المجادلة.

وقد خصصت هذا الباب لحل هذا الإشكال، والوقوف على القواعد والضوابط التي تكشف عن مساحة وحدود الأرضية التي يمكن أن تغطيها المجادلة مع أهل الكتاب[٢] من خلال الفصلين الآتيين:

ـ الفصل الأول: الكلمة السواء.

ـ الفصل الثاني: أسئلة وردود.

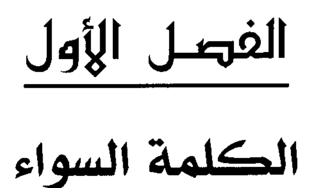
وسأعرض لنتائج هذه الدراسة في نهاية الباب.



= يتوقف الجانب المسلم عن الدعوة إلى الله والإسلام في مقابل أن يتوقف الطرف الكتابي ـ النصراني ـ عن الدعوة إلى التنصير. ونسي المجادل المسلم ـ التي لا يمثل إلا نفسه قول رسول الله ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**» (أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ينظر «الفتح»: ٧/ ١٧٢) الذي يُحمّل جميع المسلمين مسؤولية تبيلغ كلمة الإسلام إلى العالمين. ونسي أن غاية المجادلة ومقصدها هو إسماع الدعوة لا التخلي عنها. وكموضوع الردة الذي طالب الطرف الكتابي بتغيير أحكامه ـ كما حدث في «اللقاء الإسلامي ـ المسيحي التحضيري» بجنيف ١٩٦٨ (ينظر «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٢٤٨).

(١) **سؤال**: من يجادل من؟ يُقدم المعرفة بأطراف المجادلة. في حين تمكن الإجابة على سؤال أسس المجادلة، من المعرفة بموضوع المجادلة.

(٢) تركت الحديث عن المعالم التي تضبط أسلوب عرض هذه القضايا إلى الباب الثالث من هذه الرسالة، فلتنظر هناك.



الفصل الأول

الكلمة السواء

ويشتمل على:

تمهيد

المبحث الأول : الاجتماع على الكلمة السواء.

المبحث الثاني : مقتضيات الكلمة السواء.

تمهيد:

إن تحقيق غايات المجادلة مع أهل الكتاب، متوقف أساساً على إحكام الخطوة الأولى في هذه العملية: اختيار موضوع المجادلة؛ فعلى قدر قيمة الموضوع المعروض للمجادلة، وتوافق الطرفين على أهميته وصلاحيته لأن يكون أرضية للمجادلة تسلم الانطلاقة وتحمد النتائج.

وكلما توفرت المعرفة ـ لدى الطرفين ـ بكل مفردات الفكرة التي يراد التحاور عليها أمكن للمجادلة أن تبلغ مداها. ذلك أن فقدان الرؤية الواضحة لموضوع المجادلة يحوّل هذه الأخيرة إلى مجرد مهارات وكلمات غير مسؤولة، وبهذا تضيع فرصة للقاء والبلاغ كانت متاحة(١).

لهذا، وجب تتبع الآيات القرآنية التي تعرض لهذه المواضع مع استحضار مواقف السيرة النبوية، لنتعرف على المواضيع التي تصلح منطلقاً للمجادلة مع أهل الكتاب، ولنتبين أيها يقدم، وأيها يقبل التأخير.

هذا ما سأتناوله في هذا الفصل من خلال التصميم الآتي:

ـ **المبحث الأول**: الاجتماع على الكلمة السواء.

ـ **المبحث الثاني**: مقتضيات الكلمة السواء.



---

(١) ينظر «في آفاق الحوار»: ٣٠.

المبحث الأول

الاجتماع على الكلمة السواء

تمهيـــد:

قبل البحث في معالم التصور المطلوب لموضوع المجادلة مع أهل الكتاب أرى من الواجب استحضار الأصل الذي يؤطر هذا التصور، ألا وهو: **غاية المجادلة.**

لأن استحضار غاية المجادلة ومقصدِها يمكّن من توجيه مواقفنا في قبول أو رفض المجادلة في موضوع ما.. فكل موضوع ينسجم ـ التحاور فيه ـ مع غايات المجادلة لا بأس من ضمه إلى مواضيع المجادلة والعكس صحيح.

ثم إن استحضار مقاصد المجادلة يساعد أيضاً على الإدراك الشامل للقضايا التي يمكن أن تكون موضوع مجادلة. اعتباراً للرابط الذي يجمع هذه القضايا ألا وهو خدمة الغايات وتحقيق المقاصد[١].

وعليه فستتم معالجة القضايا الواردة في هذا المبحث من خلال المحورين الآتيين:

---

(١) لأننا نبحث عن هذا الإدراك الشامل والدقيق لموضوع المجادلة كان لا بد من الحديث عن غاية المجادلة مع أهل الكتاب بشيء من البيان قبل البحث في موضوع المجادلة.

المحور الأول: غاية المجادلة مع أهل الكتاب.

المحور الثاني: الكلمة السواء، منطلق المجادلة مع أهل الكتاب.

المحور الأول

غاية المجادلة[1] مع أهل الكتاب

المجادلة ضرب من القول[2]. وأحسن القول ما حمل دعوة الله إلى الأسماع، قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا[3] مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4].

فالباعث على المجادلة إذن: هو تبليغ الدعوة، وتحقيق البلاغ المبين. وهذا ما تؤكده الآية:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[5].

---

(١) أحب أن أنبه على أهمية التمييز بين هدف المجادلة وغايتها؛ فالغاية تتحقق بعد حصول الهدف. ولأن هدف المجادلة هو رد الخصم إلى الصواب في الموضوع المختلف فيه، والغاية هي عرض الموقف الإسلامي من القضية المطروحة بما يساعد على تحسينه لذا المخاطب، لهذه الاعتبارات أرى من الواجب الوقوف عند غاية المجادلة بعد أن بينا أهدافها.

(٢) يراجع مفهوم المجادلة.

(٣) يراد بالقول في لغة العرب: القول باللسان والاعتقاد بالجَنان والعمل بالأركان. يقول الراغب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦]. قال: لم يُرد به القول المنطقي فقط بل أراد ذلك إذا كان معه اعتقاد وعمل. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٣٠ ـ ٤٣١. ومن المجاز قول العرب: «**قال بِيَده**: أهوى بها، **وقال برأسه**: أشار، **وقال الحائط فسقط**: مال». «أساس البلاغة»: ٥٢٨.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

فالمجادلة أسلوب من أساليب الدعوة والتبليغ بنص الآية.

ومهمة البلاغ المبين هي مهمة الرسل وأتباعهم إلى يوم القيامة. قال تعالى:

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

وقال عز من قائل مخاطباً المصطفى ﷺ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾[2].

فالدعوة بما هي نداء للعقول والقلوب إلى سلوك الصراط المستقيم[3]، وبما هي أمر بالمعروف[4]، وتعظيم لحرمات الله[5]، وإخراج للناس من الظلمات إلى النور[6] هي الباعث على المجادلة وغايتها[7].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٨٢.

(٣) الدعوة في اللغة نِداء، وحثّ على قصد الشيء. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٧٠ ـ ١٧١ و«أساس البلاغة»: ١٨٩.

(٤) قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]. وأمر ﷺ أن يأمر بالعرف وهو المعروف الذي تعرفه العقول السليمة والفطر المستقيمة وتقرّ بحسنه ونفعه، وإذا أمر به يأمر بالمعروف أيضاً لا بالعنف والغلظة. ينظر «زاد المعاد»: ٣/ ١٦٢.

(٥) قال ﷺ قبل صلح الحديبية: «**لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله**» في رواية ابن إسحاق: «**يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**». ينظر «فتح الباري»: ٥/ ٦٨٤ و«السيرة النبوية»: ٣/ ٢٨٤. فالدعوة قائمة على تعظيم حرمات الله.

(٦) قال تعالى: ﴿الٓر كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [ابراهيم: ١].

(٧) «والذي نقلوه في هذا المقام: إن الدعوة في حق الجاحدين والمعاندين والمصرين تعريف وبلاغ، وفي حق المستجيبين من أصحاب الفطر السليمة، والعقول الراشدة، بناء وتكوين على معنى أنا إذا حاولنا مع الجاحدين والمصرين والمعاندين البناء والتكوين بعد التعريف والبلاغ، فقد تجاوزنا بالدعوة حدودها، وعرضناها للعبث والضياع. وإذا وقفنا بها مع المستجيبين من أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة عند حد التعريف =

وفي لقاءاته ﷺ مع أهل الكتاب ومجادلته لهم، كان للدعوة الاعتبار الأول[1].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه (ت. ٥٩هـ) قال: بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**انطلقوا إلى يهود**» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبي ﷺ فناداهم: «**يا معشر يهود أسلموا تسلموا**» فقالوا: بلّغت يا أبا القاسم، فقال: «**ذلك أريد**». ثم قالها الثانية. فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم. ثم قال الثالثة. فقال: «**اعلموا أن الأرض لله ولرسوله وإني أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ولرسوله**»[2].

قال ابن حجر (ت. ٢٥٨هـ): «قوله: (ذلك أريد) أي: بقولي أسلموا. أي إن اعترفتم أنني بلغتكم سقط عني الحرج»[3].

كانت الدعوة همّه المقعد المقيم ﷺ، وكان حرصه شديداً على تبليغها للصغير والكبير، للسليم والسقيم:

فعن أنس بن مالك (ت. ٩٠هـ) أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال له النبي ﷺ: «**أسلم**». فنظر إلى أبيه وهو جالس عند رأسه فقال له: أطلع أبا القاسم. قال: فأسلم. قال: فخرج

= والبلاغ ولم نتخط ذلك إلى البناء والتكوين، فقد حَجّزنا واسعاً، وعرضناها مع أولئك الدمار الزوال». «منهج أهل السنة والجماعة في قضية التغيير» للدكتور السيد نوح: ١٠.

(١) كانت الدعوة الهمّ الأول والمهمة الأسمى التي يحرص ﷺ على القيام بها. قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: ٦٧]. ينظر «حياة الصحابة»: ١/ ٥ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإكراه، الباب الثاني ينظر «الفتح: ١٤/ ٣٢٨.

(٣) المصدر السابق: ١٤/ ٣٢٩.

النبي ﷺ من عنده وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[1].

قال ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ): «وفيه حسن العهد، واستخدام الصغير، وعرض الإسلام على الصبي، ولولا صحته ما عرض عليه»[2].

كان ﷺ يفرح بإسلام من أسلم من أهل الكتاب[3]، لذا لم يترك مناسبة ولا حادثة إلا وظفها في الدعوة إلى دين الله عز وجل لتبليغ كلمة الإسلام[4].

ولم تمنعه ﷺ ظروف الحرب، أن يظل وفياً لهذا المبدأ ولهذه المهمة: مهمة البلاغ المبين، بل كان يطمع ﷺ في إسلام أهل الكتاب لذا كان يعرض عليهم الإسلام قبل أن يدخل معهم في القتال. فعن سهل بن سعد رضي الله عنه (ت. ٣٨هـ): أنه سمع النبي ﷺ يقول يوم خيبر لعلي (ت. ٤٠هـ): «**على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**»[5] وحاصله أن علياً استأذن النبي ﷺ في المقاتلة حتى يقروا

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه. ينظر «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان»: ٧/ ١٩٤.

(٢) «الفتح»: ٣/ ٥٨٥.

(٣) روى الترمذي أن عدياً بن حاتم قدم على النبي ﷺ وجلس بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ما يفرك** (أي ما يحملك على الفرار. ينظر «أساس البلاغة»: ٤٦٨) **أن تقول لا إله إلا الله. فهل تعلم من إله سوى الله؟**» قلت: لا. قال: ثم تكلم ساعة ثم قال: «**إنما تفر أن تقول: الله أكبر؟. وتعلم شيئاً أكبر من الله؟**» قال: قلت: لا. قال: «**فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضلال**». قال: قلت: فإني جئت مسلماً، فرأيت وجهه تبسّط فرحاً. ينظر «سنن الترمذي»: ٥/ ٢٠٣.

(٤) تروي كتب السيرة أن رسول الله ﷺ بعد أن أظهره الله على كفار قريش في غزوة بدر جمع اليهود في سوق بني قينقاع ودعاهم إلى الإسلام وحذرهم مغبة العصيان وقال: «**يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً**». ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٥٩.

(٥) **حُمر النّعم**: من ألوان الإبل المحمودة، وكانت العرب تتفاخر بها. ينظر «الفتح»: =

بالإسلام من عند أنفسهم، فكأنه فهم أن ليس لهم منا إلا السيف، فعلمه النبي ﷺ سنة القتال وأخبره أن أول الأمر الدعوة إلى الإسلام والسيف آخر الحيل، وذلك: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم(١).

ولم يمنعه نشوب القتال أن يجدد دعوتهم للإسلام. فقد ذكر ابن القيم (ت. ٧٥٠هـ) في منصرفه ﷺ من خيبر إلى واد القرى، قال: وكان بها جماعة من اليهود، وقد انضاف إليهم جماعة من العرب، فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمي... ثم دعاهم ﷺ إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا، أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله... حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، كلما قتل منهم رجل، دعا من بقي إلى الإسلام، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم، فيصلي بأصحابه، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا(٢).

وكان ﷺ يحقن دماء قوم بمجرد أن يسمع فيهم الأذان ـ وهو شعار الإسلام ـ لحرصه الشديد على أسلام القوم: فعن أنس بن مالك (ت. ٩٠هـ) أن النبي ﷺ كان إذا غزى قوماً لم يكن يغزو حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم(٣).

ومعنى ذلك: «أن منتهى غاية الرسول ﷺ، أن يسمع كلمة الحق تجلجل في الآفاق، تخشع لها قلوب المؤمنين، وتخضع لها أعناق

= ٧/ ٤٧٨. والحديث أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة. ينظر «الفتح» ٦/ ٢١١ ـ ٢١٢.

(١) ينظر «فيض الباري»: ٣/ ٤٤٦.

(٢) «زاد المعاد»: ٣/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يحقن بالأذان من الدماء. ينظر «الفتح»: ٢/ ٢٩٣.

المتجبرين، ولم تكن غزواته المباركة إلا تأميناً لكلمة الحق وإزالة ما عساه أن يعترض طريقها... ولم يسمع الرسول ﷺ في خيبر أذاناً، وأنى لكلمة الحق أن تعلو بين طائفة عرفت الحق فجحدته، وحرفت كلام الله عن مواضعه، وكذبت دعاة الحق وقاتلتهم؟»[١].

وهذا ما سار عليه سلفنا الصالح[٢]، وثلة من العلماء المعاصرين. ففي لقاء أحمد كفتارو ـ مفتي سورية ـ مع البابا يوحنا بولس الثاني ـ البابا الحالي للفاتيكان ـ كان الهمّ الدعوي غالباً، وهذا ما عبر عنه كفتارو بقوله: «إنني عندما أزور الباب، إنما أحمل إليه دعوة الإسلام، دعوة الخير والسلام»[٣]. وهو ما عبر عنه أحمد ديدات في رسالته إلى البابا ـ الحالي للفاتيكان ـ عام ١٩٨٥ بقوله: «لقد آن الأوان لكي أدعوكم إلى اعتناق الإسلام، خضوعاً لأمر الله تبارك وتعالى، واستجابة لقول المسيح عليه السلام، وجميع الأنبياء الذين نؤمن بهم جميعاً»[٤].

إن المهمة الأصلية بالنسبة للمسلمين هي «البلاغ المبين فهو حياتهم في الدنيا، وهاجسهم الدائم، وهو نجاتهم في الآخرة، ولا نجاة بدونه. وإن ديدن المسلم هداية الخلق وعدم الحقد عليهم، وشعاره قوله ﷺ: **«أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا»**[٥]»[٦].

---

(١) «معارك الإسلام الكبرى» لمحمد فتحي بكوش. منشورات رسالة الجهاد، العدد الرابع ١٩٨٥م: ١١٥.

(٢) ينظر «لقاء خالد بن الوليد مع جرجة ـ مقدم عسكر الروم ـ يوم اليرموك. «البداية والنهاية»: ١٢/٧. والرسالة القبرصية. «مجموع الفتاوى»: ٢٨/٦٠١ وما بعدها.

(٣) «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٢٣٥. نقلاً عن «صحيفة السفير اللبنانية»، عدد ٤١٥٣.

(٤) المرجع السابق: ٢٨٤. نقلاً عن مجلة «الأمة»، العدد ٤٩: ٩١.

(٥) رواه مسلم من حديث ابن وهب. وأورده ابن كثير في «البداية والنهاية»: ١/٤٩.

(٦) «نظرات في مسيرة العمل الإسلامي» لعمر عبيد حسنة: كتاب الأمة، العدد الثامن، =

هكذا يتبين لنا أن مقدمة مجادلة أهل الكتاب وغايتها: **تحقيق البلاغ المبين.**

المحـور الثانـي
الكلمة السواء منطلق المجادلة مع أهل الكتاب

إذا استحضرنا سؤال: على أي أساس ننطلق في جدالنا لأهل الكتاب؟ يجيبنا النص القرآني بالبيان الشافي والعمق الكافي: **على الكلمة السواء.**

قال تعالى يوجّه نبيه ﷺ إلى الأصل الجامع، والكلمة السواء التي تصلح أساساً للمجادلة مع من ترجى إنابته إلى الحق والصواب:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقال عز من قائل يملي على الرسول الكريم ﷺ بالأصالة وعلينا بالاتباع:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2].

«هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم[3]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾[4] والكلمة تطلق على

= سنة ١٤٠٥: ٨٩.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٣) «وإنما قلنا عنى بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أهل الكتابين لأنهما جميعاً من أهل الكتاب ولم يخصص جل ثناؤه بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بعضاً دون بعض... وإذا لم يكن أحد الفريقين بذلك أولى من الآخر، لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر، ولا أثر صحيح. فالواجب أن يكون كل كتابي معنياً به». «جامع البيان»: ٣/ ٢١٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

الجملة المفيدة، كما قلناها هنا[1]، ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[2] أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[3] لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4] وقال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله. وقال عكرمة (ت. ١٠٥هـ): يسجد بعضنا لبعض[5]»[6].

وإذا كنا مطالبين بمناداة أهل الكتاب إلى الاجتماع على الكلمة السواء فإنه من اللازم أن تكون الكلمة السواء هي موضوع مجادلتنا وحديث لقاءاتنا. وهذا ما يدفعنا للوقوف عند دلالات الكلمة السواء.

١ ـ مفهوم الكلمة السواء:

مر بنا قول ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ) أن الكلمة السواء في هذه الآية يفسرها ما يتبعها؛ وهو قوله تعالى:

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[7].

---

(١) أشار ابن حجر إلى أن الكلمة في هذا الموضع مستعملة بمعناها عند اللغويين لا في اصطلاح النحاة. والمقصود بها الكلام. وإطلاق الكلمة على الكلام سائغ باللغة» لأن بعضها ارتبط ببعض فصارت في قوة الكلمة الواحدة، بخلاف اصطلاح النحاة في تفريقهم بين الكلمة والكلام». ينظر «الفتح»: ٩/ ٨٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٣) نفسها.

(٤) نفسها.

(٥) نبه القرطبي على أن سجود أهل الكتاب بعضهم لبعض كان إلى زمن النبي ﷺ ثم نهى ﷺ معاذاً لما أراد أن يسجد له ﷺ. وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله أينحني بعضنا لبعض، قال: لا». ينظر «جامع أحكام القرآن»: ٤/ ٦٩.

(٦) «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٢١٥.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

وقد أورد ابن جرير (ت. ٣١٠هـ) قولاً آخر أخرجه عن الربيع قال: «قال أبو العالية: الكلمة السواء: لا إله إلا الله»[(١)].

ولا تعارض بين القولين، ووجه الجمع أن قوله تعالى:

﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾[(٢)]. يدخل تحت مقتضى كلمة التوحيد لا إله إلا الله[(٣)].

ونحب أن نحتفظ بالتفصيل الذي تقدمه الآية الكريمة لأننا في مقام البيان والبحث عن معاني الكلمة السواء.

*** الكلمة السواء أصل جامع وأساس مشترك:**

الاجتماع على الكلمة السواء[(٤)] يُرجِع المسلمين وأهل الكتاب إلى إفراد الله وحده لا شريك له بالعبادة وإلى نبذ كل الطواغيت. وهذا القدر يمثل قاسماً مشتركاً بين الطرفين[(٥)].

يقول أحمد ديدات مبيناً أن الكلمة السواء أساس مشترك عند الطائفتين: «فالله سبحانه وتعالى يأمرنا أن ندعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى لنجتمع ونتناقش ونتحاور على أسس مشتركة بيننا وبينهم»[(٦)].

---

(١) «جامع البيان»: ٣/ ٢١٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٣) وهو الذي اختاره ابن حجر. ينظر «الفتح»: ٩/ ٧٩.

(٤) قال الطاهر بن عاشور ـ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا﴾ [آل عمران: ٦٤]. «و﴿تَعَالَوۡاْ﴾، هنا مستعملة في طلب الاجتماع على كلمة سواء، وهو تمثيل: جعلت الكلمة المجتمع عليها بشبه المكان المراد الاجتماع عنده». «التحرير والتنوير»: ٣/ ٢٦٤.

(٥) قال صاحب التحرير: «وقد جيء في هذه المجادلة بحجة لا يجدون عنها موئلاً وهي دعوتهم إلى تخصيص الله بالعبادة ونبذ عقيدة إشراك غيره في الإلهية»: ٣/ ٢٦٨. وهذا قدر مشترك بين الفريقين.

(٦) «هذه حياتي»: ٤٥. قال محمد رشيد رضا: إن الآية «قررت وحدانية الألوهية =

ونلاحظ أن القرآن الكريم أراد أن يفتح الحوار مع أهل الكتاب في أمرين يتعلقان بالعقيدة:

الأول: وحدانية الله تعالى، التي تنفتح على التوحيد في العقيدة والعبادة والطاعة من خلال كل مفردات الحياة، وبذلك يستطيع الجميع أن يتحاوروا في كل الأمور على أساس هذا الخط التوحيدي.

الثاني: تكملة للآية السابقة ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] أي: أن ننطلق من فكرة أن الإنسان واحد يعيش في مواقع إنسانية، لا يختلف واحد عن آخر، ولا يتميز إنسان عن إنسان من خلال اللون والجنس والعرق والأرض والمال والنسب[2].

فعلى هذا تكون الدعوة إلى الكلمة السواء دعوة للانطلاق في المجادلة من مواطن اللقاء في الفكر والرسالة.

*** الكلمة السواء تحسم الخلاف:**

جاء في الميزان: «والدعوة في قوله: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ بالحقيقة إنما هي إلى الاجتماع على معنى الكلمة بالعمل به، وإنما تنسب إلى الكلمة لتدل على كونها دائرة بألسنتهم كقولنا اتفقت كلمة القوم على كذا، فيفيد معنى الإذعان، والاعتراف، والنشر والإشاعة. فالمعنى: تعالوا نأخذ بهذه الكلمة متعاونين متعاضدين في نشرها والعمل بما توجبه»[3].

= ووحدانية الربوبية؛ فأما وحدانية الألوهية فهي قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وأكده بقوله: ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وأما وحدانية الربوبية فهي قوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾». «تفسير المنار»: ٣/ ٣٢٦. فالكلمة السواء هي التوحيد ولازم التوحيد رفض الشركاء وعدم اتخاذ الأرباب من دون الله سبحانه. ينظر «الميزان»: ٣/ ٢٤٧.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) ينظر «في آفاق الحوار»: ٢٧.

(٣) «الميزان»: ٢/ ٢٤٦.

فالأخذ بالكلمة السواء والتعاون على نشرها والعمل بما توجبه من شأنه أن يرفعنا من واقع الاختلاف إلى أكبر قدر ممكن من التوافق والتقارب؛ ذلك أن الاتفاق على هذا الأصل الجامع يمكن من تخريج الفروع المختلف فيها عليه، وهذا المعنى هو ما يشير إليه وصف الكلمة بالسواء. إذ السواء:

ـ مصدر، ويستعمل وصفاً بمعنى مساوي الطرفين، وسواء بيننا وبينكم أي مساو من حيث الأخذ والعمل بما توجبه[1].

ـ العدل والنصفة، «قال قتادة (ت. ٢٣هـ): وقال زهير:

أروني خطة لا ضَيْم فيها ... يسوّي بيننا فيها السواء

فمعنى الآية[2] أجيبوا إلى ما دعيتم إليه، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التي ليس فيها ميل عن الحق»[3].

وهذا من إنصاف الإسلام، فهو يدعو الطرفين إلى أمر لا يتميز فيه أحدهما عن الآخر في شيء[4].

وإنه الإنصاف كل الإنصاف أن ندعو الناس إلى شيء ندعو نحن أنفسنا إليه، ولم نخصها بشيء زائد استأثرنا به ولم نعرضه على الناس[5].

فالكلمة السواء هي الأصل الجامع، والأساس المشترك الذي يقترحه القرآن الكريم لانطلاق المجادلة مع أهل الكتاب.

ولأمر ما كان رسول الله ﷺ حريصاً على جعل آية المجادلة على

---

(١) نفسه.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٣.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن»: ج٤ ./١٠٦. وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ الآية: ﴿إلى كلمة عدل بيني وبينكم﴾. ينظر «جامع البيان»: ج٣,/ ٢١٤.

(٤) ينظر «أسلوب المحاورة»: ٣٢.

(٥) ينظر «أسس الدعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم» للدكتور عمر يوسف حمزة: ٤٩.

الكلمة السواء[1]: كلمة الإسلام إلى أهل الكتاب، إذ لم تخل رسالة من رسائله إليهم من ذكر هذه الآية الجامعة[2].

فهل يعني هذا أن تكون الكلمة السواء هي الموضوع الأول والأخير الذي يجادل فيه أهل الكتاب؟ أم أن الأمر يستدعي غض الطرف عن هذا الموضوع وتناول مواضيع أخرى هي أولى بالمجادلة؟.

إشكال نعرض له من خلال الوقوف على طبيعة مواقف الأطراف منه، والتركيز على الأسس التي اعتمدها كل فريق فيما ذهب إليه. وبعد تحليل أدلة كل فريق سأعرض لوجهة نظري في المسألة.

٢ ــ هل الكلمة السواء الأساس الوحيد للمجادلة؟

يمكن أن نحرر موطن النزاع في هذه المسألة من خلال العبارة الآتية:

هل الدعوة للاجتماع على الكلمة السواء تفيد أن مسألة اللاهوت ـ ما يتعلق بمسألة تصور الله عز وجل ومسألة النبوات وما له ارتباط بالعقيدة ـ هي أم القضايا وأول مواضيع المجادلة مع أهل الكتاب؟

ـ يرى أحمد ديدات أن حوارنا مع أهل الكتاب يجب أن يركز على المواضيع التي يقترحها النص القرآني، وأولها وأهمها هو قضايا العقيدة «فالله يأمرنا من خلال قوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[3].

أن ندعو اليهود والنصارى لنلتقي على أسس مشتركة فيما بيننا وبينهم، ويحدد الله تعالى هذه الأسس والشروط التي نلتقي عليها والتي نتحاور

---

(١) المقصود الآية ٦٣ من سورة آل عمران.

(٢) ينظر كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كما أورده الإمام البخاري في كتاب الوحي، الباب السادس، حديث رقم ٧. «الفتح» ١/٥٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

حولها. وللأسف فإن المسلمين حين يتحاورون مع المسيحيين، فإن حوارهم يدور حول أمور غير التي حددها وأرادها الله لهم»[1].

«وفي كثير من الاجتماعات مع النصارى يخرج المسلمون دون أن يجرؤوا على فتح فمهم بكلمة، أو أن يقولوا لهم ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾[2] أي: لا تقولوا بالتثليث: ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾[3] أي: توقفوا عن هذا القول، فهذا لصالحكم ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[4]. هذا ما يخبرنا الله به، وهذا هو ما يجب أن نقول لهم ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[5].. هذا ما ينبغي أن نتحاور حوله ولكننا نتحاور حول موضوعات أخرى، مثل وضع المرأة في الإسلام.. لا بأس من أن نطرق كل الموضوعات، لكن الموضوعات التي أمرنا الله بها لها الأولوية»[6].

فموضوع العقيدة هو الأساس الأول في مجادلتنا لأهل الكتاب كما يرى أحمد ديدات.

- في حين يذهب محمد حسين فضل الله إلى القول بأن مسألة اللاهوت وعلم الكلام مسألة يمارسها المختصون، ونحن لا نعيش هذا المجال. «إذ في الواقع القائم، المسألة اللاهوتية والمسألة الفكرية حتى الآن ليستا مطروحتين في الجدل العام... إن المسيحيين والمسلمين في لبنان وفي المنطقة العربية والإسلامية وفي العالم لا تشغل كل فكرهم مسألة اللاهوت، التثليث والفداء والأسرار الإلهية وما إلى ذلك، الذي يشغل فكرنا هو المسألة السياسية، لنعترف بذلك»[7].

---

(١) «هذه حياتي»: ٩٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧١.

(٣) نفسها.

(٤) نفسها.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٦) المرجع السابق: ١١٠ - ١٠١.

(٧) «في آفاق الحوار»: ٢٥٠ - ٢٥١.

ولا يعني هذا أن الرجل يرفض الخوض في القضايا اللاهوتية بل إنه يؤكد في غير ما مرة على الحوار العلمي الدقيق في هذا المجال. يقول: «أنا لا أرفض القضايا اللاهوتية، وأؤكد على الحوار العلمي الدقيق في هذا المجال لأنها تمثل القاعدة الإساسية للفكر المسيحي وللفكر الإسلامي، ولكني أجد أن هناك قضايا حارة لا بد من مواجهتها بمسؤولية حتى نستطيع أن نحمي واقعنا من الاهتزازات التي تسقطه ريثما نصل إلى القضايا التي لا تأثير لها بشكل مباشر على حركة الواقع»[١].

ويدعو في الأخير إلى التركيز على القضايا المرتبطة بالإسلام الحي في حركة الإنسان، والمسيحية الحية في حركة الإنسان، وبذلك «نستطيع أن نجد مجالاً للواقع الحي الذي يجمع المسلم والمسيحي عندما يعيشان في قرية واحدة أو منطقة محدد، إذ يتحدث هذا عن أخلاق المسيحية في الواقع الاجتماعي، ويتحدث ذاك عن واقع الإسلام في الواقع ذاته، وعندها يكتشفان أن أخلاقهما واحدة أو متقاربة إلى حد بعيد»[٢].

وهكذا يتبين أن محمد حسين فضل الله يرى أن المواضيع العقدية المرتبطة بطبيعة السيد المسيح عليه السلام، وقضايا التوحيد والتثليث، لا بد أن تكون موضوعاً للحوار العلمي الدقيق. لكن لاعتبارات واقعية يتم إرجاء التحاور فيها.

والذي يظهر من خلال استعراض الأدلة السابقة أن كلا الموقفين جدير بالاعتبار، فالنص القرآني صريح في جعل الكلمة السواء ـ وما يرتبط بها من القضايا العقدية ـ أساساً للمجادلة مع أهل الكتاب، وتبين السيرة النبوية[٣] أن كثيراً من هذه القضايا كانت موضوع مجادلة مع أهل الكتاب

---

(١) «في آفاق الحوار»: ٣٧٥.
(٢) المرجع السابق: ٢٥ ـ ٢٦.
(٣) كما سأعرض لذلك عند الحديث عن مقتضيات الكلمة السواء. من ذلك قوله ﷺ =

غير أن الاعتبار الذي قدمه محمد حسين فضل الله يراعي المقصد من المجادلة، والحكمة في المخاطبة. فهو يبدأ بالمواضيع التي يتحقق فيها أكبر قدر من التقارب لينطلق منها إلى غيرها. وهذا من الحكمة التي أمرنا بالتزامها في مجادلتنا لأهل الكتاب[١].

ثم إن الطرف الكتابي كان المبادر في كثير من المواقف[٢] إلى طرح قضايا العقيدة أساساً للمجادلة.

والذي أراه أن المجادل المسلم: مطالب بالمجادلة عن العقيدة من يجادل عن العقيدة، وبمخاطبة كل فئة بما يناسب المدارك.

هذا، ونترك للمجادل المسلم الأخذ بأي الأسلوبين[٣]، ما دامت الأهداف محققة، والغاية محفوظة.

مما سبق يتبين أن الكلمة السواء هي الأساس الذي يعرضه القرآن الكريم قاعدة للمجادلة مع أهل الكتاب؛ إذ هي الضمان الوحيد لكي تحقق المجادلة أهدافها وغايتها.

هذا عن دلالات الكلمة السواء. **فماذا عن مقتضياتها؟**

= لمعاذ حين بعثه إلى أهل اليمن: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى**» أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، الباب الأول، ينظر «الفتح»: ١٥/ ٢٩٤. يقول ابن حجر: «وأثر الرواة رووه بلفظ: (**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**) ومنه من رواه بلفظ: (**فادعهم إلى عبادة الله**) ووجه الجمع بينهما أن المراد بالعبادة التوحيد، والمراد بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين» المرجع السابق: ١٥/ ٢٩٦.

(١) ينظر دلالات أسلوب المجادلة بالحكمة في الفصل الأول من الباب الثالث من هذه الرسالة.

(٢) سنقف مع نماذج لهذا الأمر في معرض الحديث عن مقتضيات الكلمة السواء.

(٣) إما البدء بأمور العقيدة أو تأخيرها.

المبحث الثاني

مقتضيات الكلمة السواء

الكلمة السواء هي كلمة التوحيد: توحيد الألوهية والربوبية. واللقاء على الكلمة السواء، يقتضي اللقاء على قضايا العقيدة، والاجتماع على أصل التوحيد.

وقد أثار القرآن الكريم والسنة النبوية في مجادلتهما لأهل الكتاب مجموعة من القضايا يمكن إدراجها تحت هذا الأصل: أصل التوحيد.

ارتأيت أن أوزعها على الأقسام الآتية:

الأول: ويتضمن القضايا المرتبطة ببيان **حقيقة التوحيد** وبالرد على من أشرك مع الله عز وجل، وبأقوالهم التي ما قدروا فيها الله حق قدره.

الثاني: وأخصصه للنصوص التي تناولت الرد على أقوالهم الباطلة في رسل الله عز وجل: **حاملي رسالة التوحيد**.

وفيه أعرض أيضاً للآيات التي تعكس تصور وأقوال أهل الكتاب في كتب الله عز وجل **المتضمنة لكلمة التوحيد**.

الثالث: وأقف فيه على «سلطة الأحبار والرهبان» كموضوع اهتم القرآن الكريم والسنة النبوية بعرضه لكونه من أبرز العوامل التي **خرجت بأهل الكتاب عن حقيقة التوحيد**.

المسألة الأولى

حقيقة التوحيد

التوحيد الخالص والإيمان بجميع الرسل والإيمان باليوم الآخر هو عقيدة كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1]، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[2].

غير أن المطلع اليوم على عقائد أهل الكتاب يجد أنهم أبعد عن أصول التوحيد، فقد أشركوا مع الله غيره، واعتقدوا الألوهية في أنبيائه، فلم يعد لاعتقادهم أصل يعود عليه ولا برهان يستند إليه، بل اقتدوا بقوم لا يعقلون، واغتروا بجهال لا يفقهون[3]. قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾[4].

وقد اهتم القرآن الكريم بذكر عقائدهم الباطلة مع التنصيص على شناعتها، ودحضها بالأدلة التي لا ريب فيها[5]. مع بيان عقيدة التوحيد الخالص الذي كان عليه أنبياء الله تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[6].

---

(١) قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٥.

(٣) ينظر «النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية» تأليف: نصر بن يحيى بن عيسى بن سعد المتطبب: ٥٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٥) لبيان طبيعة هذه الأدلة ينظر الباب الثالث. فصل: أسلوب المجادلة بالحكمة.

(٦) سورة ق، الآية: ٣٧.

والقرآن الكريم حين يعرض لعقائد أهل الكتاب، يقدمها بدون تعقيد يشبه ذاك الذي نقله المؤرخون والفلاسفة والباحثون. والسر واضح ومعلوم فالقرآن كتاب الله الموحى به إلى رسول الله ﷺ، وهو كلامه تعالى الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، كانت أو ستكون[1].

وسأذكر في هذا المقام جانباً من تصورهم لقضايا الألوهية كما عرضها الوحي الإلهي، حكاية عنهم، مع التنبيه على جوانب الانحراف في هذا التصور. وذلك من خلال مستويين:

الأول: يبين جهلهم بالله وانحرافهم عن حقيقة التوحيد. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[2].

الثاني: يعرض لأسلوب القرآن في إقامة الأدلة على وحدانيته سبحانه، قال عز من قائل: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾[3].

١ ــ الجهــل بالله:

يقول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[4].

أول ما أخذه الله على بني إسرائيل أن يفردوه سبحانه بالعبودية، لكنهم تولوا إلا قليلاً منهم وهم معرضون.

فلما نسوا الله عز وجل، أنساهم أنفسهم فضلوا وأضلوا.

---

(١) ينظر «أصول المسيحية كما يصورها القرآن الكريم» للدكتور داود علي الفاضلي: ٢٥٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٢.

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من أقوالهم التي تبين انحرافهم العقدي، وعرض مشاهد تعكس جهلهم بالله عز وجل. فما ورد في القرآن حكاية عنهم:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾[1].

وردت الآية في سياق عرض «ضلال تصور اليهود والنصارى لحقيقة الألوهية، وانحرافهم عن التوحيد الذي هو قاعدة دين الله وأساس التصور الصحيح في كل رسالة»[2].

وإنما قال أهل الكتاب هذه الكلمة - ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[3] - أوّل ما قالوها تشريفاً لأنبيائهم، كما قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[4] ثم تلبست بلباس الجد والحقيقة فرد الله سبحانه عليهم[5] بقوله:

﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٦. «اتفق المفسرون على أن الآية نزلت في من زعم لله ولداً من يهود خيبر ونصارى نجران، ومن قال من مشركي العرب: الملائكة بنات الله، فرد الله تعالى عليهم». «الفتح»: ٩/ ٢٠. وقد تعددت الطوائف التي نسبت النسل إلى الله سبحانه فجاء الفعل ﴿قَالُوا﴾ دون تعيين القائل، وجاء لفظ ﴿وَلَدًا﴾ ليشمل كل من نسبه زوراً إلى الله سبحانه. ينظر «البيان في روائع القرآن دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني» للدكتور تمام حسان: ٤٩٣.

(٢) «الظلال»: ١/ ١٠٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١١٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٨.

(٥) «الميزان»: ١/ ٢٦١.

(٦) سورة البقرة، الآيتان: ١١٦، ١١٧. فأضرب الله عن قولهم بقوله: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، ويشمل على برهانين ينفي مثل واحد منهما الولادة وتَحقّق الولد منه سبحانه، فإن اتخاذ الولد هو أن يجزىء موجود طبيعي بعض أجزاء وجوده، ويفصله عن نفسه فيصيره بتربية تدريجية فرداً من نوعه مماثلاً لنفسه، وهو سبحانه منزه عن المثل، بل =

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾[١].

سبحانه! إنهم ليدعون له الولد، وإنه ليعافيهم ويرزقهم[٢].

وسبحانه أن يتخذ صاحبة أو ولداً: فعن ابن عباس رضي الله عنهما (ت. ٦٨هـ) عن النبي ﷺ قال: «**قال الله كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعمه أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولداً**»[٣].

قال ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ): ««وأما شتمه إياي فقوله لي ولد» إنما سماه شتماً لما فيه من التنقيص، لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه ويستلزم ذلك سبق النكاح، والنكاح يستدعي باعثاً له على ذلك والله

= كل شيء مما في السماوات والأرض مملوك له، قائم الذات به، قانت ذليل عنده ذلة وجودية، فكيف يكون شيء من الأشياء ولداً له مماثلاً نوعياً بالنسبة إليه؟ وهو سبحانه بديع السماوات والأرض إنما يخلق على غير مثال سابق، فلا يشبه شيء من خلقه سابقاً، ولا يشبه فعله فعل غيره. إذا قضى أمراً فإنما يقول كن فيكون بغير مثال سابق ولا تدريج، فكيف يمكن أن ينسب إليه اتخاذ الولد؟ ينظر «الميزان»: ١/ ٢٦١.

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠. قال ابن إسحاق: «وأتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى أبو أنس... فقالوا له: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. ينظر «السيرة النبوية» ٢/ ١٩٢.

(٢) فعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس أحد - أو ليس شيء - أصبر على أذى يسمعه من الله إنهم ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم**». أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب الصبر في الأذى. ينظر «الفتح»: ١٢/ ١٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾. ينظر «الفتح»: ٩/ ١٩.

سبحانه منزه عن جميع ذلك»[1].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (ت. ٦٨هـ) أن يهودياً ـ في رواية أخرى جاء رجل من أهل الكتاب[2] ـ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع والجبال على إصبع البحر على إصبع والخلائق على إصبع ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[3]. وقال يحيى بن سعيد[4]: وزاد فيه فضيل بن عياض.. عن عبد الله: فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً له[5].

قال محمد أنور الكشميري (ت. ١٣٥٢هـ): «إنه صدقهم فيما يترشّح من كلامهم من عظمته تعالى، ورد عليهم ما فيه من إساءة التعبير. وهذا كما سأل النبي ﷺ جارية عن الله، فقالت: في السماء، فشهد بإسلامها، لأنه علم ما في ذهنها من عظمته تعالى، ولم يزاحمها في نسبة المكان إلى الله تعالى»[6].

وجاء في الفتح: «وأما قول الراوي: (تصديقاً له). فظن منه وحسبان، وقد جاء الحديث من عدة طرق ليس فيها هذه الزيادة»[7].

وقال ابن بطال (ت. ٤٤٩هـ): «فضحك النبي ﷺ تصديقاً له وتعجباً

---

(١) المصدر السابق: ٩/ ٢٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. ينظر «الفتح»: ١٥/ ٣٤٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٤) راوي الحديث.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ينظر «الفتح»: ١٥/ ٣٤٨.

(٦) «فيض الباري»: ٤/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٧) «الفتح»: ١٥/ ٣٥٤.

من كونه يستعظم ذلك في قدرة الله تعالى، وأن ذلك ليس في جنب ما يقدر عليه بعظيم، ولذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1]»[2].

وقد جادلهم رسول الله ﷺ في قضايا العقيدة قصد بيان انحرافهم عن حقيقة التوحيد لعلهم يرجعون إلى جادة الصواب. من ذلك ما أورده الواحدي في سبب نزول سورة الصمد.

قال الواحدي (ت. ٤٦٨هـ): «إن أحبار اليهود ـ منهم حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ـ قالوا للنبي ﷺ: صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فنزلت الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[3]»[4].

ومن المواقف ما أخرجه ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) قال: وحدثت عن سعيد بن جبير (ت. ٩٥هـ) أنه قال: أتى رهط من يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع لونه[5]، ثم ساورهم غضباً لربه (واثبهم وباطشهم)، قال: فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، فقال: خفض عليك يا محمد، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[6]. قال: فلما تلاها عليهم قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٢.

(٢) «فتح الباري»: ١٥/ ٣٥٤.

(٣) سورة الاخلاص، الآية: ١.

(٤) وأخرج البيهقي ـ في كتاب الأسماء والصفات ـ بسند حسن عن ابن عباس أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: صف لنا ربك الذي تعبد، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ إلى آخرها، فقال: «هذه صفة ربي عز وجل». ينظر «الفتح»: ١٥/ ٣٠٥.

(٥) **انتقع لونه**: أي تغير. ينظر «النهاية في غريب الحديث، حرف النون، باب النون مع القاف: ٥/ ٧٠.

(٦) سورة الاخلاص، الآيات: ١ ـ ٤.

عضده؟ فغضب رسول الله ﷺ أشد من غضبه الأول وساورهم، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال له مثلما قال له أول مرة، وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1]»[2].

وعن ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) أيضاً قال: «أتى رسول الله ﷺ النحام بن زيد، وقردوم بن كعب، وبحري بن عمرو، فقالوا له: يا محمد، أما تعلم مع الله إلها غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «**الله لا إله إلا هو، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو**». فأنزل الله فيهم وفي قولهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[3]»[4].

هذه المواقف ـ وغيرها[5] ـ تبين ضلال القوم عن حقيقة التوحيد، وإصرار بعضهم على الغي. كما تبرز حرص الرسول ﷺ على دحض أباطيلهم، وبسط عقيدة التوحيد السليمة.

وقد سار الصحابة على المنهاج[6] النبوي، فكانوا يغشون مجالس أهل

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) «السيرة النبوية»: ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٤) «السيرة النبوية»: ٢/ ١٩٠.

(٥) من المشاهد التي تعكس ظن أهل الكتاب السيىء بالله عز وجل، ما قصه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]. والجهل يشمل كل ما يصلح له؛ من الجهل الذي هو فقد العلم، والجهل الذي هو سفه النفس وطيش العقل، وأهمه المناسب للمقام جهل التوحيد. ينظر «تفسير المنار»: ٢/ ١١٠. وهذا يدل على أن بني إسرائيل قد انخلعوا في مدة إقامتهم بمصر عن عقيدة التوحيد وحنيفية إبراهيم ويعقوب التي وصى بها. لأنهم كانوا في حال ذل واستعباد ذهب علمهم وتاريخ مجدهم واندمجوا في ديانة الغالبين لهم فلم تبق لهم ميزة تميزهم إلا أنهم خدمة وعبيد. ينظر «التحرير والتنوير»: ٩/ ٨١.

(٦) «المِنهاج: الطريق الواضح». «مختار الصحاح»: ٦٣٤.

الكتاب يدعونهم إلى توحيد الله عز وجل. من ذلك ما رواه ابن إسحاق أن أبا بكر الصديق دخل بيت المدراس[1] على يهود فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم، يقال له: أشيع.

فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عنكم في التوراة والإنجيل.

فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنّا عنه لأغنياء، وما هو عنّا بغني، ولو كان عنّا غنياً ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا. قال: فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت رأسك، أي عدو الله.

قال: فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك.

فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر «**ما حملك على ما صنعت؟**». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، وضربت وجهه. وجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص رداً عليه، وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[2] ونزل في أبي بكر الصديق

---

(١) المِدراس: أو المدارس ـ بكسر أوله ـ هو البيت الذي يدرس فيه كتابهم. ينظر «الفتح»: ٦/ ٤٠٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨١.

رضي الله عنه، وما بلغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[1]»[2].

هذا وقد احتل موضوع حقيقة الألوهية، جانباً مهماً في مجادلة المسلمين لأهل الكتاب[3].

٢ ـ دليل الوحدانية:

قال تعالى ـ معلماً إيانا حسن عرض الدليل على وحدانيته سبحانه ـ:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾[4].

لم يكتف الوحي الإلهي بتسجيل أقوال أهل الكتاب ومواقفهم المنحرفة عن جادة التوحيد، بل بين الله عز وجل لهم الآيات وأقام الأدلة على وحدانيته سبحانه. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[5]. ولهذا لا تجد أقوالهم وأفعالهم الواردة في القرآن إلا متبوعة ببيان وجه الحق، وفي هذا بلاغ مبين لمن ألقى السمع وهو شهيد، وفيه الحجة على من عاند أو كابر[6].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦. روى ابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن عن ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. نزل فيما كان بين أبي بكر وبين فنحاص اليهودي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. تعالى الله عن قوله علواً كبيراً. فغضب أبو بكر فنزلت. ينظر «الفتح»: ٩/ ٩٩.

(٢) «السيرة النبوية»: ٢/ ١٨٠.

(٣) قام د. داود عجك بجهد مشكور في هذا الباب، حيث خصص جانباً مهماً من كتابه الحوار الإسلامي ـ المسيحي لعرض نماذج لهذه اللقاءات الحوارية ـ الفردية منها والجماعية ـ. ينظر «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ١٦٥ وما بعدها.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٦) عموماً يمكن تقسيم الأسلوب القرآني في دحض العقائد الباطلة لأهل الكتاب =

قال عز من قائل ـ رداً على من قال: إن الله هو المسيح ابن مريم ـ:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ[1] إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[2].

فرد الله عز وجل عليهم بأول كلمة نطق بها نبي الله عيسى عليه السلام وهو صغير في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾[3].

﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ هي العبارة نفسها التي سيرد بها ـ غداً يوم القيامة ـ على من غلا في تعظيمه.

قال الله عز وجل يطلعنا على هذا المشهد:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ﴾[4].

= إلى قسمين: الأول تذكر العقيدة الباطلة مع التنصيص على شناعتها، ويذكر إنكارها لا غير. والثاني: أن تقرر شبهاتهم ويذكر حلها بالأدلة النقلية والعقلية. ينظر مقدمة «معجم آيات القرآن»: ٥.

(١) ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي﴾ [مريم: ٣١] الجملة حال من الضمير في ـ قالوا ـ تسجل عليهم أنهم في قولهم هذا مخالفون لما دعاهم إليه المسيح عليه السلام، وأنه تحريف منهم وأن المسيحية كغيرها من الأديان قائمة على التوحيد الخالص. ينظر «أسلوب الدعوة»: ١٥٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٣) سورة مريم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٦. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ فيه قطع لعذر من اعتقد ألوهيته لتفرسه عليه السلام ذلك منهم أو لعلمه بذلك بالوحي. لكن الظاهر من قوله تعالى أن ذلك كان بأمر من ربه ووحي منه. ينظر «الميزان»: ٣/ ٢٠٢.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.

وقال تعالى ـ يرد على من قال: إن الله ثالث ثلاثة ـ:

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ[(١)] وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ[(٢)]﴾[(٣)].

إلى أن قال:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾[(٥)] أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليس بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة... ثم قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾[(٦)] أي نوضحها ونبينها ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[(٧)] أي ثم

---

(١) ذكر الأستاذ الإمام محمد عبده أن النصارى كانوا يبتدئون أدعيتهم ونحوها باسم الأب والابن والروح القدس إشارة إلى الأقانيم الثلاثة عندهم، فجاءت فاتحة كتاب الإسلام ـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ ـ بالرد عليهم موقظة لهم بأن الإلٰه الواحد وإن تعددت أسماؤه فإنما هو تعدد الأوصاف دون تعدد المسميات، فهو رد عليهم بتغليط وتبليد. ينظر «التحرير والتنوير»: ١/ ١٥١.

(٢) ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ المعنى أنه ليس في الوجود إلٰه قط إلا إلٰه موصوف بالوحدانية لا ثاني له، وهو الله وحده لا شريك له. و﴿مِّنْ﴾ تفيد الاستغراق. وأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء لقصر صفة الألوهية على الله الواحد، ونفيها عما عداه مطلقاً. تأكيداً للمعنى يستوجبه مقام الرد على من يدعون التعدد. ينظر «أسلوب الدعوة»: ١٦٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٧٥.

(٥) نفسها.

(٦) نفسها.

(٧) نفسها.

انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون، وبأي قول يتمسكون، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون(١).

وقد رد الله عز وجل على النصارى الذين جادلوا رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام بقوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾(٢).

فنبه الله عز وجل بهذا البيان الموجز على أن «كيفية ولادته ـ أي عيسى عليه السلام ـ لا تدل على أزيد من كونه بشراً مخلوقاً نظير آدم عليهما السلام فليس من الجائز أن يقال فيه أزيد وأعظم مما قيل في آدم، وهو أنه بشر خلقه الله من غير أب»(٣).

وهكذا يتبين كيف أثار القرآن الكريم والسنة النبوية قضايا العقيدة والتوحيد مع أهل الكتاب(٤)، ولم يحجم عن هذا المجال كما يزعم بعض الدارسين(٥).

---

(١) ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٦١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٣) «الميزان»: ٣/ ٢١٢.

(٤) موضوع التثليث، وتبرئة السيد المسيح كان ضمن القضايا التي أدرجها علماؤنا في جدالهم لأهل الكتاب. ينظر «رسالة الحسن بن أيوب إلى أخيه علي بن أيوب. «الجواب الصحيح»: ٢/ ٣١٢ وما بعدها. وحوار رحمة الله الهندي والقسيس فاندر الإنجليزي. «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ١٩٣. نقلاً عن مجلة الأمة، العدد ٥٤: ٤٣.

(٥) نبه أحمد ديدات على هذا الإحجام بقوله: «علينا أن نتجاوز القضايا الهامشية في مناظرتنا للنصارى، ونجادلهم في أصل الخلاف الذي هو قضية التوحيد». «أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن» ترجمة وتعليق: محمد مختار: ٧.

المسألة الثانية

رسل الله عز وجل والكتب السماوية

من الثابت أن «الإيمان بالملائكة والرسل والكتب من أسس العقائد، التي لا يكون الإنسان مؤمناً إلا بها. والملائكة رسل الله إلى الأنبياء، والأنبياء رسل الله إلى الناس، والكتب هي الرسالة التي حملها الملك إلى الرسول ونقلها الرسول إلى الناس»(١).

ومن الطبيعي أن يتفرع عن الجدل القرآني والنبوي مع أهل الكتاب في عقيدة التوحيد: الجدل في أنبياء الله عز وجل والكتب السماوية التي أرسلوا بها.

١ ـ رسل الله عز وجل:

كان من نتائج ضلال تصور أهل الكتاب لحقيقة الألوهية، انحراف في تقدير رسل الله عز وجل ـ من الملائكة والناس ـ وهذا ما يفسر إثارة الوحي الإلهي لقضايا النبوة والرسالة في جداله لأهل الكتاب، حرصاً على تصحيح معتقداتهم الضالة وبياناً لمقام الرسالة الشريف.

(أ) رسل الله من الملائكة:

قال تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ (٩٨)﴾(٢).

---

(١) «تعريف عام بدين الإسلام» لعلي الطنطاوي: ج١ ./ ١٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٩٧، ٩٨. وعن أنس رضي الله عنه قال: «بلغ عبد الله بن سلام مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ـ ثم ذكر الحديث ـ فقال رسول الله ﷺ: «**أخبرني بهن آنفاً جبريل**» قال: قال عبد الله: =

«جاءت هذه المجادلة المصدرة بـ ﴿قُلْ﴾ لإبطال معذرتهم وفضح معتقدهم. . . ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك أرسل من الله ويبغضونه، وهذا من أحط دركات الانحطاط في العقل والعقيدة»[1].

فعداوتهم لجبربل عليه السلام حجة داحضة، فهو ملك مأمور من ملائكة الرحمان الذين ﴿شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2]. وهكذا يبين القرآن الكريم أن القوم لا متمسك لهم في إعراضهم عن الحق الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ. بل هو العناد والكبر، وفي هذا إقامة للحجة عليهم وإزهاق لباطل معتقداتهم.

(ب) رسل الله من الناس:

يقول المصطفى ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي بعث الله نبياً بعده**»[3].

وتلك نعمة عظمى، إذ «كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبياً يقيم أمرهم ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة»[4].

وقد واجهوا نعمة الله عز وجل بالكفر عوض الشكر. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[5].

= ذاك عدو اليهود من الملائكة». أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته. ينظر «الفتح»: ٧/ ٥١٤.

(١) «التحرير والتنوير»: ١/ ٦٢٠.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. ينظر «الفتح»: ٧/ ١٧٠.

(٤) «الفتح»: ٧/ ١٧٣.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

مضمون هذه الآية ينطبق على أهل الكتاب وخاصة اليهود. «وقوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ و ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ في موضعين للاستمرار، ويدلان على كون الكفر بآيات الله وهو الكفر بعد البيان بغيا، وقتل الأنبياء وهو قتل من غير حق، وقتل الذين يدعون إلى القسط والعدل وينهون عن الظلم والبغي، عادة جارية فيما بينهم كما يشتمل عليه تاريخ اليهود»[1].

وجادل القرآن الكريم أهل الكتاب في رسل الله عليهم السلام ليرد افتراءات اليهود والنصارى على أنبياء الله.

فمن مفترياتهم على رسل الله عليهم السلام: ادعاؤهم أن **إبراهيم جد الأنبياء** ـ عليه السلام ـ وآله، كانوا هوداً أو نصارى.

قال تعالى:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾[2].

«استفهام للتوبيخ والإنكار وذلك لمبلغهم من الجهل بتاريخ شرائعهم... وقد رد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾[3] وقد استفيد من التقرير في قوله: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾[4] أنه أعلمهم بأمر جهلته العامة وكتمته خاصتهم ولذلك قال ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ﴾[5]»[6].

---

(١) «الميزان»: ٣/ ١٢٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٠.
(٣) نفسها.
(٤) نفسها.
(٥) نفسها.
(٦) «التحرير والتنوير»: ١/ ٧٤٧.

وقد أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يقول لهم ذلك ـ أي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ـ «تذكيراً لهم بالعهد الذي في كتبهم عسى أن يراجعوا أنفسهم ويعيدوا النظر إن كانوا مترددين أو يفيئوا إلى الحق إن كانوا متعمدين المكابرة»[١].

قال ابن هشام (ت. ٢١٨هـ): قال أحبار يهود ونصارى نجران، حين اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فتنازعوا، فقال الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى من أهل نجران: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله عز وجل فيهم:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾[٢]»[٣].

فرد الله عليهم بحجة العقل الدامغة وهي أن التوراة والإنجيل ـ وهما مصدر المعرفة في هذه المسألة ـ لم ينزلا إلا من بعد إبراهيم عليه السلام، فكيف يكون إبراهيم عليه السلام على دين اليهود أو دين النصارى.

قال الطباطبائي: «فهم عالمون بأنه كان سابقاً على التوراة والإنجيل، لكنهم ذاهلون عن مقتضى علمهم وهو أن لا يكون حينئذ يهودياً ولا نصرانياً بل على دين الله الذي هو الإسلام لله. وقوله تعالى: ﴿تَعْقِلُونَ﴾[٤] يدل على أن الأمر يكفي فيه أدنى تنبيه»[٥].

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٧٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٥.

(٣) «السيرة النبوية»: ٢/ ١٧٤. وأخرجه البيهقي في «الدلائل»: ٥/ ٣٨٤. وذكر ابن كثير في «تفسيره»: ٢/ ٤٧.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٥.

(٥) «الميزان»: ٣/ ٢٥٢.

وقد كان المصطفى ﷺ حريصاً على حفظ مقام النبوة، ففي الحديث[1] أن رسول الله ﷺ دخل على جماعة من يهود ـ وهم في مدراسهم[2] ـ فدعاهم إلى الله؛ فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد: «على أي دين أنت يا محمد؟ قال: «**على ملة إبراهيم ودينه**»؛ فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً، فقال لهما رسول الله ﷺ: «**فهلُمّ إلى التوراة فهي بيننا وبينكم**» فأبيا عليه. فأنزل الله تعالى فيهما:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[3].

وقد شملت المجادلة أيضاً ما نسبته الأحبار زورا إلى أنبياء الله تعالى: كقول بعض الأحبار إن **سليمان بن داود ما كان إلا ساحراً**. فرد الله عليهم بقوله:

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾[4].

فبين الله كذبهم على نبي الله سليمان. لأن تعدية فعل التلاوة بحرف الاستعلاء (على)، يدل على تضمنه معنى (تكذب)، أي تتلو تلاوة كذب على ملك سليمان كما يقال تقوّل فلان أي قال عليه ما لم يكن[5].

---

(١) ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٧٤. والحديث أخرجه ابن جرير في «تفسيره»: ٣/ ١٤٥. وذكره الشوكاني في «فتح القدير»: ١/ ٤٩٠.

(٢) بيت المدارس سبق بيانه.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٢. والذي يلوح من الآية: «أن اليهود كانوا يتناولون بينهم السحر وينسبونه إلى سليمان زعماً منهم أن سليمان عليه السلام إنما ملك الملك وسخر الجن والإنس والوحش بالسحر الذي هو بعض ما في أيديهم، وينسبون بعضه الآخر إلى الملكين ببابل هاروت وماروت». «الميزان»: ١/ ٢٣٤.

(٥) ينظر «التحرير والتنوير»: ١/ ٦٢٩.

ولم تزل أحبار يهود على باطل سحرها، ناسبة أصله نسبة زور إلى نبي الله سليمان. وهذا ما يشير إليه ورود فعل التلاوة بصيغة المضارع: ﴿تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[1] فالمعنى: أن الأحبار ـ قيل هم المراد بالشياطين ـ لم يزالوا يتلون ذلك[2].

ولم يسلم من الأذى حتى **نبي الله موسى عليه السلام**[3].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه (ت. ٥٩هـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل**[4]**، فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أَدرة**[5]**، وإما آفة. وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى. فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر. فجعل يقول ثوبي حجر. حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريان أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون. وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) نفسه.

(٣) كثيراً ما كان رسول الله ﷺ يذكر بصبر نبي الله موسى عليه السلام على أذى بني إسرائيل. من ذلك رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**». أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان يعطي النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم. ينظر «الفتح»: ٦/ ٣٨٣.

(٤) في رواية أخرى: «**كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى يغتسل وحده**». أخرجه البخاري، كتاب الغسل، باب من اغتسل عريان وحده في الخلوة ومن تستر فالستر أفضل. ينظر «الفتح»: ١/ ٥٠٧. قال ابن حجر: «ظاهر الحديث أن ذلك كان جائزاً في شرعهم وإلا لما أقرهم موسى على ذلك، وكان هو عليه السلام يغتسل وحده أخذاً بالأفضل». «الفتح»: ١/ ٥١٤.

(٥) أدرة: نفخة الخصية. ينظر «الفتح»: ١٠/ ١٧٣.

بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً. فذلك قوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾[1]»[2].

واحتل موضوع: **حقيقة السيد المسيح**[3] جانباً مهماً في الجدل القرآني مع أهل الكتاب[4]. وقد ركز البيان القرآني على دحض قول النصارى: إن المسيح هو الله[5] أو ابن الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ومن ذلك قوله تعالى:

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٦٩.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، الباب الثامن والعشرون. ينظر «الفتح»: ٧/ ٩٦ ـ ٩٧.

(٣) المسيح هو الممسوح سمي به عيسى عليه السلام لأنه كان مسيحاً باليمن والبركة، أو لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، أو مسح بذهن زيت بورك فيه وكانت الأنبياء يمسحون به، أو لأن جبريل عليه السلام مسحه بجناحه حين ولادته ليكون عوذة من الشيطان، أو لأنه كان يمسح رؤوس اليتامى، أو لأنه كان يمسح عين الأعمى بيده ليبصر... فهذه وجوه ذكروها في تسميته بالمسيح. لكن المعول عليه أن هذا اللفظ كان واقعاً في ضمن البشارة التي بشر بها جبريل مريم عليها السلام على ما يحكيه تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وهذا اللفظ بعينه معرب «مشيحاً» الواقع في كتب القوم. ينظر «الميزان»: ٣/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٤) كان من نتائج بعض اللقاءات مع أهل الكتاب: الإقرار بوحدانية الله تعالى، وبشرية المسيح عليه السلام ونبوته، ونبوة سيدنا محمد ﷺ. كما حدث في «مؤتمر الحوار بين الأديان» المنعقد ببراغ عام ١٩٨٦. و«المؤتمر الدولي للحوار الإسلامي ـ المسيحي» المنعقد في نفس السنة ببولونيا. ينظر «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٥) تدعي النصارى أن المسيح عليه السلام أمرهم بعبادته، قال تعالى يحكي قولهم الشنيع ويرد عليه ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]. فنزه الله عليه السلام ـ وهو المقصود بالبشر في الآية ـ عن أن يكون قال ذلك. ينظر «التحرير»: ٣/ ٢٩٣.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[١].

فرد الله تعالى عليهم بأن المسيح لو كان إلها «لقدر على دفع ما ينزل به أو بغيره وقد أمات الله أمه ولم يتمكن من دفع الموت عنها، فلو أهلكه هو أيضاً فمن يدفعه عن ذلك أو يرده... ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ﴾[٢] ومعنى هذا أن الله تعالى هو المتصرف في جميع خلقه في السماوات والأرض وما بينهما، والمسيح وأمه مخلوقان محدودان، وما أحاط به الحد والنهاية لا يصلح للألوهية»[٣].

ورد على الطائفة الثانية ـ من قالوا: إن المسيح ابن الله[٤] ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ[٥] ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٧.

(٢) نفسها.

(٣) «مناهج الجدل»: ٢٤٠.

(٤) ومنهم من قال إنها بنوة على سبيل التبني، ويرد عليه صاحب المختار: «وليس بحكيم من ابتذل نفسه في توقير عبده، ووضع من قدره في التوفر على غيره. وليس من الحكمة أن تحسن إلى عبدك بأن تسيء إلى نفسك وتأتي من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب، وكثير الحمد ما لا يقوم بقليل الذم، ولم يحمد الله ولم يعرف إلاهيته من جوز عليه صفات البشر». «المختار في الرد على النصارى»: ٧٤.

(٥) «شبهة النصارى أن وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب يقتضي أن يكون ابناً لله، فكأنهم قالوا لمحمد ﷺ: إذا سلمت أن عيسى ليس له أب من البشر لزمك الاعتراف بأن أباه هو الله تعالى فأجابهم رسول الله ﷺ بالنقض والإبطال لشبهتهم بأنه لو لزم من وجود عيسى من أم بلا أب كونه ابناً لله، للزم أن يكون آدم ابناً لله تعالى بطريق الأولى فإنه وجد من غير أم ولا أب باعترافكم، ثم إنه إذا جاز أن يخلق آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟ بل هذا أقرب إلى العقل فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس وهذا دليل ملزم لهم =

فَيَكُونُ﴾[1].

فخلق عيسى عليه السلام عند الله عز وجل يستوي تماماً مثل خلق آدم عليه السلام خلقه من تراب ثم قال له كن، فكان. وإذا كان عيسى عليه السلام بسبب خلقه المعجز إلها، فلا بد أن يكون آدم عليه السلام أيضاً إلهاً أعظم من عيسى عليه السلام[2].

وهو أقطع دليل بطريق الإلزام، لأنهم قالوا بإلهية عيسى من أجل أنه خلق بكلمة من الله وليس له أب، فقالوا هو ابن الله، فأراهم الله أن آدم أولى بأن يدعى له بذلك، فإذا لم يكن آدم إلهاً مع أنه خلق بدون أبوين، فعيسى أولى بالمخلوقية من آدم[3].

وبهذا أقام الحجة على بطلان دعواهم بأصل يشمل على شبهتهم وزيادة، فإن آدم وجد من غير أم ولا أب ولم يقولوا بألوهيته، فآدم على هذا أحق منه في ادعاء الألوهية. وإذا كان الله قد جعل من معجزاته إحياء الموتى، فقد أحيا الله العصا في يد موسى وجعلها حية تسعى، وهو أعجب من إعادة الحياة لميت. فما هو إلا رسول كإخوانه من الرسل السابقين[4].

وكان حرص رسول الله ﷺ شديداً ـ في مجادلته للنصارى وفي توجيهه للمسلمين ـ على أن يحفظ لنبي الله عيسى مقامه الرفيع: مقام العبودية لله.

فعن عبادة رضي الله عنه (ت. ٣٤هـ) عن النبي ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق،**

= لأنهم لم يقولوا بألوهية آدم عليه السلام». «مناهج الجدل»: ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٢) ينظر «هذه حياتي»: ٩٨.

(٣) ينظر «التحرير والتنوير»: ٣/ ٢٦٣.

(٤) ينظر «أسلوب الدعوة»: ١٦١.

أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»[1].

فأنت ترى أن وجه تخصيص عيسى عليه السلام بالذكر في هذا الحديث دون سائر الرسل كان لتبيان الحق فيه وأنه عبد الله ورسوله[2].

تبرز هذه العناية في رسائله ﷺ إلى أهل الكتاب؛ من ذلك رسالته ﷺ إلى ضغاطر الأسقف، والتي جاء فيها: «**إلى ضغاطر، سلام على من آمن، أما على أثر ذلك: فإن عيسى ابن مريم روح الله، وكلمته، ألقاها إلى مريم الزكية، وإني أؤمن بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون، والسلام على من اتبع الهدى»**[3].

ويفسر هذه العناية بإظهار وجه الحق في أمر السيد المسيح قوله ﷺ: «**أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والأخرة، والأنبياء اخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»**[4].

فأنبياء الله بشر لكن موحى إليهم، هكذا علمنا القرآن الكريم ﴿قُلْ إِنَّمَآ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، الباب السابع والأربعون. ينظر «الفتح»: ٧/ ١٤٤.

(٢) ينظر «مناهج الجدل»: ٢٦٣.

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد: ١/ ٢٦٥.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، الباب الثامن والأربعون. ينظر «الفتح»، ٧/ ١٤٨. قال ابن حجر في شرح قوله ﷺ: «**أنا أولى الناس بابن مريم**»: أي أخص الناس به وأقربهم إليه لأنه بشر بأنه يأتي من بعده... وأولاد العلات الإخوة من الأب وأمهاتهم شتى، وقد بينه فقال: «**أمهاتهم شتى ودينهم واحد**» ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع. ينظر «الفتح»: ٧/ ١٦٣. فأصل الدين واحد وهو التوحيد، والأنبياء والرسل إنما فضلوا عن عامة الناس لاصطفاء الله لهم ولكمال عبوديتهم له سبحانه.

﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1]. فإذن لا إفراط ولا تفريط[2].

وقد احتل موضوع **إثبات نبوته** ﷺ جانباً مهماً من مواضيع المجادلة مع أهل الكتاب. فكثيراً ما كان ﷺ يحاجج أهل الكتاب في هذا الأمر.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه (ت. ٩٠هـ) قال: «لما جاء النبي ﷺ ـ إلى المدينة ـ جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله. وأنك جئت بحق. وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم. فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني أسلمت. فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا في ما ليس في. فأرسل نبي الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم: «**يا معشر اليهود. ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلموا أني رسول الله حقا. وأني جئتكم بحق فأسلموا**». قالوا: ما نعلمه... قال النبي ﷺ: «**فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟**» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «**أفرأيتم إن أسلم؟**». قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم ـ فأعادها عليهم ثلاثاً وأجابوه بنفس الجواب ـ قال: «**يا ابن سلام أخرج عليهم**» فخرج فقال يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون **إنه رسول الله**، وإنه جاء بحق، فقالوا:

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) قال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لا تطروني كما أطري عيسى ابن مريم وقولوا عبد الله ورسوله**». أخرجه البخاري، كتاب الحدود، الباب الواحد والثلاثون. ينظر «الفتح»: ١٤/ ١١٠. قال صاحب «الفتح» والإطراء المدح بالباطل تقول أطريت فلاناً مدحته فأفرطت في مدحه. كما أطرت النصارى ابن مريم، أي في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك. ينظر «الفتح»: ١٤/ ١١٢. وقد شنع القرآن بمن غلا في قدر السيد المسيح. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧]. يقول ديدات معلقاً على الآية «وها هم يغلون في دينهم، فاليهود والمسيحيون يغلون في النظر إلى شخص المسيح فما واجبنا نحن المسلمين... وقد أمرنا الله أن نقول لهم ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧]. فالله يحدد لنا الموضوعات التي نتكلم معهم حولها، ولكننا معشر المسلمين فشلنا في ذلك وتقاعسنا عنه». هذه حياتي: ١٠٢ ـ ١٠٣.

كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ»[1].

فكان ﷺ يجعل من شهادات من أسلم من رجالات أهل الكتاب أدلة لإثبات نبوته ﷺ[2] من باب ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[3].

«**إنكم لتعلمون أني رسول الله**» عبارة كان يواجه بها رسول الله ﷺ أهل الكتاب في كل المناسبات والمنتديات: فمن ذلك ما أخرجه ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) قال: ودخلت على رسول الله ﷺ جماعة ـ منهم اليهود ـ فقال لهم: «**أما والله إنكم لتعلمون أني رسول الله إليكم**» قالوا: ما نعلمه وما نشهد عليه. فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾[4]»[5].

وعن ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) أيضاً قال: «وكان من حديث بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق قينقاع، ثم قال: «**يا معشر يهود، احذروا من الله مثلما أنزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم**»»[6].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار. ينظر «الفتح»: ٧/ ٦٦٨ وينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٣٩. ومن المواقف أيضاً ما رواه أبو سعيد في شرف المصطفى من طريق سعيد بن جبير: «جاء ميمون بن يمين وكان رأس اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ابعث إليهم فاجعلني حكماً، فإنهم يرجعون إليّ. فأدخله داخلاً، ثم أرسل إليهم فأتوه فخاطبوه فقال: «**اختاروا رجلاً يكون حكماً بيني وبينكم**» قالوا: رضينا ميمون بن يمين. فقال: «**أخرج إليهم**» فقال: **أشهد إنه رسول الله، فأبوا أن يصدقوه**». ينظر «الفتح»: ٧/ ٦٩٥.

(٢) أقام القرآن الكريم أدلة على نبوته ﷺ في معرض جداله لأهل الكتاب. ينظر بعضها في «استخراج الجدل»: ٥٨ ـ ٦٣. و«بنو إسرائيل في القرآن والسنة»: ٨٦.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٢٦.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٦.

(٥) «السيرة النبوية»: ٢/ ١٨٥.

(٦) نفس المصدر: ٣/ ٤٢.

وهذا ما يظهر في رسائله ﷺ إلى أهل الكتاب، من ذلك رسالته إلى ملكي عمان ـ وكانا نصرانيين ـ والتي جاء فيها: «**سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما مكانكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما**»[١].

ويرى محمد حسين فضل الله[٢] أن القرآن الكريم يطرح نبوة محمد ﷺ بداية للحوار مع أهل الكتاب، باعتبارها **بشارة موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ** في التوراة والإنجيل[٣] من خلال الآيات التي تتحدث عن صفة النبي محمد ﷺ فيهما[٤].

هكذا يتبين كيف انفتح الجدل القرآني والنبوي مع أهل الكتاب على مواضيع الرسالة والرسل عليهم السلام، وكان الهدف العام هو إبراز الحقيقة في صفائها ودفع كل تصور يمس طهرها إما بالتفريط أو الإفراط.

---

(١) «الطبقات الكبرى»: ١/ ٢٦٢. و«هداية الحيارى»: ٤٤.

(٢) «الحوار في القرآن»: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣) اهتم علماؤنا بدراسة النصوص ـ الإنجيلية والتوراتية ـ التي تعرض للبشارة بالنبي الخاتم محمد ﷺ. وجعلوا منها موضوعاً للمجادلة مع أهل الكتاب. ينظر «إظهار الحق»: ٢/ ٥٠.

(٤) في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

٢ ـ كتب الله السماوية:

كان من الطبيعي أن يمتد الجدل مع أهل الكتاب عن الرسالة والرسل عليهم السلام ليشمل الكتب السماوية باعتبارها حاملة لمضمون هذه الرسالة التي بلغها الرسل في صدق وأمانة.

يقول محمد حسين فضل الله: «لقد بدأ النبي محمد ﷺ حملة الحوار معهم في الموضوع الذي كانوا يتاجرون به، ويمنحون لأنفسهم القداسة من أجله ويستظهرون به وهو الكتاب الذي أصبح اسمه سمة من سماتهم التي ينادون بها وذلك هو قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1]»[2].

وكثيرة هي الآيات التي تعرضت للحديث عن التوراة والإنجيل[3]. ومن الآيات الجامعة في الباب قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾[4].

إلى قوله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٢) «الحوار في القرآن»: ١٣٣.

(٣) وردت لفظتا التوراة والإنجيل في المصحف الشريف ثلاثين مرة. ينظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»: ١٥٨ و٦٨٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[1].

إلى أن قال عز من قائل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾[2].

وختم الله الآيات بقوله:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾[3].

فالتوراة المنزلة هدى ونور، والإنجيل المصدق لها فيه هدى ونور وموعظة للمتقين. والقرآن الكريم المنزل على خير البشر ﷺ مصدق لما سبقه من الكتاب ومهيمن عليها[4].

فالقرآن جاء مهيمنا، أي حاكماً على ما قبله من الكتب، وشاهدا لها بالصحة والثبات في أصلها، ومبيناً حقيقة أمرها، وما طرأ عليها من نسيان وتحريف وتبديل.

ومن هذه الهيمنة على ما قبله انطلق القرآن الكريم ليجادل أهل

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٤) قال الإمام السيوطي: «عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. قال المهيمن الأمين، والقرآن أمين على كل كتاب قبله... وعنه أيضاً ـ أي ابن عباس ـ قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: شهيداً على كل كتاب قبله». «الدر المنثور في التفسير المأثور وهو مختصر تفسير ترجمان القرآن» للإمام جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي: ج. ٢/٥١٢ ـ ٥١٣.

الكتاب في كتبهم السماوية فنبهم على أنهم أخفوا كثيراً مما أوحى الله لهم. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾[1].

وقال أيضاً:

﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ[2] تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾[3].

كما أبرز ما طال كتب الله السابقة من تحريف[4]، قال تعالى:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٥.

(٢) **والقراطيس**: جمع قرطاس بكسر القاف وضمها الذي يكتب فيه... وهو الصحيفة من أي شيء كانت من رق أو كاغط أو خرقة. أي تجعلون الكتاب الذي أنزل على موسى أوراقاً متفرقة قصداً لإظهار بعضها وإخفاء البعض الآخر. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ أي تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض. ينظر «مختار الصحاح»: ٤٩٨. و«التحرير والتنوير»: ٧/ ٣٦٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

(٤) التحقيق الذي عليه العلماء الذين عرفوا تاريخ القوم واطلعوا على كتبهم التي يسمونها التوراة والإنجيل وغيرها هو أن التحريف اللفظي ـ بالتقديم والتأخير والحذف والزيادة والنقصان ـ والمعنوي ـ بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له ـ كلاهما واقع في تلك الكتب ما له من دافع. ينظر «تفسير المنار»: ٦/ ٢٨٣. وقد اهتم علماؤنا بإبراز مواطن التحريف وجعلوا ذلك موضوعاً في مجادلتهم لأهل الكتاب. وقد خصص الإمام الجويني «شفاء الغليل» لهذا الأمر. قال عن أهل الإنجيل: «أما غلطهم الفاحش، وعدم تحفظهم فيما نقلوه: فلا مطمع للعقلاء في تصحيحه، والسبب الذي أوقعهم في الغلط فيما نقلوه: غفلتهم عما تجب المبادرة إليه زماناً، يحصل في مثلها التبديل والنسيان لما طريقه السمع... وسيكون منا شفاء للغليل بذكر ما ارتكبوا فيه الغلط ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] «شفاء الغليل»: ٣٩.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1].

وكان من الإنصاف الذي عرف به الإسلام، أن شهد بما بقي من الحق في كتبهم ودعاهم لإقامته. فقد روى ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) أن جماعة من اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من الله حق؟ قال: «**بلى، ولكنكم أحدثتم**[2] **وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق فيها، وكتمتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس، فبرئت من إحداثكم**» قالوا: فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الهدى والحق، ولا نؤمن بك، ولا نتبعك. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[3]»[4].

بل إن القرآن الكريم يدعو أهل الكتاب إلى تقديم التوراة وإظهارها للناس لإثبات بعض القضايا التشريعية[5] التي يرى الإسلام أنهم كاذبون

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٩. وذكر ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ والقصد منه تحقيق وقوع الكتابة ورفع المجاز عنها وأنهم في ذلك عامدون قاصدون. ينظر «التحرير والتنوير»: ١/ ٥٧٧. فهم يكتبون بأيديهم ويودعون آراءهم ويحملون الناس على التعبد بها قائلين أن ما فيها من عند الله... يخطبون بتلك الكتب ميل العامة وودهم ويبتغون الجاه عندهم ويأكلون أموالهم بالدين. ينظر «تفسير المنار»: ١/ ٣٦١. وقد أخرج السيوطي في «تنوير الحوالك» ـ ٥/ ٣٠ـ عن عمر بن الخطاب قال: «إني كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ثم تذكرت وإذا أناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع الله كتاب فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء. فترك كتابة السنن».

(٢) فقد أحدثوا فيما سلم من النسيان بالتبديل والتغيير، وما لم تطله يد التحريف ما كتموه فلم يظهروه للناس، وما ظهر منه للناس صرفوه عن وجهه، كما كانت اليهود والنصارى تصنعه ببشارة النبوة حيث تصرفها عن رسول الله ﷺ.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٤) ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٩٠.

(٥) كقضية الحلال والحرام من الطعام. قال تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

فيها[1] وفي هذا التحدي محاولة لانتزاع الاعتراف بالحق الذي ينكرونه، فلا خيار لهم إلا الاستجابة للتحدي وقبول الحوار أو الاعتراف بالحق. وفي هذا إظهار للحق وإضعاف للباطل.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما (ت. ٧٣هـ)، أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ[2] برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال لهم: «**كيف تفعلون بمن زنى منكم**» قالوا: نحممهما ونضربهما، فقال: «**لا تجدون في التوراة الرجم؟**» فقالوا: لا نجد فيها شيئاً. قال لهم عبد الله بن سلام (ت. ٤٣هـ) كذبتم: فأْتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فوضع مدراسهما الذي يدرسها كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم. فنزع يده[3] عن آية الرجم فقال: ما هذه فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم. فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد. قال: فرأيت صاحبها يجنأ[4] عليها يقيها الحجارة»[5].

إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣]. فقال اليهود إن الألبان لم تزل محرمة في ملة إبراهيم ونوح عليهما السلام، فنزل قول الله يأمر رسوله بأن يطالبهم بتقديم الدليل على ما يدعون من نقل صحيح، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ينظر «ضوابط المعرفة»: ٣٦٩.

(١) ينظر «الحوار في القرآن»: ١٣٥.

(٢) قال ابن قيم الجوزية: «وفي بعض طرق الحديث إنهم قالوا: اذهبوا بنا إلى هذا النبي فقد بعث بالتخفيف». «زاد المعاد»: ٣٦/٥. والحديث أخرجه أبو داود عن أبي هريرة. قال الكشميري في سبب ورود هذا الحديث: «تشاور اليهود فيما بينهم أن يرفعوا أمره ـ أمر اليهودي الذي زنى ـ إلى النبي ﷺ لما كانوا يرون أن في دينه يسر، وكان ذلك من حمقهم، حيث أرادوا أن يسترخصوا برخص الدين قبل أن يدخلوا فيه. «فيض الباري»: ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٣) أي نزع عبد الله بن سلام يد المدراس.

(٤) «جنأ عليه: جنوء إذا انكب عليه». «أساس البلاغة»: ١٠١.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ [آل عمران: ٩٣]. =

وعند أبي داود من حديث جابر: قالوا: «إنا نجد في التوراة إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل[1] في المكحلة[2] رجما»[3].

فكانت آية الرجم من الحق الذي أنزله الله ولم تطله يد التحريف. وفي دعوته ﷺ للعمل بهذه الآية تصديق لما في التوارة من الحق.

وقد كان رسول الله ﷺ يجيب دعوتهم لسماع ما عندهم، فإن كان حقاً صدقه ووافقهم عليه، فعن أبي سعيد الخدري (ت. ٦٣هـ) قال، قال النبي ﷺ: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة فيتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة**». فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمان عليك أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال ﷺ: «**بلى**». قال: تكون الأرض خبزة واحدة ـ كما قال ﷺ فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه[4] ثم قال: ألا أخبرك بإيدامهم؟ قال إيدامهم بالام[5] ونون. وقالوا: ما هذا؟ قال ثور ونون يأكل من زائد كبدهما سبعون ألفاً»[6].

= ينظر «الفتح»: ٩/ ٩٠.

(١) **الميل**: «هو الذي يكحل به البصر». «لسان العرب»، مادة م، ي، ل.

(٢) «**المكحلة**: ـ بضم الميم والحاء ـ التي فيها الكحل». «مختار الصحاح»: ٥٢٨.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب في رجم اليهوديين. ينظر «سنن أبي داود»: ٤/ ١٥٣. وأورد ابن حجر لفظاً آخر لآية الرجم، وهو «المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البينة رجماً. وإن كانت امرأة حبلى تربص بها حتى تضع ما في بطنها». «الفتح»: ١٤/ ١٤٢.

(٤) «يريد أنه أعجبه إخبار اليهود عن كتابهم بنظير ما أخبره به من جهة الوحي». «الفتح»: ١٣/ ١٨٢.

(٥) **بالام**: قال النووي: «هي لفظة عبرانية معناها ثور». ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٧/ ١٣٥.

(٦) أخرجه البخاري: كتاب الرقائق: باب يقبض الله الأرض يوم القيامة. ينظر «الفتح»: ١٣/ ١٨٠.

وكان هدف القرآن الكريم من خلال هذه المجادلات في الكتب السماوية الدفع بأهل الكتاب إلى إقامة التوراة الحقة والإنجيل المنزل. قال عز من قائل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ ليهود لما أخبروه بالعلم الذي عندهم في التوراة: «**إنها ـ أي التوراة ـ في علم الله قليل، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه**»[٢].

لكن القوم أعرضوا عن الحق الذي أنزل الله عليهم، فلم ينتفعوا مما في كتبهم من بقايا الحق، روى الإمام أحمد عن ابن أم لبيد قال: ذكر رسول الله ﷺ ذهاب العلم، فقلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى، يقرؤون التوراة والإنجيل، فلا ينتفعون مما فيها بشيء**»[٣].

وكان **القرآن الكريم** ـ باعتباره الكتاب الخاتم المهيمن على ما سبقه ـ **موضوع مجادلات** مع أهل الكتاب فقد روى ابن إسحاق[٤] قال: أتى رسول الله ﷺ جماعة من اليهود. فقالوا: أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به لحق من عند الله، فإنا لا نراه متسقاً كما تتسق التوراة؟ فقال لهم

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

(٢) «السيرة النبوية»: ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٣) «مسند الإمام أحمد»: ٤/ ٢١٩.

(٤) «السيرة النبوية»: ٢/ ١٩٢.

رسول الله ﷺ: «**أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة. ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به**» فقالوا عند ذلك، وهم جميع: يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولا جن؟ قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله، وإني لرسول الله: تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة**» فقالوا يا محمد، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه، ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به. فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾(١).

وهكذا يتضح أن موضوع الكتب السماوية، كان ضمن المواضيع التي شملها الجدل القرآني مع أهل الكتاب.

المسألة الثالثة

سلطة الأحبار والرهبان

من أهم القضايا التي شملها الجدل القرآني مع أهل الكتاب ما ادعته الأحبار والرهبان من أنهم يتصرفون بأمر الله عز وجل؛ فلهم الحق في أن يُحلّوا ما حرمه الله ويحرموا ما أحله.

وتأسس هذا الجدل على قاعدة الاجتماع على الكلمة السواء، اعتباراً لكون الكلمة السواء هي كلمة التوحيد، ولازم التوحيد رفض الشركاء وعدم اتخاذ الأرباب من دون الله سبحانه.

قال تعالى:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ[1] وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾[2].

قال عدي بن حاتم (ت. ٦٧هـ) ـ النصراني ـ: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب فقال لي: «**يا عدي بن حاتم! ألق هذا الوثن من عنقك**» وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[3]. قال: قلت يا رسول الله! إنا لم نتخذهم أرباباً، قال: «**بلى، أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه، ويحرمون عليكم ما أحل الله لكم فتحرمونه؟**» فقلت بلى. قال: «**تلك عبادتهم**»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه (ت. ٥٩هـ) أن النبي ﷺ قال: «**لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود**»[5].

---

(١) ومعنى اتخاذهم أرباباً أن اليهود ادعوا لبعضهم بنوة الله تعالى وذلك تأليه، والنصارى أشد منهم في ذلك إذ كانوا يسجدون لصور عظماء ملّتهم مثل صورة مريم وصور الحواريين وصورة يحيى بن زكرياء والسجود من شعار الربوبية. وكانوا يستنصرون بهم في حروبهم ولا يستنصرون بالله... ولأنهم كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم مخالفة لما هو معلوم بالضرورة أنه من الدين. ينظر «التحرير والتنوير»: ١٠/ ١٧٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٣) نفسها.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «صحيح جامع بيان العلم وفضله». وقال حديث حسن أخرجه الترمذي والطبري. ينظر «صحيح جامع بيان العلم وفضله»: ٣٨٧. وعن عطاء بن السائب، عن أبي البختري في قوله عز وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]. قال: أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله أطاعوهم، ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حراماً، وحرامه حلالاً فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية. ينظر «صحيح جامع بيان العلم وفضله»: ٣٨٧.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة. ينظر «الفتح»: ٧/ ٦٩٤.

وهو في ذلك يشير إلى تبعية اليهود المطلقة لأحبارهم. قال صاحب الفتح: «المراد عشرة مختصة وإلا فقد آمن به أكثر من عشرة... والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود ومن عداهم كانوا تبعاً له»[١].

وظاهرة التقليد الأعمى للأحبار والرهبان متفشية في أهل الكتاب[٢]، ومرد ذلك لأمور منها:

ـ طبيعة عقيدة أهل الكتاب، خاصة عند النصارى، فهي من التعقيد بحيث لا يعولون فيها إلا على التقليد المحض[٣]: فعامة أهل الكتاب لم يمارسوا شيئاً من العلوم التي يقف بها المناظر على استحالة المستحيل إنما ارتسمت في أذهانهم صور منذ صغرهم واستمرت فيهم إلى أن صار ذلك ملكة. فهذه الطائفة برؤها من دائها عسير. وطائفة ممن لهم أدنى معقول وألموا بيسير من العلوم قد فروا من هذه المعضلات العقدية إلى التقليد المحض معتقدين أن الفيلسوف قد حاول العلوم الخفية فأبانها جلية مبرهنة ظانين بأن من هذا شأنه جدير بأن يعول على أقواله، ويقلد في المعتقدات[٤].

---

(١) نفس المصدر: ٧/ ٦٩٥.

(٢) «فلسطين المسلمة» العدد الأول السنة ١٦ رمضان ١٤١٨/ ١٩٩٨: ٥١.

(٣) يعترف كثير من النصارى بأن التصور النصراني لحقيقة السيد المسيح سر حتى عند النصارى، وهذا ما صرح به مطران مدريد ورئيس أساقفة إسبانيا، الكاردينال إنريكي ترانكون بقوله: «نؤمن بأن لعيسى صبغة إلٰهية، وهذا سر مسيحي عميق جداً، يشغل بحق بال المسلمين، لكن يجب أن نعترف لإخواننا المسلمين بأن صبغة المسيح الإلٰهية ـ تلك العلاقة الخاصة والحميمية بين الله وهذا الإنسان ـ هي بالنسبة لنا أيضاً سر لا يدرك». ينظر المؤتمر الإسلامي ـ المسيحي الدولي الثاني بقرطبة ١٩٧٧م. «مجلة العربي العدد ٢٢٣: ٤٠ وما بعدها.

(٤) حلل هذه الظاهرة بأسلوب الخبير المطلع، حجة الإسلام أبي حامد الغزالي في «الرد الجميل لإلٰهية عيسى بصريح الإنجيل»: ١ ـ ٢ فينظره هناك.

فخضوعهم للأحبار والرهبان من هذه الجهة. وإلا لو تأملوا لوجدوا أن خضوع المجتمع أو الفرد لفرد بما يجعله رباً متبع المشيئة، يطاع في ما يأمر وينهى، فيه إبطال للفطرة وهدم لبنيان الإنسانية، ومن حيث إن الربوبية مما يختص بالله لا رب سواه، فتمكين الإنسان مثله من نفسه يتصرف فيه بما يريد من غير انعكاس لا يقدم عليه من سلم لله الأمر(١).

ـ ثم إن الأحبار والرهبان يحرصون من جهتهم على استمرار هذه السلطة ويدعمون ذلك، لما يخولهم هذا المنصب من مكانة وجاه ومال(٢).

وهذا ما نبه عليه القاضي الباجي (ت. ٤٧٤هـ) في رده على راهب فرنسا:

«وأظن أن الحامل لك على هذا ـ يقصد الاعتقاد بالسخافات التي يردها العقل ـ أمران ثم ذكر منها ـ أنك قد نلت بهذا المحال عند جهال أهل

---

(١) ينظر «الميزان»: ٣/ ٢٥٠.

(٢) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]. فبين الله تعالى أن كثيراً من الأحبار والرهبان المتأخرين ليسوا على حال كمال ولا يستحقون المقام الديني الذي ينتحلونه، والمقصود من هذا التنبيه أن يعلم المسلمون تمالؤ الخاصة والعامة من أهل الكتاب، على الضلال وعلى مناوأة الإسلام، وأن غرضهم من ذلك حب الخاصة الاستئثار بالسيادة، وحب العامة الاستئثار بالمزية بين العرب. ينظر «التحرير والتنوير»: ٨/ ١٧٤. تطلعنا كتب السير بأن حب الدنيا والجاه والملك كان العقبة الكبرى أمام ملوك النصارى وأحبارهم، دون قبول دعوة الإسلام؛ هذا ما عبر عنه المقوقس ملك القبط لحافظ بن أبي بلتعة اللخمي ـ رسول رسول الله ﷺ ـ بقول: «أضن على ملكي أن أفارقه» (ينظر «الطبقات الكبرى»: ١/ ٢٦٠. و«هداية الحيارى»: ٤٤) غير أن النبي ﷺ كان يسهل عليهم اقتحام هذه العقبة، بالحفاظ على مكانتهم، وما تحت أيديهم من الملك؛ فقد جاء في رسالته ﷺ لملك اليمامة النصراني هوذة بن علي حنفي ما نصه: «**وأجعل لك ما تحت يدك**» (ينظر «هداية الحياري»: ٤٦). ولملكي عمان قال: «**وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما مكانكما**» (سبق تخريجه).

ملتك، منزلة تكره أن تنحط عنها وتبعد منها، إذا انتقلت إلى الدين الصحيح لعلمك أنك لا تنال درجة أدناهم منزلة في العلم فكيف بدرجة أعلامهم وأئمتهم وذوي التقدم منهم. فلا يغرنك ـ أيها الراهب! ـ حظوتك عند أهل ملتك ومكانتك في مكانك، واستجلاب نفوسهم، واستمالة قلوبهم بألفاظ تزخرفها لا تعلم معانيها، ولا تعرف حقيقة المراد بها، ولا مقتضى القول فيها»[١].

وفي نفس السياق يروي ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) قصة النصارى الذي وفدوا على رسول الله ﷺ من نجران، قال: فلما رجعوا إلى رسول الله ﷺ من نجران جلس أبو حارثة «أسقفهم وحبرهم وإمامهم، وصاحب مدراسهم» على بغلة له موجهاً وإلى جنبه أخ له يقال له: كوز بن علقمة ـ قال ابن هشام: ويقال كرز ـ فعثرت بغلة أبي حارثة، فقال كرز: تعس الأبعد ـ يريد رسول الله ﷺ ـ. فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست! فقال ولم يا أخي! والله إنه للنبي الذي كنا ننتظر، فقال له كوز: ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم (يقصد ملوك الروم) شرفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كلما ترى. فأضمر عليها منه أخوه كرز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك[٢].

هذه بعض العوامل المسهمة في استفحال داء التقليد عند أهل الكتاب. وما المجامع النصرانية[٣] إلا صورة للاستبداد الواسع للرهبان فلها

---

(١) «رسالة راهب فرنسا»: ٧٣ وما بعدها. وينظر اعتراف نصراني بحقيقة هذا الأمر في «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب»: ١٠.

(٢) ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٠٥.

(٣) المجامع في المسيحية هي كما يقول علماؤهم جماعات شورية في المسيحية قد رسم رسلهم نظامها في حياتهم، حيث عقدوا المجمع بأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنين وعشرين سنة... وقد سنوا للمسيحيين سنة جمع المجامع، لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشريعة، والمجامع عندهم قسمان: المجامع العامة (المسكونية) وهي الأهم من =

الحق في التصرف في أمور العقيدة والشريعة معا.

وبهذا يكون القرآن الكريم قد جعل من سلطة الأحبار والرهبان موضوعاً للمجادلة لبيان تعارض هذا السلوك ـ وأمثاله[1] مع الفطرة الإنسانية المبنية على المساواة ومع أحكام الشريعة القائمة على إفراد الله بالألوهية والربوبية.

بهذا نكون قد أدركنا مفهوم الكلمة السواء، والقضايا المرتبطة بها. وهو أمر مهم في باب المجادلة مع أهل الكتاب.

نتائج وقاعدة:

مما سبق يتبين أن المواضيع التي أثارها القرآن الكريم والسنة النبوية في جدال أهل الكتاب كانت متنوعة، وكلها تدخل تحت مدلول الكلمة السواء. وهي القضايا التي لها ارتباط بمعاني التوحيد والخضوع لله عز وجل وتعظيم رسله وأنبيائه ـ عليهم السلام ـ وحفظ وصيته التي أودعها كتبه السماوية، ونبذ كل صور الخضوع لغيره من الأرباب.

وهكذا يحق لنا أن نعبر عن هذه المواضيع من خلال العبارة الجامعة:

- **«لقاؤنا مع أهل الكتاب على الكلمة السواء»**.

- أو **«لا لقاء إلا على الكلمة السواء»**.

وبما أن الكلمة السواء أصل جامع وأساس مشترك يمكن تخريج باقي القضايا الفرعية عليه فإننا سندرك أن المجادلة مع أهل الكتاب تمتد لتشمل كل القضايا التي تصدر عن عقيدة أهل الكتاب. فالعقيدة تصور يضبط كثيراً

= حيث التأثير لأنها تجمع رجال الكنيسة المسيحية في كل أنحاء المعمورة. والمكانية، وتعقدها كنائس مذهب في دوائرها الخاصة. ينظر «محاضرات في النصرانية»: ١٢٠/ ١٢١.

(١) فما سلطة الأحبار إلا نموذج للموانع التي تقف دون تحقيق التوحيد الخالص.

من تصرفات أهل الكتاب.

على ضوء هذه القاعدة، يمكن إدراج القواعد الآتية:

- **«إنما تكون المجادلة فيما يعتقده أهل الكتاب مما يخالف عقائد المسلمين»**[1].

فكل أمر اعتقده أهل الكتاب وخالفوا فيه عقائد المسلمين يصح أن يكون موضوع المجادلة.

- **«تشمل المجادلة مع أهل الكتاب أمور العقيدة والقضايا المرتبطة بها»**.

هكذا نخلص إلى أن الكلمة السواء - بمفهومها الواسع - هي أساس المجادلة مع أهل الكتاب، فهل يعني هذا أنها الأساس الوحيد. أم أن الأمر يتسع شكلاً ومضموناً لأكثر من ذلك؟[2].



(١) عبارة للإمام الطاهر ابن عاشور عثرت عليها في تفسيره. ينظر «التحرير والتنوير»: ٧/٢١

(٢) هذا مما سأعرض له في الفصل الموالي.



الفصـل الثانـي

أسئلـة وردود

ويشتمل على:

تمهيد

المبحث الأول : أسئلة أهل الكتاب.

المبحث الثاني : الرد على أهل الكتاب.

تمهيد:

تعددت أشكال تصريف الاجتماع على الكلمة السواء، ويمكن تمييز نمطين فريدين لهذا التصريف:

الأول: ينطلق من قاعدة السؤال الذي ينشد المعرفة، وقد يطرحه هذا الطرف أو ذاك. وانفرد الطرف الكتابي في مناسبات غير قليلة، بالخروج بالسؤال من إطاره المعرفي ليصبح شكلاً من أشكال التعجيز.

الثاني: يأتي في شكل ردود، قد لا يسبقها إثارة من الطرف الآخر. وإنما هي رصد لمواطن الاختلاف، وطرحها في ميدان المجادلة والتحليل الذي يحرص فقط على كشف الحق في الموضوع المختلف فيه. وكانت المبادرة في هذا الباب للطرف المسلم.

هذا التنوع في عرض القضايا المرتبطة بالكلمة السواء، يسمح بإدراك جانب مهم من المواضيع التي تصلح أن تدرج في مجادلة أهل الكتاب.

لهذه الاعتبارات خصصت هذا الفصل لعرض أشكال تصريف الكلمة السواء من خلال المبحثين الآتيين:

الأول: أسئلة أهل الكتاب.

الثاني: الرد على أهل الكتاب.



المبحث الأول

أسئلة أهل الكتاب

السؤال والجواب ركن من أركان المجادلة[1]. والمجادلة هي فن السؤال والجواب[2]. لذا انطلقت كثير من المجادلات مع أهل الكتاب من سؤال يطرحه هذا الطرف أو ذاك.

ولأن أهل الكتاب، أهل علم في الجملة، فقد كانوا يوجهون أسئلة فيها شيء من الدقة والمعرفة وإن كانوا ضالين[3].

---

(١) نبه الإمام الطوفي على أن ركن الشيء يستعمل تارة في جزئه الداخل في حقيقته كالركوع والسجود من الصلاة. وتارة يستعمل فيما يتوقف تحقق ذلك الشيء عليه وهو أعم من الأول. وجعل السؤال والجواب من أركان الجدل بالاعتبار الأول. ينظر «علم الجذل في عالم الجدل»: ١٩. ثم إن طبيعة الجدل بما هو تردد للكلام بين طرفين، هذا التردد غالباً ما يأخذ شكل السؤال والجواب، يجعل السؤال عنصراً مهماً في المجادلة. راجع مفهوم المجادلة ضمن مفاهيم هذه الرسالة.

(٢) عقد الإمام الشاطبي فصلاً تحت عنوان «في أحكام السؤال والجواب وهو علم الجدل». ينظر لواحق كتاب الاجتهاد من «الموافقات»: ج٤ ./ ٢٣٠ وما بعدها. ولأهمية السؤال في المجادلة خصص محمد حسين فضل الله فصلاً كاملاً من كتاب «الحوار في القرآن» للحديث عن «الحوار في إطار السؤال. ينظر «الحوار في القرآن»: ١٧٣ وما بعدها.

(٣) ينظر «أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم» إعداد وتأليف: محمد علي نوح قوجيل: ١٢٦.

لهذا انطلقت المجادلة مع أهل الكتاب في إطار السؤال لتشمل مجموعة من القضايا، من المفيد الوقوف عندها لمعرفة جانب مهم من المواضيع التي يمكن أن تمتد إليها المجادلة.

والملاحظ أن الوحي تجاوب مع أسئلة أهل الكتاب وفق الخط الإسلامي العريض الذي يعتبر «المعرفة في كل ما يمكن معرفته، حقاً طبيعياً مقدساً للناس أجمعين. . . فإن من الحق للناس أن يسألوا عن أي شيء في العقيدة أو في التشريع. . . أو عن كل شيء. . . ومن واجب الرسالة أن تفتح لهم نوافذ المعرفة عن ذلك كله. . . لأن الرسالات جاءت من أجل أن تخرج الناس من الظلمات إلى النور. . . فلا بد لها أن تنقلهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة»[1] غير أن الوحي أحجم في كثير من المناسبات عن التعاطي مع هذه الأسئلة مراعياً في ذلك مقصد السائل الذي غالباً ما يخرج عن دائرة السؤال المعرفي ليزج بنفسه في دائرة السؤال التعجيزي[2]. وتعلمنا السيرة النبوية أن السلوك النبوي لم يقف عند حد التجاوب مع أسئلة أهل الكتاب، بل تعدى ذلك إلى المبادرة إلى إثارة بعض علامات الاستفهام أمام تصورات أهل الكتاب المنحرفة في قضايا العقيدة والحياة، في إطار محاكمة تفكيرهم بأسلوب تستيقظ فيه فطرتهم على دعوة الحق من حيث لا يشعرون مما يجعل العناد أو المكابرة أمراً لا يستند إلى شيء مما يحترم فيه الإنسان نفسه[3].

اعتباراً لما سبق، خصصت هذا المبحث للحديث عن هذا الشكل من

(١) «الحوار في القرآن»: ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) لهذا قال ﷺ للكتابي الذي جاءه سائلاً: «أينفعك إن أجبتك؟».
(أخرجه الإمام مسلم، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٣/١٩٣) لينبهنا ﷺ على أهمية معرفية مقصد السائل. لأن الإجابة تتحدد وفق ذلك.

(٣) ينظر «الحوار في القرآن»: ١٧٣.

أشكال المجادلة: وهو المجادلة من منطلق السؤال، لأستخلص جانياً من القضايا المرتبطة بموضوع الجدل القرآني مع أهل الكتاب.

واخترت أن أتناول ذلك عبر الخطوات الآتية:

- أسئلة أهل الكتاب المعرفية.
- أسئلة أهل الكتاب التعجيزية.
- مساءلة أهل الكتاب.
- نتائج وقاعدة.

١ ــ أسئلة أهل الكتاب المعرفية

اتفق العلماء على أن من جاء يسأل عن الإيمان وكيفية الدخول إلى الإسلام وجب إجابته وتعليمه على الفور[١].

«وكان ﷺ يجيب السائل بأكثر مما سأل، إذا رأى أن به حاجة إلى معرفة الزائد عن سؤاله، وهذا من كمال رأفته، ومن عظيم رعايته بالمتعلمين والمتفقهين»[٢].

ومن مظاهر اهتباله بالأسئلة التي تعرض عليه، أن جعل شفاء العي السؤال[٣].

وكان ﷺ يجيب السائل عن سؤاله، وقد علم كثيراً من الشرائع والأحكام ومعالم الدين بالإجابة عن أسئلة أصحابه، مما يحتاجون إلى

(١) ينظر «الرسول المعلم ﷺ»: ٣٢ نقلاً عن الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم»: ٦/ ١٩٥.

(٢) نفس المرجع: ١٤٣.

(٣) عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إنما شفاء العي السؤال**» أخرجه أبو داود، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم. ينظر «سنن أبي داود»: ١/ ١٢٧. «والعي الجهل وهو ضد البيان». ينظر «مختار الصحاح»: ٤٤٢.

معرفته من الفرائض والشرائع[1].

لذا ذهب علماؤنا إلى وجوب مناظرة أهل الكتاب وجوابهم عما سألوه ـ جواباً يحقق البلاغ[2] ـ فإن أشكل على المسؤول، سأل أهل العلم[3].

ومواقفه ﷺ في هذا الباب تجسيد عملي للتصور القرآني للتعامل مع أسئلة أهل الكتاب، وسأقف مع بعضها لنتبين معالم السلوك النبوي لتفاعله مع أسئلة أهل الكتاب. وهي قبل هذا وذاك مواقف للاقتداء والاهتداء.

* **«إني سائلك عن ثلاث»**.

عن أنس رضي الله عنه (ت. ٩٠هـ) قال: «بلغ عبد الله بن سلام (ت. ٤٣هـ) مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أخبرني بهن آنفاً جبريل**» قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقال رسول الله ﷺ: «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها**» قال: أشهد أنك رسول الله»[4].

وأخرج الإمام أحمد (ت. ٢٤١هـ) والترمذي (ت. ٢٧٩هـ) والنسائي

---

(١) «الرسول المعلم ﷺ»: ١٣٥.

(٢) الجواب لغة مشتق من جاب الفلاة إذا قطعها، سمي الجواب جواباً لأنه ينقطع به كلام الخصم. وهو يكون تارة «بنعم» وتارة «بلا»، ويستعمل فيما يتحقق ويجزم وقوعه. ينظر «الكليات»: القسم ٢: ١٧٢. و«معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٠٠ ـ ١٠١.

(٣) «زاد المعاد»: ٣/ ٦٤٤.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته. ينظر «الفتح»: ٧/ ٥١٤.

(ت. ٣٠٣هـ) في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾[١] عن ابن عباس (ت. ٦٨هـ): «أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بها عرفنا أنك نبي واتبعناك»[٢].

وتروي كتب التفسير أن نصارى نجران لما وفدوا على رسول الله ﷺ وحضرت صلاتهم فأقبلوا يضربون الناقوس وصلوا فقال أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله، هذا في مسجدك؟ فقال: «**دعوهم**»، فلما فرغوا دنوا من رسول الله ﷺ، فقالوا: إلى ما تدعو؟ فقال: «**إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وإن عيسى مخلوق يأكل ويشرب ويحدث**». قالوا فمن أبوه؟ فنزل الوحي على رسول الله ﷺ فقال: «قل لهم ما تقولون في آدم، أكان عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويحدث وينكح؟ فسألهم النبي ﷺ فقالوا: نعم. قال: «**فمن أبوه؟**» فبهتوا فأنزل الله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾[٣]»[٤].

وهكذا بدأ النبي ﷺ حواره معهم من موقع الدليل والحجة والبرهان... سؤالاً وجواباً في حوار هادىء قوي.. يستجيب للسؤال في البداية، ثم يطرح السؤال عليهم من جديد ليلزمهم بالحجة من خلال ذلك[٥].

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على مراعاة هذا التوجه والطريق الذي اختاره أهل الكتاب في المجادلة: وهو المجادلة من منطلق السؤال، لذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٧.

(٢) ينظر «الفتح»: ٩/ ١٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٤) ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٩٦.

(٥) «الحوار في القرآن»: ١٦٧.

كان ينبه صحابته رضوان الله عليهم إلى الاهتمام بهذا الأمر، من ذلك قوله لمعاذ رضي الله عنه (ت. ١٨هـ) لما وجهه إلى اليمن ـ وكان بها طائفة من أهل الكتاب ـ: «**سيسألونك عن مفتاح الجنة، فقل لا إله إلا الله**»(١).

وتروي كتب السيرة مواقفه ﷺ في هذا الباب من ذلك ما رواه ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) عن الأحبار الذين جاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه عن أربع(٢) وجوابه ﷺ بعد أخذه منهم موثقاً إن أخبرهم ليصدقنه(٣).

وعن ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) أن نفراً من اليهود منهم أبو ياسر بن أخطب ونافع بن أبي نافع... أتوا رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال رسول الله ﷺ: «نؤمن ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾»(٤) فلما ذكر عيسى ابن مريم جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾(٥)»(٦).

وسؤال الغلام النصراني عداس عن نبي الله يونس بن متى ثابت في كتب السيرة(٧).

والذي يظهر: أن رسول الله ﷺ كان يجيب السائل بالقدر الذي يناسب

---

(١) ينظر «السيرة النبوية»: ٤/ ٢٠٤.

(٢) وهي: أ ـ كيف يشبه الولد أمه. ب ـ كيف نومك. ج ـ ما حرم إسرائيل على نفسه. د ـ الروح.

(٣) ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٤٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٥٩.

(٦) ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٨٩.

(٧) المصدر السابق: ٢/ ٦٠ ـ ٦١.

استعداده وحرصه على معرفة الحق. وفي أحيان أخرى كان يجيب بالقوة اللازمة والثقة الكاملة ـ وإن ظهر أن السائل قد خف استعداده وحرصه ـ تحقيقاً للبلاغ المبين.

وفي ظل هذه الأجواء، امتدت المجادلة واتسع نطاقها[(١)] لتشمل كثيراً من القضايا التي لا تخرج عن مدلول الكلمة السواء في العقيدة والحياة[(٢)].

ولم تخرج مواقف السلف الصالح عن هذا الإطار؛ وهو التجاوب مع أسئلة أهل الكتاب بما يحقق غاية المجادلة.

فعن سعيد بن جبير (ت. ٩٥هـ) قال: «سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس (ت. ٦٨هـ) فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل. وزاد الإسماعيلي (ت. ٣٧٠هـ) من الطريق التي أخرجها البخاري قال سعيد (ت. ٩٥هـ) فلقيني اليهودي فأعلمته بذلك، فقال: صاحبك والله عالم»[(٣)].

وعن طارق بن شهاب (ت. ٨٣هـ) قال: قالت اليهود لعمر إنكم تقرؤون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً. فقال عمر (ت. ٢٣هـ): إني

---

(١) ينظر «أصول الجدل»: ١٢٦. ثم إن «الإسلام يُقبل برحابة صدر على أي سؤال، مهما اقترب من جادة الكفر، ولكنه يضع شرطاً أساسياً وهو أن يكون المحاوِر مثقفاً بالفكرة التي يخوض الحوار حولها، ومنفتحاً على آفاق المعرفة التي يريد السؤال عنها». «في آفاق الحوار»: ١٤.

(٢) يلاحظ أن المواضيع التي تضمنتها أسئلة أهل الكتاب، لم تخرج عن نطاق الكلمة السواء، فهي إما قضايا عقدية محضة أو قضايا مرتبطة بواقع الحياة لكن الإجابة عنها تحتاج إلى قدر من الوعي العقدي. والذي يميز تناول هذه المواضيع هو الشكل الذي طرحت من خلاله: وهو أسلوب السؤال والجواب.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، الباب الثامن والعشرون. ينظر «الفتح»: ٥/٦٢٦ ـ ٦٢٧.

لأعلم حيث أنزلت: يوم عرفة، وإنا والله بعرفة، قال سفيان: وأشك أن كان يوم الجمعة أم لا ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[(١)]»[(٢)].

وأسئلة جرجة ـ مُقدّم عسكر الروم ـ يوم اليرموك شاهد قوي على تجاوب المسلمين مع أسئلة أهل الكتاب. روى ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ) أنه اصطف جيش المسلمين وجيش الروم، قبيل معركة اليرموك، فخرج جرجة من الصف، ونادى خالد بن الوليد، فأتاه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال جرجة: يا خالد، أخبرني فأصدقني، ولا تكذبني، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني، فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه، فلا تسله على أحد إلا هزمته؟ قال: لا. قال: فبم سميت سيف الله؟ قال خالد: إن الله بعث فينا نبيه، فدعانا فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعاً ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا كذبه وباعده، فكنت فيمن كذبه وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه؛ فقال لي: «**أنت سيف من سيوف الله على المشركين**» ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين. فقال جرجة: يا خالد، إلام تدعوني؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]. ينظر «الفتح»: ٩/ ١٥٠. ولبيان مطابقة جواب عمر رضي الله عنه للسؤال ـ لأنه سئل عن سبب اتخاذ يوم نزول الآية عيداً فأجاب بنزولها بعرفة يوم الجمعة وكلاهما عيد ـ نورد الحديث الآتي: عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية وعنده يهودي فقال: لو أنزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً، فقال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيدين: في يوم الجمعة ويوم عرفة. أخرجه الترمذي رقم ٣٠٤٤. ينظر «فتح الباري» لابن رجب: ١/ ١٤١. قال ابن رجب: «فهذه الآية لما تضمنت إكمال الدين وإتمام النعمة أنزلها الله في يوم عيد لهذه الأمة من وجهين: أحدهما أنه يوم عيد الأسبوع وهو يوم الجمعة، والثاني أنه يوم عيد أهل الموسم وهو يوم جمعهم الأكبر ووقفهم الأعظم، وقد قيل: إنه يوم الحج الأكبر». «فتح الباري»: ١/ ١٧٢.

محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل. قال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية، ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها. قال: نؤذنه بحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم، ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا. قال جرجة: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر ما لكم من الأجر والذخر؟ قال نعم، وأفضل . قال: فكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ فقال خالد: إنّا قبلنا هذا الأمر عُنوة، وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا، أن يسلم ويبايع، وإنكم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية، كان أفضل منا. فقال جرجة: بالله، لقد صدقتني، ولم تخادعني؟ قال: تالله، لقد صدقتك، وإن الله ولي ما سألت عنه[١]. وبعد أن اطمئن جرجة إلى صدق خالد فيما أخبره به، أعلن إسلامه. تقول الرواية: «فعند ذلك قلب جرجة الترس، ومال مع خالد، وقال: علمني الإسلام. فمال به خالد إلى فسطاسه، فشن عليه قربة من ماء، ثم صلى به ركعتين، وركب خالد، وركب جرجة معه»[٢]،

وقد خصص علماؤنا جانباً من رسائلهم للرد على أسئلة أهل الكتاب[٣] من ذلك:

ـ كتاب المختار في الرد على النصارى، الذي جاء فيه: «وسنقول في

---

(١) «البداية والنهاية»: ٧/١٢.

(٢) نفس المصدر.

(٣) مما يبين شعورهم العميق بقيمة هذا اللون من ألوان المجادلة. وقد بين المسلمون في كثير من المناسبات استعدادهم الدائم للإجابة عن أسئلة أهل الكتاب. وهذا يُبرز يَقين المسلمين بالحق الذي يدعو إليه الإسلام. و«الرسالة القبرصية» نموذج لذلك. ينظر «مجموع الفتاوى»: ٢٨/ ٦٠١ وما بعدها.

جميع ما ورد علينا من مسائلكم ـ يقصد مسائل أهل الكتاب ـ وفيما لا يقع إليكم من مسائله، بالشواهد الظاهرة، والحجج القوية، والأدلة الاضطرارية. ثم نسألهم بعد جوابنا إياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم وانتثار مذهبهم، وتهافت دينهم»[1].

ـ كتاب الإمام الباجي (ت. ٤٧٤هـ) في الرد على راهب فرنسا. وقد ورد في مقدمته: «تصفحت ـ أيها الراهب ـ الكتاب الوارد من قبلك، وما بتت فيه من مودتك وأظهرته من نصيحتك، وأبديته من طويتك، وقبلنا مودتك لما بلغنا من مكانتك عند أهل ملتك واتصل بنا من جميل إرادتك، ونبهتنا ـ لعمر الله! ـ بنصيحتك على ما يلزمنا من ذلك لك... فقد قرر لدينا من وصلنا من رسلك وأهل ملتك علينا، ما تظهره من حرصك على الخير، ورغبتك في الحق، مما قوى رجاءنا في قبولك له، وإقبالك عليه، وأخذك به، وإنابتك إليه»[2].

هذا، ولا يزال أسلوب المجادلة من منطلق السؤال طابع كثير من اللقاءات مع أهل الكتاب، كما حدث في المؤتمر المنعقد في الخرطوم سنة ١٩٨٠ تحت عنوان «مناظرة بين الإسلام والنصرانية» حيث قدم الطرف الكتابي أسئلته التي كانت موضوع المناظرة. وبعد رد الطرف المسلم عليها أعلن أفراد الوفد الكتابي إسلامهم[3].

والذي يتبين من خلال هذه النماذج من أسئلة أهل الكتاب، أن البيان النبوي قد أجاب بما يكفي ويشفي. وعلى هذا المنوال صار السلف الصالح في مجادلتهم لأهل الكتاب.

---

(١) «المختار في الرد على النصارى»: ٥٨.

(٢) «رسالة راهب إلى المسلمين»: ٥٧.

(٣) ينظر «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٢٧٥ وما بعدها. نقلاً عن «مناظرة بين الإسلام والنصرانية» الأعمال الكاملة للمؤتمر.

٢ ـ أسئلة أهل الكتاب التعجيزية

كان حرص رسول الله ﷺ شديداً على هداية الناس ودعوتهم إلى الإسلام، وبشرى السعادة الدنيوية والأخروية، لذا أقبل ـ على من جاءه يسعى طالباً للحق والمعرفة ـ بالجواب الشافي الكافي الذي يبين الحق حقاً ويحض على اتباعه، ويبين الباطل باطلاً وينبه على اجتنابه.

إلا أنه في حالات أخرى، اكتفى ﷺ بالإجمال في الجواب، والتعميم بل وصل الأمر إلى حد الإعراض. خاصة إذا كان الباعث على السؤال: **التعنت لا الحرص على معرفة الحق.**

هذا السلوك النبوي لم يكن سوى استجابة قوية، واستقامة كاملة على الأمر الإلهي الوارد في مثل قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾[1].

«وسؤالهم ذلك ليس بنية حسنة، فهو لا من أجل الاقتناع وطلب الحجة والبرهان بصدق ويقين، وإنما هو من قبيل التعنت والتعجيز والإحراج. قال الحسن البصري (ت. ١١٠هـ): لو سألوه ذلك استرشاداً لأعطاهم ما سألوه»[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣. جاء في سبب نزول هذه الآية ما أورده أبو حيان بقوله: «قال السدي قالت اليهود إن كنت صادقاً فجيء بكتاب من السماء جملة، كما جاء موسى بالكتاب. وقال محمد بن كعب القرطبي: قالوا ائت بألواح فيها كتابك، كما أتى موسى بألواح فيها التوراة. وقال الحسن وقتادة: سألوه أن يأتي بكتاب خاص لليهود يأمرهم بالإيمان بمحمد ﷺ. وقال ابن جريج: قالوا لن نتابعك على ما تدعون إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان وإلى فلان أنك رسول الله ﷺ». «البحر المحيط»: ج ٣/ ٤٠١.

(٢) «التفسير المنير»: ٦/ ١٧. وينظر «جامع الأحكام»: ج ٦/ ٦.

لهذا كان الرد كشفا بحساب الماضي الذي يبين أن القوم متمادون في الجهالة والضلالة لا يأبون عن أنواع الظلم وإن عظمت، والكفر والجحود وإن جاءت البينة، وعن نقض المواثيق وإن غلظت، وغير ذلك من الكذب والبهتان والظلم، ومن هذا شأنه لا يصلح للإجابة عما سأله والإقبال على ما اقترحه[١].

ثم ما معنى طلبهم أن تكون المعجزة سماوية؟ هل هناك معجزات سماوية وأخرى أرضية؟ وهل هناك من تفسير لهذا التعنت إلا أنهم يشكون في أصل المعجزات، ويتصورون أن الأرضية منها يجوز فيها أن تكون مخترعة وملفقة، تقوم وراءها عوامل التدبير والإخفاء؟[٢].

لهذا كان الرد القرآني حاسماً فبين أن عادة هؤلاء القوم أن يطلبوا المستحيل للوصول إلى التعجيز ومن ثم يكون مطلبهم لا يستحق مجرد التفكير في أمره[٣].

وتبين كتب السيرة أن أهل الكتاب عامة ـ واليهود خاصة ـ[٤] لجؤوا إلى أسلوب الأسئلة والمطالب التعجيزية ليثيروا النبي ﷺ من جهة، وليظهروا عجزه أمام البسطاء من الناس، من جهة أخرى «لكن النبي ﷺ كان هادئاً هدوء الحق ثابتاً ثبات الجبل. . . فلم يرد أن يجعل من هذه الإثارة منطلقاً لبداية معركة حارة معهم، بل حاول أن ينطلق معهم من الخط العام للأسلوب الإسلامي، فكان يجيب عن سؤال بما يناسبه للتدليل على أن

---

(١) ينظر «الميزان في تفسير القرآن»: ١٥/ ١٣٠. و«الحوار في القرآن»: ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) ينظر «على هامش الحوار مع اليهود»: ١٠٣.

(٣) ينظر «البيان في روائع القرآن»: ٤٤٣.

(٤) يقول د. سعد المرصفي: «حين وجد اليهود أن المجادلات قد فشلوا فيها، ومن ثم خرجوا منها بالخيبة والخسران، لجأوا إلى مسلك آخر لتشكيك المسلمين في عقيدتهم، ألا وهو توجيه الأسئلة المتعنتة إلى الرسول ﷺ بقصد إحراجه وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مطالبهم». «الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه»: ٤/ ١١ ـ ١٢.

النبوة أرحب صدراً وأوسع أفقاً، من أن تجر إلى معركة لا تريدها، أو إلى جدال لا ينتهي إلى نتيجة»[1].

من ذلك سؤالهم عن الروح:

* **«ويسألونك عن الروح»**.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه (ت. ٣٢هـ) قال: كنت مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة[2] وهو يتوكأ على عسيب[3]، فمر نفر من اليهود فقال بعضهم: سلوه عن الروح؟ فقال بعضهم لا تسألوه، لا يُسمعكم ما تكرهوه[4]. فقاموا إليه فقالوا يا أبا قاسم حدثنا عن الروح. فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت عنه حتى صعد الوحي ثم قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[5]»[6]. زاد في رواية «فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه»[7].

قال السهيلي (ت. ٥٨١هـ): «قال بعض الناس لم يجبهم عما سألوه،

---

(١) «الحوار في القرآن»: ١٣٧.

(٢) «هذا السياق يقتضي فيما يظهر بادي الرأي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حينما سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك. أو أنه نزل عليه بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه». «تفسير القرآن العظيم»: ٤/ ٣٤٥.

(٣) عَسيب: جريدة من النخل، وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخرص. «النهاية في غريب الحديث»: ٣/ ٢٣٤.

(٤) أي حتى لا يسمعكم ما تكرهوه.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب ما يكره من كثرة السؤال. ينظر «الفتح»: ١٥/ ١٩٤.

(٧) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات: ١٧١]. ينظر «الفتح»: ١٥/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

لأنهم سألوه على وجه التعنت، وقيل أجابهم»[1].

«وأجاب من خاض في ذلك ـ أي في أمر الروح ـ بأن اليهود سألوا عنها سؤال تعجيز وتغليط لكونه يطلق على أشياء، فأضمروا أنه بأي شيء أجاب قالوا: ليس هذا المراد. فرد الله كيدهم وأجابهم جواباً مجملاً مطابقاً لسؤالهم المجمل... ووقع في بعض التفاسير أن الحكمة في سؤال اليهود عن الروح أن عندهم في التوراة أن روح بني آدم لا يعلمها إلا الله، فقالوا نسأله، فإن فسرها فهو نبي. وهو معنى قولهم: لا يجيء بشيء تكرهونه»[2].

وتحكي كتب السيرة أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يسألونهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا: «سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية ما يدري ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف[3].

وهي كما ترى أسئلة لأهل الكتاب، وقد ورد الجواب عن الرجل الطواف في الأرض عند قوله:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾[4].

وأما الجواب عن الفتية فعند قوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾[5].

---

(١) «الروض الأنف»: ٢/ ٧٥.

(٢) «الفتح»: ٩/ ٣٢٢. وينظر «الإتقان»: ج ٢/ ٣١٣.

(٣) قال ابن إسحاق: «وقال حيي بن أخطب وكعب بن أسد... لعبد الله بن سلام: ما تكون النبوة في العرب ولكن صاحبك ملك، ثم جاءوا رسول الله ﷺ وسألوه عن ذي القرنين ما جاءه من الله تعالى فيه، مما كان قص على قريش، وهم كانوا ممن أمر قريشاً أن يسألوا رسول الله ﷺ عنه، حين بعثوا إليهم النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط». «السيرة النبوية»: ٢/ ١٩٣.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٩.

إلى قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾(1).

«والآيات تذكر قصة أصحاب الكهف. غير أن هذه القصة لم تصدّر بما يدل على تعلق السؤال بها كما صدّرت به قصة ذي القرنين. . . وإن كان في آخرها ما يشعر بذلك كقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(2)»(3).

في حين وقع الجواب عن الروح عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾(4).

والذي يتضح من خلال هذه المواقف النبوية أن الرسول ﷺ كان يُعرض عن الجواب أصلاً، إذا كان السائل قصده التعنت، وأحياناً كان يجيب بالقدر الذي يفحم السائل لتنتهي المجادلة في انتظار فرصة تتهيأ فيها شروط المجادلة. وأهمها الانفتاح برغبة ملحة في معرفة الحق.

وهذا الموقف النبوي يتأسس على معرفة بأهل الكتاب، فكثير منهم لا يقدرون قيمة السؤال ولا يراعون مقاصده ولا ظروفه. وقد كان ذلك سبب هلاكهم.

فعن أبي هريرة (ت. ٥٩هـ) عن النبي ﷺ قال: «**دعوني ما تركتم فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم**»(5).

---

(1) سورة الكهف، الآية: ٢٦.

(2) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(3) «الميزان»: ١٣/ ٢٤٤.

(4) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(5) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، الباب الثاني. ينظر «الفتح»: ١٥/ ١٧٦.

ومن كان هذا شأنه، فالإعراض عنه أولى.

وقد قعد علماؤنا لهذا الأصل، في معرض بيانهم لأحكام السؤال والجواب بقولهم: «قد يعدل عن الجواب أصلاً، إذا كان السائل قصده التعنت»[1].

إن استحضار هذا الأصل يسمح لنا بإقصاء المواضيع التي يثيرها الطرف الكتابي من دائرة المجادلة، إذا ما تبين فساد قصده.

٣ ــ مساءلة أهل الكتاب

من المناسب التنبيه في هذا المقام على أن الموقف النبوي في مجادلة أهل الكتاب لم يقف عند حدود التجاوب والرد على أسئلة أهل الكتاب، بل بادر إلى اعتماد أسلوب المساءلة من خلال وضع علامات الاستفهام أمام تصورات أهل الكتاب المنحرفة في قضايا العقيدة والحياة «مما يهيىء المجال لإثارة التفكير الذاتي الهادىء من جهة، أو للصدمة الفكرية العنيفة التي تعتمد على عناصر الإثارة القوية من جهة أخرى»[2].

هذا الموقف النبوي لا يتعارض مع قوله ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء**»[3] لأن النهي عن سؤالهم ـ في هذا الحديث ـ إنما هو في سؤالهم عما لا نص فيه، لأن شرعنا مكتف بنفسه[4].

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن»: ج ٢/ ٣١٣.

(٢) «الحوار في القرآن»: ١٧٦.

(٣) هذه العبارة ترجم بها الإمام البخاري، الباب الخامس والعشرون من كتاب الاعتصام. وهي لفظ حديث أخرجه الإمام أحمد بن أبي شيبة والبزار من حديث جابر: «أن عمر أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه فغضبت وقال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق، فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني**» قال ابن حجر: وللحديث ما يشهد له بالصحة» ينظر «الفتح»: ١٥/ ٢٧٦.

(٤) المصدر السابق.

والمجادلة ـ كما مر معنا ـ إنما تجري في القضايا المختلف فيها، فلا يُتصور أن تقوم مجادلة في أمور يجهل الطرف المسلم حكم الإسلام فيها.

بل إن الإسلام يشترط فيمن نحاوره أن يمتلك المعرفة بموضوع المجادلة[1].

والنص القرآني صريح في الدعوة إلى فتح المجادلة من منطق السؤال. من ذلك قوله تعالى:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[3].

وفي سيرته ﷺ، وسيرة السلف الصالح من بعده، ما يؤكد هذا الأصل: وهو المبادلة إلى مساءلة أهل الكتاب.

من ذلك سؤاله ﷺ يهود خيبر عن أشياء.

* «**إني سائلكم عن شيء**».

عن أبي هريرة رضي الله عنه (ت. ٥٩هـ) قال: «لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال النبي ﷺ: «**اجمعوا من كان هاهنا من يهود**». فجمعوا له، فقال: «**إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟**»

---

(١) وهذا ما تؤكده الآيتان الكريمتان: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [الحج: ٨] فالقضية التي أثارها القرآن أمام هؤلاء المجادلين أنهم لا يملكون قوة العلم ولا سلطان الحجة فيما يجادلون به، مما يجعل من طريقتهم في الحديث، طريقة انفعالية ناشئة من عقدة الكبر الكامنة في نفوسهم. ينظر في آفاق الحوار»: ١٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٤.

فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: «**من أبوكم؟**» قالوا: فلان. فقال: «**كذبتم، بل أبوكم فلان**». قالوا: صدقت. قال: «**فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟**» فقالوا نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفت في أبينا. فقال لهم: «**من أهل النار؟**» قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال النبي ﷺ: «**اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً**». ثم قال: «**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**»(١) فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: «**هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟**» قالوا: نعم. قال: «**ما حملكم على ذلك؟**» قالوا: «إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبيا لم يضرك»(٢).

وعن علقمة بن وقاص أن مروان قال لبوابه: «اذهب يا رافع إلى ابن عباس (ت. ٦٨هـ) فقلت: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبن أجمعون(٣). فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا عن كتمانهم. ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾(٤)»(٥). قال ابن

---

(١) ينظر، رحمك الله كيف يحرص ﷺ على حملهم على الصدق... فلا لقاء لنا إلا مع الصادقين الذين تجردوا بنياتهم لمعرفة الحق والصدق في طلبه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب «إذا غدر المشركون بالمسلمين فهل يعفى عنهم؟»ينظر «الفتح»: ٦/٢٦٨.

(٣) يقصد قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ ينظر «الفتح»: =

حجر (ت. ٨٥٢هـ): «الشيء الذي سأله النبي ﷺ عنه اليهود لم أره مفسراً، وقد قيل إنه سألهم عن صفته عندهم بأمر واضح، فأخبروه عنه بأمر مجمل»[١].

وروى ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ)[٢] أن نفراً من الصحابة سألوا نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة فكتموهم إياه، وأبوا أن يخبروهم عنه. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[٣].

وبهذا يتضح أن أسلوب المساءلة ثابت في مجادلاته ﷺ لأهل الكتاب[٤]، وهو المنهج الذي سار عليه السلف الصالح.

والملاحظ أن مواضيع المساءلة لم تتعد أبعاد الكلمة السواء ـ أي قضايا العقيدة والحياة ـ أما قيمة هذا اللون مع المجادلة، الذي ينطلق من المساءلة، فتتجلى في:

ـ مساهمته في تدقيق موضوع المجادلة ـ من خلال اعتماد أسلوب السؤال ـ.

ـ عرض الفكرة بقوة ووضوح أكبر.

ـ الكشف ـ بشكل أسرع ـ عن استعداد الطرف الآخر. وهذا مهم في المجادلة.

= ٩/ ١٠٢.

(١) «الفتح»: ٩/ ١٠٥.

(٢) ينظر «السيرة النبوية»: ٢/ ١٧٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٤) من مظاهر الحضور القوي لهذا اللون من المجادلة مع أهل الكتاب، اعتماده ﷺ أسلوب: المساءلة والإجابة في نفس الوقت، ولهذا الأسلوب مزايا خاصة. ينظر «الحوار في القرآن»: ٢٠١. وينظر الفصل الثاني من هذا الباب.

لهذه الاعتبارات وغيرها يبقى أسلوب المجادلة من منطلق السؤال شكلاً متميزاً في باب المجادلة مع أهل الكتاب.

نتائج وقاعدة:

الذي نخلص إليه بعد هذا البيان: وجوب التجاوب مع القضايا التي يعرضها أهل الكتاب للمجادلة من خلال الأسئلة التي يطرحونها، بشرط التحقق من صدق طلبهم[1]. انسجاماً مع الخط الإسلامي الذي يقوم على اعتبار المواجهة الإيجابية، للأسئلة التي تثار من أي فريق كان، وفي أي مجال كان، حقاً طبيعياً من حقوق الناس على المجادل المسلم الذي يضع نفسه في مركز المسؤولية الرسالية لديهم... فليس له أن يتذمر أو يتهرب، أو يشكو من كثرتها أو تعقيدها[2].

وللمسلم واسع النظر في اختيار الأسلوب الأنجع للرد على أسئلة المتعنت المعاند[3].

وقد اخترت عبارة، أظن أنها تصلح قاعدة تنبيه على ما أوردته في هذا المبحث وهي:

- **«أجب من سألك»**

أي لا مانع، بل من الواجب[4] التجاوب مع أسئلة أهل الكتاب، بشرط أن يكون السائل حريصاً على معرفة الجواب والانتفاع به.

ويبقى من المفيد استحضار القاعدة التي نبه عليها الإمام السيوطي

---

(١) أقصد بالصدق استعدادهم لقبول الحق والاعتراف به.

(٢) ينظر «الحوار في القرآن»: ١٩٢.

(٣) ينظر الباب الثالث من هذه الرسالة، ستجد إن شاء الله عز وجل، ضوابط لاختيار الأسلوب الأحسن لكل حالة. إذ لكل مقام مقال.

(٤) كما تفيد صيغة الأمر في العبارة: «أجب من سألك».

بقوله:

ـ **«قد يعدل عن الجواب أصلا، إذا كان السائل قصده التعنت»[1].**

إن المجادلة من منطلق السؤال، مجال آخر لاكتشاف القضايا التي يمكن أن تمتد إليها المجادلة مع أهل الكتاب.

وإذا كانت نتائج الدراسة قد أثبتت أن هذه القضايا لم تخرج في مجموعها عن مضمون الكلمة السواء، فإنها قد أكدت تميز هذا اللون من ألوان المجادلة من حيث الشكل والعرض لقضايا الكلمة السواء.

وهو ما يسمح لنا بالدعوة إلى اعتماده في مجادلة أهل الكتاب والتجاوب معه.

ويحق لنا أن نتساءل: هل هذا يعني أنه الشكل الوحيد لتصريف مضمون الكلمة السواء؟

هذا ما سنقف عليه في المبحث الموالي.



---

(١) «الإتقان في علوم القرآن»: ٢/ ٣١٣.

المبحث الثاني

الرد على أهل الكتاب

تمهيد:

حصل مما سبق أن القرآن الكريم يجعل من الكلمة السواء أساساً للمجادلة مع أهل الكتاب. وتبين أن مجموع دلالات هذه الكلمة السواء يعود إلى معاني التوحيد ـ أي قضايا العقيدة ـ وإفراد المولى عز وجل بالألوهية والربوبية.

والاجتماع على الكلمة السواء، لا يحد من توسّع دائرة المجادلة لتشمل قضايا الحياة من خلال الأسئلة التي قد يطرحها هذا الطرف أو ذاك.

في هذا المبحث سنكتشف جانباً من القضايا التي يمكن إدراجها ضمن مواضيع المجادلة، من خلال الوقوف على لون آخر من ألوان المجادلة مع أهل الكتاب. وهو الذي سميته: **الرد على أهل الكتاب**[1].

والرد على أهل الكتاب صورة من صور مجادلة أهل الكتاب، يسمى عادة في الفكر الإسلامي بـ«**الرد على النصارى**». وليس معنى ذلك أن هؤلاء

(١) «أسئلة أهل الكتاب» و«الرد على أهل الكتاب» صور من المجادلة مع أهل الكتاب، ترجع من حيث المضمون إلى القضايا المرتبطة بالكلمة السواء. لكنها ألوان مختلفة وصور مميزة للاجتماع على الكلمة السواء.

قد هاجموا الإسلام بالضرورة فانبرى المسلمون للرد عليهم، وإنما هو فن «كلامي» قد يندرج ضمن باب التوحيد في المؤلفات الكلامية عموماً، وقد تخصص له كتب أو رسائل مفردة[1].

ويمكن تقسيم هذا الشكل من أشكال المجادلة إلى قسمين:

الأول: ويشمل الرد على **شبهات** أهل الكتاب.

الثاني: ويتمثل في تتبع مظاهر الانحراف في تصور أهل الكتاب وبيان فساده.

ففي **الحالة الأولى**، يفترض وجود طرفي المجادلة، أحدهما في موقف هجوم ـ وهو الكتابي الذي يطرح اعتراضاته وشبهاته ـ والآخر في موقف دفاع عن الفكرة ضد التحديات القائمة ـ وهو المسلم الذي يعمل على دحض تلك الاعتراضات وبيان فساد تلك الشبهات من خلال عرض كلمة الحق في الموضوع المختلف فيه ـ.

وتختلف بواعث الطرف الكتابي في هذه الحالة: فهو إما معترض من أجل الاستفسار لمعرفة الحق في الموضوع المختلف فيه، وإما لأجل تشكيك الطرف المسلم. وغالباً ما يقدم الطرف الكتابي اعتراضاته في صيغة سؤال[2].

أما في **الحالة الثانية**: فإننا نلتقي بالأسلوب الذي قد لا يتمثل فيه الحوار، من الناحية الفعلية، فقد «لا يكون أمامنا شخصان يتناظران

---

(١) ينظر «الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي «لعبد المجيد الشرفي»: ١٧.

(٢) وهي أسئلة غير مباشرة، لأنها تطرح في شكل استفسارات القصد منها غالباً التشكيك، وبما أن هذا السؤال يتراوح بين السؤال المعرفي والسؤال التعجيزي فإنني آثرت أن أضمه إلى هذا النوع من أنواع المجادلة، وهو المجادلة من خلال الرد على أهل الكتاب. ولم أتناوله ضمن المجادلة من منطلق السؤال لهذا الاعتبار.

ويتحاوران، ولكنه ينطلق من أجل إثارة ذلك، ودفع الآخرين إلى اتخاذ موقف الأخذ والرد»[1].

ففي هذا القسم من المجادلة[2] يتتبع الطرف المسلم تصورات أهل الكتاب المنحرفة ثم يطرحها لينكرها عليهم بما يقدمه من أدلة وبراهين. وهو في هذا يوحي إليهم بالاستسلام لنتيجة المجادلة أو التأمل فيها.. أو مناقشتها.

ومهما يكن رد الفعل إزاء ذلك كله.. فإن النتيجة ستكون في مصلحة الدعوة.. لما تملكه من قوة وسعة امتداد يجعل النتيجة الطبيعية للتأمل العميق، والمناقشة الواسعة مع فكر الرسالة وشريعتها[3].

والغرض من المجادلة في كلتا الحالتين:

- دحض العقائد المنحرفة لأهل الكتاب.

- تثبيت عقيدة المسلمين وتحذيرهم من ضلال أهل الكتاب وتضليلهم.

وقد اعتمد سلفنا الصالح هذا الأسلوب في مجادلة أهل الكتاب ـ من خلال الرد على اعتراضاتهم ودحض شبهاتهم وبيان فساد تصوراتهم ـ ومصنفاتهم في هذا الباب شاهدة على ذلك[4].

---

(١) «الحوار في القرآن»: ١٩.

(٢) لا يعتبر هذا الأسلوب في المجادلة خارجاً عن إطار المجادلة بالمفهوم الذي قدمناه لأنه وإن لم يكن مجادلة حقيقية إلا أنه يعتبر خطوة نحو مجادلة فعلية. ثم إنه ينسجم وغاية المجادلة وهي البلاغ المبين. وحتى يحقق المسلم هذه الغاية عليه أن «يدعو الناس إلى الحوار، أو يثيرهم بأسلوبه إلى ممارسة ذلك، كما يدخل معهم في الحوار نفسه في حالة إثارتهم له في صراع الأفكار». نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) قام د. الشرفي بجرد أهم المؤلفات في الفكر الإسلامي المرتبطة بموضوع «الرد على النصارى» خاصة وأهل الكتاب عموماً. واعتبر كتاب «الرد على النصارى» لعلي =

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن مصنفات علمائنا المسلمين رضي الله عنهم ـ في موضوع الرد على أهل الكتاب[1] ـ قد احتوت على ما لا مزيد عليه وإن اختلفت مسالكهم في الاحتجاج من حيث اعتماد مسلك مقتضيات المعقول أو المنقول أو هما معا[2].

لهذا اخترت تناول قضايا هذا المبحث من خلال التصميم الآتي:

- الرد على شبهات أهل الكتاب.

- رصد تصورات أهل الكتاب الضالة، وبيان فسادها.

١ ـــ الرد على شبهات أهل الكتاب

واجه الإسلام حروباً فكرية لا تقل ضراوة عن الحروب العسكرية.. من خلال الشبهات والاعتراضات التي روج لها أعداء الدعوة الإسلامية وخصومها من أجل أن يزرعوا في النفوس المزيد من القلق والشك والحيرة بالنسبة إلى ما يقدمه الإسلام من هدى وحلول لمشاكل الحياة.

فكانت هذه الحروب الفكرية شكلاً آخر من أشكال **الصد عن**

= الطبري، المؤلف حسب المرجح سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، أقدم أثر في ميدانه غير مطعون في صحة نسبته، وقد اعتمد فيه صاحبه على معرفة مباشرة لنصوص «الكتاب المقدس» و«العقائد النصارى». ينظر «الفكر الإسلامي في الرد على النصارى»: ١٢٣ وما بعدها.

(١) بين د. الشرفي أن «الجدل المعتمد على الرد على أهل الكتاب قد اكتملت معالمه في نهاية القرن الرابع الهجري، وأن الردود المؤلفة في القرون الموالية إنما كانت تردد ما كتب في القرون الأربعة الأولى وخاصة في القرنين الثالث والرابع ولم تزد في الغالب على التحليل ودعم الاستشهاد بالنصوص أو التعمق في اتجاهات سلكها الأقدمون» المرجع السابق: ٦.

(٢) ينظر «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب»: ٤. ويبقى كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» للإمام ابن حزم معلمة علمية شاهدة على عطاء علمائنا البارز في باب المجادلة مع أهل الكتاب. حيث بين فيه باطل نواميسهم وأصمت فيه نواقيسهم.

سبيل الله[1]، ولن نبالغ إذا قلنا إنه الأعتى والأقوى، لأنه يحاول هدم الأسس التي قامت عليها الرسالة من خلال الطعن في مصدرها وحاملها ومضمونها.

وكان الطرف الكتابي أول من بادر إلى إشعال نار هذه الحروب، باعتبار أن أهل الكتاب أهل علم في الجملة.

ووقف الإسلام في وجه كل هذه التحديات «ليرد التحدي بمثله، من موقع الرغبة في الوصول إلى الحق وإفساح المجال للأفكار بأن تلتقي بمفاهيمه لا من موقع الرغبة في الغلبة من أجل حب الغلبة»[2].

فتتبع الوحي هذه الشبهات[3] والاعتراضات[4] ثم فند أساسها بالأدلة القوية. فزرع الطمأنينة في القلوب من حيث أراد الغير تشكيكها. فذلل بذلك العقبات، ومهد الطريق أمام العقول والقلوب لتقبل على الإسلام بكليتها.

وقد احتل موضوع «الرد على الشبهات» مكانه ضمن المواضيع التي شملتها المجادلة مع أهل الكتاب.

---

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٣٦].

(٢) «الحوار في القرآن»: ١٧.

(٣) **الشَّبه والشَّبيه**: حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفية... والشبهة هو أن لا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عيناً كان أو معنى... والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢٦٠.

والشُّبهة: الالتباس، والمشتبهات من الأمور المشكلات. ينظر «مختار الصحاح»: ٣١٥. فالشبهة هي القضايا والأفكار التي تطرح ولا يستبين وجه الحق فيها، مما يجعل الإنسان أمامها في لبس وحيرة.

(٤) «**اعترض الشيء دون الشيء**: أي حال دونه». «مختار الصحاح»: ٤٠٥. والاعتراضات هي ما يروجه خصوم الإسلام وأعداؤه ليحولوا دون بلوغ كلمة الحق إلى الأسماع بما يثيرونه من تشويش فكري على التصور الإسلامي لقضايا العقيدة والحياة.

وما يزال هذا النوع من المجادلات يتجدد بتجدد طرح مثل هذه الشبهات[1]. ولعل «حرب الشبهات» اليوم ضد الإسلام أشد وأنكى، خاصة مع تطور وسائل الاتصال، مما جعل مداها أوسع، وتأثيرها أعمق.

لأجل ذلك آثرت أن أقف مع بعض النماذج[2] ليتركز في الأذهان ضرورة الاهتمام بهذا الموضوع ـ الرد على الشبهات ـ وإدراجه ضمن قضايا المجادلة مع أهل الكتاب.

(أ) شبهة: «النسخ لا يردِ على الشرائع».

من ذلك ما ادعته يهود: من أن **النسخ لا يرد على الشرائع**. بمعنى أن الشرائع السابقة قائمة، وعليه فدعوى الرسول ﷺ الرسالة إذن غير صحيحة ـ بزعمهم ـ.

فمدار هذه الشبهة على إنكار النسخ[3].

وقد أبطل القرآن هذه الشبهة التي أثارها اليهود بنقض أساسها الذي تقوم عليه وهو إنكار النسخ، فأثبت وقوع النسخ من واقع توراتهم وقرره كما تنص عليه كتبهم التي بين أيديهم.

كما في قوله تعالى:

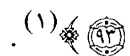
﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ

---

(١) ينظر رسالة أبي عبيد الخزري (٥٨٢هـ/ ١١٨٧م) إلى قسيس مدينة طليطلة، وموضوعها الرد على الشبهات التي أوردها القسيس ضد الإسلام. ينظر «الحوار الإسلامي - المسيحي»: ١٠٦ وما بعدها.

(٢) كثير من الأمثلة التي مرت معنا تصلح نماذج في هذا الباب. ينظر ما ورد في مبحث «مقتضيات الاجتماع على الكلمة السواء» ضمن قضايا الفصل الأول من هذا الباب.

(٣) أخبر ابن حزم أن اليهود انقسموا في قضية النسخ إلى قسمين: ففريق أبطله ولم يجعله ممكناً، والثاني أجازه إلا أنه قال بعدم وقوعه. ينظر «الفصل» ج ١: ١٠٠.

 ﴾[1].

وتقرير هذا أن جميع المطعومات كانت حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة إلا النوع الذي حرمه إسرائيل على نفسه وهو لحوم الإبل وألبانها وتبعه بنو إسرائيل في تحريم ذلك تأسياً ثم حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بسبب بغيهم، وقد كانت حلالاً لهم قبل ذلك. فأنكروا أن يكون ذلك التحريم خاصاً بهم وادعوا بأنه كان من عهد الأمم الماضية وأنهم ورثوه عن الأنبياء السابقين. فتحداهم القرآن بأن يثبتوا ذلك بطريق صحيح قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فلم يستطيعوا إخراج التوراة لأن فيها ما سيفضحهم ويكشف كذبهم ولهذا بهتوا[2] وانقلبوا صاغرين[3].

ونسج علماؤنا على منوال القرآن الكريم في الرد على هذه الشبهات، فأوردوا أدلة عقلية ونقلية تفند مزاعم القوم.

من ذلك ما أورده ابن حزم (ت. ٥٤٧هـ) في نقض أساس شبهة إنكار النسخ. قال: «وعمدة حجة من أبطل النسخ ـ من اليهود ـ أن قالوا إن الله عز وجل يستحيل أن يأمر بالأمر ثم ينهى عنه. ولو كان كذلك لعاد الحق باطلاً والطاعة معصية والباطل حقاً والمعصية طاعة. . . فنقول لهم وبالله التوفيق: ما تقولون فيما كان قبلكم من الأمم المقبول دخولها فيكم إذا غزوكم، أليس دماؤهم لكم حلالاً، وقتلهم حقاً وفرضاً وطاعة، ولا بد من: نعم. فنقول لهم فإن دخلوا في شريعتكم أليس قد حرمت دماؤهم وصار عندكم قتلهم حراماً وباطلاً ومعصية. بعد أن كان فرضاً وحقاً وطاعة،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٣.

(٢) بهت: دهش وتحير. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٦١.

(٣) ينظر «مناهج الجدل»: ٣٢٥.

فلا بد من نعم. ثم إن عدوا[1] في السبت وعملوا أليس قد عاد قتلهم فرضاً بعد أن كان حراماً، فلا بد من نعم. فهذا إقرار ظاهر منهم ببطلان قولهم وإثبات منهم لما أنكروه من أن الحق يعود باطلاً والأمر يعود نهياً وأن الطاعة تعود معصية وهكذا القول في جميع شرائعهم إنما هي أوامر في وقت محدود بعمل محدود فإذا خرج ذلك الوقت عاد ذلك الأمر منهياً عنه»[2].

(ب) شبهة: «التعارض بين آي القرآن الكريم».

ومن شبههم محاولتهم **إظهار التعارض بين آي القرآن الكريم.**

فعن ابن إسحاق (ت. ١٥١هـ) قال: حدثت عن ابن عباس أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قالت أحبار يهود: يا محمد أرأيت قولك: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[3]. إيانا تريد، أم قومك؟ قال: «**كلا**»[4]. قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيء[5]، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) الاعتداء مجاوزة الحق. والعدو في السبت مجاوزة ما أمروا به من عدم الاصطياد في هذا اليوم، لكنهم جاوزوا الحق وأخذوا الحيتان على جهة الاستحلال. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٣٣٨.

(٢) وهذا بعينه هو نسخ الشرائع الذي أبوه وامتنعوا منه، إذ ليس معنى النسخ إلا أن يأمر الله عز وجل بأن يُعمل عمل ما مدة ما ثم يَنهى عنه بعد انقضاء تلك المدة. ينظر «الفصل»: ج١ ./ ١٠٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٤) بمعنى أنه يقصد اليهود، وقد ورد ذلك رداً على سؤالهم عن الروح، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

(٥) من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

«**إنها في علم الله قليل، وعندكم في ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه**»[1]. قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[2]. أي أن التوراة في هذا من علم الله قليل[3].

وفي صحيح مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾[4] وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال المغيرة: فلم أدر ما أقول. فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له. فقال: «**ألم يعلموا أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم**»[5].

ففي هذا تجهيل لأهل نجران أن طعنوا في القرآن على توهم أن ليس في القوم من اسمه هارون[6].

(ج) شبهة: «الطعن في أخبار القرآن الكريم».

ومن شبهاتهم محاولة **طعنهم في بعض أخبار القرآن الكريم**.

من ذلك ما روي أن يهودياً سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن

---

(١) بعد أن رد اعتراضهم، وبين ألا تعارض انتقل ﷺ إلى لفت انتباههم إلا ما هو أهم من ذلك: وهو العمل بما آتاهم الله عز وجل من العلم. وهذا أسلوب نبوي حكيم، يسميه علماؤنا بـ «لفت السائل إلى غير ما سأل مما هو أهم ما سأل عنه أو أنفع له». ينظر «الرسول المعلم ﷺ»: ١٤٥ وما بعدها.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٣) «السيرة النبوية»: ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٤) سورة مريم، الآية: ٢٨.

(٥) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٤/ ٩٥.

(٦) ينظر «التحرير والتنوير»: ج ١٦/ ٩٦.

هذه الآية ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾[1] فقال اليهودي: فأين النار؟ فقال عمر إذا جاء الليل فأين النهار؟ فبهت اليهودي[2].

وما تزال هذه الشبهات وأمثالها تعرض على المسلمين، ومصنفات علمائنا رضي الله عنهم غنية بذكرها[3] والرد عليها[4].

وقد خصص ابن حزم باباً في الكلام على بعض اعتراضات النصارى وبيان فسادها. قال فيه: «وبقي لهما ـ يقصد النصارى ـ اعتراضان نذكرهما إن شاء الله تعالى أحدهما أن قالوا قال الله عز وجل في كتابكم حكاية عن المسيح عليه السلام أنه قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾[5] فأين الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين؟. وقال تعالى: مخاطباً للمسيح عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[6]. قلنا: نعم، هذا خبر حق ووعد صدق وإنما أخبر تعالى عن المؤمنين ولم يسمهم. ولا شك في أن من ثبت عليه الكذب من باطرة ويوحنى ومتى ويهوذا ويعقوب ليسوا منهم، لكنهم من الكفار المدعين له الربوبية كذباً وكفراً، وأما الموعودون بالنصر إلى يوم القيامة المؤمنون بالمسيح عليه السلام فهم نحن المسلمون المؤمنون به حقاً وبنبوته ورسالته لا من كفر به وقال إنه كذاب وقال إنه إله أو ابن إله

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

(٢) بهت، سبق بيان المراد به ص ٢٣٥.

(٣) مر معنا قصة الإمام الكشميري مع النصراني.

(٤) من المصنفات المعاصرة، والمهمة في هذا الباب كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي. وللشيخ ديدات قصة مع هذا الكتاب، فهو نقطة التحول في مسيرته الدعوية وسبب توجهه إلى ميدان المجادلة مع أهل الكتاب. ينظر «هذه حياتي»: ١٦ وما بعدها.

(٥) سورة الصف، الآية: ١٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

تعالى الله عن ذلك»[1].

وقال في موضع آخر: «وعارضني يوماً نصراني كان قاضياً على نصارى قرطبة في هذا ـ يقصد متاع الجنة الحسي، وأن في الجنة ملابس ومشارب ومطاعم ووطئاً وأنهاراً وأشجاراً وغير ذلك ـ وكان يتكرر على مجلسي فقلت له أو ليس فيما عندكم في الإنجيل أن المسيح عليه السلام قال لتلاميذه ليلة أكل معهم الفصح[2] وفيها أخذ بزعمهم، وقد سقاهم كأساً من خمر وقال: إني لا أشربها معكم أبدا حتى تشربوها معي في الملكوت عن يمين الله تعالى. وقال في قصة الفقير المسمى «العاذار» الذي كان مطرحاً على باب الغني تلحس الكلاب جراح قروحه، وإن ذلك الغني نظر إليه متكئاً في حجر إبراهيم عليه السلام فناداه الغني وهو في النار يا أبي ابراهيم ابعث إلى العاذار بشيء من ماء يبل به لساني. وهذا نص على أن في الجنة شراباً من ماء وخمر. فسكت النصراني وانقطع»[3].

هذه النماذج على هذا الأصل الذي نحاول تثبيته وهو ضرورة الاهتمام بتتبع شبهات أهل الكتاب والرد عليها. والقبول بإدراجها ضمن مواضيع المجادلة. ومن النتائج التي يحسن تسجيلها والتنبيه على قيمتها: أن موضوع هذه الشبهات مفتوح على قضايا الرسالة وما يرتبط بها. فهو إذن لا يخرج عن مضامين الكلمة السواء.

وبهذا تبقى المجادلة من منطلق الرد على الشبهات شكلاً مميزاً للمجادلة مع أهل الكتاب مرتبط ببواعث الطرف الكتابي التشكيكية في قيمة

---

(١) وقد ذكر الاعتراض الثاني ورد عليه بما يشفي ويكفي. ينظر «الفصل»: ج ٢/ ٧٥ وما بعدها.

(٢) **الفصح**: ـ بالكسر ـ فطر النصارى، وهو عيد لهم. **وأفصحوا**: جاء فصحهم، وهو إذا أفطروا وأكلوا اللحم. ينظر «لسان العرب» مادة فصح: ٢/ ٥٤٥.

(٣) المرجع السابق: ج ٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

الرسالة. لذا وجب التنصيص على ضرورة الانفتاح على موضوع هذه الشبهات بارتياح ودحضها بقوة. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[1].

هذا! ولم يكتف الإسلام بالتصدي لما يثيره أهل الكتاب من شبهات بل حض على رصد كل أقوالهم وعقائدهم الفاسدة من خلال الاطلاع عليها في مظانها.

وهذا ولا شك شكل آخر من أشكال المجادلة، ينبهنا على جانب مهم من القضايا التي يمكن أن يمتد إليها الجدل مع أهل الكتاب. وهو ما سنقف عليه في المحور الموالي.

٢ ـ رصد تصورات أهل الكتاب الضالة وبيان فسادها

المجادلة من منطلق السؤال، والمجادلة من خلال الرد على الشبهات شكلان للمجادلة من موقع الدفاع عن الفكرة ضد تحديات قائمة.

وقد رسم القرآن الكريم شكلاً آخر للمجادلة ينطلق في مهمة طرح الفكرة، وإن لم تكن هناك تحديات.

وتتجلى قيمة هذا الأسلوب في كونه يجسد مبدءاً إسلامياً ثابتاً ألا وهو: الانفتاح على الغير لأجل تبليغه كلمة الحق.

وهو في نفس الوقت يظهر وجه المبادرة في المجادلة، إذا لم يكتف القرآن الكريم بالتعاطي مع القضايا التي يطرحها أهل الكتاب للمجادلة بل عمل على بسط قضايا للمجادلة قد لا يرغب الطرف الكتابي في جعلها موضوع مجادلة.

وهكذا عمل الوحي الإلهي على توفير فرص جديدة للقاء والمجادلة

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

في قضايا اهتم القرآن الكريم في عرضها بالشكل الذي يجذب الطرف الكتابي إلى المشاركة في دراستها.

وتعددت صور هذا الانفتاح، فأحياناً يلجأ الإسلام إلى طرح فكرة المجادلة من أجل إشغال الناس بعلامات الاستفهام، التي يقدمها الإسلام مع أجوبتها، ليوفر على الطرفين جهد البحث عن سؤال قد لا يجدونه جاهزاً في أفكارهم، وربما يواجهون صعوبة في العثور عليه. كل ذلك من أجل أن تدخل الفكرة في وعي الإنسان بعمق، وتقتحم أفكاره بقوة[١].

وفي أحيان أخرى يجعل القرآن الكريم من بعض الأقوال والكلمات المرتبطة بوجهة نظر خاصة لبعض قضايا العقيدة أو الحياة ـ التي ترد على لسان أهل الكتاب ـ موضوعاً للمجادلة. حيث يعمل على نقلها ثم يبدأ في عملية الرد عليها ليضع القضية في إطارها الذي لا يجعل من تلك الأقاويل مجرد وجهة نظر لا تعارض أو علامة استفهام لا تجد أمامها جواباً[٢].

وقد ساعد على هذا التوجه نحو المبادرة بإثارة القضايا المرتبطة بتصور أهل الكتاب لأمور العقيدة والتشريع، النصوص القرآنية والنبوية الداعية إلى الاطلاع على المصادر المعرفية لأهل الكتاب، وكشف تصوراتهم الباطلة وضرورة بيان فسادها بما يحقق غاية المجادلة وهي دحض الباطل وإسماع كلمة الحق.

وقد اخترت الحديث عن هذا اللون في المجادلة ـ الذي يعتمد على كشف التصورات الباطلة ـ من خلال التنبيه على أصالته، وعرض نماذج له.

وذلك وفق التصميم الآتي:

ـ الاطلاع على المصادر المعرفية لأهل الكتاب.

---

(١) ينظر «الحوار في القرآن»: ١٧.

(٢) المرجع السابق: ١٩.

ـ نماذج للمجادلة مع أهل الكتاب من منطلق الاطلاع على مصادرهم المعرفية، لأجل الكشف عن تصوراتهم، وبيان بطلانها.

(أ) الاطلاع على المصادر المعرفية لأهل الكتاب.

نبه الدارسون لتراث أهل الكتاب على أن مجمل معتقدات اليهود والنصارى تعود في جذورها إلى أخبار وقصص عن أنبياء بني إسرائيل وأحبارهم ورهبانهم.

تكفي نظرة في كتبهم لتبين صدق هذا الأمر.

هذا الطابع القصصي ـ الذي بلغ حد الأسطورة والخيال[1] ـ انعكس على عقلية أهل الكتاب. فكثيراً ما كانوا يثيرون في مجادلاتهم مسائل ترجع إلى قصة من قصصهم وحدث من تاريخهم. وقد مر بنا سؤالهم عن فتية غابرين، وعن رجل جاب مشارق الأرض ومغاربها.

وقد استحضر القرآن الكريم هذا التعلق الشديد لأهل الكتاب بالقصص، وتجاوب مع هذا التعطش. قال تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾[2].

وقال عز من قائل:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[3].

ولما كان كثير من القصص التي روجها اليهود والنصارى قد تعرضت للتحريف، فإن القرآن جعل من ذكره لقصص السالفين مناسبة لتصحيح ما طالته أيادي التزوير. قال تعالى:

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

---

(١) ينظر «معالم في شخصية الكتابي». عند الحديث عن صفة الغرور. ص: ١٢٧.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٣.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾[1].

إلى أن قال:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[2].

وقال تعالى يحكي مشهد الوحي المنزل باصطفاء مريم:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾[3].

إلى أن قال:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ﴾[4].

وقد ترجم البيان النبوي أهمية الوقوف عند قصص أخبار بني إسرائيل[5] للاتعاظ بأحوالهم من جهة، وللوقوف على وجه التحريف في كثير من أخبارهم المنسوبة لأنبياء الله تعالى من جهة أخرى. من ذلك قوله ﷺ: «**بلغوا عني ولو أية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**[6]، **ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[7].

قال المناوي (ت. ١٠٣١هـ): «أي بلغوا عنهم قصصهم ومواعظهم

---

(١) سورة النمل، الآيات: ٧٦ ـ ٧٨.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

(٥) احتفظت كتب الحديث بأبواب خاصة بأخبار أهل الكتاب. ينظر مثلاً كتاب أحاديث الأنبياء باب «ما ذكر عن بني إسرائيل». «الفتح»: ٧/ ١٧٠.

(٦) في رواية الديلمي: «حدثوا عن بني إسرائيل فإنه كانت فيهم أعاجيب». ينظر «فيض القدير»: ٣/ ٥٠.

(٧) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل. حديث رقم ٣٤٦١. ينظر «الفتح»: ٧/ ١٧٢.

ونحو ذلك مما اتضح معناه فإن ذلك عبرة لأولى الأبصار»[١].

ويقول الخطابي في قوله ﷺ: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»: «ليس معناه إباحة الكذب في أخبار بني إسرائيل ورفع الحرج عمن نقل عنهم الكذب، ولكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على معنى البلاغ وإن لم يتحقق صحة ذلك بنقل الإسناد وذلك لأنه أمر قد تعذر في أخبارهم لبعد المسافة وطول المدة ووقوع الفترة[٢] بين زماني النبوة»[٣].

فالشرع قد رخص إذن في التحديث عن بني إسرائيل ورفع الحرج الذي قد يسببه تعذر الاتصال في التحديث عنهم وعدم التأكد من صحة ما نقل عنهم. وهذا لا يعني إباحة الكذب عليهم.

وقد نبه الشراح على دلالات الأمر بالتحديث من خلال بيان معاني قوله ﷺ: «**ولا حرج**». وهذه خلاصة أقوالهم:

- «**ولا حرج**» لا ضيق عليكم في الحديث عنهم لأنه كان عليه الصلاة والسلام زجرهم عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم قبل استقرار الأحكام الدينية والقواعد الإسلامية خشية الفتنة ثم لما زال المحذور أذن لهم[٤].

- وقيل[٥] المراد رفع الحرج عن حاكي ذلك لما في أخبارهم من الألفاظ المستبشعة نحو قولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾[٦] وقولهم:

---

(١) «فيض القدير شرح الجامع الصغير» للمناوي: ٣/ ٣٧٧.

(٢) **الفترة**: هي الزمن الفاصل بين بعثة رسول وبعثة الرسول الذي بعده.

(٣) «معالم السنن»، شرح سنن أبي داود لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي: ٤/ ١٧٣.

(٤) ينظر «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد الشافعي القسطلاني: ٧/ ٤١٤.

(٥) ينظر «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» للشيخ بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني: ١٦/ ٤٥.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾[1].

ـ وقيل: لا حرج في أن لا تحدثوا عنهم لأن قوله أولاً «حدثوا» صيغة أمر تقتضي الوجوب[2]، فأشار إلى عدم الوجوب، وأن الأمر فيه للإباحة[3].

ومن مظاهر اهتمامه ﷺ بالإخبار عن أحوال بني إسرائيل ما رواه عبد الله بن عمرو (ت. ٦٥هـ) قال: «كان النبي ﷺ يحدثنا عن بني إسرائيل حتى يصبح ما يقوم إلا إلى عظم صلاة[4]»[5].

هذا الحرص النبوي على تعليم الصحابة، ومن بعدهم، كثيراً من أخبار أهل الكتاب، انعكس على سلوك الصحابة فكانوا الحريصين على ضبط ما أشكل عليهم من أحوال أهل الكتاب.

من ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس الفزاري في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خضر، فمر بهما أبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيته هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٢) «قوله صيغة أمر تقتضي الوجوب ليس ذلك على إطلاقه وإنما الأمر يقتضي الوجوب بصيغته إذا تجرد عن القرائن. وهنا قوله: «ولا حرج» قرينة على أنه ليس بواجب ولا هو للندب كما قال الكرماني: الأمر ـ قلت في هذا الموضع ـ للإباحة ولا ندب بالإجماع». «عمدة القاري»: ١٦/ ٤٥.

(٣) ينظر «منار القاري في شرح مختصر صحيح البخاري» لحمزة محمد قاسم: ٤/ ٢١٣.

(٤) قال أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي: ««إلى عظم صلاة» عظم كقفل ـ بضم العين وسكون الظاء ـ معظم الشيء. قال في النهاية: عظم الشيء أكبره، كأنه أراد لا يقوم إلا إلى فريضة». «عون المعبود شرح سنن أبي داود»: ١٠/ ٧٠.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه. كتاب العلم، باب التحديث عن بني إسرائيل. ينظر «عون المعبود»: ١٠/ ٧٠.

شأنه؟ قال: نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى، بلى عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إليه، فجعل له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه أرأيت إذ أوينا إلى صخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره. قال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا خضراً، فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه[1]**»[2].

وقد أثمر هذا الإلمام بأخبار أهل الكتاب الثمرة الطيبة في جدال الصحابة مع اليهود والنصارى. فعن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى[3]؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل. زاد في رواية أخرى: فلما أخبرت اليهود قال: إن صاحبك لحبر[4].

الملاحظ من أقوال الشراح، اتفاقهم على أنه لا مانع من رواية الأخبار وأخذها عن بني إسرائيل، من اليهود والنصارى للموعظة والاعتبار.

وأرى أن التحديث عن بني إسائيل والإخبار عما في بطون كتبهم لا

---

(١) ينظر تمام القصة في قوله تعالى من سورة الكهف، الآيات: ٥٩ ـ ٨١.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام. ينظر «الفتح»: ٧/ ٩١.

(٣) يريد قوله تعالى: في قصة موسى مع نبي الله شعيب: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ [القصص: ٢٧]. إلى قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ [القصص: ٢٨].

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، الباب الثامن والعشرون. ينظر «الفتح»: ٥/ ٦٢٦ ـ ٦٢٧.

يقف عند حد الاطلاع على قصصهم ورواياتها قصد الاعتبار، بل يتعدى ذلك ليشمل الكشف عن تصورات القوم ودراستها لبيان بطلانها. وهذا ما فصل فيه علماؤنا في معرض بيانهم لضوابط التحديث عن أهل الكتاب.

*** ضوابط التحديث عن أهل الكتاب:**

الذي دفعني للوقوف عند هذه الضوابط هو ما قد يحصل من التعارض بين الترخيص المفهوم من قوله ﷺ: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» وبين النهي عن الاشتغال بما جاء عنهم الذي نص عليه حديث «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**» وهذا نص الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه (ت. ٥٩هـ) قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم و** ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾(١)»(٢).

قال ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ) في قوله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»: «أي إذا كان ما يخبرونكم به محتملاً لئلا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه، أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج. ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه؛ ولا عن تصديقهم في ما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رحمه الله (ت. ٢٠٤هـ)»(٣).

والذي يحصل من قول ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ) أن التحديث عن بني إسرائيل مضبوط، مشروط بأمور نوردها كالآتي:

١ ـ يجوز التحديث عن بني إسرائيل فيما وافق القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية. يقول صاحب منار القاري: «ما وافق القرآن والسنة موافقة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ﴾ [البقرة: ١٣٦]. ينظر «الفتح»: ٩/ ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) المصدر السابق: ٩/ ٢٣.

صريحة، فهذا مما ينبغي روايته وتبليغه لأنه حق وصدق لا شك فيه»[1].

٢ ـ يمنع التحديث عن بني إشرائيل بما علم كذبه، ورد في شرعنا ما يخالفه. «ولا تجوز روايته إلا لتفنيده وتكذيبه، وذلك لما فيه من تكذيب الله ورسوله»[2].

٣ ـ التوقف في قبول أو رد ما يحدث به أهل الكتاب، إذا لم يكن معنا علم من الكتاب أو السنة بصدق أو كذب ما أخبروا به. وهذا ما نص عليه ﷺ بقوله: «**لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوه أو بباطل فتصدقوا به**»[3].

فموضوع المجادلة إذن ينطلق من الأقوال والأخبار والتصورات المختلف فيها، ليبين وجه الحق فيها. وليجعل من الأخبار الموافقة للقرآن والسنة صورة للحق الذي يشترك الطرفان في إقراره، وفرصة لدعوة أهل الكتاب إلى إقامة ما معهم من الحق[4]. ولا تشمل المجادلة المواضيع التي

---

(١) «منار القاري»: ٤/ ٢١٣.

(٢) نفسه. يقول الإمام مالك: «المراد جواز التحديث عنهم بما كان من أمر حسن أما ما علم كذبه فلا». «عمدة القاري»: ١٦/ ٤٥. وقال الإمام الشافعي: «من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجيز التحديث بالكذب، فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه. «منار القاري»: ٤/ ٢١٣. قلت: هذا الضابط يصلح في باب الحديث والرواية لقصد الوعظ والاعتبار، أما في باب المجادلة فلا أعتقد ذلك، لأن المجادلة تنطلق من مواطن الاختلاف. وغايتها بيان الحق في الموضوع المختلف فيه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب قول النبي ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب**». ينظر «الفتح»: ١٥/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٤) من الحوارات المميزة في هذا الباب «حوارات عبد الله العلمي الغزي الدمشقي (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)»، الذي كان لا يعتمد في الرد على شبهات النصارى إلا على ما ورد في أناجيلهم. وفي هذا دحض للباطل بما يقبل ولا يرد. ينظر «كتاب سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية بين شيخ وقسيس» بقلم عبد الله العلمي الغزي الدمشقي: ١٣ وما بعدها.

ليس للطرف المسلم فيها علم مصداقاً لقوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[1].

والمعول عليه بعد هذا البيان أن ندرك أن الدخول في مجادلة مع أهل الكتاب على أرضية ما ورد عندهم من أخبار وقصص وما تحويه كتبهم من تصورات لأمور العقيدة والحياة، أمر مقبول بل واجب شريطة الالتزام بالضوابط الثلاثة السالفة.

(ب) نماذج للمجادلة مع أهل الكتاب من منطلق الاطلاع على مصادرهم المعرفية، لأجل الكشف عن تصوراتهم، وبيان بطلانها:

أخذ الله العهد على أهل الكتاب أن يبنوا للناس الحق الذي في كتبهم ولا يكتمونه. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ[2] ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[3].

غير أنهم خانوا العهد، ونبذوه وراء ظهورهم طمعاً في متاع الدنيا القليل:

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[4].

بل إنهم ألبسوا الحق الذي معهم بالباطل إمعاناً في الكتمان: قال تعالى:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾[5].

إلا أن إرادة الله عز وجل في إحقاق الحق وإبطال الباطل كانت لهم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) الميثاق: العهد. ينظر «مختار الصحاح»: ٦٥٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٤) نفسها.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧١.

بالمرصاد. قال تعالى:

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ⁽٨⁾﴾[١].

فوعده سبحانه بإخراج ما يكتمون نافذ. قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[٢].

فبعث الله رسوله ﷺ بالبيان لكثير مما أخفوا من الكتاب. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ⁽١٥⁾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

فهو رسول الله إليهم، ومهمته أن يبين لهم ويوضح ويكشف ما تواطؤوا على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي أنزل عليهم. «وقد أخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة كرجم الزاني، وتحريم الربا كافة، وخبر بعثة النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم... كما أنه ﷺ يعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه مما لم يرد به شرعه»[٤].

على هذا الأساس انطلق الوحي في تتبع مظاهر الانحراف في تصورات أهل الكتاب سواء ما جرى على ألسنتهم وظهر في سلوكهم ـ أسروا ذلك أو أعلنوه ـ أو ما ضمنوه كتبهم.

فاهتم القرآن والسنة بعرض ذلك كله لبيان بطلانه، وإظهار وجه الحق

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٧، ٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٢.

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٤) «الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه» الكتاب الثالث: ٣٩.

الذي حادوا عنه.

وقد تنوعت القضايا التي شملها هذا النوع من المجادلة، تبعاً لتنوع مظاهر الانحراف وتعدد صوره في جانب العقيدة والشريعة والحياة. ويمكن عرض نماذج لهذه القضايا عبر المحاور الآتية:

- محور العقيدة.
- محور الشريعة والحياة.

*** محور العقيدة:**

اهتم الوحي في هذا الجانب ببيان بطلان تصور أهل الكتاب لقضايا الرسالة.

- فتعرض للقضايا المرتبطة بتصورهم لحقيقة الإلٰه المعبود وحقيقة نبي الله عيسى عليه السلام، فأثبت القرآن الكريم والسنة النبوية خروجهم عن مقتضيات التوحيد(١).

- وأدرج الوحي موضوع الرسل عليهم السلام بدءاً من آدم عليه السلام ومسألة الخطيئة إلى عيسى عليه السلام مروراً بنوح وإبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وداود وسليمان عليهم الصلاة والسلام.

واهتم القرآن في هذا الباب بدفع كل التصورات الباطلة ودحض القصص المؤتفكة التي تقدم أنبياء الله عز وجل في غير المقام السامي لحاملي الرسالة(٢).

---

(١) ينظر النماذج التي تعرضنا لها في سياق الحديث عن مقتضيات الكلمة السواء. وقد اهتمت مجموعة من المصنفات بعرض عقيدة أهل الكتاب - من خلال كتبهم - على محك القرآن الكريم. من ذلك كتاب «العقائد الوثنية في الديانة اليهودية» للأستاذ حسن الباشا: ١٦١ وما بعدها.

(٢) ينظر دراسة عن أنبياء الله عز وجل في الأسفار ورد القرآن الكريم في موسوعة «الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه». الكتاب الخامس: ٤٩.

واحتل الحديث عن الرسول الخاتم ﷺ حيزاً مهماً ضمن قضايا هذا الباب، وذلك من خلال الاهتمام بمسألة التبشير ببعثة النبي الخاتم(1).

وقد نقل لنا الوحي بعض أوصافه ﷺ وأوصاف أمته في التوراة والإنجيل. قال تعالى:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾(2).

وقال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾(3).

وروى البخاري (ت. ٢١٠هـ) عن عبد الله بن عمرو (ت. ٦٥هـ) رضي الله عنهما أن هذه الآية يقابلها في التوراة: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله. فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً»(4).

---

(١) «أخذ موضوع إثبات التبشير بمجيء النبي محمد ﷺ في الكتاب المقدس حيزاً كبيراً من الحوار الإسلامي ـ المسيحي، فكثرت الاستشهادات في هذا الموضوع من العهدين القديم والجديد أثناء الحوار». «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٣٤٨.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ينظر «الفتح»: ٩/ ٥٥٩.

وفي رواية الدارمي، قال كعب (ت. ٤٠هـ): «نجده مكتوباً: محمد، رسول الله ﷺ لا فظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، وأمته الحامدون، يكبرون الله عز وجل على كل نجد[١]، ويحمدونه في كل منزلة، ويتأزرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادي في جو السماء، صفهم في القتال وصفهم في الصلاة سواء، لهم بالليل دوي كدوي النحل، ومولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام»[٢].

ويقول علماؤنا في هذا السياق: إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون وشهدوا بصدق نبوته ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته[٣] وأطواره، وسَمته[٤]. غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه ـ من نسخهم الأخيرة ـ إلا أن ذلك لم يجدهم نفعاً، لبقاء الصفات التي اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة، وهي أظهر دلالة من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان في اسم، ويمتنع اشتراك اثنين في جميع الأوصاف[٥].

ـ وكان موضوع **الكتب السماوية**، من المواضيع التي أولاها الوحي أهمية باعتبارها الحاملة لمضمون الرسالة. فتوجه القرآن الكريم إلى إبراز حقيقتين:

الأولى: التركيز على مسألة التحريف، وعرض مظاهر الاختلاف الكثيرة الدالة على تعرض التوراة والإنجيل للتبديل حتى اختفت أغلب معالم

---

(١) **النجد**: ما ارتفع من الأرض. ينظر «مختار الصحاح»: ٦٠٢.

(٢) «سنن الدارمي»: ١/ ٤ ـ ٥. باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه.

(٣) «**حِلية الرجل**: صفته». «مختار الصحاح»: ١٥٧.

(٤) «**السَّمت**: الطريق، وهو أيضاً هيئة أهل الخير». «مختار الصحاح»: ٣٠٠.

(٥) ينظر «الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه» الكتاب الثالث: ١٨.

الحق فيها، مع التنبيه على ما بقي من ذلك الحق[1].

الثانية: بيان أن القرآن الكريم مهيمن على ما سبق، ومن مظاهر علوه أنه احتفظ بجوهر الرسالات السابقة، بل لقد عرض ـ القرآن الكريم ـ لبعض النصوص الصحيحة من التوراة المنزلة والإنجيل الصحيح.

من ذلك قوله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[2].

ـ كما تم التطرق لموضوع **الإيمان باليوم الآخر** من خلال دحض بعض أقوال أهل الكتاب الباطلة في هذا الباب. كقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾[3].

وقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[4].

هذه عموماً أهم القضايا التي تم تناولها في هذا المحور وهي كما يظهر لم تخرج عن دلالات الكلمة السواء التي دعا القرآن إلى الاجتماع

---

(١) «رحم الله رحمة الله الهندي فقد تناول في الكلام عن أسفار العهدين: العتيق والجديد كل باب من أبوابهما واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم سند متصل لأي كتاب من كتب العهدين، ثم تناول بعد ذلك ما في الكتابين من الاختلاف والأغلاط... ثم عقد باباً خاصاً لإثبات التحريف في كتب العهدين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦، المائدة: ١٣] وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد، وكان يتأتى التحريف أحياناً بزيادة وأحياناً بالنقصان، وأحيان بالتبديل اللفظي. وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهداً، كما ساق على التبديل اللفظي خمسة وثلاثين شاهداً، أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهداً... مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم. «إظهار الحق» مقدمة الكتاب لعمر الدسوقي: ١٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١١.

عليها وجعلها أساساً للمجادلة مع أهل الكتاب.

* محور الشريعة والحياة:

امتدت المجادلة التي تعرض للقضايا المرتبطة بتصور أهل الكتاب من خلال أقوالهم أو ما تضمنته كتبهم لتشمل قضايا الشريعة والحياة.

ويمكن عرض بعض النماذج عبر التقسيم الآتي.

- الجانب الاجتماعي.
- الجانب الاقتصادي.
- الجانب السياسي.

١ ـ الجانب الاجتماعي:

تعرض الوحي لمجموعة من القضايا المرتبطة بالسلوك الاجتماعي لأهل الكتاب. من ذلك مسألة السحر، فقد تناول القرآن الكريم ذلك في مثل قوله تعالى.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾[١].

فأبطل الله عز وجل ما كانت تدعيه يهود من أن أصل السحر ورثوه عن نبي الله سليمان.

ودحض كل القضايا المرتبط بهذه المسألة[٢] وما تزال كتبهم تضمن حديثاً مطولاً عن السحر خاصة في كتابهم التلمود الذي يضم فصولاً تعرض لهذا الجانب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) ينظر: ص: ١٩٧.

٢ـ الجانب الاقتصادي:

نبه الوحي على تعامل أهل الكتاب بالربا رغم أن الله عز وجل أنزل عليهم تحريمه.

قال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾[1].

كما فضح تعاملهم بالغش مع غير اليهود، اعتماداً على تصورهم القائم على أن الأميين ليسوا إلا خدماً لليهود قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[2].

ولم يكتفوا بسوء معاملتهم للناس، بل تحايلوا على أمر الله عز وجل، وهذا ما تعرض له الوحي في بيانه لحكم بيع الشحم. فقد روي أن اليهود لما حرم عليهم أكلها أذابوها ثم باعوها فأكلوا ثمنها[3]، وهذا منهم تحايل على حكم الله.

٣ ـ الجانب السياسي:

كان الوحي حريصاً على إبطال الأحكام التي لم ينزل الله بها من سلطان، وبيان أن الناس أمام حكم الله سواء وهذا ما تعرض له قصة اليهودي الذي زنا. فقد روى مسلم عن البراء بن عازب (ت. **٧٢هـ**) قال مر على النبي ﷺ بيهودي محمماً[4] مجلوداً. فدعاهم ﷺ فقال: «**هكذا تجدون حد الزنا في كتابكم؟**» قالوا: نعم. فدعا رجل من علمائهم. فقال: «**أنشدك**

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الخمر والميتة. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٦/١١.

(٤) **محمما**: أي مسود الوجه، من الحممة: الفحمة. وحممه تحميماً سخم وجهه بالفحم. ينظر «مختار الصحاح»: ١٦١.

الله الذي أنزل التوراة على موسى! أهكذا تجدون حد الزنا في كتابكم؟» قال: لا. ولولا أنك ناشدتني بهذا لم أخبرك. نجده الرجم. ولكنه كثير في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع. فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أول من أحيي أمرك إذ أماتوه**». فأمر به فرجم. فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾[2]»[3].

والقصة تبين كذلك حالة التمييز بين فئة المستضعفين وفئة الشرفاء المستكبرين.

وتعرض الوحي لقضية تغيير المنكر وتواطىء أهل الكتاب على انتهاك حرمات الله، من خلال سكوتهم على البغاة المعتدين.

قال تعالى:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾[4].

عن عبد الله بن مسعود (ت. ٣٢هـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم** ـ قال يزيد: أحسبه قال: وأسواقهم ـ **وآكلوهم وشاربوهم. فضرب**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤١.

(٢) نفسها.

(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الحدود، باب رجم اليهود. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١١/ ١٧٣.

(٤) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم بما عصوا وكانوا يعتدون»[1].

هذه إذن بعض النماذج للقضايا التي شملتها المجادلة مع أهل الكتاب، والقاسم المشترك بينها أنها تتأسس على أقوال لأهل الكتاب جرت على ألسنتهم فعرفوا بها أو أفكار ضمنوها كتبهم فهم لا يعتقدون غيرها.

وكان هدف الوحي في هذه المجادلة الكشف عما خفي من هذه القضايا ثم بيان بطلانها وعرض وجه الحق فيها.

وكما يظهر، فقد اتسعت هذه المجادلة لتشمل قضايا العقيدة والحياة. ولم تحد عن مقتضيات الكلمة السواء. فهي إذن وجه آخر للمجادلة على أساس الكلمة السواء.

وهكذا يتبين أن المجادلة من منطلق السؤال، أو من خلال الرد على التصورات المنحرفة لأهل الكتاب، ما هي إلا صور للاجتماع على الكلمة السواء - التي جعلها النص القرآني، والبيان النبوي أساساً للمجادلة مع أهل الكتاب.

وبهذا يتضح أن الرد على أهل الكتاب شكل آخر من أشكال المجادلة مع أهل الكتاب، ومجال واسع لعرض كثير من القضايا من خلال الأسئلة التي يطرحها هذا الطرف أو ذاك.

قاعدة في بيان أساس المجادلة:

إن أساس المجادلة مع أهل الكتاب: هو الكلمة السواء، بأبعادها وشمولها لقضايا العقيدة وما يتفرع عنها من أمور الحياة.

وقد تعددت صور المجادلة تبعاً لتنوع أشكال التصريف الواقعي لدلالات الكلمة السواء: فمن المجادلة من منطلق السؤال أو المساءلة، إلى المجادلة من منطلق الرد على الشبهات وعرض التصورات لبيان وجه

(١) أخرجه الترمذي، باب ومن سورة المائدة. ينظر «سنن الترمذي»: ٥/ ٢٥٢.

الانحراف فيها وهذا ما يفرض التجاوب مع هذه القضايا مهما تعددت أشكال عرضها وتناولها.

ويبقى الأصل الذي يحكم هذا الأساس هو أن المجادلة تجري في جميع موارد الاختلاف بين الطرفين.

وهذا يضعنا أمام ضابطين:

الأول: يثبت أن الجانب المتفق عليه في الكلمة السواء يجب توظيفه كأساس مشترك نصدق فيه أهل الكتاب.

الثاني: يرتبط بالجانب المختلف فيه، وهو الأساس الحقيقي للمجادلة.

أما القضايا التي ليس عندنا حكمها فلا مجال لها في موضوع المجادلة.

وهذا ما حاولت إجماله من خلال قواعد هذا الباب:

- **«تجري المجادلة في ما يعتقده أهل الكتاب مما يخالف عقائد المسلمين»**.

فكل أمر اعتقده أهل الكتاب وخالفوا فيه عقائد المسلمين يصح أن يكون موضوعاً للمجادلة.

- **«لا لقاء إلا على الكلمة السواء»**.

والكلمة السواء تشمل قضايا العقيدة وما يتفرع عنها من أمور الحياة.

- **«أجب من سألك»**.

للتنبيه على ضرورة التجاوب مع القضايا المرتبطة بالكلمة السواء مهما تعددت وجوه عرضها، وإمكانية الإعراض إذا ظهر فساد القصد وهو ما عبر عنه علماؤنا بقولهم: **«قد يعدل عن الجواب أصلاً، إذا كان السائل قصده التعنت»**[1]

---

(١) «الإتقان»: ٢/ ٣١٣.

هكذا نخلص إلى أن المجادلة مع أهل الكتاب واسعة النطاق غير محددة. لأن النبي ﷺ كان يخاطب أقواماً يقرون بكتاب ويؤمنون برسول، فكان يلزمهم بما جاء في كتبهم، وينعى عليهم مخالفتهم لما جاءت به رسلهم. وهم كانوا لعلمهم بالكتاب يوجهون أسئلة فيها شيء من الدقة والمعرفة وإن كانوا ضالين[1].

إذن «على أساس ألا مقدسات في ساحة الحوار إلا من خلال الأدلة والبراهين انفتح الإسلام على المسيحية واليهودية... ليدعوهم إلى الحوار، وليقول لهم جميعاً:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]»[3].

وعليه فالكلمة السواء هي موضوع لقائنا مع أهل الكتاب وأساس مجادلتنا لهم لذا وجب التنبيه على ضرورة الإلمام بأبعاد هذه الكلمة والتمكن من التصور الإسلامي للقضايا المرتبطة بها. بل الواجب أيضاً الإلمام بتصور الطرف الكتابي لها لكي تحقق المجادلة غايتها وليكون جدالنا من منطلق العلم الواسع بأرضية المجادلة وموضوعها.

بعد أن اتضحت لنا معالم التصور للقضايا المرتبطة بأطراف المجادلة ولموضوع المجادلة وجب بيان البعد الثالث لتصورنا للمجادلة مع أهل الكتاب من خلال الوقوف على حقيقة وطبيعة أسلوب المجادلة. وسيكون مدخلنا لهذا الأمر السؤال الآتي: **كيف نجادل أهل الكتاب؟ أو بأي أسلوب نجادل أهل الكتاب؟**

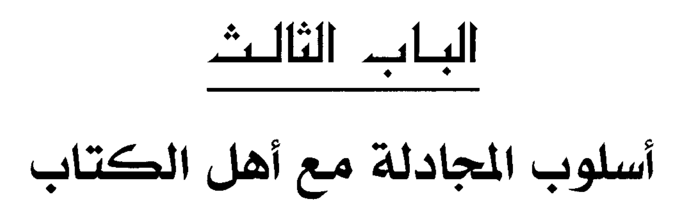
وهذا ما سأعرض له بالدراسة والبيان في الباب الموالي.

---

(١) ينظر «أصول الجدل وآداب المحاجة»: ١٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٣) «في آفاق الحوار»: ٢٩.



الباب الثالث

أسلوب المجادلة مع أهل الكتاب

ويشتمل على:

تمهيد.

مقدمة.

الفصل الأول : أسلوب المجادلة بالحكمة.

الفصل الثاني : المجادلة بالموعظة الحسنة.

تمهيد:

إذا كان سؤال: من يجادل من؟ قد وقف بنا على المعرفة الواجبة بطرفي المجادلة.

وإذا كان سؤال: ما هي أسس المجادلة؟ قد حدد لنا الموضوعات التي يمكن أن يشملها الجدل. فإن سؤال كيف نجادل؟ يبحث في الطرق التي يقتدر بها على ترتيب البحث بين طرفي المجادلة على وجه الصواب، حتى يظهر الحق في الموضوع المختلف فيه[(١)].

إننا نسلم بأهمية معرفة المجادل المسلم بقضايا المجادلة وشخصية المجادل، لكن في نفس الوقت نعتبر أن معرفته بكيفية عرضه لهذه المواضيع أهم. لأنه «لا يكفي أن يعلم ما ينبغي أن يقول بل يجب أن يقوله كما ينبغي»[(٢)].

ثم إن الإنسان ينفعل بالسلب أو الإيجاب مع الأسلوب والقالب الذي تعرض فيه القضايا «فقد يطلب من المرء أمر فلا يستجيب له، ثم يطلب منه هذا الأمر نفسه بأسلوب آخر فإذا هو يستجيب، لأن الأسلوب الآخر يحمل إثارة لمشاعره، بأي صورة تلائم هذه المشاعر»[(٣)].

---

(١) راجع مفهوم الجدل ضمن مفاهيم هذه الرسالة. وينظر «موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة»: ٩٣٧.

(٢) «أسلوب الدعوة القرآنية، بلاغة ومنهاجاً»: ١٨. نقلاً عن «الخطابة» لأرسطو: ١٤٠٣.

(٣) «أسلوب المحاورة في القرآن الكريم» د. عبد الحليم حفني: ٤٤.

«إن الناس ليسوا في حاجة إلى ملة جديدة لكنهم في حاجة إلى عرض جديد»[1].

فلا بد إذن من أن «نعيد النظر في الطرق التي نعرض بها ديننا أو التي ندفع بها عنه»[2].

لذا وجب الوقوف عند أبعاد أسلوب المجادلة مع أهل الكتاب.

ولن نبالغ إذا قلنا إن بيان أسلوب المجادلة، هو الركن المهم في عملية المجادلة، إذ إنه يقف بنا على الخطوات العملية للجدل ، ويحدد لنا المسار الذي ستسلكه المجادلة لتحقق غاياتها.

كما أن الحديث عن أسلوب المجادلة يقدم لنا المعرفة بطبيعة الخطاب وأنواع الأدلة وطرق الاستدلال... وهي جوانب أساسية في عملية المجادلة، إذ للكلمة والتعبير وأسلوب التخاطب انعكاس مباشر على نتائج العمل.

ويبقى سؤال «الكيف»؟ السؤال المحوري في كل قضية[3].

لهذه الاعتبارات اخترت التفصيل في أسلوب المجادلة مع أهل الكتاب من خلال التصميم الآتي:

مقدمة: أعرض فيها لأسلوب المجادلة بالتي هي أحسن من خلال الوقوف عند مفهوم الأسلوب، ودلالات «التي هي أحسن».

الفصل الأول: أسلوب المجادلة بالحكمة. وذلك بالتعريف بهذا

---

(١) ينظر «نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية: ٢٧٧.

(٢) مستقبل الإسلام خارج أرضه، ماذا أعددنا له؟: ٩٠.

(٣) سؤال الكيف يرسم المسار ويقف بك على أول خطوة في الطريق، والتي تليها... حتى تصل الهدف وتحقق الغاية. لذا كان الوقوف عنده أساسياً لمن يبحث عن التصور الشامل لأي قضية.

الأسلوب، والوقوف عند أهيمته، وبيان مقتضياته.

الفصل الثاني: أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة. من خلال التعريف به، وبيان أهميته، والوقوف عند مقتضياته.

قاعدة في بيان أسلوب المجادلة: أعرضها في شكل ثنائيات تضبط ما سبق، وتقدم المعالم الكبرى لأسلوب المجادلة مع أهل الكتاب.



مقدمة:

أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن

للحديث عن أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، لا بد من الوقوف عند مفهوم الأسلوب، ثم بيان دلالات المجادلة بالتي هي أحسن.

وهكذا يترسم أمامنا التصميم الأتي:

١ ـ مفهوم الأسلوب.

٢ ـ دلالات المجادلة بالتي هي أحسن.

١ـ مفهوم الأسلوب:

لكي ينبني تحديدنا لمفهوم الأسلوب على أساس متين، يحسن الانطلاق من المعاني الموضوعة لهذه اللفظة في اللغة.

(أ) الأسلوب لغة:

يمكن حصر المعاني اللغوية التي وضعت لها لفظة «أسلوب» في معنيين:

الأول ـ الطريق:

قال ابن منظور (ت. ٧١١هـ): «يقال للسّطر من النخيل: أُسلوب. وكل طريق ممتد، فهو أسلوب. قال: والأسلوب الطّريق، والوجه،

والمذهب. يقال: أنتم في أُسلوب سوء ويُجمع أساليب، والأسلوب الطريق تأخذ فيه»[1].

وإلى هذا المعنى أشار الإمام الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ) بقوله: «وسَلكت أُسلوب فلان: طريقته»[2].

الثاني ـ الفن:

جاء في لسان العرب: «والأسلوب ـ بالضم ـ: الفن؛ يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه»[3].

قال الراغب الأصفهاني (ت. ٥٠٣هـ): «والأساليب الفنون المختلفة»[4].

وقد أجمل الفيومي (ت. ٧٧٠هـ) الكلام بقوله: «الأسلوب ـ بضم الهمزة ـ الطريق والفن، وهو على أسلوب من أساليب القوم، أي على طريق من طرقهم»[5].

هكذا نخلص إلى أن الأسلوب في اللغة يدل على معنى **الطريق والفن**.

ويرى بعض الدارسين[6] أن المعنى الأول الذي تفيده كلمة أسلوب يمثل القسم الحسي كسطر النخيل، والطريق الممتد أو المسلوك، فالأسلوب بهذا المعنى: خطة يسلكها السائر.

---

(١) «لسان العرب»: ٤٧٣.

(٢) «أساس البلاغة»: ٣٠٤.

(٣) «لسان العرب»: ٤٧٣.

(٤) «معجم مفردات ألفاظ القرآن: «٢٦٧، قلت يصح الاستدلال بهذا النقل إذا جاز جمع أسلوب على أساليب.

(٥) «كتاب المصباح المنير» تأليف الفيومي: ١٠٧.

(٦) «الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية». أحمد الشايب: ٤١.

أما المعنى الثاني فهو يمثل القسم المعنوي للكلمة، وذلك حين تنتقل الكلمات من معانيها الحسية إلى معانيها الأدبية أو النفسية، وحينئذ نتحدث عن الفن من القول أو الوجه والمذهب في بعض الأحيان.

(ب) الأسلوب في اصطلاح أهل الصناعات:

الأسلوب عند الأدباء هو «الطريقة المختارة للتعبير عن المعنى»[١].

ولا يخفى أن هذا التعريف يرتبط بمقام المخاطبة والقول باللسان.

أما في مجال الكتابة: «فالأسلوب هو طريقة الكاتب التي ينتهجها، سالكاً بها نحو الكتابة صياغة وتعبيراً»[٢].

وعموماً فالأسلوب «طريق أداء المعاني وتشكيلها أو نظمها بحسب مقتضيات الأحوال»[٣].

وعند البلاغيين يعتبر الأسلوب قسماً من علم البلاغة: يَدرس القواعد التي إذا اتبعت كان التعبير بليغاً أي واضحاً مؤثراً؛ فتدرس الكلمة والصورة والجملة والفقرة والعبارة والأسلوب، من حيث أنواعه وعناصره وصفاته وموسيقاه[٤].

ويُعرّف الأسلوب عند الدارسين لعلم الأسلوب بكونه: «مظهر القول الذي ينجم عن اختيار وسائل التعبير. هذه الوسائل التي تحددها طبيعة

---

(١) «البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني»: ٤٨٩.

(٢) «الكتاب والإبداع». عبد الفتاح أحمد أبو زايدة: ١٧.

(٣) «أساليب البيان والصورة القرآنية، دراسة تحليلية لعلم البيان». د. محمد إبراهيم شادي: ٥. وهذا التعريف فصله أحمد الشايب بقوله: «الأسلوب طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النظم والطريقة فيه». «الأسلوب»: ٤٤.

(٤) ينظر «الأسلوب»: ٨٧.

ومقاصد الشخص المتكلم أو الكاتب»[١].

ويعتبر د. سعد مصلوح الأسلوب «استعمالاً خاصاً للغة يقوم على استخدام عدد من الإمكانات والاحتمالات المتاحة، والتأكيد عليها في مقابل إمكانات واحتمالات أخرى، وأن الوسيلة الأساسية لتمييزه إنما هي المقارنة سواء أكانت مقارنة صريحة أو ضمنية»[٢].

تتقاطع هذه التعاريف الاصطلاحية التي أعطيت للأسلوب في مجال علوم الأدب مع باقي العلوم والفنون في كون الأسلوب **طريقة في الأداء والتعبير** «لأن الفنون الأخرى لها طرق في التعبير يعرفها الفنيون، ويتخذون وسائلها أو عناصرها من الألحان والأحجار، وكذلك العلماء لهم رموزهم ومصطلحاتهم، ومناهجهم في البحث والأداء»[٣].

(ج) الأسلوب طريقة وفن:

رغم قبولنا بخلاصة التعاريف الاصطلاحية التي أعطيت للأسلوب في كونه طريقة في الأداء والتعبير، إلا أننا نفضل استعمال هذه الكلمة لا للدلالة على طريقة الأداء والتعبير فحسب بل بمعنى **فن الأداء والتعبير**. والفرق بين التعريفين لا يقتصر على استبدال لفظ «طريقة» بلفظ «فن» بل الأمر أعمق من ذلك، لأن عبارة «فن الأداء والتعبير» زيادة على تضمنها لمعنى طريقة الأداء والتعبير، تعبر عن طريقة خاصة للأداء. وخصوصيتها تحتم على المتفنن: اختيار الطريقة المثلى في الأداء والتعبير التي تناسب المقال وتراعي مقتضى الحال.

وإلى هذا الفرق الدقيق بين الفن والطريقة نبه الراغب عند تعريفه للفن

---

(١) «علم الأسلوب». صلاح فضل: ١١، هذا التعريف قدمه «جيروا» تلميذ «بالي» أحد أقطاب الدراسات في علم الأسلوب.

(٢) الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية: ٣٣.

(٣) «الأسلوب» أحمد الشايب: ٤٤.

بقوله: «فن: الفَنن الغصن الغضّ الورِق وجمعه أفنان، ويقال ذلك للنوع من الشيء وجمعه فُنون»[1].

فعبارة «فن الأداء والتعبير» توحي باختيار نوع خاص من طرق الأداء والتعبير. هذا الاختيار يحتمه تغير الحال والمقام.

قال الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ) ـ منبهاً على ما تحمله كلمة «فن» من معاني التغير في الخطاب بحسب الدواعي ـ: «وفنّن فلان رأيه: لَونه ولم يستقم على واحد»[2].

وهكذا نصل إلى أن الأسلوب «**فن الأداء**».

تأسيساً على ما سبق نستطيع أن ندرك أبعاد العنوان الذي اخترته لهذا الباب؛ إننا بصدد الحديث لا على طرق المجادلة مع أهل الكتاب فقط بل على فن المجادلة مع أهل الكتاب. بتعبير آخر: سأحاول في هذا الباب اكتشاف القواعد والضوابط التي تمكن من معرفة حدود الممكن وغير الممكن في طريقة عرضنا لقضايا المجادلة مع أهل الكتاب.

(د) الأسلوب والوسيلة:

يحسن بنا في ختام كلامنا عن مفهوم الأسلوب أن نبين حدود العلاقة بينه وبين الوسيلة.

الوسيلة من وَسَل، يقال: «وَسَل لي [و] إليه وسيلة ووسائل: وأنا متوسّل إليه بكذا وواسل، ووسلت إليه، وتوسّلت إلى الله بالعمل: تقربت، قال لبيد (ت. ٤١هـ):

أرى الناس لا يدرون ما قَدر أمرهم ... بلى كل ذي دين إلى الله وَاسل»[3]

---

(١) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٣٢.

(٢) «أساس البلاغة»: ٤٨٣.

(٣) «أساس البلاغة»: ٦٧٥.

وأصل الوسيلة «التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[1]»[2].

فالأسلوب إذن أعم ـ في الدلالة ـ من الوسيلة. وإن شئت قلت: إن الوسيلة هي التنزيل الواقعي للأسلوب، فأنت عندما تضع أسلوباً للمجادلة مثلاً، فإنك تحدد الطريقة الفنية لأداء عملية المجادلة. وعندما تمارس عملية المجادلة ـ حسب الأسلوب المختار سلفاً ـ فإنك تتوصل إليه بتعيين أفضل الوسائل وأقربها إلى تحقيق الغايات المرجوة. فالأسلوب هو المعيار المعتمد لاختيار الوسيلة المناسبة.

في ظلال هذه المعاني يحق لنا أن نجعل مفتاح تناولنا لقضايا هذا الباب: السؤال الآتي: ما هي معالم أسلوب المجادلة القرآنية والنبوية مع أهل الكتاب؟.

٢ ـ دلالات المجادلة بالتي هي أحسن

(أ) الأهداف تحدد الأساليب:

من المسلم به في علوم التربية: أن وضع الهدف يعين على تحديد الأسلوب.

ونحن إذ نروم معرفة الأسلوب القرآني في المجادلة مع أهل الكتاب، لا بد لنا أولاً من استحضار طبيعة هذه المجادلة وأهدافها.

ولعل من أبرز خصائص المجادلة في القرآن أنها مجادلة قاصدة[3]؛

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٢) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥٩٦.

(٣) الاقتصاد في لغة القرآن معناه الاستقامة على الطريق بين طرفي الإفراط والتفريط، ويتضمن معنى الاعتدال والتوسط، وفي الاستعمال اللغوي تفيد الكلمة السير في الطريق بمواظبة وبدون انقطاع، وتفيد الصمود إلى الهدف المنشود، تقول العرب أقصد السهم إذا أصاب وقتل مكانه، راجع «معجم مفردات ألفاظ القرآن» مادة «قصد»: =

بمعنى أن لها أهدافاً يسعى المجادل إلى تحقيقها.

وقد مر معنا ـ في الفصل السابق ـ أن غاية المجادلة؛ إسماع الفطرة، ويشهد لهذا قوله تعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢).

ويؤكد ذلك، قوله ﷺ في وصيته لمعاذ (ت. ١٨هـ) لما أراد أن يبعثه إلى أهل الكتاب: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى ـ ثم ذكر بقية الحديث ـ**»(٣).

وقد أوصى الله عز وجل بإسماع القرآن ـ وهو كلام الله الذي يهدي للتي هي أقوم ـ لكل من جاء طالباً للمجادلة، طالباً للحقيقة:

قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ﴾(٤).

بيان الحق، ورد العقول إلى ما تقتضيه الحجة جسده المصطفى ﷺ في دعوته لأهل الكتاب إلى الكلمة السواء؛ كلمة الاستسلام لله عز وجل

= ٤٥١ و٤٥٢، وكذا «أساس البلاغة»: ٥٠٩.

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد الباب الأول رقم الحديث ٧٣٧١. ينظر «الفتح»: ١٥/ ٢٩٤.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٦.

ومحاربة كل طاغوت يأمر بغير ما أنزل الله عز وجل.

وموقف ربعي بن عامر نموذج حي ماثل، إذ قال على بساط رستم (ت. ١٤هـ): «نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[١].

وإذا كنا قد أمرنا بدعوة أهله الكتاب للرجوع إلى الكلمة السواء، فإن الأمر الإلٰهي صريح في جعل الاستجابة لهذا النداء تنبعث من الأعماق، لهذا نهى الله تعالى عن الإكراه في الدين: قال الله عز وجل:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ[٢] قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[٣].

وقال عز من قائل: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[٤].

فليس في الدين من أنواع الإكراه جميعاً شيء[٥].

وكيف تَفرِض على الخلائق بالضغط الخارجي إخلاصاً هو شرط أن يكون الدين عند الله ديناً[٦]، والإسلام إسلاماً.

---

(١) «البداية والنهاية»: ٣٩/٧.

(٢) «﴿لَآ﴾ هنا نافية، وليست ناهية، أي أنها لا تعني: لا تكره الناس في الدين ولكنها تعني: لا يكتمل الدين، بل إنه لا يكون أصلاً بالإكراه». «مقدمة إلى الحوار الإسلامي - المسيحي»: ١٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٥) «البيان في روائع القرآن»: ٤٩٤.

(٦) الدين لغة الانقياد، فالدين عند الله انقياد، واستجابة مخلصة وطاعة مبدئية لله ورسوله ﷺ، تصدقها طاعات وتكاليف ووقوف عند حدود ومسؤوليات. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٩٦ ـ ٩٧، و«أساس البلاغة»: ٢٠٠.

لا إكراه في الدين[1] «لأن الاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار»[2].

فالإسلام لا يَعتدّ بالإيمان الناتج عن إكراه أو شدة أو في حالات اليأس... ولا يعتد إلا بالإيمان الحاصل عن قناعة وتدبر[3].

وإذا كنا نؤمن بأن عدم الإكراه في الدين فيه تكريم إلٰهي للإنسان واحترام لإرادته وفكره ومشاعره، فإننا في الوقت ذاته ننبه على وجوب بيان الحق[4] حتى يتميز الرشد من الغي[5]، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[6].

إن المجادلة القرآنية بيان للحق «لا يشوبها ضغط ولا إكراه، بل هي تعليم وتبصير»[7].

لقد جعل الإسلام من الحرية الكاملة في الاعتقاد، التي تعطي حق المجادلة للوصول إلى القناعات في القبول أو عدمه، دربه بالأمس واليوم

---

(١) لا إكراه في الدين، لكن حمل النفس على ما تكره من الدين.

(٢) «الميزان»: ٢/ ٣٤٢.

(٣) ينظر «أصول العلاقات الدولية في الإسلام» لعمر أحمد الفرجاني: ٤٢.

(٤) «البيان: هو تبين الحق، وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمرئيات، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحداً، ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾ [التوبة: ١١٥]». «تهذيب مدارج السالكين»: ٤٧ ـ ٤٨.

(٥) ينظر «هذه حياتي»: ١٢. قال ابن الأثير: «وإرشاد الضال بدايته الطريقة المستقيمة وتعريفه بها». «النهاية»: ٢/ ٢٢٥. وينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢٠١. و«نظرة النعيم»: ٢/ ١٧١.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٧) «الجدل في القرآن الكريم فعاليته في بناء العقلية الإسلامية» لمحمد التومي: ٦٩.

وغدا لقبول الأتباع الجدد[1].

إذا اتضح أن هدف المجادلة القرآنية هو بيان الحق في الموضوع المختلف فيه ـ تحقيقاً للبلاغ المبين الذي ينبني على اختيار لا إكراه فيه ـ علمنا لماذا دعا القرآن الكريم المجادل المسلم إلى سلوك التي هي أحسن في مجادلته لأهل الكتاب.

(ب) المجادلة بالتي هي أحسن:

قال تعالى:

﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[2].

ذلك لأن المسلم المجادل يريد أن يبلغ ما معه من الحق. فأفضل أسلوب لتحقيق ذلك هو أسلوب التي هي أحسن.

«إن الأصل في الجدل القرآني أن يكون بالتي هي أحسن، والقرآن يستخدم الجدل كوسيلة من وسائل الإقناع ـ بالحجة والبرهان ـ في إثبات الحق وإزهاق الباطل»[3].

وعبارة التي هي أحسن لا تتحقق فقط في اتباع أفضل الأساليب وأحسنها لإقناع الخصم بالفكرة التي تدور عليها المجادلة «بل في الملاحقة الجادة والواعية لمختلف الأساليب المطروحة، ليختار منها المحاور المسلم الأفضل سواء في الكلمات التي يستخدمها، والمعاني التي يعبر عنها»[4].

إن القرآن الكريم وهو يدعو إلى الأسلوب الأحسن الذي يُسهِّل على الآخرين طريقة فهم الفكرة، وطريقة التجاوب معها، لم يحدد مصداق:

---

(١) ينظر «الحوار دائماً وحوار مع مستشرق» للدكتور شوقي أبو خليل: ٥٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٣) «مناهج الجدل في القرآن الكريم». الدكتور زاهر عواض الألمعي: ٤١٨.

(٤) «في آفاق الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ١٨.

﴿ٱلَّتِي﴾ ليدل بذلك على شمولها للكلمة والأسلوب والجو و«كل ما يشارك في احتواء الإنسان الآخر إلى فكرك فاستعمله مع أهل الكتاب، حتى يشعروا أن الحوار هو حوار من موقع الصداقة التي لا تريد أن تجامل، ولكنها تريد أن تتحرك من موقع أن تحول صداقة المشاعر إلى صداقة الفكر، وإلى صداقة الحقيقة»[1].

ويؤكد الدارسون أن عبارة «التي هي أحسن» تشمل بعمومها الأساليب الفكرية والقولية، «وبهذا يتبين لنا أن المطلوب من المسلم ـ المحاور ـ أن يكون في مجادلته أرقى وأحسن باستمرار من الحالة التي يكون عليها من يجادله، أدباً وتهذيباً، وقولاً وفكراً»[2].

وزيادة على كون أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، هو الأنسب مع طبيعة وأهداف المجادلة في القرآن، فإن ثمة حكماً تجعل التي هي أحسن، هي الاختيار المطلوب في المجادلة. وإلى هذه الحكم أشار بعض المفسرين والدارسين:

ـ قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ) ـ بعد أن ذكر أن آية المجادلة بالتي هي أحسن باقية محكمة لمن أراد الاستبصار من أهل الكتاب في الدين ـ: «فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أبلغ فيه»[3].

ـ وقال سيد طنطاوي: «ومعنى الآية الكريمة، عليكم يا معشر المسلمين ألا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأقومها، وهي أن تكون محاجتكم لهم بالرفق واللين، لا بالخشونة والإغلاظ عليهم، لأنهما يؤديان إلى المعاندة والصد عن سبيل الله. أما

---

(١) المرجع السابق: ١٩٨.

(٢) «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة»: ٣٦٤. وينظر أيضاً: «الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية». الدكتور يوسف عيد: ٢٠٤.

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٣٨٣.

الرفق واللين فمن شأنهما أن يعينا على المسالمة والمصافاة»[1].

- والتي هي أحسن أنفع في المجادلة لأنها تسكن ثورة المعاندين، وتبين شغبهم[2].

ويرى سعيد حوى أن الحكمة في تقييد المجادلة مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن يكمن في كون «الجدال غالباً ما ترافقه إثارة»[3].

ثم إن أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن هو أسلوب الأنبياء مع أقوامهم: «فلو قابلهم الأنبياء بالغلظة لنفرت طباعهم، وانصرفت عقولهم عن التسديد لما قالوا، والتدبر لما جاءوا به من البينات، فلم تتضح لهم المحجة، ولم تقم عليهم الحجة»[4].

هذه الحكم المشار إليها في هذه النصوص - وغيرها - تبين أن «الجدال بالتي هي أحسن وإقناع الناس بالكملة الطيبة، وإبانة الحق بالهدوء والحجة الظاهرة، وإثباته وتركيزه بالأدلة القاطعة مبدأ عام ومنهج دائم لا يقبل الإسلام تعطيله، ولا التفريط فيه كلما كانت هناك دعوات ومناظرات ومحاورات»[5].

وطبيعي أن يجعل الإسلام من «التي هي أحسن» شعاراً يدعو المسلمين إلى تمثله. قال تعالى:

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[6].

---

(١) «بنو إسرائيل في القرآن والسنة»: ١٢١. وينظر «أوضح البيان في شرح مفردات وجمل القرآن» إعداد محمد كريم راجح: ٣٣٦.

(٢) «التفسير المنير»: ١٤/ ٢٦٧.

(٣) «الأساس في التفسير» سعيد حوى: ٦/ ٣٠٠٩.

(٤) «كتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم»: ٢٨ - ٣٠. وينظر في نفس السياق «الجدل في القرآن». الدكتور حسن الشرقاوي: ٨.

(٥) «الجدل في القرآن». محمد التومي: ٣٠.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

وفي هذا أمر بحسن المعاشرة، وحسن القول مع الناس: كافرهم ومؤمنهم[١]. بل إن القرآن الكريم يحث على الدفع بالتي هي أحسن حتى في بعض حالات الإساءة.

قال عز من قائل:

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[٢].

«بمعنى أن المعتدي ارتكب سيئة بعدوانه عليك، فكن أنت في جانب الحسنة، لأنك حينما تعاقبه تكونان مستويين ولو في ظاهر الوضع؛ هو اعتدى وأنت رددت له الاعتداء. فإذا أردت أن ترفع نفسك عن مستواه إلى مستوى الحسنة فعليك بالعفو بل إن أردت مرتبة عليا فعليك بالإحسان، وهو أن تقدم إليه الحسنة والمعروف زيادة عن العفو»[٣].

والقرآن وهو يختار أسلوب الدفع بالتي هي أحسن «يشير إلى نتائجه الإيجابيه التي تتمثل في تحويل الأعداء إلى أصدقاء يحملون الفكر ذاته ويتحمسون له، ويعملون به»[٤].

وهكذا يتبين أن القرآن ـ في دعوته إلى المجادلة بالتي هي أحسن ـ قد «زود الأمة بالمنهج الأقوم الذي يجب على المسلمين سلوكه في كل زمان ومكان، في كل موضوع يطرح، وفي كل حادثة تجد، مع أي فريق، داخلياً

---

(١) «الميزان»: ١/ ٢١٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٣) ينظر: «إنصاف الخصم في القرآن»: ٣٢.
إن الأمر بالتي هي أحسن في مجادلة أهل الكتاب، جاء في سياق سورة تتحدث في محورها الرئيسي عن الامتحان، وذلك يفيد أن علينا ألا نتخلى عن آدابنا في كل الظروف، ومن ذلك طريقة خطابنا لأهل الكتاب في المحنة وفيما قبلها، وفيما بعدها. ينظر «الأساس في التفسير»: ٨/ ٤٢١٦.

(٤) «في آفاق الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ١٧.

كان أو خارجياً»[1].

«فالمسلم مطالب بأن يلتزم في مجادلته ـ لإثبات الحق الذي يؤمن به، وإقناع الناس به ـ الخطة التي هي أحسن من كل خطة يمكن أن يتخذها الناس في مجادلاتهم»[2].

(ج) المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة:

بعد هذه الخلاصات التي أوقفتنا على دلالات المجادلة بالتي هي أحسن، وأهمية أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن. يحق لنا الآن أن ننبه ـ ونحن نسعى في هذا الباب لاكتشاف قواعد وضوابط تصلح معالم لأسلوب المجادلة مع أهل الكتاب ـ على أنه بالرغم مما قيل في تحديد دلالات المجادلة بالتي هي أحسن، تبقى العبارة عامة وشاملة، يندرج تحتها الكثير من المعاني. فيه تعميم لا يخدم الدقة التي نريد.

مما يدفع إلى محاولة حصر هذه المعاني في كليات تساعد على استيعاب كل تلك الدلالات، وفي نفس الوقت تصنفها وفق مقاسات دقيقة. وبعد تفكير وتدبر، يسر المولى الكريم الخلوص إلى نتيجة نحسبها نافعة إن شاء الله تعالى.

ويمكن صياغة النتيجة على النحو الآتي:

إذا كانت الدعوة والمجادلة تهدفان إلى رد الناس إلى الحق رداً جميلاً، فلا شك أن أساليب الدعوة في عمومها تصلح أساليب للمجادلة.

وعليه فإن قوله تعالى[3]:

---

(١) «الجدل في القرآن». محمد التومي: ٢٨.

(٢) «ضوابط المعرفة»: ٣٦٧.

(٣) الذي يبرز معالم أسلوب الدعوة ويحصرها في أسلوب الدعوة بالحكمة وأسلوب الدعوة بالموعظة الحسنة.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1].

يصلح بياناً وتفسيراً للتي هي أحسن التي أمرنا بها كأسلوب في المجادلة.

بتعبير آخر إذا كانت ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[2] تدلنا على اللين في القول وعلى الصدع بالحق بقوة، فإن ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[3] تعطينا الخط والمسار والغاية لكيلا ندور حول المقصود ونحور.

ومن ثم يتبين أن الأسلوب الذي أمرنا بسلوكه في جدالنا لأهل الكتاب هو أسلوب التي هي أحسن: أي بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهذا الذي خلصنا إليه أشار إليه بعض الدارسين:

يقول المستشار إسماعيل حامد خليل: «لم يخرج الإسلام في دعوته لأهل الكتاب عن أسلوب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة»[4].

كما أن قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[5] يفيد: «فضيلة الجدل والنقاش بالأسلوب الحسن وبالحكمة والموعظة الحسنة، فذلك أدعى عند العقلاء إلى توفير القناعة والوصول إلى الإيمان، وتحقيق المقصود»[6].

ثم إن «استتباع امتلاك الحكمة كشرط من شروط الحوار الناجح، يفترض امتلاك الملائم لتسويق الفكرة، وتقديمها بصورة مقنعة، وهذا ما عبر

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) الآية السابقة.

(٤) «الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة»: ٣٢.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٦) «التفسير المنير»: ج ٢١/١١.

عنه تعالى: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[1]»[2].

والنتيجة التي يمكن أن نسجلها بعد هذا البيان: أن «التي هي أحسن» هي الوصف العام لأسلوب المجادلة مع أهل الكتاب. والحكمة والموعظة الحسنة هي التجسيد الفعلي لها.

ونستطيع الآن أن نتبين بعض عناصر الإجابة على السؤال الذي بدأنا به هذا الباب والمتمثل في ماهية الأسلوب القرآني والنبوي في المجادلة مع أهل الكتاب. والإجابة التي يمكن تقديمها لحد الآن هي: أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، وبتعبير أدق: المجادلة بالحكمة والمجادلة بالموعظة الحسنة[3].

وإتماماً للإجابة، نطرح سؤالاً آخر: ما هي دلالات وأبعاد أسلوب المجادلة بالحكمة، والمجادلة بالموعظة الحسنة؟

وهذا ما سأحاول بيانه في الفصلين المواليين.



---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) «الحوار والجدل في القرآن الكريم». نجيب نور الدين. مجلة «المنطلق» العدد ١٠٥: ٥٩.

(٣) المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة أسلوب بارز في لقاءاته ﷺ مع أهل الكتاب. ومواقف السلف الصالح في هذا الباب تسير على الخط النبوي. وهذا ما سيتضح جلياً من خلال الوقوف على أبعاد هذا الأسلوب.

الفصل الأول

أسلوب المجادلة بالحكمة

ويشتمل على:

تمهيد.

المبحث الأول : أسلوب المجادلة بالحكمة مفهومه وأهميته.

المبحث الثاني : مقتضيات المجادلة بالحكمة.

تمهيد:

يحرص القرآن الكريم والسنة النبوية على أن تكون الاستجابة لنداء الحق استجابة كلية؛ نابعة من قناعة عقلية، واطمئنان قلبي مصداقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[1].

فلا يستجيب إلا من يسمع الاستماع الكامل، ولا اعتبار باستماع لا يشارك فيه القلب والعقل معاً. قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

إن من لا يسمع السماع القلبي لا يستجيب.

وعليه: فما فائدة المجادلة مع من سلك الكلام في أذنيه ولم ينفذ إلى قلبه؟

إن مهمة إسماع نداء الحق لمن نجادلهم، جليلة يؤكدها الأمر الإلٰهي - خاصة في حق من جاءنا طالباً للحوار - قال عز من قائل:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦.

قال صاحب التحرير والتنوير مشيراً إلى تهمم المجادل بإسماع كلمة الحق: «لما كانت إقامة المشرك المستجير عند النبي عليه الصلاة والسلام، لا تخلو من عرض الإسلام عليه وإسماعه القرآن، سواء كانت استجارة لذلك أم لغرض آخر، لما هو معروف من شأن النبي ﷺ من الحرص على هدي الناس، جعل سماع هذا المستجير القرآن غاية لإقامته الوقتية عند الرسول ﷺ»[(١)].

وقد بين ابن تيمية (ت. ٧٢٨هـ) دلالات هذا الإسماع، وجعل هدفه الإفهام، إذ لا عبرة بكلام لا يفهم المخاطب به معناه ولا مغزاه.

قال رحمه الله: «قد عُلم أن المراد أنه يسمعه سمعاً يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى»[(٢)].

وقد جلى هذه المعاني سيد قطب ـ رحمة الله عليه ـ حين استشف من هذا الإخبار الإلٰهي الذي تضمنته الآية، حرص الإسلام على كل قلب بشري أن يهتدي وأن يتوب «فلا ضير إذن من إعطائهم ـ أي المشركين ـ فرصة سماع القرآن، ومعرفة هذا الدين لعل قلوبهم أن تتفتح وتتلقى وتستجيب»[(٣)]. استجابة عقلية ـ قلبية.

ويقول القرطبي (ت. ٦٧١هـ) معمماً الأفراد الذين يحق لهم الاستماع لكلام الحق وبيان الهدى: «وظاهر الآية يشمل كل من جاء يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام»[(٤)].

فإسماع القرآن، والتعريف بالإسلام، واجب على المسلمين لكل وارد

---

(١) «التحرير والتنوير»: ١٠/١١٨ ـ ١١٩.
(٢) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»: ١/٦٩.
(٣) «الظلال»: ٣/١٦٠٢.
(٤) «الجامع لأحكام القرآن»: ج ٨/٤٩.

علينا، راغب في المجادلة، صادق في طلبه. وإلى هذا نبه الطاهر بن عاشور (ت. ١٣٩٣هـ) حين أشار إلى أن «الآية[1] صيغت بطريقة الشرط لتأكيد حكم الجواب[2]، وللإشارة إلى أن الشأن أن تقع الرغبة في الجوار من جانب المشركين»[3].

رغبة وطلب للحقيقة هو الشرط في من نجادلهم، وإسماع لكلام الله عز وجل من خلال خطاب قوي يبلغ أثره العقل والقلب معاً، هو واجب المجادل المسلم ومهمته.

وتعرض لنا السيرة النبوية العطرة موقفاً نبوياً بليغاً، للاقتداء والاهتداء إنه قصة وفد نجران، الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله عن بعض الأمور، وبعد أن أجابهم رسول الله ﷺ عن أسئلتهم، وقبل أن ينصرفوا أسمعهم شيئاً من القرآن، فتأثر الوفد بكلام الله عز وجل وفاضت أعينهم من الدمع لما عرفوا من الحق[4]. وشاء الله عز وجل أن يخلد هذا المشهد فأنزله قرآناً يتلى.

قال عز من قائل:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾[5].

هذا الأسلوب النبوي في إسماع كلام الله عز وجل، الذي نور عقول نصارى نجران المتعطشة لمعرفة الحق، وبعث الخشية في قلوبهم، ففاضت أعينهم بالدمع، هذا الأسلوب هو نموذج للإسماع المطلوب، وهو بيان

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦].

(٢) وهو تأمين المستجير وإسماعه كلام الله.

(٣) «التحرير والتنوير»: ١٠/ ١١٧.

(٤) «السيرة النبوية»: ٢/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٨٣.

نبوي للأمر الإلهي:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[1].

مجادلة بالتي هي أحسن: «رفقاً وليناً بما يعظ النفوس، ويوقظ القلوب ويجلو العقول»[2].

يقول محمد التومي مبيناً ميزة الخطاب القرآني الذي يتوجه إلى العقل والقلب معاً: «إن الدين إنما جاء ليخاطب الإدراك البشري بكل قواه، يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، وفي هذا تكريم الله للإنسان، واحترام لإرادته وفكره ومشاعره»[3].

وهذه إحدى خصائص الرسالة القرآنية، إذ يتميز النص القرآني والنبوي دون غيره بأنه يرضي العقل والقلب معاً، ويحرك الفكر والمشاعر في نفس الوقت. وهذا ما لم يتأت لأي نص بشري، فهو إما موجه للعقل، وإما موجه للقلب[4].

ومما يؤكد أصالة هذا الأسلوب في الخطاب القرآني: اتساع مجال توظيفه ليشمل قضايا العقيدة أيضاً؛ إذ استعمل القرآن الكريم في عرض الأمور العقدية والاستدلال عليها «لغة وجدانية مؤثرة، تحيط قضايا الإيمان بإطار من الهيبة والجلال، مما يهيىء القلب للتفاعل والتأثر، في الوقت الذي يكون مضمون الخطاب قد أقنع العقل، فيمتزج إقناع العقل، بتأثر القلب، ويثمر ذلك انبعاث الإرادة واستجابتها، وهذا مقصود القرآن»[5].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) «الأساس في التفسير»: ٦/ ٣٠٠٩.

(٣) «الجدل في القرآن» لمحمد التومي: ٦٩.

(٤) ينظر «فنون التبليغ القرآني ونظرياته»: ٢٦١.

(٥) «دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث». توفيق محمد عز الدين: ٤٢.

وقد سخر القرآن الكريم لتحقيق هذا التوازن بين خطاب العقل وإذكاء الوجدان كل الوسائل الممكنة من مشاهد محسوسة، وحوادث منظورة، وقصص مشخصة، ومصائر مصورة، وحقائق مروية. وقد حققت هذه الوسائل أهدافها في إثارة البصائر، وإيقاظ الفطر، وتحريك العقول، وهز المشاعر[1].

وهكذا يتبين أن الخطاب القرآني يسعى إلى تحقيق التأثير المزدوج - وفي آن واحد - في العقل والقلب، وذلك لاعتبارين:

الأول: مراعاة للطبيعة البشرية، فالإنسان عقل وقلب. وهو بهما - لا بأحدهما - إنسان، وكل خطاب يروم تغيير ما بالإنسان لا بد أن يركز فعله واتجاهه إليهما.

الثاني: إن خطاب القرآن موجه إلى إرادة الإنسان، لكونها مصدر الأفعال والأقوال، فكل خطاب لا يتجه إلى الإرادة ليوجهها إنما هو تصريف للطاقة والجهد في غير محله. والإرادة وإن كان محلها القلب إلا أنها تتأثر بعمل العقل والقلب؛ فهي بعبارة موجزة توتر بين العقل والقلب.

ومن ثم اتجه الخطاب القرآني إلى إحداث الانسجام في خطابه للعقل والقلب.

هذا الانسجام[2] يجسده الأمر الإلهي: بالحكمة والمواعظة الحسنة أسلوباً للمجادلة بالتي هي أحسن، قال تعالى:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ

---

(١) ينظر «فنون التبليغ القرآني»: ٣٥.

(٢) استعمل هذه الكلمة للدلالة على ضرورة التأثير المزدوج في القلب والعقل معاً وفي آن واحد، لأن التأثير في الإرادة لا يحصل بخطاب العقل مرة والقلب مرة. إذ الإرادة حبل مشدود بين العقل والقلب.

أَحۡسَنُۚ﴾(1).

وحتى ندرك أبعاد أسلوب المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة، اخترت معالجة المجادلة بالحكمة ـ في هذا الفصل ـ عبر الخطوات الآتية:

ـ **المبحث الأول**: أعرض فيه لمفهوم المجادلة بالحكمة، وأهميته.

ـ **المبحث الثاني**: أبين فيه مقتضيات المجادلة بالحكمة.

وهكذا يترسم أمامنا التصميم الآتي:

ـ **المبحث الأول**: أسلوب المجادلة بالحكمة: مفهومه وأهميته.

ـ **المبحث الثاني**: مقتضيات المجادلة بالحكمة.



(1) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

المبحث الأول

أسلوب المجادلة بالحكمة
مفهومه وأهميته

تمهيد:

أسلوب المجادلة بالحكمة هو الوجه الأول لأسلوب المجادلة بالتي هي أحسن، الذي نص القرآن على التزامه عند مجادلة أهل الكتاب. وللوقوف عند خصائصه، اخترت تناول قضايا هذا المبحث من خلال محورين:

الأول: في مفهوم المجادلة بالحكمة.

الثاني: في أهميته لتحقيق غاية المجادلة بالتي هي أحسن.

وعليه فسيكون تصميم هذا المبحث على الشكل الآتي:

١ـ مفهوم المجادلة بالحكمة.

٢ـ أهمية المجادلة بالحكمة.

١ ـ مفهوم المجادلة بالحكمة

سبق أن تعرضت لمفهوم المجادلة[١]، وسأبين الآن مفهوم الحكمة من خلال الوقوف عند دلالاتها اللغوية، واستعمالاتها الاصطلاحية.

(أ) الحكمة لغة:

الحكمة في اللغة من حَكَم، وحَكم أصله منع منعاً لإصلاح، ومنه سميت اللجام حَكَمة الدابة فقيل حَكَمته وحَكَمت الدابة منعتها بالحكمة، وأحكَمتها جعلت لها حكمة، وكذلك حكمت السفينة وأحكمتها، قال الشاعر:

أبني حنيفة أَحْكِموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا»[٢]

والحكمة ما يمنع من الجهل[٣].

ويقال: رجل مُحكَّم: مجرّب منسوب إلى الحكمة... وأَحْكَمته التجارب: جعلته حكيماً»[٤].

و «الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في قول أو فعل»[٥].

« والحَكيم: المتقن للأمور»[٦]. والحكيم في كلام العرب: المُتقن للعلم الحافظ له، من قولهم: قد أَحْكمت الأمر والعلم إذا أتقنته[٧].

فمدار مادة «ح، ك، م» في اللغة على معاني المنع والإتقان[٨].

---

(١) ينظر مفهوم المجادلة ضمن المفاهيم الأساسية في هذه الرسالة.

(٢) ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٤١ ـ ١٤٢ و«أساس البلاغة»: ١٣٧.

(٣) ينظر «المغرب في ترتيب المعرب»: ١٢٥. و«غريب القرآن» للسجستاني: ١٨٣.

(٤) «أساس البلاغة»: ١٣٧. ينظر «مجمل اللغة»: ج ١/٢٤٦.

(٥) «الجامع لأحكام القرآن»: ج ٣/ ٢١٤.

(٦) «الصحاح»: ج ٥/ ١٩٠١.

(٧) ينظر «الزاهر في معاني كلمات الناس» لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري: ج١/ ٢٠٧.

(٨) ينظر «الميزان»: ٣/ ٢٠.

(ب) الحكمة في الاصطلاح:

روى البخاري (ت. ٢١٠هـ) عن عبد الله بن مسعود (ت. ٣٢هـ) أنه قال: قال النبي ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»[(١)].

قال النووي (ت. ٦٧٦هـ) مبيناً معنى الحكمة في الحديث: «والحكمة كل ما منع من الجهل وزجر عن القبيح»[(٢)].

وعن ابن عباس (ت. ٦٨هـ) قال: ضمني رسول الله ﷺ وقال: «**اللهم علمه الكتاب**»[(٣)].

قال ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ): «وللنسائي والترمذي من طريق عطاء عن ابن عباس قال: «دعا لي رسول الله ﷺ أن أوتى الحكمة مرتين» فيحتمل تعدد الواقعة فيكون المراد بالكتاب القرآن، وبالحكمة السنة»[(٤)].

وأورد ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ) التعريفات التي اختارها الشراح للحكمة[(٥)]، فقال: «قيل: إنها القرآن، وقيل العمل به، وقيل السنة، وقيل الإصابة في القول، وقيل الخشية وقيل الفهم عن الله، وقيل العقل، وقيل ما يشهد العقل بصحته، وقيل نور يفرق به بين الإلهام والوسواس، وقيل سرعة الجواب مع الإصابة... والأقرب ـ حسب اختيار ابن حجر ـ أن المراد بها

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم باب الاغتباط في العلم والحكمة. ينظر «الفتح»: ١/ ٢٢٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ج ٦/ ٨٥. وينظر «الفتح»: ١/ ٢٢٣.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب العلم باب قول النبي ﷺ: «**اللهم علمه الكتاب**». ينظر «الفتح»: ١/ ٢٢٨.

(٤) ينظر «الفتح»: ١/ ٢٢٩. ونفس القول اختاره يوسف غزال في تقديمه لكتاب «الحكمة النبوية» لصاحبه عفيف طبارة. ينظر «الحكمة النبوية»: ٨.

(٥) الملاحظ أن الحكمة كلمة جامعة لمعان عدة. ينظر «الأشباه والنظائر» لعبد الملك بن محمد الثعالبي: ١٢٢ ـ ١٢٣.

في حديث ابن عباس: الفهم في القرآن»[1].

هذه التعريفات أوردها أيضاً المفسرون في معرض بيانهم لمعنى الحكمة في القرآن الكريم[2].

وقد يبدو لأول وهلة صعوبة الجمع بين هذه التعريفات التي أعطيت للحكمة، لكن الأمر مختلف عند الإمام القرطبي (ت. ٦٧١هـ) الذي يرى أن هذه الأقوال قريب بعضها من بعض «**لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان** في قول أو فعل؛ فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس؛ فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر من التفصيل حكمة، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه. فقيل للعلم حكمة، لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه... وكذا القرآن والعقل والفهم»[3].

رغم رجاحة هذا الرأي الذي خلص إليه الإمام القرطبي، والذي اعتمد فيه على معاني الحكمة في اللغة وهي المنع والإتقان[4]، إلا أنه يصعب اعتباره تعريفاً اصطلاحياً للحكمة.

وقبل المرور إلى تسجيل التعريف الاصطلاحي الذي اخترناه للحكمة، نقف مع حمدان راجح الذي نبه على إمكانية تقسيم معاني الحكمة في الاصطلاح إلى جانب عملي وآخر علمي نظري؛ فالحكمة العملية مردها إلى فعل الصواب والعدل، والنظرية مرجعها إلى العلم والإدراك، وهذا راجع إلى أن كمال الأمر يكون بمعرفة الحق، والعمل به، وهذا هو كما الإنسان

---

(١) «الفتح»: ١/ ٢٣٠.

(٢) ينظر «الجامع لأحكام القرآن». القرطبي: ج٢/ ١٣٢ وج٣/ ٢١٤.

(٣) المصدر السابق: ج٣/ ٢١٤.

(٤) ولا ضير في ذلك ما دامت التعاريف الاصطلاحية تؤسس في الغالب على المعاني اللغوية.

عندما يعرف الحق ويعمل به[1]. وهذا ما أجمله الإمام مالك (ت. ٩٠هـ) بقوله: «الحكمة العلم بالدين والعمل به»[2].

وأرى أن التعريف الدقيق الذي يمكن أن نقدمه للحكمة، وهو ما أورده الراغب (ت. ٥٠٣هـ) في قوله: «**الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل**»[3].

ولا يخفى أن هذا التعريف يتضمن المعاني اللغوية للحكمة:

- فإصابة الحق[4] تمنع من الوقوع في السفه والباطل قولاً وفعلاً.
- كما أن إصابة الهدف عموماً تستوجب الدقة والإتقان[5].

وإصابة الحق عمل، يريد علما[6]، وآلة العلم والعمل: العقل[7].

---

(١) «قواعد الدعوة»: ٢٨٥.

(٢) قال القرطبي: «وقال مالك بن أنس: الحكمة الفقه في الدين والعمل به» ينظر «جامع الأحكام»: /٣/٢١٣. وقيل: «الحكمة: هي التوافق بين العمل والعلم بما يؤدي إلى الصواب». «معجم ألفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية». عادل عبد الجبار زاير: ٨٣.

(٣) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٤١.

(٤) قيل: الحكمة الإصابة من غير نبوة. ينظر «الذيل على النهاية في غريب الحديث والأثر» تأليف: أبي عبد الله عبد السلام بن محمد بن علوش: ١٢٠. والحكمة «تطلق على كل ما يتحقق فيه الصواب من القول والعمل». «معجم ألفاظ القرآن»: ١٥٢. فكل كلام وافق الحق فهو حكمة. ينظر «التعريفات»: ٦١.

(٥) الحكمة في الأصل: إتقان الفعل والقول. ينظر «كشاف اصطلاحات الفنون»: ج٢/ ١٣٢. والحكيم «الذي يحكم الأشياء ويتقنها». «النهاية»: ج١/ ٤١٩.

(٦) الحكمة ترجع في مجموع معانيها إلى الإصابة في الأمور، عن فهم وعلم ومعرفة. (ينظر «معجم ألفاظ العلم والمعرفة»: ٨٢) ولهذا عرفوا الحكمة بقولهم: «العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البشرية، والعمل بمقتضى هذا العلم». «التعريفات»: ٤١. و«التوقيف على أمهات التعاريف»: ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٧) ينظر «ترتيب تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» لأثير الدين أبي حيان الأندلسي: ٥٣ و«المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم» إعداد وترتيب: عبد العزيز عز الدين السيروان: ١١٧.

والذي جعلني أختار هذا التعريف للحكمة، كونه يركز على الوجهين الذي تشترك فيهما جل التعاريف التي أعطيت لها، وهما:

الأول: الحكمة، باعتبارها علماً ومعرفة وفهماً يمنع من السفه، وارتباط كل ذلك بالعقل، فالحكمة المعرفة بالقرآن، قاله ابن عباس (ت. ٦٨هـ). وقال قتادة (ت. ٢٣هـ) ومجاهد (ت. ١٠٢هـ): «الحكمة الفقه في القرآن، وقال ابن زيد: الحكمة العقل في الدين وقال مالك بن أنس (ت. ١٧٩هـ): الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه، وقال إبراهيم النخعي (ت. ٩٦هـ): الحكمة الفهم في القرآن»[١].

الثاني: الحكمة في كونها عملاً متقناً فيه الخير والحق، فالحكمة إصابة في القول والفعل، قاله مجاهد (ت. ١٠٢هـ)، وقال مالك (ت. ١٧٩هـ): الحكمة العمل بالدين[٢].

وقد جمع الراغب (ت. ٥٠٣هـ) الوجهين في قوله: «**الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل**»[٣]. وقوله: «**الحكمة من الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات**»[٤].

فالحكمة إذن: إصابة الحق بالعلم والعقل ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[٥].

ومن أوتي الحكمة «أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش، ولا يتعدى الحدود. وأوتي إدراك العلل والغايات، فلا يضل في تقدير الأمور، وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهدي للصالح الصائب من الحركات والأعمال،

---

(١) ينظر «الجامع لأحكام القرآن»: القرطبي: ج٣/ ٢١٣ و«الفتح»: ١/ ٢٣٠.
(٢) المصدر السابق.
(٣) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٤١.
(٤) المرجع السابق.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

وذلك خير كثير متنوع الألوان»[1].

فثمرة الحكمة إذن: **وضع الشيء في مواضعه الصحيحة**[2].

قيل لعلي رضي الله عنه (ت. ٠٤٠هـ): «صف لنا العاقل فقال: هو الذي يضع الشيء مواضعه»[3].

والحكيم يتأتى له «وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة، وإدراك غايات الأمور والتوجيهات»[4]. فالحكيم من أوتي حفظ الغايات المحمودة، ووضع الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه[5].

(ج) المجادلة بالحكمة:

إذا كانت الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، فإن المجادلة بالحكمة تعني المجادلة التي تعتمد بيان الحق للمجادل، لأجل إقناعه، من خلال أدلة علمية وحجج قاطعة لا يتردد العاقل في قبولها[6].

وقد أشار المفسرون والدارسون إلى دلالات المجادلة بالحكمة عند بيانهم لمعنى الحكمة في قوله تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾[7].

---

(١) «الظلال»: ج٣/ ٣١٢.

(٢) قال أحمد عطية الله: «الحكمة وضع الشيء في موضعه». «القاموس الإسلامي»: ج٢/ ١٢٧.

(٣) «نهج البلاغة»: ٤٤٨.

(٤) «الظلال»: ج٢/ ١٣٩.

(٥) ينظر «تهذيب مدارج السالكين»: ٣٩.

(٦) ورد في «كشاف اصطلاحات الفنون» أن الحكمة هي: «الحجة القطعية المفيدة للاعتقاد، والإقناع الكامل»: ج٢/ ١٣٢.

(٧) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

قال الإمام الطباطباني: «فالمراد بالحكمة ـ والله أعلم ـ الحجة التي تنتج الحق الذي لا مرية فيه، ولا وهن ولا إبهام»[١].

قال سعيد حوى: «﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾[٢] أي: بالمقالة الصحيحة المحكمة، وهو الدليل الموضح للحق، المزيل للشبهة، أو بالخطاب المناسب لكل إنسان بحسبه»[٣].

فالحكمة في الآية هي الحجج القاطعة الصحيحة... أو هي الأدلة اليقينية الموضحة للحق المزيحة للشبهة، وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة ادع إلى سبيل ربك بالحجج القاطعة والأدلة اليقينية[٤].

ويرى حسن الشرقاوي أن المجادلة بالحكمة هي المجادلة بالكلام الصواب القريب الواقع من النفس أجمل موقع»[٥].

ويستوجب اختيار المجادلة بالحكمة «النظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه»[٦].

وهكذا نخلص إلى أن «**المجادلة بالحكمة هي المجادلة التي تتجه إلى إقناع العقل من خلال الاحتكام إلى سلطان الحجة والدليل لا غير**».

---

(١) «الميزان»: ١٤/ ٣٧٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) «الأساس في التفسير»: ٦/ ٣٠٠٨. وينظر «التفسير المنير»: ج١٤/ ٢٦٧.

(٤) «أسس الدعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم». الدكتور عمر يوسف حمزة: ٢٩. نقلاً عن الشوكاني في «فتح القدير»، والبيضاوي في «تفسيره».

(٥) «الجدل في القرآن». حسن الشرقاوي: ٨.

(٦) «الظلال»: ٤/ ٢٢٠٢.

وحتى نقف على أصالة هذا اللون من المجادلة، أرى من المفيد إبراز اهتمام القرآن الكريم والسنة النبوية به.

٢ ـ أهمية المجادلة بالحكمة

عرفنا فيما سبق أن المجادلة بالحكمة خطاب للعقل يعتمد في مجمله على إحكام الدليل بقصد الإقناع دون إكراه(١).

وتبرز أهمية هذا الأسلوب القرآني من خلال المكانة العظمى التي أولاها الإسلام للعقل.

(أ) مكانة العقل:

قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾(٢).

كرامة الله لنبي آدم تتمثل في هذه الموهبة العظيمة: العقل(٣).

فبالعقل ميز الله عز وجل الإنسان، وبه ـ أي العقل ـ أناط التكليف. قال رسول الله ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث ـ وذكرنا منها ـ وعن المجنون حتى يعقل**»(٤).

وأعطى القرآن الكريم للعقل مكانة كبرى في بناء العقيدة الإسلامية وتثبيت دعائمها وترسيخ قواعدها لكي تقع موقع اليقين من صاحبها، ففتح بذلك مجالاً واسعاً للنظر العقلي خاصة إذا علمنا أن قضايا العقيدة شغلت

---

(١) ينظر «القرآن وحوار العقل». د. حسن الباش: ٢٠٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٣) «العقل يقال للقوة المهيأة لقبول العلم. ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة: عقل... وإلى الأول أشار ﷺ بقوله: «**ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل**»، وإلى الثاني أشار بقوله: «**ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردى**». «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٣٨٢. ينظر «أساس البلاغة»: ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٤) أخرجه الترمذي (حديث رقم ١٤٢٣) وقال: حسن غريب. وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (ج٣/ ٨٣٣): صحيح. ينظر «نظرة النعيم»: ٦/ ٢٥٥٥.

القرآن كله ما عدا ستمائة آية في الأحكام الشرعية الفرعية[1].

ولهذا «سلكت الآيات القرآنية التي تضمنت الحجاج[2] عن مطالب العقيدة مسالك عقلية، فجاءت أدلتها حاسمة قاطعة لكل أنواع الإنكار أو الشك أو الظن أو التردد أو الاحتياط، بل في الغالب ما تعددت الأدلة الكثيرة على المطلب الواحد، ويكون كل واحد منها مستقلاً في دلالته كافياً في الوفاء بما سيق من أجله، ولكن ليحصل بمجموعها زيادة يقين»[3].

فلا غرابة إذن أن نرى وفرة الأساليب الجدلية في كتاب الله ناطقة بالحجج الصحيحة والبراهين الواضحة، ذلك لأن «الحوار بالحجة هو الطريق الأمثل، بل الوحيد للإقناع العقلي، والإقناع أساس الإيمان إن لم يكن الإيمان نفسه»[4].

وقد أولى الدارسون لعلوم القرآن اهتماماً لمكانة العقل في القرآن[5]، وبلغ الحد ببعضهم إلى القول: «ليس في القرآن آية من آياته تخلو من إشارة دالة أو لمحة موحية للعقل الإنساني تدله وترشده إلى العلم والمعرفة»[6].

وجعل كثير من العلماء الجدل العقلي وأدلته التي أشار إليها القرآن وجهاً من وجوه إعجازه[7].

---

(١) ينظر «القرآن والنظر العقلي». فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل: ٢٩٠.

(٢) الحجاج والمحاجة أن يطلب كل واحد رد الآخر عن حجته ومحجته. يقال: حاججت فلاناً فحججته أي غلبته بالحجة. ينظر «مقاييس اللغة»: ٢/ ٣٠. و«معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٠٨.

(٣) «دليل الأنفس»: ٣٣.

(٤) «أسلوب المحاورة»: ٢٨. وينظر «منهاج الجدل»: ٢١.

(٥) ينظر «أسلوب المحاورة»: ٣٠. و«القرآن والنظر العقلي»: ٢٤ وما بعدها. وكذا «القرآن وحوار العقل»: ١٠ وما بعدها.

(٦) «القرآن والنظر العقلي»: ٢٤.

(٧) ينظر «الإتقان في علوم القرآن»: ٢/ ٣٣٨ و٣٧٦.

(ب) سلطان الحجة:

يعتبر الاحتكام إلى سلطان الحجة[1]، وجهاً من وجوه اعتماد الجدل القرآني على العقل. يقول الله عز وجل:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[2].

«﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3] فالدليل والحجة والبرهان هو الحكم بيننا وبينكم، بعيداً عن كل أجواء الضغوط النفسية والخارجية، الضغط الوحيد المعترف به هو الدليل القاطع الذي يحول الاقتناعات إلى حقيقة»[4].

إن الله عز وجل يعلمنا في هذه الآية وغيرها[5] فن الرد على الادعاءات الكاذبة، فمقولة اليهود أنهم الأولى بالجنة من غيرهم كمقولة النصارى «لا تستند إلى دليل، سوى الادعاء العريض، ومن ثم يلقن الله رسوله ﷺ أن يجيبهم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل»[6].

وهكذا فإن «الموقف الطبيعي من أي ادعاء يصدر من اليهود أو

---

(١) **الحُجة في اللغة من المحجَّة**: وهي الطريق الواضحة. قال الأزهري: «إنما سميت حُجة لأنها تُحج: أي تقصد. لأن القصد لها وإليها، وكذلك محجّة الطريق هي المقصد والمسلك. والحجة الدلالة المبينة للمحجة أي المقصد المستقيم. **وحدّها في الشريعة**: ما تُصحح به الدعوى». «لسان العرب»: ٢/ ٢٨٢ بتصرف. ينظر «مقاييس اللغة»: ٢/ ٣٠. و«معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٠٧. و«الكافية في الجدل»: ٤٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٣) الآية السابقة.

(٤) «في آفاق الحوار»: ٢٩.

(٥) وقد وردت عبارة: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أربع مرات في القرآن. منها: [البقرة: ١١٠، الأنبياء: ٢٤]. والقرآن كتاب حجة وبرهان.

(٦) «الظلال»: ١/ ١٠٣.

المسيحيين أو غيرهم، هو أن نطلب البرهان على ذلك»[1].

والمطالبة ببرهان الصدق، تستوجب الإتيان بالدليل الذي يوقع اليقين[2]، والحجة الواضحة التي تقتضي الصدق أبدا.

قال الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ): «البرهان بيان الحجة وإيضاحها من البَرَهْرَهَة وهي البيضاء من الجواري، كما اشتق السلطان من السّليط[3] لإضاءته»[4].

يقول إمام الحرمين (ت. ٤٧٨هـ): «وأما البرهان: فهو المظهر للحق. من قولهم تبرهن، إذا ظهر وتلألأ»[5].

وقال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «البرهان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً، لا محالة»[6].

ثم إن المطالبة ببرهان صدق الدعوى، وبالبينة الواضحة تسدد القول من مبادىء الإسلام التي تضبط تعامل المسلمين بينهم ومع غيرهم، وهذا ما أجمله البيان النبوي في حديث: «**البيّنة[7] على المدعي**»[8].

فلا عبرة بكلام لا يصدقه العمل، ولا اعتبار لدعوى لا تقدم برهان

---

(١) «هذه حياتي»: ٥٧.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن: ج٢/ ٥٢.

(٣) «**السليط**: الزيت الجيد». «أساس البلاغة»: ٣٠٥.

(٤) المرجع السابق: ٣٨.

(٥) «الكافية»: ٤٨.

(٦) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥٥.

(٧) **البينة**: ضرب من البيان، لأنها الكاشفة، أو الدلالة المبينة. فما ثبت به الدعوى، من حيث إفادته للبيان يسمى بينة. ومن حيث الغلبة به على الخصم يسمى حجة. ينظر «الكافية»: ٤٦ و«الكليات»: ٢/ ٢٦٣ و«دستور العلماء»: ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٨) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الشهادات، باب ما جاء في البينة على المدعي. ينظر «الفتح»: ٥/ ٥٧٣.

صدقها، وفي الأثر: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[1].

ولا يفوتني أن أنبه على أن الله عز وجل عندما أمرنا بالمطالبة ببرهان الصدق، قد هيأنا لتحليل ما يقدمه الآخر من حجج والعمل على تفنيده، وإلا فلا معنى إطلاقاً لطلب البرهان[2].

وفي هذا السياق ذم الله عز وجل المجادلة بغير علم، قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾[3].

ورد عن مجاهد (ت. ١٠٢هـ) أنها نزلت في يهودي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؛ من ذر أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته[4].

ووصف الله عز وجل جدال هذا اليهودي بأنه بغير علم «أي جدالاً ملتبساً بمغايرة العلم، وغير العلم هو الجهل، أي جدالاً ناشئاً عن سوء نظر وسوء تفكير»[5].

فالقضية التي أثارها القرآن أمام هؤلاء المجادلين: «أنهم لا يمتلكون قوة العلم ولا سلطان الحجة فيما يجادلون به، مما يجعل من طريقتهم في الحديث طريقة انفعالية ناشئة من عقدة الكبر الكامنة في نفوسهم»[6].

---

(١) من كلام الفضيل بن عياض. ينظر «نظرة النعيم»: ٣/ ٧٤٨. ونسبه الإسلام ابن تيمية للحسن البصري. ينظر «مجموع الفتاوى»: ١٢/ ٤٧٧.

(٢) «هذه حياتي»: ٩٧.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣.

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ١٩١.

(٥) «التحرير والتنوير»: ١٧/ ١٩٢.

(٦) «في آفاق الحوار»: ١٥.

وقد توعد الله عز وجل بالخزي والمقت كل مجادل لا يستند في دعواه إلى دليل، ولا يقوم على معرفة، ولا يستمد من كتاب ينير القلب والعقل، ويوضح الحق ويهدي إلى اليقين، بل مجرد الرأي والهوى والتكبر، كل همه إضلال الناس عن سبيل الله.

قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾[1].

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾[2]، أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل لمجرد الرأي والهوى، وقوله: ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾[3] قال ابن عباس (ت. ٦٨هـ) وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه»[4].

وقال عز من قائل:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ[5] أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[6].

فالذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون بغير دليل، ولا حجة فإن الله عز وجل يمقتهم على ذلك أشد المقت[7].

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٨ ـ ٩.
(٢) سورة الحج، الآية: ٨.
(٣) سورة الحج، الآية: ٩.
(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ١٩٣.
(٥) «السلطان: الحجة». «أساس البلاغة»: ٣٠٥ «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢٦٧.
(٦) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٧) ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٤/ ٧٤.

وتأكيداً على ضرورة التسلح بالحجة والبرهان في دحض الباطل، أمر الله عز وجل عباده المؤمنين بإزهاق الباطل معتمدين على الحق. قال تعالى:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾(١).

وواضح أن من مستلزمات القذف بالحق «تتبع الأقوال المناهضة، ودحض ما فيها من أباطيل بواسطة الحجة الظاهرة، وهذا أمر ضروري لدعوة تريد أن تقنع الناس، وتريد أن تمكث في الأرض»(٢).

وقد أمر الله عز وجل كل حريص على اتباع رسول الله ﷺ، أن يكون على بصيرة في خطابه للناس، أي: متمكناً من إقناع الناس بالحجج القوية والبرهان الساطع(٣).

قال الله عز وجل:

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ(٤) أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(٥).

فالمسلم لا يفرض اقتناعاته على الناس، لكنه يقدمها على بصيرة وبيان وحجة واضحة غير عمياء، ثم إنه على البصيرة متمكن منها راسخ القدم فيها، كما يفيد حرف الاستعلاء(٦).

والبصيرة التي صرح بها القرآن الكريم هي التي تعصم المجادلة

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

(٢) «الجدل في القرآن»: محمد التومي: ١٤٢.

(٣) وهل الحجة إلا البرهان الذي يكون به الظفر؟ ينظر «لسان العرب»: / ٢/ ٢٢٨. و«الصحاح»: ج١/ ٣٠٥ و«غريب القرآن»: ١٨١. و«المصباح المنير»: ٤٧.

(٤) «البصيرة هي المعرفة والحجة الواضحة التي تميز الحق من الباطل». «أسس الدعوة إلى الله تعالى»: ٦٢.

(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٦) «نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية»: ٣٦.

المسلم عن القول بغير علم، وتشعره بحاجته إلى المزيد من الثقافة والتربية، وتوقفه عن محاجة غيره بدون دراسة للموضوع وتحديد الهدف من المحاجة[1].

والبصيرة ـ من خلال أحد معانيها وهو البرهان ـ تجعل المجادل المسلم قوي الحجة قوي الضرب في الأرض، ذا مضاء وعزيمة لا تلين[2].

وكما نوه الله عز وجل بقيمة المجادلة المستندة على البرهان والحجة، قلل سبحانه من قيمة الخصام غير المبين، قال تعالى:

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾[3].

«فالإسلام يطلب من المسلم أن يكون قوي الحجة بين الدليل»[4].

من خلال ما سبق يتضح جلياً أن الإسلام يحترم في العقل البشري نزعته إلى المجادلة، وإلى تأسيس اقتناعاته على براهين وأدلة عقلية تناسبه.

إن حاجة العقل إلى وضوح الحجة، وإلى تحليل الدليل للتأكد من صحته خصلة إيجابية تهيىء المحل للجدل الناقد النزيه الحريص فقط على معرفة الحق. والإسلام تلك بغيته: أن ينفتح عقل المخاطب لاستيعاب ما عندك، وعرضه على المحك، لا يكابر في الحق.

والكلمة السواء التي يدعو إليها الإسلام لا يمكن أن تكون كلمة الهوى والضلال، إنما هي كلمة العلم، علم الحق الذي يطلب تمحيصاً، ويطلب يقظة، ويطلب التأكد من الدليل.

قال تعالى ـ يصور مشهداً للمجادلة النزيه الحريص فقط على معرفة

---

(١) «أسس الدعوة إلى الله تعالى»: ٦٣.

(٢) «قواعد الدعوة الإسلامية»: ٢٧٨.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ١٨.

(٤) «الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية»: ٢٠٥.

الحق ـ:

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾[1].

لقد وصف الله عز وجل وفد نصارى نجران ـ الذين نزلت فيهم هذه الآيات ـ بفضيلتين تترتب إحداهما على الأخرى:

الأولى: التواضع الذي يحمي النفوس من إحدى أسوأ الصفات وهي الكبرياء.

والثانية: انحيازهم إلى الحق حين يتضح لهم[2].

واعتبر القرآن الأساس في أقربية المودة «هو الروحية التي يملكها القسيسون والرهبان، والتواضع والمرتكز على أخلاقية المحبة في النصرانية بحيث ينطلقون من خلالها للانفتاح على الآخر في دعوته ورسالته»[3].

جاءهم الحق من رب العالمين على لسان الصادق الأمين، فاستمعوا له السماع الكامل، سماع العقل والقلب، لم يصدهم عن معرفته والإذعان له مانع الاستكبار، بل استجابوا للحق بكليتهم فلانت منهم الجلود، وفاضت الأعين، ونطقت الألسن بالإقرار والدعاء:

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ٨٢ ـ ٨٤.

(٢) «إنصاف الخصم في القرآن وأثره الإعلامي»: ١٣٣.

(٣) «في آفاق الحوار»: ٩٤.

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾[1].

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾[2].

وهكذا يتبين لنا: أن من أهم خصائص أسلوب المجادلة في القرآن اعتماده على العقل المجرد ـ أثناء المجادلة ـ بعيداً عن التأثر بأي عامل ومؤثر خارجي، وهو أقصى ما يمكن أن يطلبه أو ينظره مفكر يدعي الحرية في فكره، أو باحث يدعي التجرد من التعصب والانحياز[3].

إن الإسلام قد جعل من ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾[4] منطلقاً لعرض الإيمان وغرسه وتكوين أمة تحترم الحق، وتبسط أدلته، وتشيد حضارة تعتز بالبحث العلمي، وتزدري التعصب والتقليد وتتحرك دائماً نحو الأفضل والأصدق[5].

إن سلوك المجادلة القرآنية لمسلك المنطلق، ودفع الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان أثمر «إقناعاً إيجابياً واضحاً وصريحاً لا يجد العقل عنه تحويلاً. وقد أفلح هذا المنهاج في تحييد المعاندين، وزيادة عدد المؤمنين»[6].

إذا تبين أن المجادلة بالحكمة أسلوب قرآني راسخ، يعتمد العقل والمنطق، ويسوق الأدلة لتفنيد الشبه الباطلة وإقامة الحق.

إذا تبين هذا، فإنه من الممكن أن نطرح الأسئلة الآتية:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٥.

(٣) «أسلوب المحاورة»: ٣٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٥) محمد الغزالي في تقريضه لكتاب: «القرآن والنظر العقلي»: ١٨.

(٦) «فنون التبليغ القرآني»: ٢٠٩.

ـ ما هي طبيعة هذا الدليل القرآني؟

ـ هل يشترط فيه أن يتقيد بقواعد المنطق الصوري اليوناني؟

ـ أم يكفي فيه أن يساير المنطق العقلي العام؟

ـ ثم، هل يمكن الحديث عن منطق قرآني خاص؟

أسئلة تعكس الإشكال الذي يعترض الدارس للدليل العقلي القرآني.

هذه الأسئلة، سأحاول الإجابة عنها من خلال الوقوف على الفرق بين أدلة القرآن ومنطق اليونان.

(ج) أدلة القرآن ومنطق اليونان:

الدليل في اللغة: هو ما يتوصل به إلى معرفة الشيء[١]. و «الدليل يراد به إما الدّال كدليل الطريق، أو ما يُستدل به من نص أو غيره»[٢]. أو تقول: «هو الكاشف عن المدلول. وهو الناصب للدّلالة، الفاعل لها. فمن وُجد منه نصب الدلالة، يقال له: دال. ومن كثر منه نَصب الدلالة وفعلها، يقال له: «دليل»[٣].

ويرى الإمام الطوفي (ت. ٧١٦هـ) أن الدليل هو المعنى المرشد إلى المطلوب[٤] ورسم الدليل اصطلاحاً بما توصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري، علماً أو ظناً، وقيل: ما توصل به إلى علم، وهو قول من فرق بين الدليل والأمارة، بأن الدليل ما أوصل إلى علم، والإمارة ما أوصل

---

(١) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٩٢.

(٢) «قواعد الأصول ومعاقد الفصول مختصر تحقيق الأمل في علمي الأصول والجدل» تأليف: صفي الدين عبد المؤمن بن كمال الدين عبد الحق البغدادي الحنبلي: ٣٥.

(٣) «الكافية»: ٤٦.

(٤) الدليل «فعيل بمعنى فاعل، أي دال. وفاعليته مجاز إذ هو بالحقيقة مدلول به لا دال، إذ الدال بالحقيقة هو الشارع». «علم الجذل»: ١٩.

إلى ظن[1].

وأدلة القرآن في مجال المجادلة هي الحجج والبراهين التي ساقها لبيان الحق، إرشاداً للضال وإفحاماً للمعاند.

وشرط في الدليل: أن يكون معروفاً مسلماً به عند أطراف المجادلة[2] «إذ مقصود المناظرة[3] رد الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه الخصم السائل معرفة الخصم المستدل[4]. لأن رده بغير ما يعرفه من باب تكليف ما لا يطاق»[5].

وقد ساق الإمام الشاطبي (ت. ٧٩٠هـ) نماذج من النصوص القرآنية والمواقف النبوية تؤكد هذا الضابط[6]، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[7].

لأن الكتاب والسنة لا خلاف فيهما عند أهل الإسلام، وهما الدليل والأصل المرجوع إليه في مسائل التنازع، وعلى هذا النحو جاء الرد على من قال:

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾[8].

قال تعالى:

---

(١) نفسه.

(٢) قال الجاحظ: «ولا يلتمس إسكات الخصم، إلا بما يعرفه الخصم». «البيان والتبيين»: ١٨/٢.

(٣) وهي لون من ألوان التحاور.

(٤) يقصد أن يكون الدليل معروفاً عند السائل والمجيب.

(٥) «الموافقات في أصول الشريعة». أبو إسحاق الشاطبي: ٢٤٧/٤.

(٦) «الموافقات»: ٢٤٩/٤ ـ ٢٤٨.

(٧) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٨) سورة الأنعام، الآية: ٩١. وهذا من ادعاءات اليهود.

﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾[1].

فحصل إفحامه بما هو به عالم.

إذا تبين هذا وجب أن يكون الدليل المرجوع إليه مسلماً عند الطرفين لأنه إن لم يكن كذلك لم يفد الإتيان به «وليس فائدة التحاكم إلى الدليل إلا قطع النزاع ورفع الشغب»[2].

إذا تبين ذلك جاز لنا أن نسأل:

- أي الأدلة أقرب للعقول، وأيسر في الفهم وأقوى في الإقناع: الأدلة المخرجة على أسلوب القرآن، أم المنضبطة بمنطق اليونان؟.

بداية، لا بد من التميز بين المنطق من حيث هو أسلوب في الكلام وميزان يوزن به من جهة، وبين علم المنطق من جهة ثانية، وبين المنطق اليوناني من جهة ثالثة.

وقد أجمل الألمعي تسجيل هذه الفروق حين قال:

فالأول: أشبه بالبلاغة، ولا ينسب إلى فرد معين، ولا إلى أمة، وإنما يتصف به الأفراد والأمم بقدر، ولا يوضع في وقت من الأوقات. لأنه صفة من صفات الكلام. فيقال هذا كلام منطقي، وهذا كلام غير منطقي.

والثاني: وهو علم المنطق، حاول البشر تبين قواعده، وكتبوا فيه، وألفوا منذ القدم قبل اليونان، ولكن تلك المحاولات ضاعت فيما ضاع، وضياعها لا يجعل اليونان واضعي علم المنطق.

والثالث: وهو المنطق اليوناني.. حاول اليونان تبين قواعده، فلم يصلوا إلا إلى أرباضه[3]. فكان منطقهم محاولة بدائية عجزوا عن إحكامها

---

(١) نفس الآية.

(٢) «الموافقات»: ٤/٢٤٨.

(٣) أرباضه: حواشيه. يقال: «ربض المدينة - بفتحتين - ما حولها». «مختار الصحاح»: ٢٢٦.

والوصول إلى إتمامها[١].

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن الدليل العقلي لا يعد منطقياً إلا إذا روعيت فيه أصول الاستدلال المنطقي، فإذا لم يتحقق له شيء من ذلك لا يعتد به وإن ظل يخاطب العقل.

هذا التقيد بمسلكيات المنطق اليوناني يجعل الإفهام والإقناع عسير المنال على كثير من المتجادلين، إذ كيف ترد الناس إلى الحق بطريق لا يعرفونها؟ خاصة إذا علمنا أن الإسلام جاء لينفتح على عموم الناس وليخاطب كل الناس إلا من أبى.

صحيح أن الإسلام يوصي بمخاطبة الناس على قدر عقولهم[٢]، فهو ضمنياً يميز بين العالم وغير العالم في مستوى الخطاب وطبيعته. لكن لم نجد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية ما يشير إلى أن هذه الآية مثلاً، أو هذا الحديث موجه إلى صنف من الناس يتميز بتفوق عقلي. وأن هذه لمن دونه، بل على العكس وجدنا أمراً إلٰهياً بإسماع كلام الله لكل من جاءنا طالباً للحقيقة، طالباً للمعرفة، قال تعالى:

﴿وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾[٣].

فكلام الله موجه لكل القلوب والعقول، لتسمعه وتتدبره.

وطريقة الاستدلال في القرآن لم تشذ عن هذه القاعدة، حيث يبدو عرض القرآن للأدلة والحجج بسيطاً، قريب المأخذ لكل العقول، بحيث لا يلتوي فهم هذه الحجج على عقل مهما يكن يسير الإدراك ما دام غير مختل

---

(١) «مناهج الجدل»: ٩١.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٦.

أو مريض[1].

ولتفرد القرآن الكريم في طريقة إيراد الأدلة جعل الدارسون لعلوم القرآن من المنهج الاستدلالي القرآني، وجهاً من أوجه إعجازه[2].

وعموماً اتسم أسلوب الاستدلال في القرآن «بوضوح الأدلة، وسهولة صياغتها، وإيجاز ألفاظها، ويسر فهمها وفي بعدها عن التعقيدات»[3].

هذا وجه من الوجوه التي تبين استحالة الاعتماد على منطق اليونان في إقامة الحجج والأدلة في المجادلة بالحكمة مع أهل الكتاب[4].

ثم إن التقيد بالمنطق الصوري في الاستدلال لا ينسجم مع تنوع أساليب البيان القرآني، فالنص القرآني لا يخضع لهذا النوع من التقييد الصوري، «لأن الصورة أسلوب ذو قاعدة والقرآن لا يحتكم إلى أسلوب واحد بعينه، وإنما هو حدائق ذات بهجة من الأساليب التي لا تنتهي أعاجيبها»[5].

إن القرآن الكريم أمر بمخالطة الناس، وولوج كل الأبواب، ومخاطبة الجميع بكل آلة للبيان، كل ذلك «بعبارة بينة موجزة، وبحجج جلية مسلمة يفهمها الخاصة والعامة، والراسخون في العلم والمبتدئون، والدهماء والمثقفون، كل بحسب استعداده ومقدرته»[6].

---

(١) «أسلوب المحاورة»: ٦٦.

(٢) «الإتقان»: ٢/ ٣٣٨ و٣٧٦.

(٣) «الجدل في القرآن». محمد التومي: ١٦٧.

(٤) يقول محمد منير الدمشقي: «اختار سبحانه وتعالى في آيات المخاصمة إلزام الخصم بالمشهورات المسلمة، والخطابيات النافعة، لا تنقيح البراهين على طريق المنطقيين». مقدمة «معجم آيات القرآن الكريم»: ٤.

(٥) «البيان في روائع القرآن»: ٤٦٣.

(٦) «الجدل القرآني»: ٦٢.

فمن استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون، لن ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون. وهكذا «أخرج الله تعالى مخاطباته في محاجة خلقه، في أجلى صورة، ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة، ويفهم الخواص من أثنائها ما يُربي[1] على ما أدركه فهم الخطباء»[2].

فكان ـ القرآن الكريم ـ حقاً مدرسة في فنون المجادلة بالحكمة وفصل الخطاب.

«إن المنهج الذي اتخذه القرآن الكريم في أصول جدله وآداب محاجته، يأخذ الإنسانية إلى أن تستريح في ظل النص القرآني، وتأمن بما فيه، لأن القرآن جاء مقنعاً من أقرب طريق، فخالف بذلك ما جرى عليه كثير من الناس في أساليبهم ومحاوراتهم وجدالهم»[3].

وقد حاول كثير من الدارسين الوقوف عند بعض معالم المنهج القرآني في الاستدلال[4] العقلي[5]. وتعد مساهمة الإمام الشاطبي (ت. ٧٩٠هـ) متميزة في هذا الباب إذ خصص القسم الرابع من الموافقات للحديث عن الأدلة الشرعية، ووضع ضوابط عامة للأدلة[6]. وتناول في المسألة العاشرة من كتاب الأدلة الشرعية الكلام عن أنواع الأدلة، فبين أن الأدلة الشرعية ضربان:

---

(١) يربي: أي يزيد. ينظر «مختار الصحاح»: ٢٢٩.
(٢) «موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة»: ٨٤٦.
(٣) «أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم»: ٢٨٨.
(٤) الاستدلال إثبات الحكم المدعى بدليل. أو يقال: طلب المستدل إثبات الحكم بدليل. والاستدلال أنواع بحسب الاعتبار. ينظر «علم الجذل»: ٣٨.
(٥) ينظر «القرآن ونظر العقل»: ١١٩ ـ ١٢٣ «فنون التبليغ»: ١٩٧ ـ ٣٢٤. «البيان في روائع القرآن»: ٤٤١ ـ ٤٨٨.
(٦) يفيد كثيراً استخلاص معالم فن الاستدلال القرآني من خلال هذه الضوابط.

الضرب الأول: أن يكون على طريقة البرهان العقلي، فيستدل به على المطلوب الذي جعل دليلاً عليه، وكأنه تعليم للأمة كيف يستدلون على المخالفين، وهو في أول الأمر موضوع لذلك، ويدخل هنا جميع البراهين العقلية وما جرى مجراها ثم أورد نماذج من النصوص القرآنية المبنية في استدلالها على طريقة البرهان العقلي الذي يوظف في خطاب الموافقين في النحلة أو المخالفين على السواء، لأنه يخاطب فيهم القدر المشترك بينهم وهو الإدراك العقلي(١)، كقوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾(٢).

وقوله تعالى:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾(٣).

وأشار الإمام أبو إسحاق (ت. ٧٩٠هـ) إلى أن هذا الضرب من الأدلة يستدل به على الموافق والمخالف؛ لأنه أمر معلوم عند من له عقل.

والضرب الثاني: مبني على الموافقة في النحلة، وهو الأدلة الدالة على الأحكام التكليفية(٤).

وقد يفهم البعض من كلام الإمام الشاطبي (ت. ٧٩٠هـ) عن النوع

---

(١) اهتم علماؤنا بعرض نماذج من النصوص القرآنية المبنية في استدلالها على طريقة البرهان العقلي، ليبرزوا الحضور القوي لأسلوب الاستدلال العقلي. ينظر «الإتقان في علوم القرآن»: ج٢/ ١٧٢ وما بعدها. و«البرهان في علوم القرآن»: ج٣/ ٣٦٩ وما بعدها. و«صحيح جامع بيان العلم وفضله»: ٣٧٣ وما بعدها. و«الميزان»: ٣٥٩. و«استخراج الجدل»: ٥٨ وما بعدها. و«الجدل القرآني»: ٣٦ وما بعدها. و«مناهج الجدل: ٢٩١ وما بعدها.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٨١.

(٤) «الموافقات» ٣/ ٣٨.

الأول من الأدلة ـ والتي تضم جميع البراهين العقلية وما جرى مجراها ـ أن أدلة المنطق الصوري تدخل أيضاً ضمن هذا النوع من الأدلة الشرعية، والحقيقة أن الإمام الشاطبي قيد هذا الإطلاق الذي أورده هنا بقيود منها:

ـ أن يجري الدليل على أفهام كل الناس.

ـ أن يكون معلوماً عند كل من له عقل.

وصرح الإمام أبو إسحاق (ت. ٧٩٠هـ) بهذا القيد بوضوح في آخر كتاب الموافقات حين أكد على أن التزام الاصطلاحات المنطقية والطرائق المستعملة فيها مبعد عن الوصول إلى المطلوب في الأكثر. لأن المراد هو تقريب الطريق الموصل إلى المطلوب على أقرب ما يكون وهذا لا يحصل إلا بتحري طرائق العرب وعاداتها في مخاطباتها ومفهوم كلامها، لأن الشريعة لم توضع إلا على شرط الأمية، ومراعاة علم المنطق في القضايا الشرعية مناف لذلك[(١)].

ثم بين أن ما حصل من كلام الشارع على شاكلة كلام المنطقيين هو أمر اتفاقي، لا أنه قصد المنطقين، فلا احتياج إلى ضوابط المنطق في تحصيل المراد في المطالب الشرعية[(٢)].

هذه الخلاصة التي أفضى إليها الإمام الشاطبي (ت. ٧٩٠هـ) فيما يرتبط بطبيعة الأدلة الشرعية نسحبها أيضاً على طريقة الاستدلال في القرآن، فنقول: لا احتياج إلى ضوابط المنطق اليوناني في مجال طرق الاستدلال العقلي، إذ للقرآن والسنة منهج خاص ينسجم وأهداف المجادلة القرآنية.

وهكذا يتبين أن غاية ما يطلب إلى المسلم المجادل في طريقة استدلاله، أن يتحرى طرائق القرآن في الاستدلال، وهذا المسلك هو الذي

---

(١) «الموافقات»: ٤/٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٢) نفس المصدر.

سيوصل إلى المطلوب على أقرب ما يكون.

إن المجادلة بالحكمة أسلوب قرآني متميز، غايته رد العقل الشارد إلى التفكير المنظم الهادىء، وبيان وجه الحق في الموضوع المختلف فيه من خلال الاحتكام إلى سلطان الحجة والدليل.

فما علينا إن نحن رمنا التمكن من هذا الأسلوب، إلا أن نحذو بخطابنا حذو الخطاب القرآني الذي جاء عرضه للحجج بسيطاً قريب المأخذ لكل العقول، فأصاب الحق بالمعرفة من أقرب طريق.

هذا عن مفهوم المجادلة بالحكمة وأصالته وأهميته، فماذا عن مقتضياته؟.



المبحث الثاني

مقتضايات المجادلة بالحكمة

تمهيد:

علمنا أن المجادلة بالحكمة بيان للحق، ورجوع إلى ما أوجبته الحجة بعد قيامها.

ولا غرابة، فالإسلام دين الحجة؛ وما بعثة الأنبياء والرسل إلا لرد الناس إلى الهدى بالحجة، قال تعلى:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾[1].

فطبيعي أن يحتكم القرآن إلى سلطان الحجة، وأن يطالب ببرهان الصدق لقبول أو رد أمر ما. قال تعالى:

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

«فأوجب تعالى على من كان صادقاً في دعواه، أن يأتي بالبرهان، وإن لم يأت بالبرهان فهو كاذب مبطل أو جاهل»[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١١.

(٣) «الإحكام في أصول الأحكام» ابن حزم: ١/ ٢٣.

وكيف يكره الإسلام العقول على الرشد بعدما تبين الغي، قال تعالى:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1].

والإسلام حين يحترم العقل، ويقدر الحجة قدرها، لا يقيم وزناً للحجج الداحضة[2] التي لا تقوى على نصرة الحق. لذا يشترط في الحجة أن تحقق غرضها وأن تبلغ هدفها، قال تعالى:

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾[3].

«أي الواصلة إلى ما قصدت لأجله»[4]، وهو إصابة الحق.

ولهذا نجد أن الحجة في كلام العرب هي الدليل الذي يقصد به إثبات الحق ودفع شبه الخصم.

قال ابن فارس (ت. ٤٩٥هـ): «الحاء والجيم أصول أربعة، فالأول القَصد، وكل قصد حَجّ... [و] الحجة مشتقة من هذا لأنها تقصد، أو بها يُقصد الحق المطلوب»[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى: ١٦]. «داحضة: أي باطلة زائلة، يقال: ادحضت فلاناً في حجته فدحض». «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٨٠. و«أساس البلاغة»: ١٨٤. وقال أبو بكر الأنباري: «قد أدحضت حجة فلان معناه: قد أزلتها وأبطلتها. قال أبو عبيدة: هو مأخوذ من قولهم: مكان دحض، إذا كان مزلاً، ومزلقاً لا يثبت فيه خف، ولا حافر، ولا قدم. وأنشد لطرفة (في ديوانه: ١٧٣):

أبا منذر رمت الوفاء فهبته   وحدت كما حاد البعير عن الدحض

«الزاهر في معاني كلمات الناس»: ج ١/ ٤٣٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.

(٤) «التحرير والتنوير»: ٨/ ١٥١. يقال: «قد بلغ القول يبلغ فهو بليغ، إذا استحكم». «الزاهر في معاني كلمات الناس»: ج١/ ٢٧٢.

(٥) «مقاييس اللغة»: ٢/ ٢٩ ـ ٣٠. قال الطباطبائي: «وأصل الحجة هو القصد، غلب استعماله فيما يقصد به إثبات دعوى من الدعاوى». «الميزان»: ٢/ ٣٤٨.

و «الحُجّة ما دفع به الخصم، وقال الأزهري: الحُجّة الوجه الذي يكون به الطفر عند الخصومة»[1].

«وفي حيث الدجال: «**إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجيجه**»[2] أي: محاججه ومغالبه بإظهار الحجة عليه، والحجة الدليل والبرهان»[3].

«فالحجة لا تطلق حقيقة إلا على البرهان والدليل الناهض المبكت[4] للمخالف، وأما إطلاقها على الشبهة فمجاز، لأنها ترد في صورة الحجة، ومنه قوله تعالى:

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[5]»[6].

هذا الشرط في اختيار الحجة البالغة، يقف بنا على المقتضى الأول من مقتضيات المجادلة بالحكمة: ألا وهو القوة؛ **قوة الحجة والخطاب**. ولا بأس من الإشارة إلى أنني اخترت الحديث عن مقتضيين للمجادلة بالحكمة. أرى من الضروري حضورهما في المجادلة، حتى تبلغ المجادلة بالتي هي أحسن غايتها، وهما كالآتي:

(أ) المقتضى الأول: قوة الحجة والخطاب.

(ب) المقتضى الثاني: التدرج: البدء تيسيراً لا تعسيراً.

ولتقريب الشقة على المجادل المسلم، آثرت أن أتوج الحديث عن مقتضيات أسلوب المجادلة بالحكمة، بذكر مظان الحكمة، التي متى وردها

---

(١) «لسان العرب»: ج٢/ ٢٨٨.

(٢) أخرجه الإمام مسلم عن النواس بن سمعان كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ٤٦.

(٣) «النهاية في غريب الحديث»: ج١/ ٣٤١.

(٤) «**بكته بالحجة**: غلبه». مختار الصحاح»: ٧٢.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١٦.

(٦) «التحرير والتنوير»: ٢/ ٤٦ ـ ٤٧.

المجادل المسلم، صدر عنها وقد أوتي خيراً كثيراً. وهكذا يترسم أمامنا تصميم هذا المبحث كالآتي:

١ ـ مقتضيات المجادلة بالحكمة.

٢ ـ مظان الحكمة.

١ ـ مقتضيات المجادلة بالحكمة

وحصرتها في اثنين:

الأول: قوة الحجة والخطاب.

الثاني: التدرج تيسيراً لا تعسيراً.

(أ) قوة الحجة والخطاب:

معاني القوة حاضرة في مفهوم الجدال عموماً، والجدال بالحكمة خاصة. فالجدال إحكام وقوة، ولهذا فالجدال بالحكمة إحكام على إحكام؛ إحكام من حيث هو جدال وإحكام من حيث هو بالحكمة، والحكمة إحكام[1].

وفي الحديث عن أم سلمة (ت. ٦١هـ) زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه. فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار**»[2].

قال النووي (ت. ٧٧٦هـ): «أما ألحن فهو بالحاء المهملة، ومعناه أبلغ، وأعلم بالحجة»[3] وقد جاء هذا المعنى صريحاً في رواية أخرى عن

---

(١) يراجع مفهوم الحكمة: ص ٢٧٣.

(٢) رواه مسلم كتاب الأقضية باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج١٢/ ٥ رقم ١٧١٣.

(٣) المصدر نفسه.

أم سلمة (ت. ٦١هـ): «**فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق وأقضي له بذلك**»[١].

ولهذا ذهب ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ) إلى أن قوله: «ألحن» هو بمعنى «أبلغ»، لأنه من لحن بمعنى فطن وزنه ومعناه. والمراد أنه إذا كان أفطن كان قادراً على أن يكون أبلغ في حجته من الآخر[٢].

فينظر كيف استطاعت الحجة البالغة أن تُقدم برهان صدق صاحبها، وأن تنتزع الحق له.

ونحن حين نتكلم عن القوة في الحجة والخطاب، إنما نقصد إحكام الحجة، وإتقان الدليل، والبيان في الخطاب الذي يمكن من إصابة الحق وإقناع المخاطب بصدق ما يسمع.

وفي لقاءاته مع أهل الكتاب كان حرص رسول الله ﷺ شديداً على بيان الحق، وتبليغه بالحجة القوية الدامغة. من ذلك ما ورد في جوابه ﷺ على رسالة هرقل قيصر الروم، والتي جاء فيها: تدعوني ـ قلت: الكلام لهرقل ـ إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار؟**»[٣].

وبنفس القوة يجيب حاطب بن أبي بلتعة اللخمي ـ حامل رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس ملك القبط ـ على المقوقس حين بادره بقوله: «هلم أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبي؟ قلت ـ أي حاطب ـ: بلى، هو رسول الله. قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حين أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ قال حاطب: عيسى ابن مريم، ألست تشهد أنه رسول الله؟

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه. ينظر «الفتح»: ٥/ ٣٩٨.

(٢) «الفتح»: ١٤/ ٣٥٧.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده»: ٤/ ٧٤.

قال: بلى. قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه، أَلاّ يكون دعا عليهم. فقال المقوقس: أنت حكيم جاء من عند حكيم»[1].

وأورد مشهداً آخر يجلي ما أريد، تبليغه: في حديث الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك، قال كعب بن مالك (ت. ٤٠هـ) يخاطب رسول الله ﷺ: «**بلى والله، إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً**»[2].

قال شراح الحديث: «أعطيت جدلا: أي: فصاحة وقوة في الكلام»[3].

وقد مدح الله عز وجل نبيه داود بما أتاه من الحكمة وفصل الخطاب.

قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾[4].

قال الراغب الأصفهاني (ت. ٥٠٣هـ): «الفصل إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة»[5].

وقال مجاهد (ت. ١٠٢هـ): «فصل الخطاب هو الفصل في الكلام»[6].

ويرى محمد عتريس أن فصل الخطاب هو «البَيّن من الكلام، الذي يَتبيّنه من يُخاطَب به ولا يلتبس عليه. أو هو الكلام الذي يفصل بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والصواب والخطأ. وقيل هو الفصاحة

---

(١) «هداية الحيارى»: ٤٤. و«الطبقات الكبرى»: ١/ ٢٦٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق، باب حديث كعب بن مالك. ينظر «صحيح البخاري بشرح الكرماني»: ج١٦/ ٢٢٦.

(٣) ينظر «الفتح»: ٤٦٠.

(٤) سورة ص، الآية: ٢٠.

(٥) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٢٦.

(٦) «تفسير القرآن العظيم»: ٤/ ٣٢.

والبيان الشافي في كل قصد»[1].

فمن أوتي فصل الخطاب[2] فقد أوتي من القوة في الكلام والفصاحة ما يميز به بين الحق والباطل، وما يتبين معه الرشد من الغي.

هذه الخاصية في الخطابة التي يمكن معها الفصل بين الحق والباطل، وتبين الهدى من الضلال هي ما عبر عنه القرآن الكريم «**بالفرقان**»، وهي إحدى سمات الخطاب القرآني.

قال تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾[3].

والفرقان كلام الله تعالى، لفرقه بين الحق والباطل في الاعتقاد، والصدق والكذب في المقال، والصالح والطالح في الأعمال، وذلك في القرآن والتوراة والإنجيل[4] قال تعالى:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾[5]»[6].

ووعد الله عباده المؤمنين المتقين بأن يجعل لهم فرقاناً، ويجعلهم

---

(١) «معجم التعبيرات القرآنية»: ٥٠٣.

(٢) قال عمرو بن عبيد ـ محدداً خصائص الخطاب الفصل ـ: «إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المتكلمين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت على الله جزيل الثواب». «البيان والتبيين»: ١/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) يقصد التوراة والإنجيل المنزلة لا المحرفة.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥٣.

(٦) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٢٣ ـ ٤٢٤. وينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٢٩٨.

فرقانا كما كان عمر الفاروق[1].

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2].

قال محمد بن إسحاق (ت. ١٥١هـ): «فرقاناً أي فصلا بين الحق والباطل»[3].

وقال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «إن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبباً لنصره ونجاته من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾[4]»[5].

والذي نفضي إليه بعد هذا البيان أن المجادلة بالحكمة تتأسس على قاعدة إقناع العقل ورده للصواب، بالحجة البينة، والخطاب الفصل الذي يسهل معه على كل ذي عقل سليم تمييز الحق من الباطل، ولهذا وجب على محاورنا أن يعد العدة، ليكون دليله قوياً وكلامه فرقاناً.

ولا بأس أن نقف عند مظاهر القوة في خطاب محاورنا ليكون على بينة من أمره، وسأذكر منها ما أرى أن محاورنا المسلم لا يعذر بتركه، وقد حصرتها في ثلاث:

- وضوح الخطالب.
- مخاطبة الناس بما يعرفون.

---

(١) سمي عمر بن الخطاب بالفاروق لأن إسلامه كان فاصلاً بين الحق والباطل، بين عهد وعهد. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٢٣.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

(٣) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٢٨٩.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

(٥) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٢٨٩.

- لكل مقام مقال.

* **وضوح الخطاب:**

البرهان في لغة العرب: بيان الحجة وإيضاحها من البَرَهْرَهة وهي البيضاء من الجواري[١].

فلا مناص في جدال يحتكم إلى سلطان الحجة من بيان وتوضيح، حتى تفيء العقول إلى الحق راضية مطمئنة.

إن نصاعة بيان المجادلة المسلم حين يعرب عما معه من المعرفة، وما معه من الحق لمن أجل وسائل إقناع الغير.

ولعل أهم القواعد التي أرستها رسالة الإسلام: **قاعدة أثر وضوح الرسالة في الإقناع بمحتواها**، فإن وضوح الرسالة القرآنية وبروز أهدافها من العوامل الفعالة في الاقتناع بها[٢].

لذلك سلكت الرسالة القرآنية مسلكاً تعليمياً في توضيح أهدافها، وإبراز مبادئها، وبيان مناهجها وشرح محتواها، ومن هنا كثرت الأمثلة، والشواهد والاستدلالات للشرح والتبسيط وترتيب الأفكار[٣].

إن وضوح رسالة الإسلام في أصولها وقواعدها ومصادرها وأهدافها ومناهجها ووسائلها، من أبرز الدلالات على قوتها. ولهذا فتح الإسلام باب الحرية والتفكير والنظر في أحكامه الشرعية للبحث عن الحكمة والعلة والمدلول ليزداد المؤمن إيماناً، وليطلع الناظر على فقه هذه الأحكام فيزداد

---

(١) «أساس البلاغة»: ٣٨. ثم إن من معاني الحكمة: البيان والإيضاح، جاء في «معجم ألفاظ العلم والمعرفة»: «المحكم أي المبين الموضح»: ٨٣. لهذا كان من مظاهر أسلوب المجادلة بالحكمة: قوة الحجة ووضوح الخطاب.

(٢) «فنون التبليغ القرآني»: ٣٦٢.

(٣) «فنون التبليغ القرآني»: ٣٦٢.

يقينه وترسخ عقيدته، بل إنه يحث أتباعه بالإكثار من النظر في ملكوت الله[1].

«إن الإسلام يشق مستقبله بقواه الذاتية وخصائصه العقلية ونستطيع أن نؤكد أن العقل الأوروبي أسرع شيء إلى قبول الإسلام والابتهاج به يوم يعرفه معرفة صحيحة»[2].

والبشرية اليوم في أمس الحاجة ـ أكثر من أي وقت مضى ـ إلى معرفة الإسلام ورحمة الإسلام بعد أن اكتوت بنار شرائع الغاب.

وبما أنه لا طريق لأن يعرف الأجانب الإسلام إلا عن تأمل في تطبيقنا له، أو عن تفهم لحديثنا عنه[3]، فإنه لا مناص لمجادل المسلم من أن يغشى كل المنتديات، وأن يلج كل الأبواب، وأن يداخل العالم ويخالطه. وأن يخاطب بكل آلة للبيان موضحاً ومبلغاً، شأن الواثق بذاتيته المعتز بشخصيته.

وكم يجمل أن نعرض في هذا السياق صورة مشرقة لما كان عليه سلفنا الصالح في مجادلتهم لنتبين جلاء رسالة الإسلام في عقولهم وثباتها في أفئدتهم وتجليها في سلوكياتهم:

في بساط رستم (ت. ١٤هـ) قائد الفرس، نقف مع مشهد حواري. مثل فيه صوت الإسلام ثلاثة من رجال الإسلام: ربعي بن عامر، وحذيفة بن محصن (ت. ٣٦هـ)، والمغيرة بن شعبة (ت. ٥٠هـ) تعددت الأشخاص والكلام واحد والرسالة واحدة، واضحة وضوح الشمس، قال ربعي بن عامر لما سأله رستم: ما جاء بكم؟ قال: الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من شاء

---

(١) ينظر «أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة» تأليف: الدكتور حمد بن ناصر بن عبد الرحمٰن العمار: ١٩٤.

(٢) «مستقبل الإسلام خارج أرضه»: ١٠١.

(٣) المرجع السابق: ٦٤.

من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر.

فقال رستم (ت. ١٤هـ): قد سمعنا قولكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال: نعم، وإن مما سن لنا رسول الله ﷺ، أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاث، فينظر في أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل: إما الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء ـ يقصد الجزية ـ فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا، أنا كفيل بذلك عن أصحابي. قال: أسيدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجير أدناهم على أعلاهم. فخلا رستم (ت. ١٤هـ) برؤساء قومه فقال: هل رأيتن كلاماً قط **أعز وأوضح من كلام هذا الرجل**؟ فقالوا: معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب، أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويحكم! لا تنظروا إلى الثياب ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة. إن العرب تستخف باللباس وتصون الأحساب، ليسوا مثلكم»[١].

أوردت هذا المشهد رغم طوله، لنتأمله، ولنعرف عن أي نموذج نبحث: إنه نموذج المؤمن القوي، المعتز بإيمانه القوي في خطابه، والمفصح عما يريد تبليغه[٢].

---

(١) «الكامل في التاريخ». ابن الأثير: ٢/٤٦٣ ـ ٤٦٤.

(٢) «الفصاحة في اللغة عبارة عن البيان والظهور. يقال: أفصح العجمي إذا خلص كلامه من اللكنة واللحن وأفصح اللبن، إذا ذهب عنه اللباء وزالت عنه الرغوة، وأفصحت الشاة، إذا صفا لبنها عما يشوبه، وأفصح الصبح إذا ظهر وعلا ضوؤه... وفي مصطلح علم البيان خلوص اللفظ عن التعقيد في تركيب الأحرف والألفاظ جميعاً». «كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» ليحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني: ج١/١٠٣ ـ ١٠٤.

نطق ربعي بن عامر بالحكمة، ولخص رسالة الإسلام في عبارات هي الحكمة بعينها، فما كان من رستم إلى أن اعترف بقوة مجادله بعد أن بهره بيان الخطاب وثقة صاحب الخطاب.

ويتكرر المشهد مع حذيفة بن محصن (ت. ٣٦هـ)، والمغيرة بن شعبة (ت. ٥٠هـ)[١]، تغيرت الأشخاص لكن صوت الإسلام لم يتغير في قوته وبيانه، فما كان من رستم (ت. ١٤هـ) إلى أن توجه لأصحابه وقال: «أين هؤلاء منكم هؤلاء والله الرجال، صادقين كانوا أم كاذبين، والله لئن كان بلغ من عقلهم وصونهم لسرهم أن لا يختلفوا، فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم، ولئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء»[٢].

إنه لن يؤهلنا لحمل رسالة الإسلام، الساطع على جبهتها عنوان الحق الأعظم، للإنسان إلا إن كان جلياً في عقولنا، ثابتاً في أفئدتنا، مجسماً في سلوكنا، واضحاً في خطابنا معنى إخراج العباد من عبودية البشر إلى عبودية الله، وهدف إخراج العباد من العبودية لغير الله.

وهاك أخي القارىء، هذا النموذج لرجل أوتي فصل الخطاب، وشهد له رسول الله ﷺ بقوة كلامه، ووضوح خطابه، وصدق لهجته: إنه أبو ذر الغفاري.

ففي الحديث، عن أبي ذر (ت. ٣٢هـ) قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أظلت الخضراء**[٣] **ولا أقلت الغبراء**[٤] **من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من**

---

(١) «الكامل في التاريخ»: ٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) «الخَضراء: السماء، يقال ما تحت الخضراء أكرم منه»، «أساس البلاغة»: ١٦٦.

(٤) «الغَبراء: الأرض. يقال جاء على ظهر الغَبراء والغُبيراء أي على ظهر الأرض يعني راجلاً» المصدر السابق: ٤٤٤.

أبي ذر، شبه عيسى ابن مريم»[1].

وقد كان صدق أبي ذر (ت. ٣٢هـ) صدق جهر وعلن: جهراً بالحق وتعدياً للباطل، تأييداً للصواب ودحضاً للخطأ، إذ الصدق ولاء رشيد للحق، وتعبير بريء عنه وسير حثيث معه[2].

إن من يدرك الحقائق بوضوح، ويعتقدها بصدق، ويحرص على إذاعتها تجد في كلامه قوةً وصدىً لذلك، وهي قوة لا تكون بالتقليد والتصنع، وإنما هي من صدق العقيدة وصحة الفهم[3].

إن قوة الخطاب في وضوحه، والوضوح سلعة غالية، عز من يمكلها وعز من يطلبها.

*** مخاطبة الناس بما يعرفون[4]:**

أن تجادل غيرك بالحكمة، يعني أن تقنعه بما عندك من الحق مستنداً

---

(١) رواه الترمذي في أبواب المناقب باب مناقب أبي ذر الغفاري رقم: ٣٨٠٢. وقد حسنه. ينظر «جامع الترمذي»: ٨٦٢.

(٢) ينظر «رجال حول الرسول ﷺ». خالد محمد خالد: ٨٣.

(٣) «الأسلوب». أحمد الشايب: ١٩٤. من النماذج المعاصرة للخطاب الواضح، الصريح مع أهل الكتاب: جواب أبي الأعلى المودودي على رسالة البابا بولس السادس ـ التي دعا فيها المسلمين لإقامة السلام بين النصرانية والإسلام ـ وهذا ما يبرزه قوله: أرجو المعذرة على هذا الرد المطول جواباً على رسالتكم كما أرجو عدم المؤاخذة للأسلوب الصريح المباشر الذي حاولت به مشاطرتكم أفكاري، فالواقع أنني أعتقد أن من واجبي أن أبين لكم العقبات الحقيقية التي تعترض سبيل إقامة السلام، والتي يجدر إزالتها، ومعالجتها بصورة ملموسة. فقد كنت صريحاً في رسالتي، وأتوقع ذلك من عطوفتكم». «الحوار الإسلامي ـ المسيحي»: ٥٠٦. نقلاً عن «رسالة إلى البابا بولس السادس»: ٤١ وما بعدها.

(٤) ينظر الفصل الأول من الباب الأول. فقد أفردته للتأسيس لقاعدة «معرفة الغير شرط في التبصير». ومعرفة الغير مقدمة لمخاطبة الناس بما يعرفون.

على حجج قوية وأدلة بينة، وأول درجات الإقناع: الفهم والمعرفة[1].

وعليه فباب المجادلة مسدود على من لم يراع أفهام الناس ومعارفهم.

ولا يفوت أن أذكر أن «مقصود المناظرة[2] رد الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه الخصم السائل معرفة الخصم المستدل، لأن رده بغير ما يعرفه من باب تكليف ما لا يطاق»[3].

ومخاطبة الناس بما يعرفون قبل هذا وذاك مبدأ قرآني وأسلوب نبوي: فقد أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأمر الناس بالعرف. قال تعالى:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾[4].

قال الإمام البخاري (ت. ٢١٠هـ): «العرف: المعروف»[5].

والمعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه، والمنكر ما ينكر بهما[6].

فالآية تنص على مخاطبة الناس بما تعرفه عقولهم ولا تنكره. وهذا من رفق الإسلام ورحمته بالناس، فهو «يخاطب الناس بما يمس أفئدتهم ولا يصادم أعرافهم، في محاولة للسير بهم إلى تحقيق الغاية من وجودهم»[7].

---

(١) «**الخطاب**: هو الكلام الذي يقصد به الإفهام... أو هو اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيىء لفهم». «الكليات»: القسم ٢/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦. فلا عبرة بخطاب لا يقصد به إفهام المخاطبين. لذا وجب على المبلغ أن يكون خطابه واضحاً مفهوماً. ينظر «الأسلوب» لأحمد الشايب: ١٨٦.

(٢) والمناظرة شكل من أشكل المجادلة.

(٣) «الموافقات»: ٤/ ٢٤٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب خذ العفو. وذكر ابن حجر أنه حديث موصول. ينظر «الفتح»: ٩/ ١٥٩.

(٦) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٣٧١.

(٧) «نحو أسلوب أمثل»: ٢٧٣.

وفي الأثر «**خاطبوا الناس على قدر عقولهم**»[1]. وقد سلك الخلفاء الراشدون هذا المسلك، فهذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه يعلمنا ببيانه الساحر: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[2]، وعن ابن مسعود قال: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[3].

وتخبرنا كتب السيرة أن الإسلام استطاع بفضل هذا المبدأ القرآني والسلوك النبوي أن ينتزع اعتراف الخصوم بصدق هذه الرسالة وحسن ما تدعو إليه[4]. ولم يصدهم عن الإيمان والدخول في دين الله إلا أربابهم من الإنس والجن الذين يعبدونهم من دون الله. فجحدوا الحق بعد أن أيقنوا به. قال تعالى في حق فريق منهم:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[5].

وحتى نخاطب الناس بما يعرفون، وجب التأكيد على ضرورة مراعاة طريقة المجادل في التخاطب والكلام، وهذا لن يتحقق إلا بإتقان لغة من لسان من نخاطب لأن اللغة هي الأداة الأولى في التواصل، وهي القناة التي

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا. ينظر «الفتح»: ١/ ٣٠٤.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في مقدمة الصحيح، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١/ ٦٨.

(٤) من ذلك موقفه ﷺ مع علي بن حاتم، فقد روي أنه ﷺ قال لعدي: «إيه يا عدي بن حاتم الطائي، أسلم تسلم». فقلت ـ أي عدي ـ: إني على دين. قال: «أنا أعلم بدينك منك، ألم تك ركوسيا؟» ـ ثم ذكر بقية الحديث ـ (سبق تخريجه). فكانت معرفته ﷺ بعدي مقدمة لمخاطبته بما يعرفه، ولإقناعه بالحق الذي يدعو إليه الإسلام.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

سيعبر منها خطابنا إلى العقول لذا أحب الوقوف عند هذا الأمر لمزيد من البيان.

*** ضرورة إتقان لغة من نجادل:**

قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ[1] وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[2].

اختلاف اللغات آية من آيات الله عز وجل، ونعمة تستوجب الشكر. وشكرها يكون بإتقان هذه الألسن لتحقيق التعارف الذي يعد مقدمة لتبليغ الحق، والتعاون على البر والتقوى. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[3] وقال عز من قائل:

﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[4].

ويبرز الشيخ أبو غدة أهمية تعلم اللغات، بقول: «اللغات اليوم مفتاح العلوم الكونية التي أصبحت ضرورية لمجاراة العجم والفرنجة، والترقي بين الأمم. وصارت مفتاحاً للتعارف الذي أصبح ضرورياً للعيش، وأمن الإنسان على حقوقه حين الاختلاط[5]. وللشيخ صفي الدين الحلي ـ وهو ممن كان يحفظ عدة لغات ـ:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه ... وتلك له عند الملمات أعوان

---

(١) المراد بالألسن: اللغات، ويقال إنها ثنتان وسبعون لغة: ستة عشر في ولد سام، ومثلها في ولد حام والباقية في ولد يافث. ينظر «الفتح»: ٦/ ٤١٢.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٥) وفي الأثر: «من تعلم لغة قوم أمن مكرهم». لم أقف له على أصل.

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً فكل لسان في الحقيقة إنسان»[1]

فمعرفة اللغات مطلوبة في حق ما معه من الحق في الموضوع المختلف فيه.

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[2].

فالآية تشير إلى أن «النبي ﷺ كان يعرف الألسنة، لأنه أرسل إلى الأمم كلها على اختلاف ألسنتهم، فجميع الأمم قومه بالنسبة إلى عموم رسالته، فاقتضى أن يعرف ألسنتهم ليفهم عنهم ويفهموا عنه. ويحتمل أن يقال: لا يستلزم ذلك نطقه بجميع الألسنة لإمكان الترجمان الموثوق به عندهم»[3].

كما أن الآية تنبه على «أهمية التمكن من اللغة، والتصرف في فنونها، وقد آثر التعبير القرآني استعمال «اللسان» مجازاً عن اللغة، لأنه أداة النطق وآلته. وذلك يشير إلى أهمية تمكن الرسول ﷺ من لغة قومه حتى لكأن ألسنتهم في فمه، بها يعبر وبها يفصح ويبين»[4].

فمعرفة اللغات واجبة لتحقيق البلاغ المبين[5]، وهي شرط فيمن يرشح نفسه للمجادلة[6].

---

(١) «الرسول المعلم ﷺ»: ٢١٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٣) «الفتح»: ٦/ ٣٠٠.

(٤) «أسلوب الدعوة القرآنية»: ١٩ ـ ٢٠ بتصرف.

(٥) لهذا سأل الله موسى بن عمران عليه السلام، حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٨]. ينظر «البيان والتبيين»: ١/ ٢٣.

(٦) قال تعالى على لسان نبي الله يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ

وقد ثبت أنه ﷺ تكلم بغير العربية؛ من ذلك ما رواه البخاري عن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله ﷺ مع أبي، وعلي قميص أصفر، فقال رسول الله ﷺ: «سنه، سنه». قال عبد الله: وهي **بالحبشية**: حسنة[1].

وعن أبي هريرة (ت. ٥٧هـ) رضي الله عنه أن الحسن بن علي أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال له النبي ﷺ **بالفارسية**: «**كخ، كخ، أما تعرف أنّا لا نأكل الصدقة؟**»[2].

وكان لرسول الله ﷺ كتاب - أكثر من خمسة عشر كاتباً - يكتبون عنه القرآن وكتاب آخرون خصهم بكتابة رسائله إلى الآفاق، والملوك لتبليغهم الإسلام ودعوتهم إليه، وكتاب آخرون خصهم بكتابة أمور أخرى[3].

وعن زيد بن ثابت (ت. ٤٥هـ) - وكان ضمن الكتبة - أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود، حتى كتب للنبي ﷺ كتبه، وأقرأه كتبهم إذا كتبوا إليه[4].

وعن خارجة بن زيد بن ثابت (ت. ١٠٠هـ) عن زيد (ت. ٤٥هـ) قال: أتي بي النبي ﷺ مقدمه المدينة فأعجب بي، فقيل له: هذا غلام من

﴿٥٥﴾ [يوسف: ٥٥]. قال السدي: «حفيظ للحساب، عليم بالألسن. وذلك أن الناس كانوا يردون على الملك من كل ناحية فيتكلمون بلغات مختلفة». زاد المسير»: ج٤/ ٢٤٣. وينظر «جامع البيان»: ١٣/ ٥. فكان تمكنه من اللغات المختلفة مظهراً من مظاهر قوته وكفاءته التي ترشحه للمسؤولية العظيمة.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من تكلم بالفارسية والرطانة. ينظر «الفتح»: ٦/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) نفسه.

(٣) «الرسول المعلم ﷺ»: ٢١١.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام. وهل يجوز ترجمان واحد؟ ينظر «الفتح»: ١٥/ ٩٤.

بني النجار قد قرأ فيما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فاستقرأني، فقرأت سورة «ق»، فقال لي: «**تعلم كتاب**[(١)] **يهود، فإني ما آمن يهود على كتابي**» فتعلمته في نصف شهر، حتى كتبت له إلى يهود وأقرأ له إذا كتبوا[(٢)].

وفي رواية زين بن ثابت (ت. ٤٥هـ) عن أبيه: «فما مر بي سوى خمسة عشر ليلة حتى تعلمته»[(٣)].

وقد رواه الأعمش عن ثابت بن عبيد عن زيد بن ثابت: «أن النبي ﷺ أمره أن يتعلم السريانية»[(٤)].

يقول ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ): «وقصة ثابت يمكن أن تتحد مع قصة خارجة بأن لازم تعلم كتابة اليهودية تعلم لسانها، ولسانهم السريانية. لكن المعروف أن لسانهم العبرية، فيحتمل أن زيداً تعلم اللسانين لاحتياجه إلى ذلك»[(٥)].

وهكذا يتبين كيف استخدم رسول الله ﷺ اللغات الأجنبية ودعا إلى تعلمها، حتى يأمن على كلمة الحق أن تبلغ إلى الأسماع[(٦)].

ويظهر اهتمام سلفنا الصالح باللغات، في تعاملهم مع مسألة تأمين المسلمين لأهل الحرب بألسنتهم، ومسألة الترجمان لولي الأمر. وقد أورد الإمام البخاري أحاديث في هذا الباب؛ ففي مسألة تأمين المسلمين لأهل الحرب بألسنتهم، روى قصة خالد بن الوليد في مسيره إلى بني جذيمة من

---

(١) المراد بالكتاب: الخط. ينظر «الفتح»: ١٥/ ٩٤.

(٢) نفسه.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الاستئذان والآداب، باب في تعلم السريانية. وقال حسن صحيح: ٤/ ٢٢.

(٤) ينظر «الفتح»: ١٥/ ٩٥.

(٥) نفسه.

(٦) ينظر «الرسول المعلم ﷺ»: ٢١٥.

كنانة بعد فتح مكة، لما قالوا: صبأنا، أي أرادوا الإخبار بإنهم أسلموا، ولم يحسنوا أسلمنا، جرياً منهم على لغتهم. قال ابن عمر: «فجعل خالد يقتل، فقال النبي ﷺ ـ لما بلغه الخبر ـ: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»[1].

قال ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ): «تدل ـ يقصد قصة خالد ـ على أنه يكتفي من كل قوم بما يعرف من لغتهم»[2].

ووصية عمر بن الخطاب (ت. ٢٣هـ) رضي الله عنه لجيش المسلمين شاهد قوي في الباب. قال عمر: «إذا قال: «مترس»[3] فقد آمنه، إن الله يعلم الألسنة كلها»[4].

قال ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ): وهذا الأثر «وصله عبد الرزاق من طريق أبي وائل قال: جاءنا كتاب عمر ونحن نحاصر قصر فارس، فقال: إذا حاصرتم قصراً فلا تقولوا أنزل على حكم الله، فإنكم لا تدرون ما حكم الله، ولكن أنزلوهم على حكمكم ثم اقضوا فيهم، وإذا لقي الرجل الرجل فقال لا تخف، فقد آمنه، وإذا قال «مترس» فقد آمنهم، إن الله يعلم الألسنة كلها»[5].

وموقفه رضي الله عنه مع الهرمزان، يزيد الحقيقة وضوحاً؛ فقد روي أنه جيء بالهرمزان أسيراً، فلما رآه تقشعر جلوده، وترعد فرائصه، قال له:

---

(١) أخرجه الإمام البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إذا قالوا صبأنا ولم يحسنوا أسلمنا». ينظر «الفتح»: ٦/ ٤١١.

(٢) نفسه.

(٣) قال ابن حجر: «مترس: كلمة فارسية معناها لا تخف. وهي بفتح الميم وتشديد المثناة، وإسكان الراء. وقد تخفف التاء». «الفتح»: ٦/ ٤١٢.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجزية، باب إذا قالوا صبأنا. ينظر «الفتح»: ٦/ ٤١١.

(٥) نفسه.

«تكلم لا بأس»، ثم نسي عمر من مقالته ذلك، وقال بعد ذلك: «إني سأقتلك»، فقال له الهرمزان: إنك لست تستطيع، قال: «كيف ذلك؟». قال: أما قلت الآن «مترس»، فهو آمن. فسأل عمر أنساً عن ذلك، فأقر به، فعفا عنه[1].

وفي مسألة الحاجة إلى ترجمان، أخرج البخاري (ت. ٢١٠هـ) حديث زيد بن ثابت[2] قال: وقال عمر (ت. ٢٣هـ) ـ وعنه علي (ت. ٤٠هـ) وعبد الرحمٰن وعثمان (ت. ٣٥هـ) ـ: «ماذا تقول هذه؟». قال عبد الرحمٰن بن حاطب فقلت: تخبرك بصاحبها الذي صنع بها. وقال أبو جمرة: كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس. وقال بعض الناس: لا بد للحاكم من مترجمين[3].

قال ابن المنير: «مقصود الترجمة أن المقاصد تعتبر بأدلتها كيفما كانت أدلتهم لفظية أو غير لفظية بأي لغة كانت»[4].

فلا بد إذن من إتقان لغة من نجادل حتى نُعرِّفه وجه الحق في الموضوع المختلف فيه.

توجيهات في تعلم اللغات:

لحكيم المسلمين عبد الرحمٰن بن خلدون (ت. ٨٠٨هـ) توجيهات في تعلم اللغات، نقف مع بعضها لنتبين درجة الإتقان التي نطلبها في المجادل المسلم. يقول ابن خلدون: «اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني. وجودتها وقصورها بحسب

---

(١) ينظر «فيض الباري»: ٣/ ٤٧٥. والقصة تبرز المسؤولية في الكلام، وأن المؤمنين عند عهودهم. فلله درهم!!

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام، ينظر «الفتح»: ١٥/ ٩٤.

(٣) نفسه.

(٤) «الفتح»: ٦/ ٤١١.

تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة بالتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع. وهذا هو معنى البلاغة»[١].

ثم نبه على الوسيلة العملية للتمكن من اللغات: وهي **التكرار**. لنعلم أن الأمر سهل المنال على ذوي الهمم العالية. يقول: «والملكات لا تحصر إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً، وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً. ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي صفة راسخة»[٢].

وهذا ما بينه الجاحظ (ت. ٢٥٥هـ) بقوله: «اللسان إن أكثرت تحريكه وتقليبه رق ولان، وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسا[٣] وغلظ»[٤].

ويضرب ـ ابن خلدون ـ لذلك مثلاً من تعلم اللغة العربية: «فالمتكلم من العرب، حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام جيله وأساليبهم في مخاطباتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة، ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم. هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل، وتعلمها

---

(١) «المقدمة»: ٧٦٤.

(٢) المصدر السابق: ٧٦٤ ـ ٧٦٥.

(٣) جسا: يبس وصلب. يقال لهم قلوب قاسية كأنها صخور جاسية. ينظر «أساس البلاغة»: ٩٣.

(٤) «البيان والتبيين»: ١/ ٢٩٠.

العجم والأطفال»[1].

ويجمل بنا أن نختم بشهادة خبير في مجادلة أهل الكتاب بالحسنى، يحكي تجربته في تعلم اللغات ـ فالرجل على اطلاع واسع بها ـ يقول: «إن كل اللغات جميلة، ولها مذاقها الخاص، ولكنا إذا جهلنا اللغة فإنها تبدو سخيفة لنا ومضحكة»[2].

ويضيف أحمد ديدات قائلاً: «وهذا يندرج على كل اللغات، فإذا لم تكن سمعت اللغة من قبل في حياتك فسوف تبدو لك سخيفة ومضحكة. ولكن الحقيقة أنه لا توجد لغة سخيفة ومضحكة، فكل اللغات عذبة، وكل اللغات جميلة، ولذلك فهي نعمة كبرى إذا استطعنا أن نتعلم المزيد من اللغات، فعندما تتعلم لغة جديدة فإن آفاقا جديدة تفتح أمامك، وكلما تعلمت المزيد من اللغات كلما ازداد أفقك وفهمك»[3].

نخلص إذن إلى ضرورة إتقان لغة من نجادل[4]، وأن هذا الأمر يسير على من يسره الله عليه، وأعد له عدة الصبر حتى يذوق حلو ثمره.

الذي يتبين بعد هذا أن مراعاة عقول الناس وأعرافهم عند الخطاب أمر إلهي، وأسلوب نبوي، وعنصر مهم ليكون خطابنا إلى الناس قوياً والحجة بينة، ولتبلغ المجادلة بالحكمة غايتها.

*** لكل مقام مقال:**

قال أهل البلاغة: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من

---

(١) «المقدمة»: ٧٦٥.

(٢) «هذه حياتي»: ٨٤.

(٣) المرجع السابق: ٨٦.

(٤) نوسع دلالة تعلم لغة من نجادل لتشمل طريقة تفكير من نخاطب، ومنهجية تحليله للأمور. وهذا ما نبهت عليه عند الكلام على قاعدة «معرفة الغير شرط في التبصير».

ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً»[١].

وعرف أهل المعاني والبيان، البلاغة بأنها: «مُطابقة الكلام لمقتضى الحال والفصاحة، وهي خلوه عن التعقيد»[٢] وقالوا: المراد بالمطابقة: ما يحتاج إليه المتكلم بحسب تفاوت المقامات[٣].

إن مراعاة أحوال المخاطبين، وتقدير الزمان والمكان عند مخاطبتهم شرط أساسي ليكون الكلام أبلغ والحجة أحكم، فرب كلام كان في نفسه حسناً لكن لما ورد في مكانه، وسقط في غير مسقطه خرج عند حده، بل انقلب إلى ضده.

ورب كلمة حسنت في موطن ثم كانت مستكرهة في غيره، ورحم الله علماءنا الذين أجملوا هذا الشرط في حكمتهم البليغة: «لكل مقام مقال، ولكل فن رجال»[٤].

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «المقام يكون مصدراً واسم مكان القيام وزمانه، نحو: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى﴾[٥]»[٦].

فلا بد للمجادل المسلم أن يضبط مقاله وخطابه بضابط الزمان والمكان والأحوال[٧].

ولا يخفى جانب الحكمة في هذا المبدأ، إذ إن شعور المجادل بأن

---

(١) «البيان والتبيين»: ج ١/١٦٦.
(٢) ينظر «الفتح»: ١٥/ ٨٤.
(٣) نفسه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) سورة يونس، الآية: ٧١.
(٦) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٦٦.
(٧) أقصد أحوال المخاطب من حيث استعداده، ونشاطه، وإقباله، وإدباره... وكل ما له علاقة بحسن تفاعله مع الخطاب الموجه إليه.

خصمه يقدر ظروفه وأحواله، يبعث الثقة فيه، والاطمئنان إليه، وهذا ما يدعوه إلى أن يفتح عقله وقلبه ولو للحظات ليتأمل ما يدعوه إليه خصمه في غير انفعال أو جموح. وهذه اللحظات قد تكون كافية لوصول شعاع الإيمان إلى قلبه، ولاستخدام عقله، فإن أيسر نظرة عقلية محايدة كافية لإقناع كل عقل بالفارق الشاسع بين الإيمان والكفر(١).

فحري بالمجادل المسلم أن يقدر أحوال الذين يخاطبهم، لأن ذلك سيعطي لخطابه قبولاً، ولحجته أثراً نافعاً.

إن من الحكمة أن يخاطب الناس على قدر أحوالهم وبحسب مقامهم، ومن الظلم أن تعاملهم بغير ذلك. وفي الأثر: «**من أعطى الحكمة لغير أهلها ظلمها، ومن حرمها أهلها ظلمهم**»(٢).

والسنة النبوية تعلمنا كيف راعى رسول الله ﷺ أحوال الناس، فخاطب الملوك بما يناسب مقامهم، فحافظ بذلك على النفسيات وأبقى الزعامات، وهذا ما يظهر من قوله ﷺ في مطلع رسائله إلى الملوك والزعماء:

---

(١) ينظر «إنصاف الخصم في القرآن»: ١٣.

(٢) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عيسى ابن مريم قام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم**». ينظر «البيان والتبيين»: ٢/ ٣٥. وعن علي كرم الله وجهه قال: «**لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم**». «معجم حكمة العرب»: ١٤٨. وقد نظم هذا المعنى بعض العلماء فقال:

من منع الحكمة من أهلها ... أصبح في الناس لهم ظالما
أو وضع الحكمة في غيرها ... أصبح في الحكم لها غاشما
لا خير في مرء إذا ما غدا ... لا طالباً للعلم ولا عالما

ينظر «صحيح جامع بيان العلم وفضله»: ١٢٦. وفي مجادلة ابن الزبير لابن عباس، قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال ابن عباس: عندنا أهل البيت، لا نضعه في غير موضعه فنندم، ولا نزويه عن أهله فنظلم.

ينظر «علم الجذل»: ٢١٣. نقلاً عن كتاب الجليس الكافي والأنيس الشافي»: ١٥٤.

«إلى هرقل عظيم الروم»[1].

«إلى المقوقس عظيم القبط»[2].

«إلى النجاشي عظيم الحبشة»[3].

«إلى كسرى عظيم الفرس»[4].

وذكر ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ) أن في مخاطبة الملوك بهذه الألقاب إكراماً لمصلحة التأليف[5]، وفيه أيضاً إنزال الناس منازلهم، وقد أمرنا بذلك[6].

ثم إن تقدير مقام المخاطب وتعيينه بمركزه في قومه ينتج عنه ارتياح لدى المخاطب[7]. لا بد إذن من أن نراعي مقتضى الحال[8]، وأن نختار لكل مقام مقالاً[9]، فإن ذلك شرط في البلاغ المبين، وهو من الإحكام والإتقان الذي أمرنا به في المجادلة بالحكمة.

والخلاصة أنه لتحقيق أهداف المجادلة بالحكمة، المتمثلة في الإقناع العقلي، المستند على سلطان الحجة والدليل، لا بد من أن يكون خطابنا مبيناً، وحجتنا قوية، ولا مطمح إلى ذلك إلا بالتزام الأمور الآتية:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوحي، الباب السادس. ينظر «الفتح»: ١/ ٥٦.

(٢) «حياة الصحابة» للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي: ١/ ١٢١.

(٣) المصدر السابق: ١/ ١١١.

(٤) المصدر السابق: ١/ ١١٨.

(٥) ينظر «الفتح»: ١٢/ ٣١٥.

(٦) قال رسول الله ﷺ: **«انزلوا الناس منازلهم»**. أخرجه أبو داود في السنن. كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم: ٧٣٣.

(٧) «الأسلوب النبوي في الدعوة» للدكتور الشريف حمدان راجح الهجاري: ٣٩٨. وينظر أيضاً «أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة»: ٦١٩.

(٨) ينظر «نحو أسلوب أمثل»: ٢٧٧.

(٩) ينظر «مناهج الجدل»: ٧ و«فنون التبليغ»: ١٨٣.

ـ أن يكون الخطاب واضحاً.

ـ أن نخاطب الناس بما يعرفون.

ـ أن يناسب المقال المقام.

ومتى وضعنا هذه الأمور في الاعتبار، رجونا للمجادلة أن تكون حكيمة، وأن تبلغ أهدافها.

(ب) التدرج تيسيراً لا تعسيراً:

المجادلة بالحكمة تغيير للاقتناعات نحو الأصوب، وهي مهمة جليلة وصعبة، وقديماً قيل: «تزول الجبال عن أصولها، ولا تزول الناس عن عاداتها»[(١)]. والإنسان لا يقل تمسكه بقتناعاته عن ارتباطه بعاداته، إلا من رحم ربك.

فكان لزاماً أن ننبه على سنة من سنن الله المهمة في هذا الباب: ألا وهي **سنة التدرج**.

وأقصد التدرج في إحداث هذا التغيير في اقتناعات من نجادلهم، فنبدأ في إحداث هذا التحول خطوة خطوة.

ولا يخفى أن التدرج سنة إلهية في الكون والتاريخ:

فنظام الكون قائم على التدرج؛ إذ التغيير الذي تعرفه المجرات[(٢)] من حيث الاتساع والتطور لا يحدث طفرة[(٣)]، بل يحتاج لعدد من السنوات الضوئية[(٤)].

---

(١) أورد ابن القيم عبارة قريبة من هذه الحكمة. ينظر «تهذيب مدارج السالكين» فصل المحاكمة إلى الذوق: ١٠٠.

(٢) المجرة عبارة عن مجموعة من النجوم والكواكب، تضم ـ حسب تقدير العلماء ـ أكثر من مائة مليار نجم.

(٣) طفرة أي فجأة، وفيه معنى حرق المراحل.

(٤) السنة الضوئية: هي المسافة التي يقطعها الضوء خلال سنة.

كما أن تكيف الكائنات الحية مع ظروف عيشها الطبيعية يتطلب سنين عدة، ويعلمنا التاريخ أن الأحداث الكبرى التي غيرت مجراه لم تتم في سنوات بل احتاج الأمر إلى تراكم أحداث وتطورات دام بعضها عشرات السنين. كما أن عادات الشعوب وأعرافها لم تتشكل إلا عبر أجيال.

وفي النفس البشرية لا يتخلف هذا المبدأ ولا تتعطل هذه السنة الإلهية، فبدءاً من خلق الإنسان، هذا المخلوق العجيب، نلحظ أن تكونه يتم عبر مراحل وأطوار معقدة ومتشابكة، استطاعت العلوم الحديثة أن تميز بين بعضها، منها: مرحلة النطفة، مرحلة المضغة، مرحلة العلقة ثم إنشاء العظام ثم كسوة العظام باللحم وباقي الأجهزة[1].

قال تعالى ـ على لسان سيدنا نوح، ينبه الإنسان ويطلعه على سنة التدرج في الخلق ـ:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾[2].

وإذا كان خلق جسم الإنسان يحتاج إلى أطوار ومراحل، فإن تشكيل قناعاته وتغيير أفكاره ومواقفه من باب أولى، إلا أن يجود المولى الكريم بتوبة نصوح.

وتقف بنا أم المؤمنين عائشة (ت. ٥٧هـ) رضي الله عنها، على هذه الحقيقة: «إنما نزل ما نزل منه ـ أي من القرآن ـ سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب[3] الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزلت أول شيء ﴿لا تشربوا الخمر﴾ لقالوا: لا ندع الخمر أبدا! ولو نزل:

---

(١) وقد ذكر القرآن الكريم أهم هذه المراحل في أكثر من موضع، من ذلك الآية: ١٤ من سورة المؤمنون.

(٢) سورة نوح، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٣) أي رجع. ينظر «مختار الصحاح»: ٩٧.

﴿لا تزنوا﴾ لقالوا: لا ندع الزنا أبدا»[١].

فقد أخبرت الصديقة أن الله عز وجل لم ينزل تحريم الخمر إلا بعد أن خالطت بشاشة الإيمان قلوب الصحابة، فسهل عليهم آنذاك ترك الخمر. ولو أمروا باجتنابه كلياً في بادىء الأمر لما استجابوا.

وقد علمنا رسول الله ﷺ كيف نلتزم بهذا الأمر في دعوتنا ومجادلتنا لأهل الكتاب وغيرهم، فقد ورد في وصيته المشهورة لمعاذ (ت. ١٨هـ) حين أراد أن يبعثه إلى اليمن: «**إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[٢].

والتدرج واضح في هذه الوصية يدل عليه قوله ﷺ: «**فإن هم أطاعوا لك بذلك**».

والأمر بالتدرج أكثر وضوحاً في رواية أخرى: قال ﷺ لمعاذ: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن. ينظر «الفتح»: ١٠/ ٤٦.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد إلى الفقراء حيث كانوا. رقم ١٤٩٦. ينظر «الفتح»: ٤/ ١٢٥.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التوصية، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى. ينظر «الفتح»: ١٥/ ٢٩٤. يقول أبو غدة ـ تعليقاً على هذا الحديث ـ: «من فوائد هذا الحديث الكثيرة: البدء بالأهم فالأهم في الدعوة والتعليم، إذ المطالبة بجميع الشرائع مرة واحدة توجب التنفير». «الرسول المعلم ﷺ»: ٧٧.

ومن مظاهر التدرج: في المجادلة والدعوة بالأهم فالأهم، وبالأصل ثم الفرع. قال الإمام النووي (ت. ٦٧٦هـ): «بدأ - ﷺ - بالأهم فالأهم، ألا تراه بدأ ﷺ بالصلاة قبل الزكاة، ولم يقل أحد إنه يصير مكلفاً بالصلاة دون الزكاة والله أعلم»[١].

وأورد ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ) رأي من قال: إن الرسول ﷺ أمر معاذاً بدعوة أهل الكتاب إلى الإيمان أولاً، ثم إلى العمل، ورتب ذلك عليهما بالفاء. وتمام الكلام - حسب رأي ابن حجر - أن يقال بدأ - ﷺ - بالأهم فالأهم، وذلك من التلطف في الخطاب، لأنه لو طالبهم بالجميع في أول مرة لم يأمن النفرة[٢].

ومما يؤكد أن الرسول ﷺ كان حريصاً على البدء - في جداله - بالكليات والأصول ما نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية (ت. ٧٢٨هـ) رحمه الله تعالى في معرض كلامه عن الحكمة في اقتصاره ﷺ على الدعوة إلى الأركان الثلاثة: الشهادة والصلاة والزكاة، مع وجود فرض الصوم والحج، قال: «والحكمة في ذلك أن الأركان الخمسة منها ما هو اعتقادي وهي الشهادة، وبدني وهو الصلاة، ومالي وهو الزكاة؛ اقتصر في الدعاء إلى الإسلام عليها لتفرع الركنين الأخيرين عليها، فإن الصوم بدني محض، والحج بدني مالي. وأيضاً فكلمة الإسلام في الأصل شاقة، لما في جبلة الإنسان من حب المال، فإذا دعي المرء لهذه الثلاثة كان ما سواها أسهل عليه بالنسبة لها، والله أعلم»[٣].

ووجه الاستدلال بهذا النص: أن أركان الإسلام خمسة، لا يتصور إسلام بدونها، وداخل هذه الخمسة، ثلاث هي أمهاتها، ومن هذه الثلاثة

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١/ ١٧٦.

(٢) «الفتح»: ٤/ ١٢٨.

(٣) المصدر السابق: ٤/ ١٣٠.

واحدة هي الأصل الأصيل لما سواها. ولما كان الإسلام يحرص على التدرج في دعوة الناس إلى الهدى محترماً طبيعة الإنسان، فإنه اختار من هذه الأصول الخمسة الثلاثة الأساس فيها: وهو الشهادة والصلاة والزكاة، بل لقد دعا إلى واحدة منها تسهيل على الناس، فقال ﷺ لقريش في بداية دعوته: «**يا قوم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»[1]، فطالبهم بكلمة واحدة: لا إله إلا الله. وهي الأصل لما سواها، فإنها متى تمكنت في القلوب آتت أكلها كل حين بإذن ربها[2].

هذا الحرص النبوي في التدرج مع أهل الكتاب، ما هو إلا تطبيق للأمر الإلهي بدعوة أهل الكتاب إلى الكلمة السواء.

قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[3].

فبدأ بالدعوة إلى الاجتماع على كلمة، ليسهل على أهل الكتاب التجاوب معها.

وقد يسر الخطاب الإلهي المهمة على أهل الكتاب بأن قيد الكلمة بالسواء، أي إننا وإياكم متساوون في الأخذ بها.

ثم بعد أن اطمأنت قلوبهم وعقولهم، انتقل سبحانه إلى تفصيل هذه

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن طارق بن عبد الله المحاربي، باب كتب النبي ﷺ. ينظر «صحيح ابن حبان»: ١٤/٥١٨.

(٢) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]. قيل الكلمة الطيبة: شهادة لا إله إلا الله، قاله ابن عباس. ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٢/٥١١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

الكلمة السواء وحصرها في بعدين:

ـ ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً.

ـ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

وأحب أن أشير هنا إلى مظهر آخر من مظاهر التدرج في جدال أهل الكتاب: وهو التركيز في المجادلة على البدء، **بمواطن اللقاء المشتركة**، لأن ذلك من شأنه أن يبعث الطمأنينة، ويشجع على العمل لتجاوز الخلاف.

وآية الكلمة السواء[1] توحي بهذا المعنى، حيث بين الله تعالى أن مقتضيات الكلمة السواء ـ وهي توحيد الله بالعبادة ونبذ الأرباب من دونه ـ تشترك فيه جميع الرسالات[2].

وهذا التركيز على مواطن اللقاء، والانطلاق منها في مسيرة المجادلة مع أهل الكتاب يؤكده الأمر الإلٰهي:

﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾[3].

فبعد أن حددت الآية أسلوب المجادلة مع أهل الكتاب، قدمت نموذجاً للمجادلة بالتي هي أحسن: والذي ينطلق من كلمة يجتمع فيها الطرفان، تمكن من التقارب والتعاضد على ظهور الحق[4] فقال تعالى:

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) ينظر «هذه حياتي»: ٩٩.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٤) «الميزان»: ١٤٢/٢٠.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

ولا بد هنا من التصريح بأن القيمة الكبرى للإسلام هي في إيمانه الصادق بكل الرسالات السماوية، وتبنيه لجميع الأنبياء والمرسلين، وخضوعه في العبودية لله وحده، وهذه جميعاً تمثل قواسم مشتركة مع أهل الكتاب، وعلى هذا الأساس كانت الدعوة إلى بدء المجادلة من قاعدة مشتركة في قضية الإيمان، التي يمكن أن توحي بإمكانية اللقاء بين الإسلام والأديان الأخرى(١).

وهذا الحرص على إبراز مواطن اللقاء بين الإسلام والأديان(٢) يقرب الشقة لا شك، ويهيىء لتواصل أفضل وتفاهم أعمق(٣).

وتقدم لنا السيرة النبوية نماذج تطبيقية لمبدأ التركيز على المساحة المشتركة بين الإسلام وما عليه أهل الكتاب؛ ففي كتبه ﷺ إلى الروم والأقباط، كان يذكر بالعقيدة التي يشترك فيها الفريقان: وهي وحدانية الله تبارك وتعالى، وتعظيم رسول الله وأنبيائه عليهم السلام. من ذلك قوله ﷺ للنجاشي: «**أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة**»(٤).

ومنه أيضاً تذكيره الدائم بوصية الله الجامعة(٥):

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا﴾(٦).

---

(١) ينظر «في آفاق الحوار»: ١٨.

(٢) الأمر بالتركيز على مواطن اللقاء كمنطلق للمجادلة يتكرر في قوله تعالى [البقرة: الآيتان ١٣٥، ١٣٦، آل عمران: ٨٣، والمائدة: ٦١].

(٣) ينظر «الظلال»: ٥/ ٢٧٤٥.

(٤) «حياة الصحابة»: ١/ ١١١.

(٥) المصدر السابق: ١/ ١١٨ و١٢١.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٦٣.

وبهذا الأسلوب اكتسب الرسول ﷺ عواطفهم، وجعلهم يفكرون جيداً في الدعوة التي يقدمها لهم[1].

إن التدرج سنة إلٰهية وأسلوب نبوي حكيم، ينسجم مع يسر الإسلام الذي شرعه الله رحمة للعالمين، فواجب على المجادل المسلم أن ينضبط بهذا السلوك، وأن يجعل نصب عينيه وصية رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما أراد أن يبعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»[2].

«وفي هذا الجمع بين الأمر باليسر والنهي عن ضده تأكيد على التيسير، لأنه لو اقتصر على «يسرا» لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات وعسر في معظم الحالات، فإذا قال: «ولا تعسرا» انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه وهذا هو المطلوب»[3].

وفي الأمر بالتيسير[4] دعوة للتلطف بمن نجادل، وأن نردهم إلى الحق قليلاً قليلاً وأمور الإسلام مبنية على التدرج» فمتى يسر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها، سهلت عليه وكانت عاقبته غالباً التزايد منها، ومتى عسرت عليه أو شك أن لا يدخل فيها وإن دخل أوشك أن لا يدوم أو لا يستحليها»[5].

بهذا البيان يتضح أن المجادلة بالحكمة مع أهل الكتاب التزام «بالتي هي أحسن» التي أمرنا بها. وهي الجدال الذي يعتمد القوة في الحجة

---

(١) ينظر «الأسلوب النبوي في الدعوة»: ٤٠٣.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي بريدة في كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذاً إلى اليمن قبل حجة الوداع. رقم ٤٨٤٢. ينظر «الفتح»: ٨/ ٣٨٥.

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج ١٢/ ٣٦.

(٤) التيسير واليسر عمل فيه لين وسهولة وانقياد، أو و رفع المشقة والحرج عن المكلف بأمره من الأمور لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم. ينظر «نظرة النعيم»: ٤/ ١٣٩٩.

(٥) المصدر نفسه.

والخطاب، ويراعي أفهام الناس، ويقدر طبيعة المقام. وكل ذلك **لا** يتنافى مع التدرج الذي يعني الانطلاق من مواطن اللقاء وبناء المجادلة على أسس مشتركة، **إذ القوة لا تنافي التيسير**.

ومتى التزم المجادل المسلم القواعد السالفة كان خطابه أبلغ وحجته أحكم. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(1).

ورب سائل: هذا عن مقتضيات المجادلة بالحكم، **فكيف السبيل إلى التمكن منه؟** وأين يرجى العثور على نماذج له، تقرب الفهم ويحصل بها العلم، إذ العلم إمام العمل؟.

٢ ـ مظان الحكمة

اخترت هذا العنوان: «مظان الحكمة»، لأنبه به على مضمون هذه الفقرة والتي خصصتها لبيان النبع الذي من ورده صدر عنه وقد ملىء حكمة. وقصدي في ذلك: أن أقرب الشقة على المجادل المسلم، لنقف جميعاً على عين الحكمة، مسترشدين بكلام الخبراء في هذا الميدان ـ من أتاهم الله الحكمة ـ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(2).

من خلال تتبع موارد الحكمة في خطاب الله عز وجل وخطاب رسوله ﷺ تبين لي أنه يمكن حصر مظان الحكمة في ثلاث:

(أ) كلام أحكم الحاكمين.

(ب) الحكمة النبوية.

(ج) حكمة الأمم.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(أ) كلام أحكم الحاكمين:

من أسماء الله عز وجل: الحكيم، و«الحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾[1]. فإذا قيل في الله تعالى هو حكيم فمعناه بخلاف معناه إذا وصف به غيره، ومن هذا الوجه قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾[2]»[3].

وقد وصف الله عز وجل القرآن بالحكمة فقال:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾[4].

وقال عز من قائل:

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾[5].

و«إذا وصف القرآن بالحكمة فلتضمنه الحكمة»[6].

قال تعالى بعد أن ساق آيات من الحكمة الربانية[7]:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ﴾[8].

أي أن هذه الوصايا الربانية من الحكمة التي يهدي إليها القرآن[9].

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦.

(٢) سورة التين، الآية: ٨.

(٣) «معجم مفردات ألفاظ القرآن: ١٤٢.

(٤) سورة يس، الآيتان: ١، ٢.

(٥) سورة يونس، الآية: ١.

(٦) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٤٢.

(٧) سورة الإسراء، الآيات: ٢٢ ـ ٣٨.

(٨) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.

(٩) «الظلال»: ٤/٢٢٢٨.

والقرآن كلام الله تعالى فيه تبيان كل شيء[1]، وتفصيل كل شيء[2] أنزله الله تعالى يهدي به للتي هي أقوم:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[3].

وهنا يعرض السؤال الآتي: **كيف السبيل لتلقي هداية القرآن؟**

هذا ما تجيب عنه الآيات من صدر سورة البقرة في بيان بليغ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ[4] هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[5].

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «وخصت الهداية للمتقين كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[7]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن، لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾[8]»[9].

---

(١) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

(٢) ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١].

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٤) الوقوف على قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أولى، لأن قوله تعالى: ﴿هُدًى﴾ يصير صفة للقرآن وذلك أبلغ من كونه ﴿فِيهِ هُدًى﴾ ذكر ذلك الحافظ ابن كثير. ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٣٨.

(٥) سورة البقرة، الآيتان: ١، ٢.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٨) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٩) «تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٨.

فهداية القرآن لا ينالها إلا الأبرار المتقون، لأن آنية قلوبهم قد صفت فتهيأت لاستقبال أنوار القرآن الكريم.

قال الصحابي الجليل ابن عمر (ت. ٧٣هـ) رضي الله عنهما، يصف السر في الانتفاع بهداية القرآن: «أوتينا الإيمان قبل القرآن، فلما قرآنا القرآن ازددنا به إيماناً، وأنتم[١] أوتيتم القرآن قبل الإيمان، فأنتم تنثرونه نثر الدقل[٢]»[٣].

وقد جلى الله هذا المعنى بقوله سبحانه يصف المؤمنين:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[٤].

فنور القرآن يسطع في القلوب المنورة سلفاً بنور الإيمان، فيزيدها إيماناً على إيمان، ونوراً على نور.

وبالإيمان والتقوى تحل عن القلوب أقفالها، فيسهل عليها تدبر آيات الله، والتقاط أنوارها والانتفاع بحكمها، قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[٥].

وقد عرضت الآيات الأولى من سورة البقرة نعت المتقين المخصوصين بنيل الهداية القرآنية، والتقاط الحكمة الربانية[٦]، قال تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ

---

(١) يخاطب رجلاً من التابعين.

(٢) «الدقل: رديء التمر». «أساس البلاغة»: ١٩٢.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٥) سورة محمد ﷺ، الآية: ٢٤.

(٦) إلى هذا الفهم ذهب قتادة، ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ١/٣٨.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾[1].

إن الحكمة نور، وأنى يهتدي للحكمة من لم يتنور قلبه بنور الإيمان، ولم تشرق فيه أنوار القرآن. «وهل يمكن أن يحظى إنسان بالحكمة إلا إذا كانت نفسه مطمئنة وعقله راشداً سديداً، وقلبه سليماً معافى»[2].

قال الإمام مالك (ت. ١٧٩هـ): «إن الحكمة مسحة ملك على قلب العبد»[3].

وقال: «الحكمة نور يقذفه الله في قلب العبد»[4].

وقال: «يقع بقلبي أن الحكمة الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله القلوب من رحمته وفضله»[5].

الحكمة نور، وإنما يقذف الله عز وجل نور الحكمة في قلب من أقر في قلبه الإيمان فرعى الشريعة حق رعايتها[6].

والحكمة قبل هذا وذاك عطاء إلٰهي، قال تعالى:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾[7].

وقال عز من قائل:

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[8].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٥.

(٢) «الجدل في القرآن» د. الشرقاوي: ١٤٥.

(٣) أوردها الشاطبي في الموافقات: ٤/ ٩٧.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) لهذا جعلت من مواصفات المجادل المسلم أن يكون على مجموع طيب من شعب الإيمان مع شرط القوة والكفاءة العلمية.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

فالحكمة عطاء من الحكيم العليم، يتعرض المسلم لها بالعمل بفرائض الإسلام والاستزادة من شعب الإيمان حتى يشرح الله صدره، قال تعالى:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾(١).

وللنسائي (ت. ٣٠٣هـ) والترمذي (ت. ٢٧٩هـ) من طريق عطاء (ت. ١٠٣هـ) عن ابن عباس (ت. ٦٨هـ) قال: «دعا لي رسول الله ﷺ أن أوتي الحكمة مرتين»(٢).

فالدعاء باب مهم من أبواب الاستفتاح، والتعرض للحكمة الربانية، فاللهم آتنا الحكمة وفصل الخطاب. آمين.

(ب) الحكمة النبوية:

قال عز من قائل ـ يذكر فضله ونعمته على الأميين ببعثة سيد الأنام ـ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾(٣).

إلى قوله:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾(٤).

تشير الآية إلى أربع وظائف أساسية يقوم بها النبي ﷺ هي: أنه يتلو عليهم آيات ربهم، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب، ويعلمهم الحكمة.

مجموع هذه الوظائف يؤول إلى صفة واحدة هي صفة **المربي المعلم**، وقد قال ﷺ حين سألوه يوماً عن الطهارة من الخبث: «**إنما أنا لكم بمنزلة**

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(٢) ينظر «الفتح»: ١/٢٢٩.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٤.

الوالد أعلمكم»[1] والد معلم؛ مرب معلم.

من الحكمة التي علمها رسول الله ﷺ أمته: أسلوب المجادلة بالحكمة الذي رأينا نموذجاً له في وصيته ﷺ لمعاذ (ت. ١٨هـ) حين بعثه إلى أهل الكتاب، وفي مجادلاته لأهل الكتاب من خلال الرسائل التي كان يبعث بها إليهم.

ويقف بنا سيد قطب، رحمه الله على معنى عميق في هذا الباب، حين قال: «والحكمة ثمرة التعليم بهذا الكتاب، وهي تتحقق لمن رباهم رسول الله ﷺ وزكاهم بآيات الله»[2].

والآية لا تحصر تعلم الحكمة النبوية من رسول الله ﷺ على جيل الصحابة، بل تفتح الباب أمام الأجيال التي تأتي بعده، من خلال قوله تعالى:

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾[3].

ولسائل أن يقول: كيف السبيل إلى النهل من معين الحكمة النبوية؟

وللإجابة، نذكر أولاً بأن الحكمة النبوية تتجلى في سيرة المصطفى ﷺ[4]، فالاطلاع عليها وفهمها أمر لا بد منه لطالب الحكمة.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة. ينظر سنن أبي داود: ١/٣.

(٢) «الظلال»: ١/١٣٩.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٣.

(٤) من فضائل أقواله ﷺ: «**ما أوتي من الحكمة البالغة، وأعطي من العلوم الجمة الباهرة، وهو أمي من أمة لم يقرأ كتاباً ولا درس علماً، ولا صحب عالماً ولا معلماً، فأتى ﷺ بما بهر العقول، وأذهل الفطن، من إتقان ما أبان، وإحكام ما أظهر، فلم يعتر فيه بزلل في قول أو عمل. وما هذه الفطرة في الرسول ﷺ إلا من صفاء جوهره، وخلوص مخبره». الرسول المعلم ﷺ**»: ٤٨.

ثم إن القرآن الكريم يفتح أمامنا فرصة تشرب الحكمة النبوية، والتنور بأنوارها المحمدية، من خلال الاتباع لرسول الله ﷺ. قال تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[1].

فالاتباع لرسول الله ﷺ هو مفتاح البصيرة. والمجادلة على بصيرة؛ مجادلة بتمكن وإحكام[2]، ببيان وحجة واضحة، ويقين وبرهان، يولد عند المخاطب قناعة بما يعرض عليه[3].

فكلما قوي اتباع المؤمن لرسول الله ﷺ، أبصر مواطن الحكمة النبوية، واستطاع أن يسلك على المحجة البيضاء، ويحاكي الأسلوب النبوي الحكيم في جدال أهل الكتاب.

إننا في هذا المقام، أمام بحر زاخر من الحكمة النبوية لا ينضب معينه لأنه يستمد هذه الحكمة من أحكم الحاكمين، ربه ورب العالمين، الذي رباه بعد أن اصطفاه وبعثه رحمة للعالمين[4].

فحري بالمجادل المسلم أن ينهل من هذه الحكمة النبوية التي وضعها الله في شخص هذا الرسول ﷺ.

(ج) حكمة الأمم:

وقفنا مع الحكمة في كتاب الله المقروء، واستوقفتنا حكمة إمام المرسلين التي أنزلها الله عليه، فسلك عليها وعلمها أمته من خلال بيان الكيفيات العملية التطبيقية التفصيلية في كل عمل[5].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨.

(٢) بتمكن، كما يفيده حرف الاستعلاء «على». وإحكام كما تقتضيه معاني البصيرة.

(٣) ينظر: «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٤٧٧. و«قواعد الدعوة الإسلامية»: ٢٧٧. و«نحو أسلوب أمثل»: ٣٦.

(٤) «الأسلوب النبوي في الدعوة»: ٤٨٩.

(٥) قيل يعلمهم الكتاب أي الأحكام الشرعية، **والحكمة**: الكيفيات العملية التفصيلية. =

والآن نفتح على كتاب الله المنظور: كتاب العالم، لنطل على مجال آخر للحكمة.

يقول الله عز وجل:

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾[1].

تطلعنا الآية على حكمة ربانية، مضمونها أن سنن الله لا تحابي أحداً، وأن عطاءه سبحانه غير محبوس ولا ممنوع[2]. فالله تعالى يمد المؤمنين كما يمد الكافرين متى عملوا وفق سننه التي يقوم عليها نظام الكون والحياة.

والحكمة من عطائه سبحانه، يستمدها من اجتهد في تحصيلها وثابر. وقديماً قيل: من جد وجد[3].

وما تزال البشرية تطور من مستوى عيشها، وتغالب ما يعترض طريقها من صعوبات وعقبات، وهي في أثناء ذلك توسع من خبرتها وحكمتها.

وحكمة الأمم وتجاربها حق لكل البشر، إذ هي مجهود بشري ساهمت فيه كل الأمم والمسلم لا يخرجه إسلامه عن بشريته، بل هو أحق بهذه الحكمة، قال المصطفى ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها**»[4].

= راجع «مفهوم الحكمة»: ص ٢٧٣ وما بعدها من هذه الرسالة.

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٠.

(٢) **المحظور**: الممنوع، وحظر عليه كذا: حيل بينه وبينه. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٣٨. و«أساس البلاغة»: ١٣٢.

(٣) ينظر «كشف الخفاء» للإمام إسماعيل العجلوني الجراحي. باب حرف الميم.

(٤) أخرجه الإمام الترمذي، كتاب العلم، الباب الأخير. وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. ينظر سنن الترمذي: ٥/ ٥١. وأخرجه ابن ماجه، باب الحكمة. ينظر «سنن ابن ماجه»: ٢/ ١٣٩٥.

أحق بها لأمرين:

- لكونه إنساناً، والحكمة ملك البشرية.

- لكونه صاحب رسالة، فهو يريد أن يبلغها للعالمين بكل آية للبيان، وبكل وسيلة يتيحها العصر.

ويقف بنا البيان النبوي على هذا المصدر من مصادر الحكمة، فعن أبي سعيد (ت. ٧٤هـ) عن النبي ﷺ قال: «**لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة**»[١].

«**لا حكيم إلا ذو تجربة**»، **حكمة صدرت من فم الحكيم ﷺ**».

«**لا حكيم إلا ذو تجربة**»، وكأن التجارب هي الميدان الوحيد لتحصيل الحكمة. وهذا من تقدير الإسلام لتجارب الأمم. وكيف لا يكون للتجربة كل هذا الاعتبار وهي محك لصدق الأفكار وصوابها؛ فكم من فكرة لم تعش إلا حيناً من الدهر لما لم تصمد أمام محك التجربة، وكم من رأي كتب له الحضور والقوة لمّا أثبت صموده وثباته في ميدان الممارسة.

وقديماً قالت العرب: «رجل محكم: مجرب... وأحكمته التجارب: جعلته حكيماً»[٢].

والإسلام حين يشترط أسبقية العلم عن العمل؛ إذ العلم إمام العمل، لا تفوته فرصة التعلم والاستفادة من العلم الذي تخوله الممارسة، ولهذا فتح باب التعلم أثناء الممارسة. فالعمل هو الذي يصدق العلم أو يكذبه.

وكيف لا تكون التجارب مصدراً للحكمة، وهي تزيد في عقل الإنسان وتوسع مداركه. ورحم الله من قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: ٨٣. والترمذي في الصحيح باب ما جاء في التجارب: ٤٦٨. وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) «أساس البلاغة»: ١٣٧.

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع[1]

والشاعر يعني بالمطبوع العقل الغريزي الذي خلقه الله تعالى للإنسان، وبالمسموع ما يزداد به العقل الغريزي من التجربة، وجعله عقلاً ثانياً توسعاً وتعظيماً له، وإلا فهو زيادة في عقله الأول[2]. فليس الحزم إلا بالتجارب، لأن عقل الغريزة مسلم إلى عقل التجربة، ولذلك قال علي بن أبي طالب (ت. ٤٠هـ) رضي الله عنه: «رأي أحب إليّ من جلد[3] الشاب»[4].

وفي هذا يقول الشاعر:

ألم تر أن العقل زين لأهله وأن تمام العقل طول التجارب[5]

إن من مظاهر عظمة الإسلام وقوته: قابليته لاستعارة الحكمة أنى وجدت، وإثرائها، وإعادة ترتيبها، وتوظيفها لخدمة الأهداف العليا والمقاصد الشرعية.

فالحكمة ضالة المؤمن، ومطلوبه، لا يهدأ له بال حتى يعثر عليها، فإذا وجدها كانت له زيادة في عقله، وعوناً له على أمره.

قال الإمام علي كرم الله وجهه (ت. ٤٠هـ): «خذ الحكمة أنى كانت،

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه. ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٣٨٢.

(٢) ينظر «الكامل في التاريخ»: ١/ ٧.

(٣) جلد الشاب: قوته وصلابته. ينظر «مختار الصحاح»: ١١٤.

(٤) «البيان والتبيين»: ٢/ ١٥.

(٥) «معجم حكمة العرب»: ٨١. وهذا ما عبر عنه الإمام علي كرم الله وجهه بقوله: «العقل حفظ التجارب، وخير ما جربت ما وعظك» نفس المرجع.

فإن الحكمة تكون في صدر المنافق فتختلج[1] في صدره حتى تخرج فتسكن إلى صواحبها في صدر المؤمن»[2].

وقد أوصى الإسلام بتعلم الحكمة، والعمل بها وتعليمها احتساباً[3]. ودعا إلى التنافس في ذلك.

فعن عبد الله بن مسعود قال (ت. ٣٢هـ): قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها**»[4].

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «الحسد تمني زوال نعمة من مستحق لها، وربما كان مع ذلك سعي في زوالها. وروي «**المؤمن يغبط والمنافق يحسد**»[5]»[6].

أما الحسد المذكور في الحديث فهو الغبطة، وأطلق الحسد عليها مجازاً، وهي ـ الغبطة ـ تمني مثل ما لغيره من غير أن يزول عنه، والحرص على هذا يسمى منافسة[7].

والمراد بالحديث «**لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما**»[8].

---

(١) «تتحرك ولا تهدأ». «أساس البلاغة»: ١٧١.

(٢) «نهج البلاغة» للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. جمع محمد بن الحسين الموسوي الشريف الرضى: ٤١٨. ينظر «البيان والتبيين»: ٢/ ٣٢٠.

(٣) طلباً للأجر والثواب، لا فخراً ولا رياء.

(٤) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم الحكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٦/ ٨٤.

(٥) ينظر «الجامع لأحكام القرآن»: ٢٠/ ١٧٧.

(٦) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٣٢.

(٧) «الفتح»: ١/ ٢٢٤.

(٨) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٦/ ٨٥.

إن التعلم الدؤوب من إصابة الغير وأخطائه، من نجاح التجارب الفردية وفشلها، من أحداث العالم اليومية، كل هذا من شأنه أن يفتل في حبل المجادل المسلم، ويؤهله لأن يمثل صوت الإسلام بجدارة في مجادلته لأهل الكتاب.

فما على المجادل المسلم إلا أن يلتقط الحكمة أنى وجدها[(١)]، وعليه أن يقتحم بعزيمة وبلا تردد، وأن يلج باب الممارسة والتدرب، فإن أوسع مجال لتعلم الحكمة هو **مدرسة التجربة والتدرب**[(٢)].

وكثيرة هي العقبات التي يمكن أن تعترض السائر في بداية أي عمل، فتمانعه وعليه أن يغالبها بإرادة قوية حتى يتم الاقتحام. وبالاقتحام أوصى الله عز وجل في كتابه:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾[(٣)].

تحريض، وحض على الإقدام رغم الشدائد.

قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[(٤)].

هذا وعد من الله عز وجل بالتوفيق، والإنجاح لمن اجتهد وصبر. قال

---

(١) يقول رشيد سليم الخوري ـ «معجم حكمة العرب» ١٤٧ ـ مؤكداً هذا المعنى:

استق الحكمة يشغلك من ... أي ينبوع جرت يا مستقي

فشعاع الشمس يمتص الندى ... من فم الورد ووحل الطرق

(٢) وتتجلى أهمية التدريب على أمر ما، أنه بعد مدة من التدريب يصبح الأمر المتدرب عليه جزءاً من الإنسان ومن طبيعته، فيقوم به بعد ذلك بدون عناء أو تعب. يقول أحمد ديدات: التدريب! التدريب! وهكذا يصبح الأمر جزءاً منك ومن طبيعتك». ينظر «هذه حياتي» ٨٦.

(٣) سورة البلد، الآية: ١١.

(٤) سورة العنبكوت، الآية: ٦٩.

عز من قائل:

﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[1].

فبالعمل الدؤوب، والصبر المتواصل يتيسر ما صعب، ويبلغ السائر ما قصد، ويصير العمل الذي كنت تستثقله وتنفر منه محبباً إليك وجزءاً منك ومن طبيعتك.

يقول رائد في ميدان المجادلة مع أهل الكتاب، يحكي قصة تجربته في المجادلة» «لقد بدأت حياتي في الدعوة[2] بالتثنية[3]. ومن هذه البداية وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم، من قدرة على الحديث في مجال مقارنة الأديان. لقد عثرت على الفكرة والنص في كتاب «إظهار الحق» فيما كنت شاباً... قرأتها وحفظتها، وصارت هوايتي أن أتحدث عنها للآخرين، إلى حد أني كنت أتكلم مع أي مسيحي أقابله»[4].

و«من خلال التحدث معهم تعلمت كيف أتكلم، وأجادل، وأناقش»[5].

ثم يلخص لنا تجربة سنواته الأولى في هذه الحكمة التي يقدمها لكل مبتدىء، وينطلق في التأسيس لها من قوله ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»[6]، يقول: «فعلينا أن نبلغ ولو كنا لا نعرف إلا آية واحدة. إن سراً عظيماً يكمن وراء ذلك، فإنك إذا بلغت وناقشت وتكلمت، فإن الله يفتح أمامك آفاقاً جديدة، ولم أدرك قيمة هذه التجربة إلا فيما بعد»[7].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(٢) يقصد الدعوة في صفوف أهل الكتاب عامة، والنصارى خاصة.

(٣) يقصد الآية ١٨ من سفر التثنية.

(٤) «هذه حياتي»: ٧٧.

(٥) المرجع السابق: ٢٠.

(٦) سبق تخريجه، ص ١٧٠.

(٧) «هذه حياتي» ٢٢.

حفظ الله فارسنا وقدوتنا في هذا الميدان: أحمد ديدات، وأجزل الله له العطاء على ما قدم[1].

هكذا يتبين أن الممارسة ميدان لتعلم الحكمة، ومصدر معرفة لكل من يريد أن يبلغ رسالة الإسلام بأقوى بيان.

ثم إنه بالورود على حكمة أحكم الحاكمين، والإقبال على حكمة سيد المرسلين، والسعي إلى حكمة الأمم، يرجى للمجادل المسلم أن يرجع بالخير الكثير.

وفي ختام هذا الفصل، لا بد من التأكيد على أن المجادل المسلم مطالب بالمجادلة الحكيمة، وهذا لن يتأتى إلا بإعداد العدة: قوة في الحجة، ووضوحاً في الخطاب، وتقديراً لسنن الله في التغيير، خاصة سنة التدرج.

وليعلم أن للحكمة مظانها، فليطلبها في كتاب الله عز وجل، وسلوك رسول الله ﷺ. وتجارب الأمم ومهاراتها مروءات[2] ما أحوجنا إلى تأملها، وغربلتها لنغسلها بماء الإيمان ثم نستعين بها على أمرنا، ليكون جدالنا بالحكمة ومجادلتنا بالتي هي أحسن ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ

---

(١) إن عطاء أحمد ديدات في ميدان المجادلة مع أهل الكتاب، لا ينكره إلا جاهل أو مكابر. ويكفي فخراً أنه من رواد هذا الميدان في العصر الحاضر، ولن نبالغ إن قلنا إنه من الرموز الذين نبهوا على خطورة التفريط في هذا الثغر من ثغور الإسلام، ولعل سر ريادته يكمن في حرقته أولاً، وتهممه لقضية الإسلام ودعوة الناس إليه، ثم إلى تفرغه ثانياً: بالوقت والجهد لهذه المهمة، وما عطاءات مركز الدعوة الإسلامية بدربان (بجنوب إفريقيا) إلا عربون صدق الرجل، فجزاه الله خيراً، وجزى الله العاملين معه وجزى الله جند الدعوة عن الإسلام خير الجزاء. وللإشارة فإن تجربة أحمد ديدات في هذا الميدان قد ساهمت في بعث إرادتي للبحث في هذا المجال، جعلنا الله خير خلف لخير سلف، آمين.

(٢) «كمال الرجولية والإنسانية». «أساس البلاغة»: ٥٨٧.

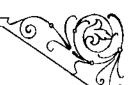
أَحۡسَنُ﴾[1].

هذا بيان للمجادلة بالحكمة، وهو جانب بالتي هي أحسن، يهتم بخطاب العقل وإقناعه بالحجة والدليل، أما الجانب الثاني فيتعلق بمخاطبة العاطفة والوجدان.

وهو الذي أفردت له الفصل الثاني من هذا الباب، واخترت له عنوان المجادلة بالموعظة الحنسة. **فماذا عن دلالات هذا الأسلوب؟**.



(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.



الفصل الثاني

المجادلة بالموعظة الحسنة

ويشتمل على:

تمهيد.

مقدمة.

المبحث الأول : أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة: مفهومه وأهميته.

المبحث الثاني : مقتضيات المجادلة بالموعظة الحسنة.

تمهيد:

المجادلة بالموعظة الحسنة جزء من المجادلة بالتي هي أحسن التي أمرنا بالتزامها في جدالنا لأهل الكتاب. وقد اخترت تناول قضايا هذا الفصل عبر الخطوات الآتية:

مقدمة: أحدد فيها موقع هذا الأسلوب من المجادلة بالتي هي أحسن.

المبحث الأول: في مفهوم المجادلة بالموعظة الحسنة. أقف فيه على مفهوم المجادلة بالموعظة الحسنة، من خلال تحديد معاني الموعظة الحسنة أولاً، ثم دلالات المجادلة بالموعظة الحسنة ثانياً.

المبحث الثاني: في بيان مقتضيات المجادلة بالموعظة الحسنة. أبرز فيه ما يستوجبه اختيار أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة من ضوابط سلوكية وأخلاقية.

وأثناء التحليل سأقف على مجموعة من الضوابط تلخص وتجمل كثيراً من المعاني المرتبطة بهذا الأسلوب، في عبارات جامعة.

وعليه سيكون تصميم هذا الفصل كالآتي:

- **مقدمة**: الموعظة الحسنة شرط في المجادلة بالتي هي أحسن.
- **المبحث الأول** : أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة: مفهومه وأهميته.
- **المبحث الثاني**: مقتضيات المجادلة بالموعظة الحسنة.

مقدمة:

الموعظة الحسنة شرط في المجادلة بالتي هي أحسن

مر معنا أن القرآن الكريم اختار «التي هي أحسن» أسلوباً للمجادلة مع أهل الكتاب من خلال قوله تعالى:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[1].

وقد جسدت السيرة النبوية هذا الأسلوب من خلال نماذج المجادلة التي سلكها رسول الله ﷺ مع أهل الكتاب، سواء من جاءه منهم يريد معرفة هذا الدين، أو من كاتبهم يبلغهم الرسالة.

ولم يتخل ﷺ عن سلوك التي هي أحسن حتى مع الكائدين له من أهل الكتاب: عن عروة بن الزبير (ت. ٩٤هـ) أن عائشة رضي الله عنها (ت. ٥٧هـ) زوج النبي ﷺ قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم[2] قالت عائشة: ففهمتها فقلت: وعليكم السام واللعنة. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا؟ قال

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) السام: الموت. ينظر «مختار الصحاح»: ٣١٠. وهذا كيد ضعيف من كيد اليهود للإسلام والمسلمين.

رسول الله ﷺ: «**قد قلت وعليكم**»[1].

إن الله يحب الرفق في الأمر كله، وهل الرفق واللين إلا تطبيق للتي هي أحسن؟ قال الإمام الشنقيطي (ت. ١٣٩٣هـ) في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2]: «أمر الله جل وعلا نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة: أن يجادل خصومه بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة: من إيضاح الحق بالرفق واللين»[3].

فمن احتاج من أهل الكتاب إلى مناظرة أو مجادلة فليكن «بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب»[4].

فاختيار التي هي أحسن، هو اختيار للكلمة الأفضل التي تعطي المعنى ولا تثير الحساسيات. وهو اختيار للجو الأحسن الذي يمكن أن يشعر الآخرون فيه بجو الصداقة والمحبة[5].

إن القرآن حين اختار أن يبني اقتناعات الناس على أساس الحجة والدليل الذي يطمئن إليه العقل، لم يبغ عن الكلمة الطيبة الهادئة بديلاً: رفقاً يأخذ بيد الحائر إلى الحق، ويمهد للتفاهم، فجمع القرآن الكريم بين القوة في الحجة والرفق في الخطاب، ودعا للجمع بين الحسنيين: قوة الحجة، وحسن العرض.

وكل هذه المعاني جمعها قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[6].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله. ينظر «الفتح»: ١٢/ ٦٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» لمحمد أمين بن محمد بن المختار الحبكني الشنقيطي: ٢/ ٤٦٥.

(٤) «الأساس في التفسير»: ٦/ ٣٠٠٩. وينظر أيضاً: «بنو إسرائيل في القرآن والسنة»: ١٢٠ - ١٢١.

(٥) ينظر «في آفاق الحوار»: ١٩٨.

(٦) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

قال محمد التومي: «والجدال بالتي هي أحسن وإقناع الناس بالكلمة الطيبة وإبانة الحق بالهدوء والحجة الظاهرة، وإثباته وتركيزه بالأدلة القاطعة مبدأ عام ومنهج دائم، لا يقبل الإسلام تعطيله، ولا التفريط فيه كلما كانت هناك دعوات ومناظرات ومحاورات»[1].

وبهذا تأدب سلفنا الصالح في مجالس المطارحة والمناظرة مع الخصماء إذ كانوا يصدرون خطابهم بالكلمة اللينة، فتبسط أمام المتناظرين من أسباب الرفق ما يمهد للتفاهم دون أن يمنع الإنصاف الذي يعطي كل ذي حق حقه.

ثم إن اختيار التي هي أحسن الجامعة بين رفق الكلمة، وقوة الحجة البينة ينسجم مع جوهر الإنسان وطبيعته من جهة، ومع غاية المجادلة القرآنية ورسالتها من جهة أخرى:

ـ فمن حيث طبيعة الإنسان نجد أن العاطفة والعقل هما جوهر الوجود الإنساني، ومن ثم لا يستطيع الإنسان أن يعيش بالعقل وحده ولا بالعاطفة وحدها، فلا بد إذن من «تمازج عضوي بينهما، يكون العقل فيه عقلاً وجدانياً، ويكون الوجدان فيه وجداناً عاقلاً»[2].

فعلمنا من هذا ضرورة الجمع بين خطاب العقل وخطاب الوجدان، ليكون إسماعنا للحق كاملاً، وغرضنا في الإقناع محققاً.

ويقف بنا عبد الله دراز على هذه الحقيقة في قوله: «في النفس الإنسانية قوتان: قوة تفكير، وقوة وجدان. وحاجة كل واحدة منها غير حاجة أختها. فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته، وعن الخير للعمل به. وأما أخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم. والبيان التام

---

(١) «الجدل في القرآن»: ٢٩.

(٢) «القرآن ومنهج التفكير». محمد عبد الواحد حجازي: ٢١١.

هو الذي يوفي لكل هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً»[1]. فكان لزاماً على من يروم التي هي أحسن في المجادلة أن يجمع في خطابه بين إقناع العقل وإمتاع العاطفة.

ـ كما أن التي هي أحسن تنسجم مع غاية الجدل القرآني ورسالته: إذ الجدل القرآني يحرص على تحريك أعمق ما في الإنسان وهو الإرادة. لكي ينقله من إرادة الباطل إلى إرادة الخير والحق، من خلال عملية إقناع يشارك فيها العقل والقلب معاً. فالمجادلة القرآنية إقناع بالحق وتقوية لإرادة الخير[2] يساهم فيها العقل والقلب معاً.

وقد بين الدكتور سعيد رمضان البوطي أن الكلمات والأفكار إذا انتهت إلى الآذان والأذهان، منفصلة عن جذوة الروح، وقفت عند دهليز كل منهما ميتة باردة لا تصلح فساداً، ولا تقوم اعوجاجاً، ولا تغير منكراً[3].

وكيف يرجى صلاح العمل، وتغير الحال بالكلمات والأفكار التي لم تبلغ القلب الذي هو محل الإرادة.

إن تمازج وتوازن خطاب العقل والقلب هو الذي يثمر انبعاث الإرادة واستجابتها، وذلك هو مقصود القرآن[4]، وهدف المجادلة.

---

(١) «النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن». محمد عبد الله دراز: ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) إن المتتبع لمسار الجدل القرآني يرى أنه لا يكتفي بتحدي الخصم وإلزامه، وإفحامه وإبطال دعواه بوسائل عدة، إنما يتجه في كثير من الأحيان إلى إرشاد الخصم إلى الطريق السوي، حتى يسعد في دنياه وآخرته. ينظر «أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم»: ٩٠.

(٣) «شخصيات استوقفتني»: ١٢.

(٤) ينظر «دليل الأنفس»: ٤٢.

إن الله العليم الخبير بتكوين الإنسان وطبيعته يريد منا أن نأتي الإنسان من كل جوانبه وزواياه[1] لعله يرجع إلى الحق، فعلمنا كيف نخاطب العقل ونحرك الوجدان[2]، وهذا تكريم إلـٰهي للإنسان، واحترام لإرادته وفكره ومشاعره.

وإذا كنا قد بينا الجانب العقلي في المجادلة القرآنية من خلال حديثنا عن المجادلة بالحكمة، فإننا أفردنا هذا الفصل للجانب الوجداني في هذه المجادلة، وهذا ما سيتبين من خلال التفصيل في المجادلة بالموعظة الحسنة.

ماذا إذن عن مفهوم هذا الأسلوب القرآني في المجادلة؟ وما هي مقتضياته في جدالنا مع أهل الكتاب؟



(١) ينظر «فنون التبليغ القرآني»: ١٢١ و٢٦١. و«أسلوب المحاورة»: ٤٤.
(٢) ينظر «الجدل في القرآن». محمد التومي: ٦٩. و«مناهج الجدل»: ٦٤.

المبحث الأول

أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة
مفهومه وأهميته

تمهيد:

لإدراك الوجه الثاني للمجادلة بالتي هي أحسن، وجب تحديد مفهوم أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة، وبيان أهميته. وهذا ما سأعرض له من خلال المحورين الآتيين:

الأول: في مفهوم المجادلة بالموعظة الحسنة.

الثاني: في أهمية المجادلة بالموعظة الحسنة.

١ــ مفهوم المجادلة بالموعظة الحسنة

للوقوف على مفهوم المجادلة بالموعظة الحسنة، لا بد من تحديد دلالات الموعظة الحسنة أولاً[١].

(أ) الموعظة الحسنة:

تدور معاني الموعظة في اللغة على النصح والتذكير المتراوح بين لين

(١) أما عن مفهوم المجادلة، فينظره في المدخل الذي خصصته لذكر المصطلحات الأساسية في هذه الرسالة.

يرق له القلب، وزجر مقترن بتخويف:

قال الحافظ ابن حجر (ت. ٨٥٢هـ): «الموعظة النُّصح والتذكير»[1].

وقال الخليل (ت. ١٧٠هـ): «الوعظ التذكير بالخير فيما يَرقّ له القلب»[2].

وقال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «الوعظ زجر مقترن بتخويف. قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]»[4].

وقبل الانتقال إلى الدلالات الاصطلاحية للموعظة، لا بد من الحديث عن معنى النصح إذ هو أساس الموعظة.

وسأكتفي بالتعريف الآتي: «النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحب»[5].

قال تعالى على لسان نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام:

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[6].

فتحري صلاح المخاطب هو الهدف من الموعظة. ولهذا قال الإمام النسفي - في تحديده لدلالة الموعظة الحسنة -: «هي التي لا يخفى عليهم - أي على من تخاطبهم - أنك تناصحهم بها، وتقصد ما ينفعهم فيها»[7].

وأكد هذا المعنى الإمام الطباطبائي بقوله: «والموعظة هي البيان الذي

---

(١) «الفتح»: ١/٢١٨.

(٢) ينظر «الجامع لأحكام القرآن». القرطبي ج١/٣٠١. ينظر «معجم ألفاظ العلم والمعرفة»: ١٦٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٤) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٦٠٠.

(٥) المصدر السابق: ٥٤٩. ينظر «أساس البلاغة. ٦٥٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٧٩.

(٧) ينظر «الأساس في التفسير»: ٦/٣٠٠٨.

تلين به النفس، ويرق له القلب، لما فيه من صلاح حال السامع»[1].

«وعلم المواعظ، هو العلم الذي يعرف به ما هو سبب الانزجار عن المنهيات، والانزعاج إلى المأمورات بما يناسب طباع عامة الناس، وغايته تكميل النفوس بالعلم والعمل، بما يحقق الفوز بالسعادتين الدينية والدنيوية»[2].

فالموعظة تتجه إلى القلب لتوقظه من غفلة[3]، وتنقذه من حيرة، إذ هي الكلمة العاطفية التي تدخل إلى القلوب برفق وأناة وهدوء فتلطف من حرارة الصدر، وتعمق المشاعر بلطف، وتنعش الوجدان في تؤدة[4]. وتدفع إلى استشعار روحانية الدعوة، فهي ترطيب للفكر الثائر. . . وإنقاذ من حيرة لا شعورية وطمأنينة تسكن ثورة الجموح، وكثيراً ما هديت القلوب الشاردة بالموعظة الحسنة[5].

فلا عجب إذن أن يجعل الله الوعظ وظيفة أنبيائه ورسله وأصفيائه[6]. ويجعل بعض كتبه المنزلة مواعظ وعبراً كالزبور، وأن يسمي القرآن موعظة.

قال تعالى:

---

(١) «الميزان»: ١٤/ ٣٧٢.

(٢) «موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة»: ٩٤٢.

(٣) ولن يقوى على التأثير في غيره، من لم يتعظ بقوله: واعظ لا يتعظ، عليم اللسان، أنى تؤثر موعظته.

(٤) التؤدة تريث وتأن وطول نفس. ينظر «مختار الصحاح»: ٦٥٦.

(٥) ينظر «الدعوة الإسلامية» في عهدها المكي منهاجها وغايتها للدكتور رؤوف شلبي: ٢٨٤. والوعظ بهذا التعريف يتجاوز ما هو مشهور بين الناس باعتبار الموعظة كلمة محدودة ترقق القلوب فقط، بل هي عمل تربوي وطريقة تبتغي أحسن السبل من أجل ترسيخ المعاني التربوية في النفوس، وليست عملاً مبتوراً في الزمان والمكان، من قبيل: قل كلمتك وامش. بل هي نظر للمستقبل (التذكير بالعواقب). ينظر «النداء التربوي» مجلة تربوية ثقافية شهرية، العدد ١٠ السنة الرابعة ١٤٢٢/ ٢٠٠١: ٧.

(٦) ينظر «الرسول المعلم ﷺ»: ١٩٠.

﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1].

ومما يبرز حضور جانب الوعظ والتذكير في الخطاب القرآني أن الآيات التي تعالج الجانب التشريعي لا تخلو من التوجيه إلى القلب تذكره وتستنهضه، فهي لا تساق سوقاً جافاً تخاطب العقل وتغفل القلب، وإنما تتخللها الموعظة والتذكير فتصبح هي بدورها موعظة وذكرى «ألا تراه في معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق، وتحذير وتنفير، وتهويل وتعجيب، وتبكيت وتأنيب؟ يبث ذلك في مطلع آياته ومقاطعها وتضاعيفها ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[2]»[3].

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي (ت. ٢٧٩هـ) عن العرباض بن سارية (ت. ٧٥هـ) قال: «وعظنا رسول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة[4] موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب. فقال رجل: إن هذه موعظة مودع، فبماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: **أوصيكم بتقوى الله** ـ ثم ذكر بقية الحديث ـ»[5].

وعن ابن مسعود قال (ت. ٣٢هـ): «كان النبي ﷺ يتخولنا[6] بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»[7].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٣) «النبأ العظيم»: ١٦٦.

(٤) يقصد صلاة الصبح. ينظر «مختار الصحاح»: ٤٤٥.

(٥) أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة، ينظر «الجامع»: ٦٠٧.

(٦) قال الخطابي: «الخائل هو القائم المتعهد للمال... والمعنى كان يرعى الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل». «الفتح» ١/ ٢١٩.

(٧) أخرجه البخاري كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، ينظر «الفتح»: ١/ ٢١٨.

وخلاصة القول: **إن الموعظة الحسنة خطاب إلى القلوب، بالكلمة الطيبة اللينة الرفيقة، باعثها إرادة الخير للناس، ووظيفتها التحريض على العمل الصالح والترغيب فيه**(١).

هذا عن مفهوم الموعظة الحسنة **فماذا عن مفهوم المجادلة بالموعظة الحسنة؟**.

(ب) المجادلة بالموعظة الحسنة:

إن حاجتنا لخطاب يبلغ الأسماع، ويحرك في المخاطب إرادة الحق والعمل الصالح لن تتحقق إن لم ينفذ كلامنا إلى أعماق القلوب حتى تنفعل معه وله(٢)، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق الموعظة الحسنة فهي «أبلغ إلى القلب، وأسرع إلى الوجدان، وأقرب إلى التنفيذ المنبعث عن التطوع والرغبة والحياء»(٣).

ثم إن الحاجة إلى الموعظة الحسنة تتجاوب مع طبيعة النفس البشرية المستعدة» للتأثر بما يلقى إليها من كلام الله... والموعظة المؤثرة تفتح طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان وتهزه هزاً وتثير كوامنه»(٤).

وفي النفس أيضاً «دوافع فطرية في حاجة دائمة للتوجيه والتهذيب ولا بد في هذا من الموعظة»(٥).

إن الخطاب القرآني الموجه إلى الفطرة البشرية والإرادة، وهما جوهر الإنسان، هو الخطاب الشامل الذي يجمع بين الإنذار والبشارة، بين

---

(١) «إن وظيفة الواعظ المذكر، هي التحريض على العمل والترغيب فيه». «فيض الباري» للكشميري: ٢٨٠.

(٢) «الموعظة انفعال قلبي مع الخطاب». ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٢٦٧.

(٣) «الظلال»: ٢/ ٦٨٩.

(٤) «منهج التربية الإسلامية». محمد قطب: ١/ ١٨٧.

(٥) المرجع نفسه.

الترغيب والترهيب، بين الاستنهاض والزجر، بين التحريض العاطفي والتنوير العقلي، لهو وحده القادر على تبليغ كلمة الحق إلى أعماق القلوب، وهو الكفيل أن يحقق لخطابنا الإقناع الكامل، والفاعلية التي تغير الإرادات، وتحول الكلام إلى عمل.

فالمجادلة بالموعظة الحسنة إذن: **تبليغ لكلمة الحق إلى أعماق القلوب، ونصيحة مشفق، تنبعث من القلب لتستقر في وجدان المخاطب، فتحرك فيه إرادة الخير، بالرفق واللين، تبشيراً لا تنفيراً.**

٢ــ أهمية المجادلة بالموعظة الحسنة:

للمجادلة بالموعظة الحسنة مزايا لا يمكن الاستغناء عنها في جدال أهل الكتاب نذكر منها:

ـ إن المجادلة بالموعظة الحسنة مكملة للمجادلة بالحكمة، إذ مهما تبلغ الحجة من القوة، ومهما يبلغ الخطاب من الوضوح والبيان، قد لا يحرك ذلك من إرادة المجادل شيئاً؛ بل إن المجادل قد يقتنع عقلياً بجدية الفكرة، ويذعن لسلطان البرهان، لكنه لا يقوى على التنازل عن الرأي الذي يدافع عنه إلا بالرفق حتى لا يشعر بالهزيمة إذ «سرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدال بالتي هي أحسن ـ قلت: خاصة جانب المجادلة بالموعظة الحسنة ـ هو الذي يحط من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها في سبيل الله لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر»[1].

لا جرم أن من واجبنا مد الجسور برفق ومحبة وحدب أمام الناس

---

(١) «الظلال»: ٤/ ٢٢٠٢.

ليحتفظ الناس بسمعتهم واعتدادهم بأنفسهم وحرمة شخصيتهم، حتى لا يخجلوا من عودتهم من الخطأ إلى الصواب، ومن الضلال إلى الهدى. وهذا لا يتحقق إلا بالتزام أسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة.

ـ المجادلة بالموعظة الحسنة خطاب باللين والرفق، والله عز وجل يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف[1]. والرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ[2].

والمجادلة بالموعظة الحسنة، جدال بـ«الكلمة الندية الرقيقة التي تلمس القلوب فترق بها وتخالط النفوس فتهش بها وتفرح لها»[3]، ووقع القول الطيب أبلغ في النفس الإنسانية، وينتج عن سرعة الاستجابة[4]. وذلك غاية المجادلة القرآنية: أن ينفعل المجادل مع النداء من خلال استجابة كاملة، قلباً وقالباً.

هذه بعض مزايا هذا الأسلوب، وهي تبرز أهميته، وضرورته في جدال أهل الكتاب.

ويجمل بنا أن ننبه على أن دلالات المجادلة بالموعظة الحسنة لا تقف عند الكلمة الرفيقة المتحببة إلى القلوب، بل الأمر أوسع من ذلك فهي

---

(١) ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»، كتاب البر والصلة والآداب، باب ما فضل الرفق: ج ١٦/١١٩.

(٢) «الظلال»: ٤/٢٢٠٢. وفي هذا السياق يقول د. وهبة الزحيلي: «يتأثر الإنسان غالباً بلين الكلام ولطفه، وينفر من الغلظة والقسوة والاستعلاء، فعلى الداعي أن يأخذ بالرفق ما أمكنه ذلك، حتى يحقق الهدف الذي يرجوه، وهو استجابة المخاطبين لدعوته، ومبادرتهم إلى تغيير معتقداتهم، وهذا ليس بالأمر السهل عادة». «الموجز في معاملة غير المسلمين»: ١٤٩.

(٣) «أسس الدعوة إلى الله تعالى»: ٦٦.

(٤) «الأسلوب النبوي في الدعوة»: ٤٩١.

تشمل كل وسيلة تناجي الوجدان، وينفعل معها المجادل بقلبه وعواطفه.

فجانب الأخلاق والآداب التي يتصف بها المجادل المسلم تدخل في باب المجادلة بالموعظة الحسنة لأن **القوة الأخلاقية**[1] لا تقل في تأثيرها عن قوة الحجة، فهي وإن لم تساهم بشكل مباشر في إقناع المجادل الكتابي إلا أنها تهيىء المحل لقبول كلمة الحق الرفيقة المنصفة.

كما أن جانب السمت[2] والهيئة يندرجان أيضاً ضمن هذا اللون من المجادلة، فالمجادلة تبدأ بالحال قبل المقال.

والقدوة الحسنة، والسيرة الطيبة التي يعرف بها المؤمن المجادل تساهم أيضاً وبشكل قوي في تعزيز اقتناعات المجادل الكتابي بصدق ما يعرض عليه وجديته.

كما أن اتزان المسلم أثناء المجادلة، وهيبته تعطي الطمأنينة للمجادل الكتابي، وتعده لقبول الحق والاعتراف به.

إن المجادلة بالموعظة الحسنة تشمل كل الفنون والوسائل التي تؤثر في عمق من نجادلهم، فتهيىء المحل لقبول الحق، والإذعان له بالقول اللين تارة، وبالفعل الجميل تارة أخرى.

وأخيراً أشير إلى أن للمجادلة بالموعظة الحسنة مقتضيات، لا بد من الوقوف عندها حتى يكتمل تصورنا لأبعاد هذا اللون من المجادلة، وأهميته. وهذا ما سأفصل فيه في المبحث الموالي.

---

(١) «إن من الوسائل المهمة جداً في تبليغ الدعوة إلى الله، وجذب الناس إلى الإسلام، القدوة الطيبة للداعي، وأفعاله الحميدة، وصفاته العالية، وأخلاقه الزكية، مما يجعله أسوة حسنة لغيره، يكون بهذا نموذجاً يقرأ فيه الناس معاني الإسلام فيقبلون عليها، وينجذبون إليها». «نظرة النعيم»: ٢/ ٣٥١.

(٢) «السمت: الهيئة، يقال: ما أحسن سمته» «أساس البلاغة»: ٣٠٦.

المبحث الثاني

مقتضيات المجادلة بالموعظة الحسنة

تمهيد:

المجادلة بالموعظة الحسنة تحريك لوجدان وعاطفة من نخاطب، بالرفق واللين، بالتبشير لا التنفير، بباعث حب الخير للناس والنصح لهم.

لهذا اقتضت المجادلة بالموعظة الحسنة أموراً منها:

١ ـ الرحمة القلبية.

٢ ـ الرفق واللين.

٣ ـ البشارة والنذارة.

١ ـ الرحمة القلبية

للحديث عن الرحمة القلبية، وجب التنبيه على مفهوم الرحمة وأصولها ومظاهرها. وهذا ما سأعرض له عبر الخطوات الآتية:

(أ) مفهوم الرحمة.

(ب) أصول الرحمة.

(ج) مظاهر الرحمة.

(أ) مفهوم الرحمة:

قال الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ): «رَحم: رَحِمته رَحْمة ومرحَمة ورحِماً، وما أقرب رُحم فلان إذا كان ذا مرحمة... وترحمّت عليه واسترحمته: استعطفته، وتراحموا: تعاطفوا»[(١)].

«ورحِمه يرحَمه، إذا رقّ له وتعطف عليه، والمرحمة والرحمة بمعنى واحد»[(٢)]. يقال: رق له، وأشفق عليه، ورحمه، ورئف به، وحن عليه، وعطف عليه، ولان له، ولطف به، ورفقت به. وكلها في معنى واحد[(٣)].

فمدار الرحمة في اللغة على معاني الرقة والتعطف.

وفي الاصطلاح[(٤)] هي «رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو: «رحم الله فلاناً. وإذا وصف به الباري فليس يراد إلا الإحسان المجرد دون الرقة»[(٥)].

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[(٦)].

رأفة ورحمة أي «مودة، فكان بعضهم يواد بعضاً... وقيل: الرأفة

---

(١) «أساس البلاغة»: ٢٢٥.

(٢) «مجمل اللغة»: ج١/ ٤٢٤. القاموس المحيط: ج٤/ ١١٩.

(٣) ينظر «نجعة الرائد وشرعه الوارد في المترادف والمتوارد» إبراهيم اليازجي: ج١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٤) تدل الرحمة في القرآن الكريم على معاني عدة، أوصلها البعض إلى ستة عشر وجهاً. ينظر «الأشباه والنظائر» للثعالبي: ١٦١ وما بعدها. و«نزهة الأعين النواظر»: ٣٣١ وما بعدها. و«قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم» للفقيه المفسر الجامع الحسين بن محمد الدامغاني: ٢٠١.

(٥) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

أشد الرحمة[١]، والرأفة اللين، والرحمة الشفقة»[٢].

وقال الكرماني (ت. ٥٤٣هـ): «الرحمة عبارة عن القدرة المتعلقة بإيصال الخير»[٣].

و«الرأفة: الرحمة»[٤].

و«يقال: فلان ذو رأفة ورحمة... وقد رأفته واسترأفته: استعطفته، وما لبني لا يتراءفون: لا يتراحمون»[٥].

فالرحمة مودة في القلب، ورقة وشفقة بالمرحوم، تستوجب الإحسان إليه، والتلطف به، والرأفة واللين في إيصال الخير إليه.

(ب) أصول الرحمة الإلـهية:

الرحمة مصدرها الله سبحانه، وقد وصف الله نفسه في القرآن بهذه الأوصاف:

﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٦].

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٧].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٨].

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾[٩].

---

(١) ينظر «المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن»: ١٥٢.

(٢) «جامع الأحكام». القرطبي: ج١٧/ ١٧٠.

(٣) ينظر «فتح الباري»: ١٢/ ٤٣.

(٤) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢٠٦.

(٥) «أساس البلاغة»: ٢١٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٥١، سورة يوسف، الآية: ٦٤.

(٧) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٨) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

(٩) سورة الفاتحة، الآية: ٣، وسورة البقرة، الآية: ١٦٣.

ومن أسمائه عز وجل الحسنى: الرحمٰن الرحيم[1] «فالرحمٰن: الذي الرحمة وصفه، والرحيم الراحم لعباده»[2].

«فإذا وصف الله عز وجل بالرحمة فليس يراد إلا الإحسان المجرد دون الرقة... فركز تعالى في طبائع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان»[3].

«وأما الرحمة: فهي التعلق، والسبب الذي بين الله وبين عباده... بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة»[4].

قال عز من قائل:

﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[5].

وفي الحديث عن أبي هريرة (ت. ٥٩هـ) رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «**لقد حجرت**[6] **واسعاً**» يريد رحمة الله»[7].

---

(١) وهما اسمان مشتقان من الرحمة، وهما من أبنية المبالغة. ورحمان أبلغ من رحيم، والرحمان خاص لله لا يسمى به غيره، ولا يوصف. والرحيم يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال رحمان. ينظر «النهاية في غريب الحديث»: ج٢/ ٢١٠.

(٢) «تهذيب مدارج السالكين»: ٤٠.

(٣) «معجم مفردات ألفاظ القرآن: ٢١٥ ـ ٢١٦. ينظر «القاموس الإسلامي»: ج٢/ ٥٠٧.

(٤) «تهذيب مدارج السالكين»: ٤٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦. ورد في معجم مفردات ألفاظ القرآن» ـ ٢٤٢ـ: «وتطلق الرحمة أيضاً على ما يكون سبباً في رحمة الله من كتاب أو رسول. وتطلق على النعمة التي تنشأ عن الرحمة».

(٦) ضيقت، «يقال حجر ما وسعه الله، ضيقه على نفسه». «أساس البلاغة»: ١١٣.

(٧) أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ينظر «الفتح»: ١٢/ ٥٠. رقم: ٦٠٠٨.

قال ابن بطال (ت. ٤٤٩هـ): «أنكر ﷺ على الأعرابي لكونه بخل برحمة الله على خلقه، وقد أثنى الله تعالى على من فعل خلاف ذلك حيث قال:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾[1]»[2].

فرحمة الله واسعة لا يضيقها جهل الجاهلين: ففي الحديث الذي أخرجه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»[3].

قال الكرماني (ت. ٥٤٣هـ): «الرحمة هنا عبارة عن القدرة المتعلقة بإيصال الخير، والقدرة في نفسها غير متناهية، والتعليق عير متناه، لكن حصره في مائة على سبيل التمثيل تسهيلاً للفهم، وتقليلاً لما عند الخلق، وتكثيراً لما عند الله سبحانه وتعالى»[4]. فلو يعلم الكافر بكل ما عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة[5].

فالرحمة الإلهية إذن هي ما جاء من الله تعالى للعبد هداية كبعثة الرسل

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) ينظر «الفتح»: ١٢/ ٥١.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب جعل الرحمة في مائة جزء، رقم ٦٠٠٠. ينظر «الفتح»: ١٢/ ٤٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقاق، باب «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها». ينظر «الفتح»: ١٣/ ٩١.

إليه، والرحمة تعلق القلب بتلك الهداية، والاستمساك بعروتها حتى تنور كيانه.

*** الرحمة النبوية[1]:**

ثم إن من آثار رحمة الله عز وجل بعباده ما أرسله من الرسل إليهم هداية للصراط المستقيم، وقد عرض علينا القرآن الكريم مواقف تتجلى فيها رقة وشفقة الأنبياء عليهم السلام بأقوامهم[2].

وختم الله عز وجل سلسلة الرسل عليهم السلام، بالرحمة المهداة، والسراج المنير الذي جعله الله عز وجل رحمة لا لقومه فحسب بل للبشر جميعاً، بل للعالمين: إنساً وجناً وحيواناً.

قال الله تعالى يحدد مضمون الرسالة التي بعث بها محمد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾[3].

«ولقد كانت رسالة محمد ﷺ رحمة لقومه، ورحمة للبشرية كلها من بعده. وما تزال ظلال هذه الرحمة وارفة، لمن يريد أن يستظل بها، ويستروح فيها نسائم السماء الرخية في هجير الأرض المحرق، وبخاصة في هذه الأيام»[4].

فلا عجب أن يكون من معالم السلوك النبوي: «الرحمة بخلق الله جميعاً، القريب والبعيد، والمسلم والكافر، الإنسان والحيوان. لقد جعل الله تعالى عنوان رسالة محمد ﷺ الرحمة، بل حصرها في الرحمة،

---

(١) ينظر «قطوف دانية من الرحمة النبوية» للأستاذ محمد اعراب باعسو: ٢١ وما بعدها.

(٢) قال الله عز وجل على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨].

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) «الظلال»: ٤/ ٢٤٠١ ـ ٢٤٠٢.

حيث قال له مخاطباً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1]»[2].

وبين رسول الله ﷺ معاني الرحمة التي جبل عليها حتى أصبحت له طبعاً ووصفاً لازماً، قال ﷺ: ـ وهو ينادي في الناس ـ: «**أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة**»[3].

«إنما» بهذه الأداة الحاصرة المعبرة.. إنه رسول الله ﷺ الرحمة المهداة وكفى.

قال الله عز وجل ـ يصف رحمة رسول الله ﷺ بأمته واتباعه ـ:

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[4].

وكان ﷺ هينا لينا للمؤمنين، ملىء قلبه شفقة عليهم، قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾[5].

وهكذا فاضت رحمة الله عز وجل التي أودعها قلب محمد ﷺ على من حوله من المؤمنين خاصة، وعلى الناس عامة، ليناً ورفقاً وشفقة وتحبباً وطيب كلام. فاجتمعت القلوب على محبته، وتألفت لما وجدت من لين جانبه.

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «والفظ الغليظ المراد به هنا غليظ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٢) «السنة مصدر للمعرفة والحضارة». د. يوسف القرضاوي: ٢٩٠.

(٣) صححه الحاكم، وأخرجه ابن كثير عن أبي هريرة من طرق عدة، ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٢٠٢.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الكلام[1] لقوله بعد ذلك غليظ القلب، أي لو كنت سيىء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم»[2].

قال الإمام علي (ت. ٤٠هـ) كرم الله وجه يصف رسول الله ﷺ: **«من رآه بديهة هابه، ومن خالطه عن معرفة أحبه»**[3].

وكيف لا تحبه القلوب وتتعلق بمحبته وقد وجدت فيه الرحمة واللين؟

عن أبي سليمان مالك بن الحويرث (ت. ٩٤هـ) قال: أتينا النبي ﷺ ونحن شببة[4] متقاربون فأقمنا عنده عشرين ليلة فظن أنا اشتقنا أهلنا وسألنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرناه، وكان رفيقاً رحيماً فقال: **«ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ثم ليؤمكم فليؤمكم أكبركم»**[5].

ولم تقتصر رحمته ﷺ على الكبير دون الصغير، فعن أنس رضي الله عنه (ت. ٩٠هـ) أن النبي ﷺ قال: **«إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فاسمع بكاء الصبي فأجوز[6] في صلاتي مما أعلم من شدة وجد[7] أمه من بكائه»**[8].

---

(١) قال الإمام القرطبي: «وغلظ القلب عبارة عن تجهم الوجه، وقلة الانفعال في الرغائب، وقلة الإشفاق والرحمة». «جامع الأحكام: ج ٤/ ١٦٠.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ١/ ٣٩٦.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي عن علي رضي الله عنه، باب ما جاء في صفة النبي ﷺ. ينظر «سنن الترمذي»: ٥/ ٥٩٩.

(٤) «شببة جمع شاب، وقوم شبان وشباب وشببة». «أساس البلاغة»: ٣١٨.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم. ينظر «الفتح»: ١٢/ ٥٠ رقم ٦٠٠٨.

(٦) أتجوز: أخفف وأقلل. وتجوز في صلاته خفف. ينظر «مختار الصحاح»: ١٢٣.

(٧) وجد: حزن. ينظر «مختار الصحاح»: ٦٦٠.

(٨) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة. ينظر =

وفي الحديث: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا**»[1].

في هذا الحديث يتبرأ رسول الله ﷺ من قساة القلوب، وغلاظ الأكباد، الذين لا يعطفون على الصغير، ولا يوقرون الكبير... «ليس منا» أي ليس من أهل ملتنا وهدينا وطريقنا، وليس من أخلاقنا»[2].

ومن المشاهد الرائعة التي تبين رحمته ﷺ بغير المسلمين، ما أوردته كتب السيرة عند رجوعه ﷺ من الطائف، وقد كذبه أهلها، وآذوه، فاستأذنه ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين[3] جزاء تكذيبهم وإذايتهم لرسول الله ﷺ. ولكن رسول الله ﷺ يأبى أن يرد الكيد بالكيد، والأذى بالعقوبة... وغلبت معاني الرحمة والشفقة، ففاض القلب الرحيم بالشفقة على من طردوه وآذوه والتمس لهم العذر، بل بلغ الحد أن دعا لهم بالهداية: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[4]. «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً**»[5].

«قومي» بهذه النسبة التي تشرفهم. . «قومي» فهم منه على كل حال.

بهذا الحرص على هداية الناس، وأن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله، وبهذه الشفقة حسم رسول الله ﷺ الموقف لصالح قومه، ولصالح

= «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٤/ ١٥٤.

(١) أخرجه الإمام الترمذي، باب ما جاء في رحمة الصبيان. ينظر «سنن الترمذي»: ٤/ ٣٢١.

(٢) «الحكمة النبوية». عفيف طبارة: ٥٥. وهذا التعبير جاء على سبيل التشديد في الوعيد ولا يراد به حقيقة الخروج من الإسلام.

(٣) **الأخشبان**: جبلا مكة. ينظر «مختار الصحاح»: ١٧٨.

(٤) أخرجه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس هو أهلاً لذلك، كان له زكاة وأجراً ورحمة. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١٢٤.

(٥) سبق تخريجه.

قلبه الرحيم. وقد كان ﷺ: «**لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها**»[1].

وواسى الله عز وجل نبيه ﷺ لما بلغ به الحزن على قومه والأسف على ما فاتهم من الهداية والخير، بقوله تعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾[2].

أي فلعلك قاتل نفسك ومهلكها أسفاً وحزناً عليهم إذ لم يؤمنوا بهذا القرآن، ولم يهتدوا به. حزن وأسف وحرص على الهداية ذلك عنوان الرحمة النبوية.

وإذا كان المسلم أحرص الناس على رحمة الله تعالى، فإن نبي الرحمة ﷺ أخبر أن باب الرحمة الإلهية مسدود على من لم يكن قلبه رحيماً بالناس كل الناس: عن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[3].

«أي من لا يتصف بالرحمة، ومن لا يرحم خلق الله فليس أهلاً لأن تناله رحمة الله»[4].

قال ابن بطال (ت. ٤٤٩هـ): فيه ـ أي الحديث ـ الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق فيدخل المؤمن والكافر، والبهائم، المملوك منها وغير المملوك»[5].

---

(١) أخرجه الإمام مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب مباعدته ﷺ للآثام، واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته ـ عن عائشة أنه قالت: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل». ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ٦٧.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الأدب. باب رحمة الناس والبهائم. «الفتح»: ١٢/ ٥١.

(٤) «الحكمة النبوية»: ٥٦.

(٥) ينظر «فتح الباري»: ١٢/ ٥١.

وعن ابن مسعود (ت. ٣٢هـ) يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «**لن تؤمنوا حتى تراحموا**». قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله. قال: «**إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة الناس، رحمة العامة**»[١].

وتتسع دائرة الرحمة لتشمل رحمة كل ذات كبد رطبة[٢]. قال المصطفى ﷺ: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**». وقد ساق الرسول الرؤوف الرحيم لهذا الأمر قصة[٣] نوردها لأهميتها: عن أبي هريرة رضي الله عنه (ت. ٥٩هـ) أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فشرب ثم خرج فإذا كلب لهث يأكل الثرى[٤] من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له**» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا؟ فقال: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**»[٥].

لقد ذكر النبي ﷺ هذه الحادثة تعليماً لأمته على بذل الرحمة لمخلوقات الله، ليحصلوا بذلك على ثواب الله العظيم، فإذا كانت الرحمة بالكلب يستحق عليها الإنسان الثواب والأجر من الله، فما هو مبلغ الثواب والأجر من الله الذي يناله الإنسان جزاء الرحمة بإنسان... بصرف النظر عن

---

(١) نفس المصدر. قال الحافظ: أخرجه الطبراني ورجاله ثقاة.

(٢) الرطوبة، كناية عن الحياة. قاله الحافظ. ينظر «الفتح» ١٢/ ٥٠.

(٣) أسلوب القصة أسلوب متميز بين أساليب التعليم والتربية النبوية، وللقصة وقعها في النفوس، فهي تخاطب في الإنسان عقله وعاطفته وخياله. فلأمر ما وظف الرسول المعلم ﷺ هذه القصة المعبرة، وذلك حتى تستقر معاني الرحمة في القلوب.

(٤) الثرى: يقصد به هنا: التراب المبلل الذي يوجد حول البئر. ينظر «أساس البلاغة»: ٧١ ـ ٧٢.

(٥) أخرجه البخاري. كتاب الأدب. باب رحمة الناس والبهائم. رقم ٦٠٠٩. ينظر «الفتح»: ١٢/ ٥٠.

دينه ومعتقده؟[1].

إن فيما سبق بيان لأهمية التحلي بهذا الخلق الكريم والسجية الطيبة: الرحمة بالناس والمخلوقات كلها.

وتبرز ضرورة حضور هذه الصفة في شخصية المجادل المسلم من خلال أمور، أذكر منها:

ـ المجادلة بالموعظة الحسنة تحبب للناس، وإقبال عليهم، وحرص على إقامة الحجة، ورد للخصم إلى الصواب، و «المحروم من الرحمة الغليظ القلب لا ينجح في عمله، ولا يقبل الناس عليه، وإن كان ما يقوله حقاً وصدقاً. هذه طبيعة الناس ينفرون من الغليظ الخشن القاسي»[2]. قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[3].

يقول أحمد عمر هاشم مؤكداً هذا المعنى: «والرحماء من عباد الله هم موطن الأمل للناس، ومعقد الرجاء لهم، وحيث حلوا فعندهم مرافىء الراحة للمتعبين، وواحة الأمن للمفزعين، من طلبهم أجابوه، لأن الله تعالى جعل فيهم رحمته. أما القاسية قلوبهم، فالناس بمنأى عنهم، فلا يرجوهم أحد، ولا ينتظر منهم فضل، فقد حل عليهم سخط الله. ففي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «**اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي، فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم، فإني جعلت فيهم**

(١) ينظر «الحكمة النبوية»: ٦٢.

(٢) «أسس الدعوة وآداب الدعاة»: ٢٥٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

سخطي»[1]»[2].

- والمجادلة بالموعظة الحسنة تحويل للمواقف، وتغيير للمشاعر نحو إرادة الحق. فإذا لم يوفق المجادل المسلم في مخاطبة وجدان من يجادل، وتحريك أعماقه نحو الوجهة الصحيحة، لن يبلغ بجداله المقصود. والرحمة تهيىء الوجدان لسماع كلمة الحق والتفاعل معها، فمن «يريد بيان الحق للناس لا بد أن يكون رحيماً بهم، حانياً عليهم، حتى يصل إلى قلوبهم... والرحمة ما دخلت في أمر إلا تركت فيه أثراً حميداً، أو أمراً رشيداً وحباً وخيراً، لأن النفس البشرية في حاجة إليها في كل حين»[3].

بعد هذا القول في أهمية الرحمة عند مجادلة أهل الكتاب، لا بد من الإشارة إلى أن الرحمة ليست عاطفة تسكن الوجدان فقط، بل هي قبل هذا وذاك تكتسب قيمتها وأهميتها من حيث آثارها في السلوك والممارسة، وترجمتها إلى عمل قاصد.

لهذا أحببت أن أذكر بعض مظاهر الرحمة في سلوك المجادل المسلم، تكون له معالم في طريق المجادلة مع أهل الكتاب.

ج ـ مظاهر الرحمة القلبية:

الرحمة عاطفة تسكن القلب، وتفيض على الجوارح، لهذا لا يستقيم الحديث عن الرحمة دون الوقوف على آثارها العملية.

فمن مظاهر الرحمة عند المجادلة:

---

(١) أورد الإمام السيوطي رواية قريبة لهذا الحديث، قال: «أخرجه الحاكم وصححه، وضعفه الذهبي عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**اطلبوا المعروف من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم، ولا تطلبوهم من القاسية قلوبهم، فإن اللعنة تنزل عليهم**» «الدر المنثور»: ٤/ ٩.

(٢) «الإسلام وبناء الشخصية»: ١٢٦.

(٣) «قواعد الدعوة»: ٢٩٤.

*** لين الجانب:**

قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾(١).

قال قتادة في معنى هذه الآية: «فبرحمة من الله لنت لهم»(٢).

وقال عز من قائل:

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾(٣).

قال القرطبي: «ومن» في قوله: «من الرحمة» لبيان الجنس، أي أن هذا الحفظ يكون من الرحمة المستكنة في النفس»(٤).

فلين الجانب، وخفض الجناح، ثمرة ومظهر للرحمة التي تسكن القلوب. وفي الحديث عن ابن مسعود (ت. ٣٢هـ) عن النبي ﷺ قال: «**إنما يحرم على النار كل هين لين قريب سهل**»(٥).

ولأهمية هذا السلوك أفردت له محور الرفق واللين، فلينظر هناك.

*** الدعاء للناس بالخير:**

ومن مظاهر الرحمة: الدعاء لمن نخاطب من أهل الكتاب بكل خير. وقد تثبت أنه ﷺ دعا للمشركين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه (ت. ٥٩هـ) قال: قدم الطفيل بن عمرو على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن دوساً قد عصت، وأبت فادع الله عليها، فظن الناس أنه يدعو عليهم فقال: «**اللهم**

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٢) «تفسير القرآن العظيم». ابن كثير: ١/٣٩٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٤.

(٤) «الجامع لأحكام القرآن»: ١٠/١٥٩.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب ذكر البيان بأن المرء إذا كان هيناً ليناً قريباً سهلاً قد يرجى له النجاة. ينظر «صحيح ابن حبان»: ٢/٢١٥.

اهد دوسا وأْت بهم»[1].

وقال ابن أبي حمزة (ت. ١٦٣هـ) ـ يعدد الحقوق التي يشترك فيها الجار الصالح وغير الصالح ـ: «والذي يشمل الجميع إرادة الخير له، وموعظته بالحسنى، والدعاء له بالهداية»[2]. ثم قال فيمن تخلفوا عن الحق، وأصروا على ضلالهم: «لا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى»[3].

فالواجب على المجادل المسلم أن يحرص على الدعاء بظهر الغيب أن يرد الله من نجادلهم للحق المبين، كما دعا رسول الله ﷺ ربه أن ينصر هذا الدين بأحد العمرين.

ورب معترض يقول: قلت إن الرحمة تحبب وتودد، ودعاء، ألا يطعن هذا في إيمان المسلم الذي وصفه الله عز وجل بأنه لا يحب من حاد الله ورسوله ﷺ. قال تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[4].

وقال ﷺ: «**أوثق عرا الإيمان الحب في الله، والبغض في الله**»[5].

فكيف السبيل إلى التودد إلى من أمرنا أن نبغضهم في الله؟

وجواباً أقول: إن الأمر يبلغ أهمية عظيمة، لأنه يتعلق بعقيدة المؤمن،

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الدعوات، باب الدعاء للمشركين، ينظر «الفتح»: ١٢/ ٤٩٢.

(٢) المصدر السابق: ١٢/ ٥٥.

(٣) المصدر السابق: ١٢/ ٢٥.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٥) قال الحافظ «الفتح»: ١/ ٤٧: أخرج أبو داود من حديث أبي أمامة ومن حديث أبي ذر: «**أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله**» ولفظ البزار ـ رفعه ـ: «**أوثق عرا الإيمان الحب في الله والبغض في الله**». ينظر «**نظرة النعيم**»: ٨/ ٣٧٠٢.

إذ يوشك توددنا لغير المسلمين وتحببنا لهم أن يصرفنا عن الجادة: الولاية في الله والبراء ممن يحاد الله[1].

والرد على هذا الإشكال، أتناوله في نقطتين:

الأولى: قد اتفقنا ـ فيما سبق ـ أنه لا جدال بالتي هي أحسن إلا مع من سلم من الظلم، قال تعالى:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[2].

وفسرنا الظلم بالمقاتلة في الدين، والإخراج من الديار.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾[3].

فمن ظلم واعتدى، وقاتلنا في الدين، أو أخرجنا من ديارنا، أو ظاهر وساعد على إخراجنا فلا جدال معه أصلاً.

ولا شك أن ظلمهم هذا محادة لله ورسوله، فمودتهم خروج عن الجادة، وبغضهم في الله واجب، بل هو برهان الإيمان الصادق:

---

(١) قال الراغب: «الولاء والتولي أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد». «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥٧٠. «والموالاة: أصلها الحب. والمعاداة: أصلها البغض». «تهذيب مدارج السالكين»: ١٥٢. والموالاة من الولاية، وهي في الأصل ملك تدبير أمر الشيء، وكثر استعمال لفظ الموالاة في مورد الحب، لكونه يستلزم غالباً تصرف كل من المتحابين في أمور الآخر. فاتخاذ الكافرين أولياء هو الامتزاج الروحي بهم، بحيث يؤدي إلى مطاوعتهم، والتأثر بهم في الأخلاق وسائر شؤون الحياة، وتصرفهم في ذلك. ينظر «الميزان»: ٣/ ١٥١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٩.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

إذن فلا تعارض بين الرحمة والشفقة التي يبذلها المؤمن لمن يجادل من أهل الكتاب وبين البراءة ممن ظلم منهم.

ونورد موقفاً أمرنا أن نحذو حذوه، وأن نعض على أمثاله بالنواجذ، إذ هو من سنة الخلفاء الراشدين[2]. عن أبي عمران الجوني قال: «مر عمر (ت. ٢٣هـ) رضي الله عنه براهب فوقف ونودي بالراهب فقال له: هذا أمير المؤمنين، فاطلع فإذا إنسان به من الضر والاجتهاد وترك الدنيا، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: إنه نصراني، فقال: عمر: قد علمت **ولكني رحمته** ذكرت قول الله عز وجل: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾[3] رحمت نصبه[4] واجتهاده وهو في النار»[5].

فانظر إلى رقة عمر بن الخطاب، ورحمته بهذا الراهب، لتعلم أن محبة الخير للناس كل الناس، لا يتعارض مع بغض من حاد الله ورسوله ﷺ.

الثانية: ثم إننا قد أمرنا أن نقسط إلى الناس، وأن نبرهم ولو خالفونا في الدنيا ما لم يقاتلونا في الدين، ولم يخرجونا من أرضنا. قال تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٩.

(٢) «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**». أخرجه الترمذي عن العرباض بن سارية، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع. ينظر «سنن الترمذي»: ٥/ ٤٤.

(٣) سورة الغاشية، الآيتان: ٣، ٤.

(٤) قال الكاندهلوي: «أخرجه البيهقي وابن المنذر والحاكم عن أبي عمران الجوني، كذا في كنز العمال»: ١/ ١٧٥. ينظر «حياة الصحابة»، باب الدعوة إلى الله ورسوله: ١/ ٥٥، ٥٦.

(٥) «نصبه: تعبه. ونصب نصباً: تعب». «أساس البلاغة»: ٦٣٤.

وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[1].

وإنما جاءت الصيغة بعبارة ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ لتنفي ما استقر في العقول والقلوب: أن المخالف في الدين لا يشرع بره ووصله، والإقساط إليه، فبين أن الإقساط إليهم -أي معاملتهم بالقسط والعدل- مما يحبه الله تعالى، وزاد على القسط «البر» وهو أخص من العدل لأنه يعني الإحسان والفضل[2].

فليس «محظوراً ولا ممنوعاً، ولا من الموادة والموالاة، أن تبر غير المسلم المسالم، وأن تقسط وتعدل في عشرته ومعاملته وأن تنصفه فيما له من حقوق على المسلمين»[3].

ومن البر أن ينال المجادل الكتابي من محبتنا نصيب الشفقة والرحمة، فنحب له الخير والنجاة. فعن علي (ت. ٤٠هـ) كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ أوصاه لما وجهه إلى فتح حصن خيبر قال: «**فوالله لأن يهدي الله رجلاً بك خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[4].

فانظر إلى حرصه ﷺ على هداية الناس، حتى في أحرج المواقف كموقف الحرب.

فالمجادل المسلم لا يستطيع أن يغفل عن أنه يهدف إلى كسب محاوره ليضمه إلى جانب الحق، وهذا ما يجعله يحافظ على جانب في

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٢) «السنة مصدر للمعرفة والحضارة»: ٢٨٧.

(٣) من «مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق». عبد الله الزبير عبد الرحمن، كتاب الأمة، العدد رقم ٥٦ السنة السادسة عشرة ذو الحجة ١٤١٧هـ/ ماي ١٩٩٧م: ٦٨.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل. ينظر «الفتح»: ٦/ ٢٥٢.

حواره إن لم يكن وداً، فهو يشبه الود[١].

وعن محمد بن سيرين (ت. ١١٠هـ) عن أبي هريرة (ت. ٥٩هـ)، أراه رفعه، قال: «أحب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[٢].

إن بغضنا لما عليه من نجادل من أهل الكتاب من فساد في العقيدة، لا يعني أن نقطع جميع الحبال، فنضيع متمسكاً للمجادلة[٣]، وتفوتنا فرصة عرض ما معنا من الحق والفوز بالفضل العظيم الذي وعده الله عز وجل لمن بلغ كلمة الحق.

أما من أعلن عدواته لله ورسوله ﷺ، وشنها حرباً على عباد الله المؤمنين، فموالاته ومودته خلع لربقة الإسلام[٤]. قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[٥].

وقال عز من قائل:

---

(١) «أسلوب المحاورة»: ٣٩. قال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا﴾ [آل عمران: ١١٩]. قال ابن عاشور تعليقاً على الآية: «الشأن أن المحبة تجلب المحبة إلا إذا اختلفت المقاصد والأخلاق. وليس في هذا التعجيب شيء من التغليط، ولكنه مجرد إيقاظ، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ فإنه كالعذر للمؤمنين استبطانهم محبة أهل الكتاب». «التحرير والتنوير»: ٤/ ٦٥.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: حديث غريب، وأورده من طريق آخر وشهد بضعفه. والصحيح حسب قول الإمام الترمذي، أنه موقوف على سيدنا علي، ينظر «جامع الترمذي»: ٤٦٤.

(٣) قال النمر بن تولب:

وأبغض بغيضك بغضاً رويداً إذا أنت حاولت أن تحكم

قال الأصمعي: أي إذا حاولت أن تكون حكيماً». ينظر «الصحاح»: ج ٥/ ١٩٠١.

(٤) هكذا يتبين أن مودة غير المسلمين لا يمكن أن تصل إلى حد التساهل في شيء من شرع الله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]. ينظر «الظلال»: ٢/ ٩٠٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٥١.

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[1].

«فكل من ألبسهم ثوب العز، أو وادهم وأحبهم، أو قربهم وأدناهم، أو استعان بهم في أموره، واستغاث بهم في مهماته، فلا جرم يصير الله ورسوله عدواً له بأن يخذله ولو عند موته وفي قبره»[2].

بعد هذا البيان، نخلص إلى أن الرحمة القلبية، بلينها وحرصها ودعائها، من صميم المجادلة بالموعظة الحسنة التي تندرج تحت الأمر الإلهي بالمجادلة بالتي هي أحسن.

٢ ــ الرفق واللين[3]:

تمثل المجدالة بالموعظة الحسنة جانب اللين والملاطفة في المجادلة بالتي هي أحسن التي أمرنا بها. في حين تشكل المجادلة بالحكمة وجه القوة. ولهذا فسروا المجادلة بالتي هي أحسن[4] بإيضاح الحق بالرفق واللين[5].

وبهذين الوجهين يحصل البيان ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[6]. ولهذا تجد خطاب الله تعالى في القرآن، وتعليم الله إيانا كيف نحاج ونخاطب يتراوح بين الترغيب والزجر[7]، وبين اللين والقوة.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١.

(٢) «مناظرة في الرد على النصارى». فخر الدين الرازي: ٥٣.

(٣) الرفق ثمرة الرحمة ومظهر من مظاهر الحسنى في خطاب أهل الكتاب، ولا غنى عن الوقوف عند دلالاته وآثاره في جدال أهل الكتاب. لهذا الاعتبار أفردت له هذا المحور وإن سبقت الإشارة إليه.

(٤) في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

(٥) «أضواء البيان»: ٢/ ٤٦٥. و«تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٥٥٠.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٧) لإدراك أبعاد هذه الخاصية التي يتميز بها الخطاب القرآني. ينظر ما سأورده في المظهر الثالث لأسلوب المجادلة بالموعظة الحسنة.

قال تعالى:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[1].

وقال عز من قائل:

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾[2].

فوجب أن يكون خطابنا بالقرآن قوياً.

ولموسى قال الله تعالى ولأخيه:

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾[3].

قال ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ): «هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»[4].

ويؤكد الإمام القرطبي (ت. ٦٧١هـ) **ضرورة التزام اللين في الخطاب؛** حيث نبه على أن الآية دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول «وقد أمر من معه القوة، وضمنت له العصمة بذلك، ألا تراه قال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[5] وقال: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[6] فكيف بنا، فنحن أولى بذلك»[7].

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٥.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/١٤٩.

(٥) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٦) سورة طه، الآية: ٤٦.

(٧) «الجامع لأحكام القرآن»: ج ١١/١٣٣ ـ ١٣٤.

وقد جسدت السنة النبوية مبدأ اللين والملاطفة في الخطاب والسلوك من خلال الأمر النبوي «بالرفق» ونبذ «العنف».

فماذا عن دلالات الرفق؟ وأي علاقة تربطه بالمجادلة بالموعظة الحسنة؟ ثم ما هي مظاهره العملية السلوكية في جدال أهل الكتاب؟

أسئلة أجيب عنها عبر الخطوات الآتية:

(أ) مفهوم الرفق.

(ب) أهمية الرفق وعلاقته بالمجادلة بالموعظة الحسنة.

(ج) مظاهر الرفق في مجادلة أهل الكتاب.

(أ) مفهوم الرفق:

عرف الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ) الرفق بقوله: «رفق أرفُق بِه وترفّق، ورَفق به ورفق، وفيه رِفق وهو لين الجانب ولطافة الفعل... واسترفقته فأرفقني بكذا نفعني، وارتفقت به: انتفعت»(١).

قال ابن فارس (ت. ٣٩٥هـ): «الرفق خلاف العنف... يقال: ماء رَفق ومرتع رفق: سهل المطلب»(٢). «ورفق به وتترفق به تلطف به، من الرفق خلاف الخرق والعنف. وارتفق به انتفع»(٣).

فالرفق عند أهل اللغة: **لين الجانب، ولطافة الفعل التي تحقق نفعاً**. وبالرفق يسهل نيل المطالب.

وفي اصطلاح المحدثين عرفه الحافظ (ت. ٨٥٢هـ) بقوله: «الرفق هو لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف»(٤).

---

(١) «أساس البلاغة»: ٢٤٣.

(٢) «مجمل اللغة»: ج١/ ٣٨٩.

(٣) «المغرب في ترتيب المعرب»: ١٩٤.

(٤) «الفتح»: ١٢/ ٦٤.

وفي الحديث عن عمرة (ت. ١٠٦هـ) (يعني بنت عبد الرحمٰن) عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عائشة إن الله رفيق**[١] **يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه**»[٢].

قال ابن الأثير (ت. ٦٠٦هـ): «والرفق لين الجانب، وهو خلاف العنف. وفي الحديث: «**أنت رفيق، والله الطبيب**»[٣] أي: أنت ترفق بالمريض وتتلطفه، والله الذي يبرؤه ويعافيه»[٤].

وفي حديث أبي الدرداء: «**من فقه الرجل رفقه في معيشته**» أي: تلطفه، فلا يصرف ماله كيفما اتفق، وإنما يدبر ويقتصد[٥].

فمدار الرفق إذن على لين الجانب، والملاطفة في القول والفعل، تحقيقاً للخير والنفع، وهو ضد العنف.

(ب) أهمية الرفق وعلاقته بالمجادلة بالموعظة الحسنة:

* أهمية الرفق:

الله عز وجل رفيق يحب الرفق في الأمر كله[٦]، وقد حث الرسول ﷺ على لزوم الرفق في الأمر كله، من خلال أقواله وأفعاله ﷺ، وأذكر من

---

(١) قال الإمام النووي: «فيه تصريح بتسميته سبحانه وتعالى ووصفه برفيق». «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١٢٠.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الرفق، ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١١٩.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: ٢/ ٢٢٦.

(٤) «النهاية في غريب الحديث»: ٢/ ٢٤٦.

(٥) ينظر «الذيل على النهاية في غريب الحديث»: ٢٠٦.

(٦) «يقال الله رفيق بعباده، من الرفق والرأفة». «النهاية في غريب الحديث»: ٢/ ٢٤٦.

ذلك ما يأتي[1]:

في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد، درس آخر في الرفق الذي لم يحد عنه ﷺ حتى في أدق المواقف وأحرجها.

فعن أنس بن مالك (ت. ٩٠هـ) أن أعرابياً بال في المسجد فقاموا إليه فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزرموه**»[2]، ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه[3].

فانظر إلى رأفة رسول الله ﷺ وكمال خلقه، وكيف قابل جفوة[4] الأعرابي، وجهله بالرفق والحدب.

قال الحافظ (ت. ٨٥٢هـ) في فقه هذا الحديث: «وفيه الرفق بالجاهل، وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عناداً، ولا سيما ممن يحتاج إلى استئلافه»[5].

وبهذا بين رسول الله ﷺ بالقول والعمل أن الرفق مطلوب في الأمر كله.

ويأبى رسول الله ﷺ إلا أن يجعل من الرفق سلوكاً مميزاً للمسلم، لا في تعامله مع الناس فحسب، بل في تعامله مع الحيوان أيضاً.

---

(١) مر معنا موقفه ﷺ مع الرهط من يهود، وكيف ترفق بهم ﷺ رغم سوء طباعهم ولؤمهم (ص ٣٣١). وهكذا اختار رسول الله ﷺ سبيل الرفق حتى مع غلاظ الطبائع والقلوب من الناس. وقد أشار الدارسون إلى حسن معاملته ﷺ لليهود رغم تآمرهم وانضمامهم إلى الجبهة الوثنية لمحاربته واقتلاع جذوره، إذ ألان لهم القول، وضرب لهم أروع المثل في الرفق بهم والملاطفة لهم. ينظر «السنة مصدر للمعرفة والحضارة»: ٢٨٩.

(٢) لا تقطعوا عليه بوله. ينظر «مختار الصحاح»: ٢٦٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ينظر «الفتح»: ١٢/ ٦٤ رقم ٦٠٢٥.

(٤) **الجفوة ضد الملاطفة والرفق**: يقال ثوب جاف: غليظ، ويقال: أصابته جفوة الزمان. وجفاوته. ينظر «أساس البلاغة»: ٩٦.

(٥) «الفتح»: ١٢/ ٤٣٣.

فعن المقدام بن شريح قال: «سمعت أبي قال: سمعت عائشة (ت. ٥٧هـ) تقول: كنت على بعير فيه صعوبة[١] فجعلت أضربه فقال النبي ﷺ: «**عليك بالرفق، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شأنه**»[٢]»[٣].

فالرفق زينة الأقوال والأفعال. ولا يكون الرفق في شيء إلا زاده جمالاً وقبولاً، ولا ينزع من شيء إلا تعجل الخرق[٤] إليه -أي إلى ذلك القول أو العمل- فأورث في النفوس وحشة ونفورا.

فعن أنس (ت. ٩٠هـ) عن النبي ﷺ قال: «**لا يكون الخرق في شيء إلا شأنه وإن الله رفيق يحب الرفق**»[٥].

ورب سائل يسأل: لماذا كل هذا الحرص على سلوك سبيل الرفق والملاطفة والدفع التي هي أحسن؟

ونجيبه على لسان الصادق الأمين: «**إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**»[٦].

فالله عز وجل رفيق، وعطاؤه لمن اختار الرفق سبيلا، أعظم ممن اتخذ العنف سبيلا. قال الإمام النووي (ت. ٦٧٦هـ): «ومعنى يعطي على الرفق أي يثيب عليه ما لا يثيب على غيره. وقال القاضي: معناه يتأتى به

---

(١) جاء في سنن أبي داود أن سبب صعوبة هذا البعير أنه لم يركب من قبل. ينظر «سنن أبي داود» كتاب الأدب، باب الرفق: ٧٢٩.

(٢) «الزين ضد الشين». ينظر «أساس البلاغة»: ٣٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد باب الخرق: ٦٩. وينظر «سنن أبي داود» كتاب الأدب باب الرفق رقم ٤٨٠٧: ٧٢٩.

(٤) خرق الثوب وخرقه: وسع شقه. فالخرق إذن كناية على الفساد الذي يتعجل إلى العمل إذا خلي من الرفق. ينظر «أساس البلاغة»: ١٥٩.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد باب الرفق: ٦٨.

(٦) سبق تخريجه.

من الأغراض، ويسهل من المطالب ما لا يتأتى بغيره»[1].

فالرفق يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده، وكيف لا وهو زينة الأقوال والأفعال، يحليها بهجة وجمالا ويكسبها قبولا[2].

والرفق خير كله، عن جرير عن النبي ﷺ قال: «**من يحرم الرفق يحرم الخير**»[3].

ويقف بنا المولى الكريم على آثار الرفق في النفوس والقلوب. قال تعالى:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤﴾[4].

«فالقول اللين لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة ومن شأنه أن يوقظ القلوب فيتذكر ـ المخاطب ـ ويخشى عاقبة الطغيان»[5].

وانظر إلى أثر الرفق واللين في الأعرابي الذي بال في المسجد، فقد روى ابن حبان (ت. ٣٥٤هـ) في حديث أبي هريرة (ت. ٥٩هـ): فقال الأعرابي ـ بعد أن فقه في الإسلام ـ للنبي ﷺ: «**بأبي أنت وأمي، فلم يؤنب ولم يسب**»[6].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج١٦/ ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) الرفق توطين للنفس على مكارم الأخلاق، وعلى الثبات والأناة والتؤدة والروية، وضبط قوة الغضب، وقوة الشهوة وحفظهما عند حد الاعتدال، فهو زينة كل عمل وحلية كل قول، يحفظ صاحبه من الوقوع في الخطإ ويصونه عن غضب الآخرين أو استفزازهم. ينظر «الإسلام وبناء الشخصية»: ٢٥٧.

(٣) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، المصدر السابق، ج١٦/ ١١٩.

(٤) سورة طه، الآية: ٤٣.

(٥) «الظلال»: ٤/ ٢٣٣٦.

(٦) «الفتح»: ١٢/ ٤٣٣.

فلم يزده الرفق إلا محبة في رسول الله ﷺ حتى فداه بأعز شيء، بأبيه وأمه.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «**إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه**[1]»[2].

ونختم كلامنا عن أهمية الرفق، بالحديث الذي رواه أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير**»[3].

فمن زاد حظه من الرفق، زاد حظه من الخير، ومن نقص حظه من الرفق نقص نصيبه من الخير بمقدار ذلك. فيا فوز من جعل الرفق زينة أقواله وأفعاله!

* علاقة الرفق بالمجادلة بالموعظة الحسنة:

إذا علمنا أهمية الرفق في القول والعمل، وما وعد الله عز وجل عليه من الخير والعطاء، أمكننا أن ندرك قيمة وجدوى اعتبار الرفق مقتضى من مقتضيات المجادلة بالموعظة الحسنة، وألخص ذلك في أمرين:

الأول: قلنا إن من أهداف المجادلة بالموعظة الحسنة مد الجسور بمحبة وحدب أمام الناس ليحتفظ الناس بسمعتهم واعتدادهم بأنفسهم

---

(١) وقد تمثل علماؤنا هذا التوجيه القرآني والنبوي، فعملوا على بذل النصح، والترفق بالمخاطب. وهذا ما يبرز في رد الإمام الباجي على راهب فرنسا بقوله: «ويلزمنا الاجتهاد في النصح لك، والرفق بك، والحرص على أن تكون من جملة هذه الأمة المكرمة، ومن أهل هذه الملة المعظمة الناسخة لجميع الملل والحاكم على سائر الفرق، فتفوز برضا رب العالمين، وتسعد في الدنيا بالكون من جملتنا، وتحظى بالقرب من نفوسنا». «رسالة راهب فرنسا»: ٦٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع»، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الرفق: ٤٦٤.

وحرمة شخصيتهم حتى لا يخجلوا من عودتهم من الخطأ إلى الصواب، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالرفق واللين والملاطفة. فالكلمة اللينة إذا تصدرت الخطاب توفر للمتجادلين من أسباب الرفق ما يمهد للتفاهم، ويهيىء الأنفس لقبول الحق والإذعان له ثم «إن الرفق لازم من لوازم التبليغ لا يتزين الخطاب إلا به ولا يتجمل إلا بصحبته[1]»[2]. فلا غنى عن الرفق في كل لون من ألوان المجادلة والخطاب.

الثاني: إن هدف المجادلة بالتي هي أحسن، والمجادلة بالموعظة الحسنة جزء منها، كسب المجادل إلى جانب الحق أو على الأقل عدم نفوره منه، واختيار غير سبيل الرفق يزيد المجادل بعداً عن الحق فيما يريد المجادل المسلم أن يقربه إليه. فوجب إذن التزام «الكلمة الندية الرفيقة التي تلمس القلوب فترق بها، وتخالط النفوس فتهش بها وتفرح بها»[3] وهل المجادلة بالموعظة الحسنة إلا ذاك.

وفي المثل: «من لانت كلمته، وجبت محبته»[4]. وعن علي (ت. ٤٠هـ) كرم الله وجهه أنه قال: «بالرفق تنال الحاجة»[5].

فالرفق أفضل ما يبذله المجادل المسلم «لمن ترجى عودته، وتنتظر إنابته وفيأته؛ فإنما يستعمل الإغلاظ لمن يتيقن عناده، ويتبين إصراره، ولم يرج انقياده»[6].

---

(١) «وهذا ما نبه عليه الإمام علي كرم الله وجهه بقوله: «لن لمن غالظك، فإنه يوشك أن يلين لك». «معجم حكمة العرب»: ١٥٤.

(٢) «من مرتكزات الخطاب الدعوي». كتاب الأمة، عدد ٥٦، السنة السادسة عشرة: ١١٣.

(٣) «أسس الدعوة إلى الله»: ٦٦.

(٤) «معجم حكمة العرب»: ١٥٤.

(٥) نفسه.

(٦) «رسالة راهب فرنسا»: ٥٨.

هذه إذن بعض الاعتبارات التي تبين أن الرفق من صميم المجادلة بالموعظة الحسنة.

بعد أن تبينت مكانة الرفق وأهميته في المجادلة بالموعظة الحسنة، يجمل بنا أن نقف عند جوانب الرفق في مجادلة أهل الكتاب.

(ج) مظاهر الرفق في مجادلة أهل الكتاب:

الرفق تأليف للقلوب على الحق باللين والملاطفة[(١)].

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «الإلف اجتماع مع التئام، يقال ألفت بينهم ومنه الألفة[(٢)]. ويقال للمألوف إلف وآلف. قال تعالى: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾[(٣)]. والمؤلفة قلوبهم هم الذين يتحرى فيهم بتفقدهم أن يصيروا من جملة من وصفهم الله ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[(٤)]»[(٥)].

فكل فعل أو قول تحمل باللين والملاطفة، وجمع القلوب على الحق حتى التأمت معه فذلك الرفق الذي أمرنا به في جدال أهل الكتاب.

وسأكتفي هنا بذكر ثلاثة جوانب من رفقه ﷺ في المجادلة مع غير المسلمين، خاصة مع أهل الكتاب.

---

(١) فاللين شرط في تأليف القلوب على الحق. قال رسول الله ﷺ: «**إن أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون**». له شاهد عند الترمذي من حديث جابر رضي الله عنه. وقال عنه: حسن (٤/ ٣٧٠. رقم ٢٨١). ينظر «نظرة النعيم»: ٢/ ٥٠١. **والموطئون أكنافاً**: جمع كنف، وهو الجانب. والمراد الذي يلين جانبه لغيره. ينظر «أسا البلاغة»: ٥٥٢ و٦٨٠.

(٢) أما **التألف**: فهو المداراة، والإيناس لمن هم حديثوا عهد بكفر، ليثبتوا على الإسلام رغبة فيما يصل إلى أيديهم من المال. ينظر «النهاية في غريب الحديث»: ١/ ٦٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦٣.

(٥) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢٧ ـ ٢٨. ينظر «أساس البلاغة»: ٢٠.

* **تنزيل الناس منازلهم:**

عن ميمون بن أبي شبيب أن عائشة (ت. ٥٧هـ) عليها السلام مر بها سائل فأعطته كسرة[١]. ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته فأكل، فقيل لها في ذلك، فقالت قال رسول الله ﷺ: «**أنزلوا الناس منازلهم**»[٢].

فعائشة الصديقة لم تهد السنة النبوية حين أعطت السائل الأول كسرة، لأنه قد تعود أن ذلك يكفيه، في حين زادت في تقدير السائل الثاني وأكرمته، لما رأت من حسن هيئته فأوحى لها ذلك بأن السائل إنما لجأ إلى السؤال قهراً، فهو إذن في حاجة لا إلى طعام يسد جوعته، وإنما إلى الإكرام والتقدير، الذي يزيل وحشته، ويخفف عنه ألمه.

وهذا من حكمة الصديقة رضي الله عنها، وقد استلهمت ذلك من تربية وتعليم النبي الحكيم الذي أوصى أن ننزل الناس منازلهم.

فإنزل الناس منازلهم تقديراً وإكراماً مطلوب وواجب، خاصة في حق الأكابر ففي الحديث: «**أكرموا ثلاثة عزيز قوم ذل، وغنياً افتقر، وعالماً بين جهال**»[٣].

واعتقد أن حاجة من نجادل من أهل الكتاب لا تقتصر على إبلاغهم ما معنا من الحق فحسب، بل هم أيضاً في حاجة إلى التقدير والاحترام الذي يسهل عليهم قبول الحق ويؤنس وحشة إقلاعهم عن الخطأ الذي كانوا فيه، والرضى بالرجوع إلى الصواب. ولا يخفى ما يجده المرء من الشدة والصعوبة عند محاولة التخلي عن مألوفه وعاداته سواء السلوكية منها أو الفكرية.

---

(١) «كسر الشيء وكسره واكسرت منه طرفاً وهذه كسرة». «أساس البلاغة»: ٥٤٣. فالكسرة: جزء من الشيء وقطعة منه.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم رقم ٤٨٤٢: ٧٣٣. قال أبو داود: ميمون لم يدرك عائشة.

(٣) «البحر الرائق شرح كنز الدقائق»: ٨/ ٤٧٧.

«أنزلوا الناس منازلهم» بصيغة الأمر، لأن القلوب في مسيس الحاجة إلى رفق الإسلام ورحمة الإسلام، كما العقول في حاجة إلى حكمة الإسلام وقوة الإسلام.

وتتأكد الوصية النبوية في تنزيل الناس منازلهم عندما يتعلق الأمر بمن لهم عند أقوامهم مكانة وشرف: ففي الحديث: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[1].

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر، نحو قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[2]، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه... وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم.. والإكرام والتكريم أن يوصل إلى الإنسان إكرام، أي نفع لا يلحقه فيه غضاضة[3]»[4].

فكل قول أو فعل يجلب النفع والخير إلى الغير، دون أن يلحقه فيه غضاضة، بل، يشعر معه أن حرمته مصونة وذاته مشرفة، هو عين الإكرام الذي أوصى المصطفى ـ صاحب الخلق العظيم ﷺ ـ أن نبذله لكل الناس، خاصة أهل المكانة والشرف.

وتعددت صور إكرام الإسلام للإنسان[5] من حيث هو إنسان، بغض النظر عن انتمائه العرقي والديني، من ذلك وصيته ﷺ البعوث بتأليف قلوب

---

(١) قال الكاندهلوي: «كذا في الكنز»: ٥/ ٥٥. ينظر «حياة الصحابة»: ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢. أخرجه ابن ماجه (٢/ ٣٧). والبيهقي (٨/ ٦٨). وذكر الألباني في الصحيحة (٣/ ٢٠٤). ينظر «نظرة النعيم»: ٢/ ٤٠٤.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

(٣) غضاضة: ذلة ومنقصة. ينظر «مختار الصحاح»: ٤٥٠.

(٤) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٤٧٩. ينظر «أساس البلاغة»: ٥٤١ ـ ٥٤٢.

(٥) من سور التكريم: الاعتراف بفضل من له فضل ومكان في قومه، إذ النفس البشرية مجبولة على حب ما ينسب إليها من خير. ينظر «نظرة النعيم»: ٢/ ٣٩٧.

الناس والرفق بهم: أخرج ابن عساكر (ت. ٦٠٠هـ) عن عبد الرحمٰن بن عائذ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث بعثاً قال: «**تألفوا الناس ولا تغيروا عليهم**[١] **حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر**[٢] **إلا تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من أن تأتوني بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم**»[٣].

وعن أبي ذر (ت. ٣٢هـ) رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال له: «**كيف ترى جعيلا؟**» قلت: مسكيناً كشكله من الناس، قال: «**كيف ترى فلانا؟**» قلت: سيدا من سادات الناس. قال: «**فجعيل خير من مثل هذا ملء الأرض**»، قلت يا رسول الله ففلان هكذا وأنت تصنع به ما تصنع؟[٤] قال: «**إنه رأس قومه فأنا أتألفهم**»[٥]. فانظر كيف كان صنيعه ﷺ مع الناس، وما كان يبذله من العطاء المادي والمعنوي إكراماً لهم، وتأليفاً لقلوبهم على الحق والإسلام. في حين كان يترك المؤمنين لإيمانهم»[٦].

---

(١) الهجوم على حين غفلة، يقال: إياك والهجوم على غرة. ينظر «أساس البلاغة»: ٤٨٨.

(٢) **بيت المدر والوبر**: أي أهل البوادي والمدن والقرى، **والوبر**: وبر الجمل، والمدر البناء من الطين. فالمقصود بالعبارة عموم الناس. ينظر «أساس البلاغة»: ٥٨٦ و«مختار الصحاح»: ٥٧٨.

(٣) قال الكاندهلوي: «كذا في الكنز»: ٢/ ٢٩٤، وأخرجه أيضاً ابن شاهين والبغوي كما في الإصابة: ٣/ ١٥٢، و«الترمذي»: ١/ ١٩٥، قلت ينظر «حياة الصحابة»: ١/ ٩٦.

(٤) إشارة إلى أنه ﷺ كان يكرمه ويجز له العطاء.

(٥) قال الكاندهلوي: أخرجه أبو نعيم: ١/ ٣٥٣ «وكذا في الكنز»: ٣/ ٣٢٠ وإسناده صحيح. قلت ينظر «حياة الصحابة»: ٢/ ٣٨٢.

(٦) أخرج ابن إسحاق في المغازي عن محمد إبراهيم التيمي قال: قيل يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة (أي من الإبل) وتركت جعيلاً؟ فقال: «**والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض مثل عيينة والأقرع، لكني أتألفهما، وأكل جعيلاً إلى إيمانه**» وهذا مرسل حسن. ينظر «حياة الصحابة»: ٢/ ٣٨٣ «اطلاع الأرض: ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسل». «النهاية»: ٣/ ١٣٣.

هذه المواقف من رسول الله ﷺ، هي تجسيد للرفق الذي يحبه الله عز وجل في الأمر كله.

وفي سياق الحديث عن الإكرام والتقدير الواجب بذله للناس رفقاً وملاطفة وتأليفاً، يجمل بنا أن نورد موقفه ﷺ مع عدي بن حاتم (ت. ٦٧هـ) الذي كان نصرانياً ثم أسلم على يد رسول الله ﷺ.

أخرج ابن عساكر (ت. ٦٠٠هـ) عن عدي بن حاتم (ت. ٦٧هـ) رضي الله عنه: أنه لما أتى دخل على النبي ﷺ فألقى إليه ﷺ وسادة، فجلس على الأرض. وقال: أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً، وأسلم؛ فقالوا: يا نبي الله لقد رأينا منك منظراً لم نره لأحد، فقال: «**نعم، هذا كريم قوم، فإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[1].

فتأمل، كيف بذل رسول الله ﷺ متاعه ولم يترك لنفسه شيئاً احتفاء بعزيز في قومه، وإكراماً له. ثم تأمل كيف أثر هذا السلوك ـ البسيط في شكله العميق في روحه وباعثه ـ على عدي بن حاتم وهو المعروف بكرمه ـ فاستطاع أن يكتشف عنوان هذه الرسالة التي يحملها هذا الرسول الكريم ﷺ، ونطق وكله خشوع: أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً، ثم أسلم.

ومن مواقف التقدير أيضاً ما خص به رسول الله ﷺ وفد نجران من الحفاوة والتكريم الذي بلغ حد أن أسكنهم المسجد وسمح لهم ﷺ بالصلاة فيه[2].

ومن صور الإكرام[3]، أنه كان ﷺ يخاطب أهل الكتاب بأحب

---

(١) قال الكاندهلوي: «كذا في الكنز»: ٥/ ٥٥. قلت ينظر «حياة الصحابة»: ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٢) «السيرة النبوية»: ٢/ ١٩٦.

(٣) من صور الإكرام: التلطف بالوارد الجديد. فقد روي عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما بعث النبي ﷺ أتيته فقال: «**يا جرير لأي شيء جئت؟**» قال: جئت لأسلم =

أسمائهم: فخاطب قيصر بعظيم الروم[١]. ونادى المقوقس بعظيم القبط[٢].

وقد اتسعت دائرة إكرامه ﷺ لأهل الكتاب لتشملهم أحياء وأمواتاً. فقد مرت عليه ﷺ جنازة يهودي فقام لها، فقيل له إنها جنازة يهودي. فقال: «**أليست نفساً**»[٣].

«ومعنى هذا أن النفس الإنسانية لها حرمتها ومكانتها، أياً كانت ديانتها»[٤].

كل هذه المشاهد والمواقف تدل على رفقه ﷺ بالناس، تأليفاً لقلوبهم على الحق، بالإكرام والتقدير الذي يليق بمنازل الناس، وكذلك يجب أن نكون.

*** الصبر على أذى الناس:**

المجادلة رجوع إلى ما أوجبته الحجة بعد قيامها، وهذا يطلب تأنياً وطول نفس ومثابرة، وقد رأينا أن التدرج في حمل الناس على الحق أمر إلهي وسنة نبوية، والتدرج يطلب وقتاً، وقوة تحمل.

قال الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ): «صبرت نفسي على كذا، حبستها»[٥]. «والصبر الإمساك في ضيق، يقال صبرت الدابة حبستها بلا

= على يديك يا رسول الله. قال: فألقى إليّ كساءة، ثم أقبل على أصحابه وقال: «**إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه**». وقال: كان لا يراني بعد ذلك إلا تبسم في وجهي. سبق تخريجه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) نفسه.

(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٣/ ٥٣٣.

(٤) «السنة مصدر للمعرفة والحضارة»: ٢٨٩.

(٥) «أساس البلاغة»: ٣٤٦.

علف... والصبر حبس النفس على ما يقتضيه العقل أو الشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه»[1].

فالصبر إذن حبس للنفس على ما تكره، وحملها على الأمر الشديد.

وعاقبة الصبر محمودة. قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

وقال عز من قائل:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[3].

ويبين القرآن الكريم أن الدفع بالتي هي أحسن، رفقاً بالخلق وملاطفة، لا يقدر عليها إلا من أوتي صبراً.

قال تعالى:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[4].

فالدفع بالتي هي أحسن يؤتي أكله، فينقلب عدو الأمس إلى صديق حميم لما يلمسه من روعة الحق المعروض عليه، ولما يجده في قلبه من اطمئنان، ولما يعاينه من الخلق الجميل في من يجادله. وكل هذا يريد صبراً، فالشجرة الطيبة لا تؤتي أكلها إلا بعد حين.

والصبر عطاء من الله عز وجل، وهو حظ المؤمن من فضل الله عز وجل.

قال تعالى:

---

(١) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٣٠٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٥.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

قال عز من قائل:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[2].

وفي الحديث: «**وما أعطي أحد بعد تقوى الله خيراً من الصبر**»[3].

والصبر من عزائم الأمور[4]. فحري بالمجادل المسلم، وهو يأخذ بأيدي الناس إلى الحق. أن يصبر ويتحمل. فخير الناس من يخالط الناس ويصبر على أذاهم[5].

ويعرض علينا القرآن وصية لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[6].

ويحسن بنا في هذا المقام أن نعرض لنماذج من صبره ﷺ على أذى الناس، حتى علموا الحق وعرفوه، وأذعنت له قلوبهم:

فمواقفه ﷺ مع الأعراب، وصبره على أذاهم أكثر من أن تحصى، أكتفي بقصة إسلام زيد بن سعنة الحبر الإسرائيلي رضي الله عنه، وفيها يتبين جانب من صبره ﷺ على أهل الكتاب.

يروى أن زيد بن سعنة أعطى رسول الله ﷺ ثمانين مثقالاً من ذهب

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٥.

(٢) سورة النحل، الآية، ١٢٧.

(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٧/ ١٢٩.

(٤) قال تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

(٥) أخرجه الإمام الترمذي وابن ماجه وأحمد في مسنده، وقال حسن صحيح. ينظر «نظرة النعيم»: ٦/ ٢٤٦٧.

(٦) سورة لقمان، الآية: ١٧.

مقابل تمر معلوم إلى أجل معلوم. قال زيد بن سعنة: «فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر (ت. ١٣هـ) وعمر (ت. ٢٣هـ) وعثمان (ت. ٣٥هـ) رضي الله عنهم، في نفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة ودنا إلى الجدار ليجلس إليه أتيته فأخذته بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت له: يا محمد، ألا تقضيني حقي؟ فوالله ما علمت بني عبد المطلب إلا مطلاً[1]، ولقد كان لي بمخالطتكم علم. ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره فقال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ وتصنع به ما أرى؟ فوالذي نفسي بيده، لولا ما أحاذر فوته[2] لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله ﷺ ينظر إلي في **سكون وتؤدة**[3]. فقال: «**يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه. اذهب به يا عمر، فأعطه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما روّعته**[4]». قال زيد: فذهب بي عمر فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت ما هذه الزيادة يا عمر؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رُعتك، قال: قلت وتعرفني يا عمر؟ قال: لا. قلت: أنا زيد بن سعنة. قال: الحبر؟ قلت: الحبر. قال: فما دعاك إلى ما فعلت برسول الله ما فعلت، وقلت له ما قلت؟

قلت: يا عمر، لم يكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفت في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنين، لم أخبرها منه[5]: يسبق

---

(١) «مطل فلان حقي، وماطلني به مطلاً ومطالا. ورجل مطال ومطول». «أساس البلاغة»: ٥٩٨. والكلمة تحمل معاني التسويف والتأخير.

(٢) أي أن ينقض الصلح بين المسلمين واليهود.

(٣) التؤدة: سبق بيان المراد بها.

(٤) رَوَّعته: خوفته وأفزعته. ينظر «مختار الصحاح»: ٢٥٨.

(٥) خَبَرت الرجل: واختبرته خبراً، وخبرة، وما لي به خبر أي علم». «أساس البلاغة»: ١٥٢.

حلمه[1] جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. وقد أخبرتهما، فأشهدك يا عمر أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، وأشهدك أن شطر مالي ـ فإني أكثرها[2] مالاً ـ صدقة على أمة محمد ﷺ، قال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم، قلت: أو على بعضهم، فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال زيد راوي الحديث: وآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة، ثم قتل في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر، رحم الله زيداً»[3].

بسكينة وتؤدة قابل ﷺ جهل زيد بن سعنة وغلظته، أُختبر رسول الله ﷺ في صبره وحلمه، فلم تزده شدة الجهالة إلا حلماً. فليعلم المجادل المسلم أنه أثناء المجادلة قد يتعرض لعملية امتحان لمعدن أخلاقه. والموفق من لم يزده الابتلاء والاختبار إلا صفاء وحسناً.

قال رسول الله ﷺ: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»**[4].

وأهم ما يتمايز به الرجال من حيث المعدن والفطرة: الكرم والعقل والخلق وما بتفرع عنها من محامد، لقول رسول الله ﷺ: **«كرم المرء دينه، ومروءته عقله وحسبه خلقه»**[5].

---

(١) الحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، وجمعه أحلام. قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ [الطور: ٣٢]، ينظر «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ١٤٥.

(٢) **أكثرها**: أي أكثر أهل المدينة.

(٣) قال الكاندهلوي: قال الهيثمي (٣/ ٢٤٠): رواه الطبراني ورجاله ثقاة وروى ابن ماجه منه طرفاً، قلت: ينظر «حياة الصحابة»: ١/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٤) أخرجه الإمام مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب خيار الناس. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ٦٤.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب ذكر البيان بأن المرء قد يشفع بحسن خلقه. ينظر «صحيح ابن حبان»: ٢/ ٢٣٣.

فما حظ المجادل المسلم، وما نصيبه من فضيلة الصبر؟

*** المداراة:**

من مظاهر الرفق: المداراة.

قال الزمخشري (ت. ٥٣٨هـ): «دريت الشيء دراية ودرية... وداريته: خاتلته. وعليك بالمداراة وهي الملاطفة»(١).

فالمداراة ملاطفة، ووجه من أوجه الرفق المطلوب.

قال ابن بطال (ت. ٤٤٩هـ): «المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول. وذلك من أقوى أسباب الألفة»(٢).

وقد ضرب رسول الله ﷺ أمثلة، وسجل مواقف في مداراة الناس.

فعن عروة بن الزبير (ت. ٩٤هـ) أن عائشة (ت. ٥٧هـ) أخبرته أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة، أو بئس أخو العشيرة**»(٣). فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له يا رسول الله قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول. فقال: «**أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه**»(٤).

إن الحكمة النبوية تقتضي أن يتوجه ﷺ إلى جانب الخير في هذا الرجل لينميه، في الوقت الذي يدفع جانب الشر فيه اتقاء فحشه.

---

(١) «أساس البلاغة»: ١٨٧.

(٢) «الفتح»: ١٢/١٥٩.

(٣) المراد بالعشيرة قبيلته، أي بئس هذا الرجل منها... وفيه جواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه، قاله القاضي، ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج ١٦/١١٩.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الأدب باب المداراة مع الناس، ينظر «الفتح»: ١٢/١٥٩ رقم ٦١٣١.

قال القاضي (ت. ٥٤٤هـ): «وإنما ألان له القول تألفاً له ولأمثاله على الإسلام»[١].

وجاء في بعض الطرق «**إنه منافق أداريه عن نفاقه، وأخشى أن يفسد غيره**»[٢].

فانظر إلى حرصه ﷺ على بذل الرفق حتى لشرار الناس تأليفاً واتقاء، جلباً لمصلحة الإسلام، ودفعا لمفسدة التضرر من فحشهم.

وقد فهم الصحابة هذا الدرس وجسدوه في سلوكهم، فعن أبي الدرداء قال: «**إنا لنكشر**[٣] **في وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتعلنهم**»[٤].

وضابط هذه المداراة ألا تخرج إلى حد المداهنة.

قال ابن بطال (ت. ٤٤٩هـ) يحدد الفرق بين المداراة والمداهنة: «وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط، لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان[٥]، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه، من غير إنكار عليه.

والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه، حتى لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك»[٦].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج١٦/ ١١٩.

(٢) «الفتح»: ١٢/ ١٦١.

(٣) «كشر الرجل إلى صاحبه: تبسم». «أساس البلاغة»: ٥٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في ترجمة الباب ٨٢ من كتاب الأدب، ينظر «الفتح»: ١٢/ ١٥٩.

(٥) يقال داهنه وصانعه، وتصنع له في المودة، وكذبه الود، وإنه لذو مودة مكذوبة، والعبارات متقاربة المعنى. ينظر «كتاب نجعة الرائد»: ١/ ٢٤٢.

(٦) المصدر نفسه.

فلا مناص من أن يتعامل المجادل المسلم باللطف واللين الذين يحركان في الغير جانب الخير، وأن يدل على الحق بلباقة وملاطفة اتقاء فحش الناس.

هذه عموماً بعض أوجه ومظاهر الرفق الذي أمرنا به، عرضناها بما يتناسب ومقام المجادلة.

وضابط الرفق هو ما أشرنا إليه سابقاً: «**كل فعل أو قول تجمل باللين والملاطفة، وجمع القلوب على الحق حتى التأمت معه، فهو الرفق الذي أمرنا به في مجادلة أهل الكتاب**».

قاعدة في الرفق:

بعد هذا البيان، لا بد من التنبيه على قاعدة تضبط توظيف الرفق كمقتضى من مقتضيات المجادلة بالموعظة الحسنة.

إننا نسلم جميعاً بأن إعطاء الدنية في ديننا طائعين غير مكرهين خروج عن شريعة الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «**من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا**»(١).

فنخشى أن يفهم ما أكدناه من ضرورة التزام الرفق في الأمر كله، على أنه دعوة لإعطاء الدنية، أو هو صورة من صور المداهنة. أو هو حرص على رضا الناس، ولو في سخط الله عز وجل(٢).

---

(١) رواه الطبراني في مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٤٨. ينظر «الترغيب والترهيب»، كتاب البيوع: ٢/ ٣٤٢.

(٢) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله، ومن أسخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس**». أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب ذكر الأخبار عما يجب على المرء من إرضاء الله عند سخط المخلوقين. ينظر «صحيح ابن حبان»: ١/ ٥١١.

لعل المقدمة التي صدرت بها الحديث عن الرفق تستبعد هذا الفهم، فقد ذكرت هناك بأن الخطاب القرآني المرتبط بطريقة الحجاج والمجادلة يتراوح بين القوة واللين قوة الحجة ولين الخطاب.

فلا غرابة إن دعونا للجمع بين ما جمع الله عز وجل بينه في كتابه. وجسدته السيرة النبوية في تفاصيله.

ولم يقل أحد بضرورة التزام اللين ولو أدى إلى الضعف، ولا بلزوم القوة حتى العنف. وإنما بينا أن المطلوب التفنن في استعمال طرفي القوة واللين بحسب المقام ومقتضى الحال.

ومن المفيد أن نضرب لذلك مثلاً من مواقفه ﷺ الخالدة، يتبين منه الحد الذي يتوقف فيه اللين، ويشرع في استعمال القوة والحزم:

تروي كتب السيرة أن النبي ﷺ أسر أبا عزة الشاعر يوم بدر ـ وكان قد هجاه هو وأصحابه ـ فتضرع إلى رسول الله ﷺ أن يعتقه من الأسر دون فداء، وقال: يا محمد، إني فقير وذو حاجة قد عرفتها، فامنن علي لفقري وبناتي. فرق رسول الله ﷺ لحاله وأطلقه، بعد أن أخذ عليه العهد ألا يشهر الحرب عليه ويتعاون مع أعدائه، فلما عاد إلى مكة أبى له لؤمه وسوء طويته إلا أن ينال من المسلمين بشعره فهجاهم، وأطاع المشركين في الخروج معهم إلى أحد لمقاتلة النبي ﷺ، ويشاء الله أن يقع أسيراً في غزوة حمراء الأسد، فعاد هذا الشاعر إلى سيرته الأولى يتضرع إلى النبي ﷺ ويقول: أمنن علي لفقري وبناتي، وأعاهدك ألا أعود لمثل ما فعلت، فأجابه النبي ﷺ: «**لا والله لا تمسح عارضيك**[1] **بمكة تقول: خدعت محمداً مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**» وأمر به فقتل[2].

---

(١) «العارضتان: صفحتا الخد، ولعل مسحها كناية عن الزهو والاستخفاف». «الحكمة النبوية»: ١٦٥.

(٢) «السيرة النبوية»: ٣/ ٩٥ ـ ٩٦.

وعن أبي هريرة (ت. ٥٩هـ) رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا يلدغ**[1] **المؤمن من حجر واحد مرتين**»[2].

قال القاضي (ت. ٥٤٤هـ): «المؤمن الممدوح، أي في هذا الحديث، هو الكيس الحازم الذي لا يستغفل، فيخدع مرة بعد أخرى، ولا يفطن لذلك»[3].

فالنبي ﷺ كان في المرة الأولى مع هذا الشاعر مضرب المثل في الحلم والرأفة والرحمة، **ولما لم يصادف ذلك موضعه**، كان لا بد من الشدة والحزم ليعتبر كل ماكر، ويرتدع كل غادر[4].

فالأسلوب القرآني والنبوي في الخطاب والمجادلة يجمع بين القوة واللين: «**قوة في لين**»[5] كما عبر الفاروق رضي الله عنه.

ويبقى تغليب أحدهما على الآخر، بما يظهر من قرائن الحال، والمقام، من الأمور التي يجب أن يتفنن فيها[6] المجادل المسلم، مسترشداً في ذلك بسيرته ﷺ ومواقف سلفنا الصالح في هذا الباب.

وليكن شعارنا في هذا: «**لين في غير ضعف، وقوة في غير عنف**».

---

(١) قال الإمام النووي: «الرواية المشهورة لا يلدغ برفع الغين». صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ٩٩ .لدغ: يقال لدغته الحية، والعقرب، ورجل لديغ». أساس البلاغة: ٥٦٢.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، المصدر السابق: ج ١٨/ ٩٧ ـ ٩٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) «الحكمة النبوية»: ١٦٥.

(٥) هذه العبارة تنسب للفاروق رضي الله عنه. فقد روي عنه أنه قال: «إن هذا الأمر ـ يريد سياسة الحكم ـ لا يصلحه إلا لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف» «البيان والتبيين»: ٣/ ٢٢٨.

(٦) ولهذا عرفنا الأسلوب بأنه «**فن الأداء**».

٣ ـ البشارة والنذارة

من المفيد في بداية حديثنا عن أسلوب البشارة والنذارة، باعتباره مظهراً من مظاهر المجادلة بالموعظة الحسنة، أن نذكر ببعض التعريفات التي أعطيت للموعظة الحسنة:

قال الإمام النسفي (ت. أوائل ق ٨هـ) في تفسير الموعظة الحسنة «هي التي لا يخفى عليهم أنك ـ يقصد المخاطبين بها ـ تناصحهم بها، وتقصد ما ينفعهم فيها»[١].

قال الإمام الطباطبائي: «الموعظة هو البيان[٢] الذي تلين به النفس، ويرق له القلب، لما فيه من صلاح حال السامع»[٣].

والذي يظهر من هذه التعريفات وغيرها أن غاية الموعظة الحسنة: **إصلاح حال المخاطب بها، وجلب ما فيه النفع له عاجلاً وآجلاً.**

ولهذا عرفنا المجادلة بالموعظة الحسنة بأنها **تبليغ كلمة الحق إلى أعماق القلوب ونصيحة مشفق، تنبعث من القلب لتستقر في وجدان المخاطب، فتحرك فيه إرادة الخير، بالرفق واللين، تبشيراً لا تنفيراً.**

وأسلوب البشارة والنذارة ينسجم مع غاية المجادلة بالموعظة الحسنة، فهو يرغب المخاطب في سلوك سبيل الحق من خلال عرض الأجر العظيم والثواب الجزيل، والعاقبة المحمودة، في الوقت الذي يحذر من عاقبة السوء وعيشة الضنك[٤] التي تترصد كل من حاد عن سبيل الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ

---

(١) ينظر «الأساس في التفسير»: ٦/٣٠٠٨.

(٢) الصحيح أن يقال «هي البيان» لأن الضمير عائد على الموعظة، والراجح أنه خطأ مطبعي.

(٣) «الميزان»: ١٤/ ٣٧٢.

(٤) قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[طه: ١٢٤]. . «والضنك: الضيق». «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٣٣٥.

﴿ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[1].

فلا عجب إذن إن وجدنا كثيراً من المفسرين يحددون المراد بالموعظة الحسنة في أن يخلط الداعية المجادل الرغبة بالرهبة، والنذارة بالبشارة.

وحتى نتبين أبعاد أسلوب البشارة والنذارة، لا بد من الوقوف عند الأمور الآتية:

- مفهوم أسلوب البشارة والنذارة.

- أهميته في المجادلة بالموعظة الحسنة.

- مظاهره في المجادلة مع أهل الكاتب.

(أ) مفهوم أسلوب البشارة والنذارة:

قال أهل اللغة: «أَبشَرت الرجل، وبشّرته أخبرته بسار بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء في الشجر. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾[2]. ويقال للخبر السار البشارة والبشرى، قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[3]. والبشير المبشر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾[4].»[5].

فالبشارة والتبشير إخبار بالبشرى التي تسر النفس، وتطمئن القلب والبشارة أيضاً: ترغيب في الخير وحث عليه.

قال الراغب (ت. ٥٠٣هـ): «أصل الرَّغبة السَّعة في الشيء، يقال

(١) سورة يونس، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٥٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٦٤.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٦.
(٥) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥٨. و«أساس البلاغة»: ٤٠.

رَغب الشيء اتسع، وحوض رَغيب، وفلان رَغيب الجوف، وفرس رغيب العدو، والرَّغبة والرغب والرُّغبى السعة في الإرادة. قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1]، فإذا قيل رَغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[2]. وإذا قيل رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه. نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾[3] ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى[4]﴾[5].

فالترغيب تحريك للإرادة نحو الخير.

ومن هنا يتبين الانسجام بين التبشير والترغيب، فكلاهما مرتبط بالآخر، وحيثما كان الترغيب فثم التبشير، إذ لا يتصور أن ترغب الإنسان في الشيء وإليه، دون أن تبشره بعاقبته المحمودة، ومآله السار والسعيد، والعكس.

فهما يشتركان في الحث على الشيء من خلال الوقوف على عاقبته والنظر في مآله.

والنذارة من نذر «والإنذار إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾[6] والنذير المنذر ويقع على كل شيء فيه إنذار إنساناً كان أو غيره. قال تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[7].. وقد نذرت أي علمت ذلك وحذرت»[8].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.
(٤) سورة مريم، الآية: ٤٦.
(٥) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢٢٤. وينظر «أساس البلاغة»: ٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٦) سورة الليل، الآية: ١٤.
(٧) سورة هود، الآية: ٢٥. سورة نوح، الآية: ٢.
(٨) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٥٤٢.

«ونذر القوم بالعدو: علموا به فحذروه، واستعدوا له»[1].

فالنذارة والإنذار إعلام وإخبار بشر، وهذا يبعث في النفس الخوف، ويحرك فيها الإرادة لأخذ العدة اللازمة، والحذر الكافي.

والترهيب يدور مع معاني النذارة: جاء في أساس البلاغة: «أرهبته ورهبته واسترهبته أزعجت نفسه بالإخافة»[2].

«والرَّهبة والرَّهَب مخافة مع تحرز واضطراب، قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾[3]»[4].

فالنذارة إخبار بمخوف تنزعج له النفس، فلا يقر لها قرار حتى تعد له العدة اللازمة، والحذر المطلوب.

فأسلوب البشارة والنذارة إذن ترغيب في الخير وحض على اختياره، وتخويف من الشر وتحذير من عاقبته.

وبهذا تتكامل البشارة والنذارة/ الترغيب والترهيب، فالنفس إذا خافت شيئاً رغبت في ضده، وإذا فرحت بشيء حزنت لفقدانه «وفي الحقيقة ففرارها، أي النفس البشرية، من ذلك المخوف إنما هو إيثار لضده المحبوب لها»[5].

وقد أكد الإمام الشاطبي (ت. ٧٩٠هـ) قاعدة تلازم الترغيب والترهيب في القرآن الكريم بقوله: «إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس. وكذلك الترجية مع التخويف، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر

---

(١) «أساس البلاغة»: ٢٢٦.

(٢) المصدر السابق: ٢٦١.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٣.

(٤) «معجم مفردات ألفاظ القرآن»: ٢٣٠.

(٥) «تهذيب مدارج السالكين: ٣٠٥.

أهل النار، وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً، فهو راجع إلى الترجية والتخويف»[1].

وسلكت السنة النبوية مسلك «القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب، فكان النبي ﷺ يجمع في أحاديثه بين الترغيب حيناً، والترهيب حيناً آخر. وما كان يقتصر على الترهيب فيؤدي إلى التنفير، ولا على الترغيب فيؤدي إلا الكسل، وترك العمل»[2].

بعد أن اتضح مفهوم أسلوب البشارة والنذارة أمكننا الانتقال إلى الحديث عن أهميته في المجادلة بالموعظة الحسنة.

(ب) أهمية أسلوب البشارة والنذارة في المجادلة بالموعظة الجسنة:

تكمن أهمية أسلوب البشارة والنذارة في المجادلة بالموعظة الحسنة في أمور أذكر منها:

أولاً: إن أسلوب البشارة والنذارة/ الترغيب والترهيب أسلوب قرآني ونبوي. والأخذ به في باب المجادلة بالموعظة الحسنة واجب، لأنه من الاقتداء بالأسوة الحسنة: رسول الله ﷺ.

قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[3].

فقد أُمر نبينا ﷺ: «أن يكون» بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران، ومن فضل وتكريم، وأن يكون «نذيراً» للغافلين بما ينتظر المسيئين من

---

(١) «الموافقات»، كتاب الأدلة الشرعية، المسألة الرابعة: ج٣/ ٢٦٧.

(٢) «الرسول المعلم ﷺ»: ١٩٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

عذاب ونكال، فلا يؤخذوا على غرة، ولا يعذبوا إلا بعد إنذار»[1].

قال الحافظ (ت. ٨٥٢هـ): «مبشر للمطيعين بالجنة، وللعصاة بالنار»[2].

وتتأكد أهمية الأمر الإلهي بالتزام أسلوب البشارة والنذارة إذا علمنا أن الله عز وجل قد وصف نبيه ﷺ في الكتب السابقة بهذا الوصف (شاهداً ومبشراً ونذيراً). عن عطاء بن يسار (ت. ١٠٣هـ)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص (ت. ٦٥هـ) رضي الله عنهما أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾[3]. قال في التوراة: «**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وحرزا للأميين**» ـ ثم ذكر بقية الحديث ـ[4].

واستجاب الرسول الأمين ﷺ لنداء ربه مباشرة بعد نزول آية البشارة والنذارة: عن ابن عباس (ت. ٦٨هـ) رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾[5]، وقد كان أمر علياً ومعاذاً رضي الله عنهما أن يسرا إلى اليمن فقال: «**انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل علي** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾[6]»[7].

---

(١) «الظلال»: ٥/ ٢٨٧٢.

(٢) «الفتح»: ٩/ ٥٦٠.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التفسير سورة الفتح باب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]. ينظر «الفتح»: ٩/ ٥٩٩.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥.

(٦) نفس الآية.

(٧) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٤٧٨ وينظر «الجامع لأحكام القرآن» القرطبي: ١٤/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

وقد سلك رسول الله ﷺ سبيل البشارة والنذارة في تعليمه وتربيته لاتباعه من المؤمنين، وعند مجادلاته «فكان ﷺ يرغب في الخير بذكر ثوابه والتنبيه على منافعه، ويُرهّب من الشر بذكر عقابه، والتنبيه على مساويه»[(١)].

عن جابر (ت. ٧٤هـ) رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه الوحي، أو وعظ. قلت: نذير قوم أتاهم العذاب، فإذا ذهب عنه ذلك رأيتَ أطلقَ الناس وجهاً، وأكثرهم ضحكاً[(٢)]، وأحسنهم بشرا[(٣)].

وعن أبي موسى (ت. ٥٢هـ) قال: كان رسول الله ﷺ، إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره، قال: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**»[(٤)].

قال الإمام النووي (ت. ٦٧٦هـ): «في هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله، وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير»[(٥)].

فالبشارة والتبشير مأمور بهما، وغايتهما تحقيق السكينة القلبية[(٦)]، أما

---

(١) «الرسول المعلم ﷺ: ١٩٣.

(٢) أي تبسما، فقد كان أكثر ضحكه ﷺ تبسماً، ولم ير مستجمعاً ضحكه حتى تبدو نواجذه. أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان. ينظر «الفتح»: ٤/ ١٧٧.

(٣) قال الكاندهلوي: قال الهيثمي (٩/ ١٧): إسناده حسن. قلت: ينظر «حياة الصحابة»: ٢/ ٥٥٤.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج ١٢/ ٣٦ رقم ١٧٣٢.

(٥) المصدر السابق: ج ١٢/ ٣٧.

(٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**يسروا لا وتعسروا وسكنوا ولا تنفروا**» أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا**» «الفتح»: ١٢/ ١٥٦. فجعل التسكين في موضع التبشير، إذا التبشير بصاحب التسكين، وهو ضد التنفير. ينظر «الفتح»: ١٢/ ١٥٧.

النذارة فمأمور بها، لكن بشرط أن لا تخرج عن غاية التخويف إلى حد التنفير. وإلى هذا المعنى أشار الحافظ بقوله: «ويظهر لي أن النكتة في الإتيان بلفظ البشارة وهو الأصل، وبلفظ التنفير وهو اللازم[1] للإشارة إلى أن الإنذار لا ينفي مطلقاً بخلاف التنفير. فكأنه قيل إن أنذرتم فليكن بغير تنفير، كقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[2]»[3].

من خلال ما سبق يتبين أن أسلوب البشارة والنذارة أسلوب قرآني وسلوك نبوي. يجب الاقتداء به عند المجادلة بالموعظة الحسنة التي تخاطب الوجدان وتحرك الإرادات لتطلب الحق. وأسلوب البشارة والنذارة تلك وظيفته فهو يعتمد تبشير القلوب حتى تسكن للحق وتطمئن له، وإنذارها حتى تنزعج مما هي فيه من الضلال، فتبادر قبل الفوات.

ثانياً: ثم إن أسلوب الترغيب والترهيب/ البشارة والنذارة يتماشى مع طبيعة النفس البشرية، وله القوة على النفاذ إلى أعماق الشعور والفعل في الإرادة، وهذا هو هدف المجادلة بالموعظة الحسنة: أن ينفعل المخاطب وجدانياً مع الخطاب فيستجيب بانبعاث من الداخل نحو الحق الذي اطمأن إليه.

يقول الدهلوي (ت. ١١٧٦هـ) في معرض حديثه عن أسرار الترغيب والترهيب: «من نعمة الله تبارك وتعالى على عباده أن أوحى إلى أنبيائه ـ صلوات الله عليهم ـ ما يترتب على الأعمال من الثواب والعذاب، ليخبروا القوم به، فتمتلىء قلوبهم رغبة ورهبة، ويتقيدوا بالشرائع بداعية منبعثة من أنفسهم»[4].

---

(١) قلت: لأن الحقيقة أن يقال بشروا ولا تنذروا.

(٢) سورة طه، الآية: ٤٤.

(٣) «الفتح»: ٨/ ٣٨٦.

(٤) «حجة الله البالغة» للإمام الكبير أحمد المعروف بشاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي: ١/ ٣٢٦.

هذا الانبعاث الذي يوقظ الطباع للسماحة بترك ما كانت عليه من الخطأ، والرجوع إلى الصواب، ما سره؟.

يجيبنا خبير بالنفس البشرية بقوله: «إن الطباع لها معلوم ورسوم تتقاضاها من العبد، ولا تسمح له بتركها إلا بعوض هو أحب إليها من معلومها ورسومها، وأجل عندها منه، وأنفع لها، فإذا قوي تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف: سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك المعلوم. فإن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب هو أحب إليها منه أو حذراً من مخوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب»[1].

ويضرب لنا خبيرنا مثالاً يوضح ما سبق: «فإن قدم إليه طعام لذيذ يضره، ويوجب له السقم، فإنما يتركه محبة للعافية التي هي أحب إليه من ذلك الطعام»[2].

فالنفس البشرية دائمة التعلق، ولا تترك التعلق بالشيء إلا لتتعلق بأفضل منه وأشرف. وأسلوب الترغيب والترهيب يقوي في النفس التعلق بالحق والصواب، من خلال عرض العوض الأفضل، والأنفع والأحب إليها من معلومها ورسومها التي كانت عليها، فيسهل على النفس إذ ذاك الرجوع إلى الحق والصواب، لأن الطباع سمحت بذلك طمعاً فيما هو أجل وأنفع[3].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين»: ٣٠٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) يقول الإمام الباجي مرغباً راهب فرنسا في فضل الإسلام: «فاعتبر ـ أيها الراهب ـ ضعف ما أنت عليه، وفضل ما ندعوك إليه، فعسى أن يوفقك الله ويهديك فتصير بعلم الله بكونك من جملتنا، وفيئتك إلى ملتنا! فقد بلغنا من إرادتك للخير، ورغبتك فيه، وحرصك عليه ما حرصنا به على إرشادك، وهدايتك، ورجونا سرعة انقيادك وإنابتك». «رسالة راهب فرنسا»: ٧١.

ومما يؤكد انسجام أسلوب الترغيب والترهيب مع طبيعة النفس البشرية أيضاً: ما جبلت عليه النفس الإنسانية من «حب الخير والسعي في الحصول عليه، وكراهية الشر والرغبة في البعد عنه. فالإنسان يحب نفسه ويتوق إلى حمايتها من كل الشرور العاجلة والآجلة، لهذا فإن أسلوب الترغيب فيما عند الله من أجر عظيم لعبده الذي أطاعه واتقاه محبب إلى النفس البشرية، تهفو إليه وتسعد به وتنصت له. كذلك الترهيب مما أعده المولى جل وعلا لعبده الذي عصاه وتنكب عن الطريق المستقيم أسلوب مؤثر في النفس البشرية تستفيد منه»(١).

فأسلوب البشارة والنذارة إذن من صميم المجادلة بالموعظة الحسنة، ولهذا جعلناه مقتضى من مقتضياته.

وقبل المرور إلى مظاهر هذا الأسلوب في المجادلة مع أهل الكتاب، أرى من المفيد أن أعرض لطرق الترغيب والترهيب الواردة في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ لينسج على منوالها المجادل المسلم.

*** طرق الترغيب والترهيب:**

تتنوع سبل الترغيب والترهيب التي يسلكها القرآن الكريم والسنة النبوية. ويمكن إجمالها في طريقتين(٢):

الأولى: وتعتمد بيان الأثر المترتب على العمل في تهذيب النفس وإصلاحها، وجلب ما ينفعها، من خلال إثارة غريزة حب الذات بالترغيب، فيعد الإنسان بالخير في الدنيا والآخرة، ويعرض عليه صوراً وألواناً منه، مستخدماً كل وسائل التأثير؛ من تصوير عجيب، وتأكيد قوي، وتشويق يثير الكوامن، فيريه الجنة كأنه يرى مباهجها، ويستروح نسائمها، ويزين له ما

---

(١) «قواعد الدعوة»: ٤٤٠.

(٢) ينظر «حجة الله البالغة»: ١/ ٣٢٨. و«أسلوب الدعوة في القرآن»: ٣٥٨.

يصنعه الإيمان في القلوب من شعور بالأمن، وشعور بالرضا إلى آخر تلك المعاني التي تلمس الوجدان وتفتح مغاليق القلوب.

الثانية: ببيان أثر العمل في الحفظ من الشر والوقاية من الهلاك والنجاة من عاقبة السوء، من خلال إثارة غريزة الخوف بالترهيب مما يترتب على عدم الاستجابة من ويل وبلاء في الدنيا والآخرة، فيعرض على الإنسان صور العذاب في الآخرة، ويذكر بما أصاب الأمم السابقة في الدنيا عندما تولت عن دعوة الله. في أساليب تجعله يرى مصارع القوم، ويسمع عويلهم، بما يهز القولب، ويزلزل النفوس لتنقاد وتلين.

وهكذا يتبين ويتأكد أن أسلوب الترغيب والترهيب/ البشارة والنذارة، أسلوب ثابت وضروري في عملية المجادلة، لأنه يتماشى وما جبلت عليه النفس البشرية من حب الخير والخوف من الشر. وبه تحصل الاستجابة من الأعماق، فيكون التوجه نحو الحق بباعث قوي. وهذه أهداف تسعى المجادلة بالموعظة إلى بلوغها.

بعدما وقفنا على أهمية حضور أسلوب البشارة والنذارة في المجادلة مع أهل الكتاب، يحسن بنا أن نذكر بعض مظاهره ـ وللمجادل المسلم أن يستلهم غيرها، حتى يكون التنزيل لهذا الأسلوب كاملاً، سعياً لبلوغ ثماره، وتحقيق منافعه ـ.

(ج) مظاهر أسلوب البشارة والنذارة في مجادلة أهل الكتاب:

تتعدد صور تنزيل هذا الأسلوب أثناء عملية المجادلة، **والضابط العام الذي يحكمها هو الترغيب في الأخذ بالحق بعد ظهوره**؛ فكل شكل ووسيلة جذبت قلوب من نجادلهم إلى الحق الذي نعرضه عليهم هي مظهر من مظاهر أسلوب البشارة والنذارة.

وقد اخترت أن أذكر مظهرين أراهما يجمعان كثيراً منها، وهما: البشر والتبشير.

* **التبشير لا التنفير:**

من الأحاديث التي يوصي فيها رسول الله ﷺ بالتبشير، وينهى فيها عن التنفير، الحديث الذي أخرجه البخاري (ت. ٢١٠هـ) عن سعيد بن أبي بردة قال: سمعت أبي يقول: بعث النبي ﷺ أبي ومعاذا بن جبل (ت. ١٨هـ) إلى اليمن فقال: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا**»[(١)].

ومر معنا حديث أبي موسى (ت. ٥٢هـ) قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «**بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا**»[(٢)].

فأنت ترى حرصه ﷺ على التبشير وترك التنفير.

وقد أمر بذلك في قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾[(٣)].

فهذا الوصف الكريم لنبينا ﷺ إنما ذكره المولى ليتحلى به كل من سار على طريقته، وتأسى بفعله إلى يوم القيامة.

ومر معنا أن البشارة تسكين لقلب المخاطب. وأن النذارة مأمور بها بشرط أن لا تخرج عن حدها وهو التخويف من الشر إلى التنفير المنهي عنه.

وأحب الآن أن أنبه على ضابط في «**تغليب البشارة على النذارة لمصلحة معينة**» وأقدم له بقولة الإمام الشاطبي (ت. ٧٩٠هـ) «فصل: وقد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب أمر الولي إذا وجه أميرين إلى موضع أن يتطوعا ولا يتعاصيا. «الفتح» ١٥/٦٦. رقم: ٧١٧٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥ و٤٦.

يغلب أحد الطرفين ـ يقصد طرفا التخويف والترجية ـ بحسب مواطن، ومقتضيات الأحوال: فيرد التخويف ويتسع مجاله، لكنه لا يخلو من الترجية»[1].

ومثل لذلك بمواطن الاغترار التي «يطلب فيها التخويف أكثر من طلب الترجية، لأن درء المفاسد أكثر. وترد الترجية أيضاً ويتسع مجالها وذلك في مواطن القنوط ومظنته، وإذا لم يكن هنالك مظنة هذا، ولا هذا أتى الأمر معتدلاً»[2].

فالتبشير والإنذار، وإن كان المطلوب الإتيان بهما جميعاً في مواطن، إلا أنه في مواطن أخرى وحسب مقتضيات الأحوال يغلب أحد الطرفين على الآخر لمصلحة شرعية.

ومن المواطن التي يغلب فيها جانب التبشير: مواطن القنوط ومظنته.

وقد تكلم علماؤنا في مواطن أخرى يسبق فيها التبشير على الإنذار كما في مقام التعليم، خاصة في حق المبتدئين. قال الحافظ: «لما كانت النذارة ـ وهي الإخبار بالشر ـ في ابتداء التعليم توجب النفرة قوبلت البشارة بالتنفير»[3].

وكذلك الأمر مع من قرب إسلامه «يترك التشديد عليه في الابتداء. وكذلك من تاب من المعاصي كلهم يتلطف بهم»[4].

واعتقد أن مقام المجادلة مع أهل الكتاب يستدعي تغليب جانب الترجية والتبشير، وذلك لاعتبارات منها:

---

(١) «الموافقات»: ٣/ ٢٦٩.
(٢) نفس المصدر: ٣/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
(٣) «الفتح»: ١/ ٢٢٠.
(٤) نفس المصدر، وينظر أيضاً «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج١٢/ ٣٧.

١ ـ الرجوع إلى الحق رحلة شاقة، وانتقال من نجادلهم إلى الحق الذي يعرض عليهم بعدما ألفت نفوسهم غيره، من شأنه أن يحدث في النفس ضيقاً ووحشة. أضف إلى ذلك المعاناة التي قد يجدها من يرجع للحق من محيطه وأقرانه وأهل صلته السابقة. كل هذا يستدعي تغليب التبشير بفضل الله الذي ينتظرهم، وسعادة الدنيا المعروضة عليهم إن هم اتبعوا الحق وصبروا. قال تعالى:

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

٢ ـ ثم إن من نجادلهم حديثوا عهد بما يعرض عليهم، فالتلطف بهم بالبشارة أولاً واجب، حتى يستأنسوا وتتألف عليه قلوبهم، عملاً بالحكمة القائلة: «الإيناس قبل الإبساس»[٢].

هذه بعض الاعتبارات التي جعلتني أرجح جانب التبشير عند مجادلة أهل الكتاب.

وسيجد المتتبع لآيات القرآن الكريم المتعلقة بالمجادلة مع أهل الكتاب، أن القرآن الكريم رغب أهل الكتاب في الاستجابة لنداء الحق، و«بين لهم أن ما يدعوهم إليه محمد ﷺ أمر تقبله العقول السليمة، وتنشرح له القلوب المستقيمة، وتطمئن إليه النفوس الطيبة، ولا يخلتف عاقلان في أنه خير، وبر ورحمة»[٣].

كما أن السنة النبوية حرصت على بيان، وذكر الثواب العظيم الذي ينتظر من أسلم من أهل الكتاب: فعن أبي بريدة بن أبي موسى، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين**[٤] **رجل من أهل الكتاب**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٣، وسورة يونس، الآية: ٨٧.

(٢) الإيناس لتأليف قلوبهم، ثم الإبساس بالكلام الذي يعرض الحق في تفاصيله.

(٣) بنو إسرائيل في القرآن الكريم»: ١٠٣.

(٤) قال الإمام القرطبي: «قال علماؤنا: لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين =

آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه، فله أجران ـ وذكر بقية الحديث ـ»[1].

والحديث موافق لقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

قال الإمام النووي (ت. ٦٧٦هـ): فيه ـ أي في الحديث ـ فضيلة من آمن من أهل الكتاب بنبينا ﷺ أن له أجرين لإيمانه بنبيه قبل النسخ، والثاني لإيمانه بنبينا ﷺ»[3].

ويرى ابن كثير (ت. ٧٧٤هـ) أن سبب نيل الكتابي المسلم لهذين الأجرين يرجع إلى «صبرهم على اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس»[4]. ويعضد هذا الفهم قوله تعالى:

﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾[5].

والصبر عام، يدخل فيه صبرهم على ملتهم، ثم ملة الإسلام، وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار، وغير ذلك[6].

= من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين: فالكتابي مخاطباً من جهة نبيه، ثم إنه خوطب من جهة نبينا، فأجابه واتبعه فله أجر الملتين». «الجامع لأحكام القرآن»: ج١٣/ ١٩٦ ـ ١٩٧.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج ٢/ ١٦١.

(٢) سورة القصص، الآيات: ٥٢ ـ ٥٤.

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج٢/ ١٦٢.

(٤) «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٣٨٠.

(٥) سورة القصص، الآية: ٥٤.

(٦) «الجامع لأحكام القرآن»: ١٣/ ١٩٧.

«والشواهد كثيرة في عصرنا الحاضر، إذ أن هذه النماذج البشرية لا زالت إلى الآن تتعرض للإرهاب الفكري، والجسدي من قبل أعداء الحق»[(١)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[(٢)]، «جزاء على ذلك الصبر، وهو عسير على النفوس، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف. وهؤلاء صبروا عليها جميعاً، وصبروا على السخرية والإيذاء»[(٣)].

والإسلام يقدر هذا الجهد المبذول في اتباع الحق ويجازي عليه أحسن الجزاء: الأجران، وزيادة[(٤)]: لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

أخرج الإمام أحمد (ت. ٢٤١هـ) عن أبي أمامة (ت. ٨٦هـ) قال: إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح، فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيما قال: «**من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، ولهم ما لنا وعليهم ما علينا**»[(٥)].

«إن هذا الإيمان المفعم بالصدق والإخلاص من أصحابه ـ يقصد مؤمنوا أهل الكتاب ـ له من الله تعالى الجزاء الحسن، والأجر العظيم، وهذا بدوره يجعل هؤلاء المؤمنين في حبور، وانشراح لما في الصدور»[(٦)].

---

(١) «مؤمنوا أهل الكتاب ومكانتهم في الإسلام». الدكتور عمر وفيق الداعوق: ٤٠. وقد أحال المؤلف على نماذج من هذا الأذى، فلينظر هناك.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٤.

(٣) «الظلال»: ٥/ ٢٧٠١.

(٤) قال تعالى في حق من أسلم من أهل الكتاب: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٤، ١١٥]. وقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وقال عز من قائل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

(٥) ينظر «تفسير القرآن العظيم»: ٣/ ٣٨٠.

(٦) «مؤمنوا أهل الكتاب»: ٤٦.

وكان حرص رسول الله شديداً على التبشير بهذا الفضل العظيم، فكثيراً ما كان يصدر رسائله إلى أهل الكتاب بقوله: «**أسلم تسلم يأتك أجرك مرتين**»، وقوله: «**السلام على من اتبع الهدى**»: ففي رسالته ﷺ إلى قيصر قال: «**من محمد عبد الله ورسوله إلى قيصر عظيم الروم، أسلم تسلم يأتك أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين**، و﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]»[2].

وقد نبه الحافظ (ت. ٨٥٢هـ) على أن: «أسلم تسلم» فيها ترغيب[3].

ويتضح جانب الزجر النفسي من خلال العبارة النبوية: «**وإن توليت فعليك إثم الأريسيين**» لهرقل، وقوله ﷺ: «**فإن توليت فعليك إثم القبط**»[4] للمقوقس «وهذا الأسلوب له دوره التأثيري البالغ في نفوس الزعماء والملوك، إذ أن عدم استجابتهم يترتب عليه تحملهم إثم شعوبهم جميعاً... وهذا الأمر يحدث في النفس أهاجيس ووساوس، وخوفاً من العاقبة، خاصة وأنهم أهل كتاب، يعرفون صدق هذه الدعوة وحقيقتها»[5].

وخلاصة القول: إن تقديم الترغيب على الترهيب، هو الأصل الأصيل في المجادلة، وتغليب التبشير على التنفير، هو الأنفع والأجدى، وبذلك بدأ رسول الله خطابه للكفار والمشركين، والناس أجمعين ينادي فيهم: «**يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها**

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوحي، الباب السادس، ينظر «الفتح»: ١/ ٥٦.

(٣) نفسه.

(٤) «حياة الصحابة»: ١/ ١٢١.

(٥) «الأسلوب النبوي في الدعوة»: ٤٠٠.

العجم، فإذا متم كنتم ملوكاً في الجنة»[1].

هذا ما نقصده بالتبشير فماذا عن البشر؟.

*** البشر وطلاقة الوجه:**

المجادل المؤمن القوي من يعطي لكل ذي حق حقه، يلين للناس ويبتسم، ويبشر ويستبشر، ويخالق الناس بالخلق الحسن، ويلقاهم بالبشاشة الدائمة.

كان ﷺ دائم التبسم. فعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ»[2].

وكان ﷺ لا يلقى الناس إلا بالوجه الطلق. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قال لي النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**[3]»[4].

وعن قيس بن جرير قال: «ما حجبني النبي ﷺ منذ أسلمت ولا رآني إلا تبسم في وجهي»[5].

من طيب المؤمن وحسن سمته الوجه الباسم المقبل على مخاطبه، والوجه الطلق الباش تلقى به الناس صدقة، وخلق كريم يحث عليه الإسلام.

---

(١) حديث «قولوا لا إلٰه إلا الله تفلحوا» سبق تخريجه. ينظر «من مرتكزات الخطاب الدعوي» كتاب الأمة، العدد ٥٦ سنة ١٦: ١١٠.

(٢) «حياة الصحابة». فصل تبسمه عليه السلام: ٢/ ٥٥٣.

(٣) قال النووي: روى طلق على ثلاثة أوجه: إسكان اللام وكسرها وطليق بزيادة ياء ومعناه سهل منبسط، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج١٦/ ١٤٦.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ج١٦/ ١٤٦.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك. ينظر «الفتح»: ١٢/ ١٢٩.

روي أن النبي ﷺ قال: «**من الصدقة أن تسلم على الناس وأنت طليق الوجه**»[1].

وإن أقل ما يجب بذله للمجادل البشاشة الدائمة، تأليفاً للقلوب على الحق وملاطفة[2] لا نفاقاً منمقاً.

أخرج الترمذي (ت. **٢٦٩هـ**) في الشمائل عن عمرو بن العاص (ت. **٤٣هـ**) رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم **يتألفهم بذلك**، فكان يقبل بوجهه وحديثه علي حتى ظننت أني خير القوم، فقلت يا رسول الله أنا خير أو أبو بكر؟ فقال: أبو بكر، فقلت يا رسول الله أنا خير أم عمر؟ فقال: عمر، فقلت يا رسول الله أنا خير أم عثمان؟ فقال: عثمان، فلما سألت رسول الله ﷺ فصدقني، لوددت أني لم أكن سألته»[3].

فانظر كيف أثر إقباله ﷺ على جلسائه من الناس، حتى بلغت الطمأنينة ببعضهم أن يظن نفسه خير القوم.

إن الإقبال بالوجه الباسم الطلق، والحديث الطيب لمن أهم المفاتيح لإسماع كلمة الحق، والتفاعل معها، وإلى هذا تقصد المجادلة.

وقد بلغ انبساطه ﷺ للناس حد الدعابة، وذلك كله لمصلحة وتطييب نفس المخاطب ومؤانسته[4].

فلا بد أن يكون لمجادلنا المسلم نصيب من هذا البشر والانبساط.

---

(١) «حياة الصحابة»: **٢/ ٥٥٧**. رجل طليق الوجه متهلل بسام، ظاهر البشر. ينظر «فيض القدير»: **٢/ ٢٨٨**.

(٢) ذكر الحافظ تعليقاً على أحاديث تبسمه ﷺ أن أسباب تبسمه مختلفة لكن أكثرها للتعجب، وبعضها للإعجاب، وبعضها للملاحظة. ينظر «الفتح»: **١٢/ ١٣٠**.

(٣) أخرجه الطبراني عنه نحوه، وإسناده حسن. ينظر «حياة الصحابة»: **٢/ ٥٥٣**.

(٤) «الأذكار» النووي، باب المزاح: **٢٧٩**.

وإجمالاً لما سبق: إن البشر والاستبشار والكلمة الطيبة والكلام الواضح الهادىء الوقور، والإقبال على السائل وحسن الاستماع، والانبساط للناس والتبشير لا التنفير. كلها آداب إسلامية رفيعة، الواجب علينا أن نزرعها ونتعلمها ونعلمها، فإن المجادلة أولى شيء وجه باش، وكلمة طيبة، وشخص جذاب بلطفه، وبيان فكرته.

*** السمت الحسن:**

من تمام البشر الواجب بذله لمن نجادل: المست الحسن، والهيئة الجميلة.

عن ابن مسعود رضي الله عنه (ت. ٣٢هـ) عن النبي ﷺ قال: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[١].

وقد خصص الإمام البخاري (ت. ٢١٠هـ) باباً من أبواب الصحيح للحديث عن تجمله ﷺ للوفود[٢]، أي حسن هيئته بالملبوس ونحوه لمن يقدم عليه من الوفود التي ترسلهم قبائلهم يبايعون لهم على الإسلام، ويتعلمون أمور الدين حتى يعلموهم[٣].

ولم يعتن الإسلام بشيء كما اعتنى بالطهارة والنظافة «لأن النظافة والمظهر الحسن: من أسباب تقوية الروابط بين الناس[٤]، فالإنسان السوي ـ بفطرته ـ ينفر من القذارة، ويتجنب أهلها، وهذا سر الحث على الاغتسال قبل الجمعة[٥]، كما أنه سر النهي عن أكل الثوم والبصل

---

(١) أخرجه الإمام مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه. ينظر «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٢/ ٧٧.

(٢) كتاب الأدب، باب من تجمل للوفود. «الفتح»: ١٢/ ١٢٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) إضافة إلى فضائل الطهارة الروحية.

(٥) لأن الجمعة موسم لاجتماع المسلمين، وعيد للمسلمين فخصت بمزيد العناية.

والكراث[1]، ونحوها لمن يريد الذهاب إلى المسجد»[2].

وفي الحديث: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً**»[3].

فلكي يقبل المجادل على ما نعرضه عليه، نبسط له جسراً من الحفاظ على السمت الحسن، الذي تقبل عليه العين، ثم نتدرج به إلى سماع الحق واستطابته، لأنه إن رأى منا رثاثة الزي ازدرانا[4] فتفوتنا فرصة اللقاء والمجادلة، وتفوتنا فرصة إظهار الحق.

هكذا إذن تتبين لنا أهمية أسلوب البشارة والنذارة في مجادلة أهل الكتاب، كما تبرز مكانة المجادلة بالموعظة الحسنة في تحقيق غاية المجادلة بالتي هي أحسن.

قاعدة في أسلوب المجادلة:

تأسيساً على ما سبق التطرق إليه في المجادلة بالحكمة، والمجادلة بالموعظة الحسنة باعتبارهما وجها المجادلة بالتي هي أحسن، يمكن استخلاص مجموعة من المتقابلات نجعلها معالم لأسلوب المجادلة مع أهل الكتاب.

* قوة في لين:

قوة الحجة؛ إحكام للدليل ووضوح في الخطاب، مع مراعاة أحوال السامعين والمخاطبين، وإنزال الكلام حسب المقام ومقتضيات الأحوال.

---

(١) **الكراث**: نوع من أنواع النبات. وورد في مختار الصحاح - ص ٥١٣-: «الكراث: بقل».

(٢) «السنة مصدر للمعرفة والحضارة»: ٢٨٩.

(٣) ينظر «حياة الصحابة»: ٢/ ١٢٥.

(٤) أخرج ابن نعيم في الحلية أن رجلاً سأل ابن عمر: «ما ألبس من الثياب؟ قال: ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء». ينظر «حلية الأولياء»: ٤/ ٣١٨ .ازدراه: أي حقره». «مختار الصحاح»: ٢٦٥.

ولين وملاطفة في عرض الدليل، حتى يزول الحرج، ويعترف المخطىء، ويرجع إلى الصواب.

والإقرار بالحق والرجوع إليه رحلة شاقة، ييسر مراحلها الرفق المبذول، والقلب المشفق، والوجه الباش، والكلمة الهينة اللينة، والسّمت الحسن.

*** قوة في غير عنف:**

المجادلة عرض للحق بقوة.

وغاية القوة أن تحق الحق، وتزهق الباطل ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[1].

القوة تبني ولا تهدم، بهذا هي ضد العنف، «والله يعطي على الرفق ما لا يعط على العنف»[2].

القوة تبين ولا تكره: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾[3].

والعنف استعمال للقوة في غير محلها، فيهدم الإنسان من حيث يريد أن يبني، ويميت من حيث يريد أن يحيي.

*** لين في غير ضعف:**

لين هو القوة والبناء، إن استعمل لتأليف القلوب على الحق.

وهو إلى الخنوع أقرب، وعن الحق أبعد، إن أفضى إلى الضعف والمهانة والمهادنة. وقد أمرنا أن لا نعطي الدنية في ديننا طائعين غير مكرهين[4].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٤) سبق تخريجه.

هذه معالم في طريق المجادلة بالتي هي أحسن: بالحكمة والموعظة الحسنة، وضعناها في شكل قواعد ليسهل فهمها ويحسن استعمالها.

ويبقى على المسلم المجادل أن يتفنن في تنزيلها[1]، والموفق من وضع الشيء في مواضعه، وتلك هي الحكمة:

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2].

بهذا البيان لمعالم أسلوب المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة أكون قد استوفيت عرض وجهة نظري في القضايا المرتبطة بأسلوب المجادلة مع أهل الكتاب. وفي هذا جواب عن سؤال «كيفية مجادلة أهل الكتاب»، الذي صدرت به مقدمة هذا الباب.

ثم إن هذه المعالم مرتبطة بما مر معنا في البابين السابقين ـ حيث تعرضت للقضايا المرتبطة بأطراف المجادلة وأساسها ـ.

ومجموع هذه المعالم يقدم صورة واضحة للتصور الذي يضبط المجادلة مع أهل الكتاب سعياً للاستقامة على الجادة التي حددها قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[3]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[4].



(١) إذ الأسلوب: «فن الأداء».
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

خاتمـــة

يجمل بنا في هذا المقام أن نذكر بالخطوات المنجزة لحل الإشكال الذي انطلقت منه الرسالة، كما يحسن الوقوف عند النتائج والآفاق العلمية التي يمكن أن يمتد إليها البحث.

إن الإشكال الذي قامت عليه الرسالة هو محاولة اكتشاف التصور العام الذي يضبط العلاقة مع أهل الكتاب، خاصة في مجال المجادلة والحوار.

وحتى نأتي موضوع مجادلة أهل الكتاب من أبوابه المتعددة ارتأيت تقسيم البحث على ثلاث مراحل:

الأولى: وتهتم بالإحاطة بالقضايا المرتبطة بأطراف المجادلة، من خلال الإجابة على السؤال المحوري: **من يجادل من؟**.

الثانية: تهتم ببيان القضايا التي يمكن أن تتأسس عليها المجادلة. وجعلت مفتاح قضايا هذا الباس السؤال المركزي: **فيم نتجادل؟**

الثالثة: خُصِّصت للإحاطة بالقضايا المرتبطة بشكل وأسلوب المجادلة، وهذا ما يعرض له السؤال العام: **كيف نجادل أهل الكتاب؟**.

وفق هذا المسار تقدم البحث في الموضوع ليخلص إلى مجموعة من النتائج تشكل الحد الأدنى من العلم الواجب تحصيله، قبل الإقدام على المجادلة. وهذا القدر من العلم فريضة على من رشح نفسه للتصدي لهذا

الشأن. هذه النتائج أجملها فيما يلي:

ـ تنوع الدلالات اللغوية والاصطلاحية للمجادلة بتنوع سياق الاستعمال وتعدد مجالات التداول لن يمنع من تحديد مفهومها الذي يميزها حتى عن المصطلحات القريبة منها كمصطلح الحوار. فالمجادلة عند اللغويين **طريقة في التخاطب ومراجعة الكلام، تستوجب وجود طرفين ـ على الأقل ـ: يسعى كل منهما إلى إحكام حجته بما يضمن تحويل الخصم وفتله عن رأيه إلى غيره.** وفي الاصطلاح العام هي **رد الخصم عن رأيه إلى غيره بحجة.**

وعليه فهدف المجادلة الرجوع إلى ما تقتضيه الحجة بعد قيامها. ولسنا نملك حمل الناس على الحق حتى ولو بعد قيام الدليل.

فغاية ما يُطلب من المجادل المسلم **عرض ما معه من الحق**، مع الحرص على أن ينفذ بخطابه عقل ووجدان من يخاطب.

ـ مفهوم الكتابي يشمل كل طائفة تؤمن بكتاب سماوي وبالرسول المنزل عليه، إلا أنه يطلق أصالة على أهل الكتابين اليهود والنصارى. وعليه **فكل طائفة وافقت أحداً من أهل الكتابين ـ اليهود والنصارى ـ في نبيّهم وكتابهم فهي منهم وإلا فلا.**

ثم إن أهل الكتاب يشتركون ـ دون غيرهم من أهل الأهواء والملل والنحل ـ مع المسلمين في مراعاة الكليات الخمس، والسعي إلى تحقيقها والعمل على حفظها. وهذا القدر يشكل أساساً ومرجعاً للاحتكام عند مجادلة أهل الكتاب. وهو ما يغيب عند مجادلة الطوائف الأخرى. لذا وجب التمييز بين أهل الكتاب وغيرهم: فهم أهل كتاب ونبوة.

ـ مقدمة المجادلة: المعرفة بالمجادل.

المعرفة الشاملة والمتجددة بمن نجادل شرط لكي تحقق المجادلة هدفها.

ـ شرط في المجادل الكتابي: الرغبة والاستعداد لمعرفة ما غاب عنه من الحق، والسعي إلى ذلك.

وتفاوت استعداد المجادل الكتابي للوصول إلى الحقيقة والتزام آداب المجادلة يدفع إلى **التمييز بين أهل الكتاب** عند المجادلة، واستثناء المعتدي والمعاند.

فالاعتداء يسد باب البر الذي أمرنا ربنا ببذله للناس ما لم يقاتلونا في الدين، أو يظاهروا على ذلك. وهل المجادلة بالتي هي أحسن إلا بر، وأي بر؟.

ثم إن المجادلة بما هي إقناع تتعارض مع العناد، لأن صفة العناد تجعل إمكانية القبول بالحق مستحيلة. فلا يصفو لنا جو المجادلة بالتي هي أحسن إلا مع من سعى إلينا بطلبه، أو جذبنا إليه فضله، ومروءته فسعينا إليه.

ـ المجادلة مهمة الجميع. لكن تفاوت الكفاءات، والقدرات، وتعدد الجبهات، يحتم اختيار الأفضل والأصلح «فالواجب في كل مسؤولية الأصلح بحسبها» كما نبه على ذلك علماؤنا[1]. فمن كان أقدر على تحقيق غاية المجادلة، وسلوك الطريق الأنجع لذلك، فهو الأولى، وإلا فغيره أولى.

وعلى من لمس من نفسه استعداداً لولوج ميدان المجادلة أن يسعى لتحسين مجموعة من مواصفات المجادل المسلم.

ومن ثم **لا يقوم لمجادلة أهل الكتاب إلا القوي الأمين.**

أما القوة فهي مظهر الكفاءة العلمية والخبرة العملية التي تجعل المسلم

---

(١) «السياسة الشرعية» لابن تيمية: ١٦.

المجادل متمكناً من عمله على بصيرة من أمره. والأمانة عرض للحق بقوة مع التزام الأدب الجم، والرفق المطلوب الذي يشعر المجادل أن الهدف هو الانتصار للحق لا الانتصار على الخصم.

فالقوي الأمين هو القادر على أن يُفهم بقوة حجته، وبيان خطابه، وأن يُمثل بالسلوك القويم أن الحق الذي يَعرض له أحق أن يُتبع.

وعلى هذا الأساس تجمع لنا صفتا القوة والأمانة مجموع الشروط النفسية والسلوكية، العلمية والعملية الواجب توفرها في المسلم المجادل.

ـ المجادلة فرصة لبيان ما مع الطرفين المتجادلين من الحق في الموضوع المختلف فيه. **والكلمة السواء هي منطلق المجادلة** والأساس الذي يدعو القرآن للاجتماع عليه. قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[1].

والدعوة إلى الكلمة السواء، دعوة لمراعاة المقاصد الخمس، التي نصت الشرائع السماوية على حفظها إن وجدت، وعلى المطالبة بها إن غابت. وبهذا تكون الكلمة السواء، هي الأصل الجامع، والأساس المشترك الذي يحسم كثيراً من نقاط الخلاف.

ولأن تصريف الكلمة السواء في مجال المجادلة غالباً ما يأخذ شكل السؤال، وجب التنبيه على ضرورة التجاوب مع أسئلة أهل الكتاب، ما لم يكن قصد السائل التعنت والعناد.

ـ أسلوب المجادلة: هو الطريقة الفنية في أداء عملية المجادلة. لذا وجب على المجادل المسلم أن يسعى لاختيار الأحسن، سواء في الكلمات التي يستخدمها، أو المعاني التي يعبر بها، أو الطرق التي يسلكها. قال

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٣.

تعالى:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾(1).

وأرى أن أسلوب المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة هو الأقدر على تحقيق ذلك. قال تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾(2).

المجادلة بالحكمة بيان للحق ورجوع إلى ما أوجبته الحجة بعد قيامها. وحاجة العقل البشري إلى وضوح الحجة، وإلى تحليل الدليل للتأكد من صحته، خصلة إيجابية تهيىء المحل للجدل الناقد النزيه، الحريص على معرفة الحق. والمجادل المسلم تلك بغيته: أن يتفتح عقل المخاطب لاستيعاب ما يُلقى إليه، وعرضه على المحك لا يكابر في الحق. فالمجادلة بالحكمة إذن أسلوب قرآني متميز، غايته رد العقل الشارد إلى التفكير المنظم الهادىء، وبيان وجه الحق في الموضوع المختلف فيه، من خلال الاحتكام إلى سلطان الحجة والدليل، مع مراعاة أفهام الناس، وتقدير طبيعة المقام، والانطلاق من مواطن اللقاء.

أما **المجادلة بالموعظة الحسنة** فهي تبليغ لكلمة الحق إلى أعماق القلوب، ونصيحة مشفق، تنبعث من القلب لتستقر في وجدان المخاطب، فتحرك فيه إرادة الخير.

والمجادلة بالموعظة الحسنة تشمل كل الفنون والوسائل التي تؤثر في عمق المجادل، فتهيىء المحل لقبول الحق والإذعان له، بالقول اللين تارة،

---

(1) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(2) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

وبالفعل الجميل تارة أخرى؛ إذ مهما تبلغ الحجة من القوة، ومهما يبلغ الخطاب من الوضوع والبيان، قد لا يحرك ذلك من إرادة المجادل شيئاً؛ بل إن المجادل قد يقتنع عقلياً بجدية الفكرة، ويذعن لسلطان البرهان، لكنه لا يقوى على التنازل عن الرأي الذي يدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا يشعر بالهزيمة.

وبهذا يتضح أن اختيار أسلوب المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة الجامع بين رفق الكلمة، وقوة الحجة البينة هو الأقدر على بلوغ مقاصد المجدلة بالتي هي أحسن، لأنه ينسجم وجوهر الإنسان وطبيعته.

لذا لزم على من يروم التي هي أحسن في المجادلة أن يحقق البيان التام، من خلال الجمع بين إقناع العقل، وإمتاع العاطفة.

هذه معالم في طريق المجادلة بالتي هي أحسن. يبقى على المسلم المجادل أن يتفنن في تنزيلها[1]، والموفق من وضع الشيء في مواضعه، وتلك هي الحكمة:

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2].

ولا أزعم أني أحطت بكل القضايا المرتبطة بالموضوع. غير أني كنت حريصاً على تحقيق **أكبر قدر من العلمية** لهذا البحث.

وهذا ما جعل الدراسة تنطلق في مناقشة القضايا الكبرى المرتبطة بمجادلة أهل الكتاب من جانب القرآن والسنة، دون أن تغمض عينها عن المعرفة التي تقدمها التجربة، وواقع العلاقة مع أهل الكتاب. وذلك حتى تكون النظرة متوازنة، متكاملة، عين على الوحي، وأخرى على الواقع.

كما عملت على إبراز أهمية إعمال «فن التقعيد»، والاستفادة من

---

(١) إذ الأسلوب: «فن الأداء».

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

خدماته، خاصة ما يرتبط بتيسير عملية الفهم والتنزيل. وهذا ما يفسر محاولتي صياغة المعاني الكبرى في عبارات جامعة، نرجوها مقدمة للتنبيه على أهمية التعامل مع هذا الموضوع وغيره، من خلال هذا **البعد التقعيدي**.

والحقيقة التي يمكن استخلاصها: أن من شأن هذه البحوث ـ بهذا المستوى من التخصص ـ أن **تهيىء للواسع العميق**، وهذا ما انعقد عليه العزم بحمد الله. فالله أسأل أن ينفع بثمرة هذه الرسالة كل طالب للعلم، حريص على التفقه في علم المجادلة مع أهل الكتاب.





الفهارس العامة

فهـــرس الآيـــات القرآنيـــة

يضم هذا الفهرس مجموع الآيات القرآنية التي وردت ضمن هذه الرسالة. وقد اخترت ترتيب الآيات وفق السور، كما رتبت آيات السور الواحدة ترتيباً تصاعدياً، وحددت موقعها في الرسالة.

مطلع الآية	رقمها	موقعها
﴿وقالت اليهود ليست النصارى على﴾	١١٣	٢٢١
﴿بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون﴾	١١٦	٢٨٢
﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾	١٢٠	١٢٦
﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته . أولئك يؤمنون به﴾	١٢١	١٩١ ، ١٩٦
﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم﴾	١٣٠	٥٤٨
﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى﴾	١٣٥	١٩٨ ، ٢٠٢
﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل﴾	١٣٦	١٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٦٣
﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾	١٤٠	٨٧ ، ٢٩٤
﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾	١٤٤	٧٣
﴿ولئن آتيت الذين آتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾	١٤٥	١٨٦
﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾	١٤٦	١٦٣
﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾	١٥٦	٢٦٤
﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات﴾	١٥٩	٣٤١
﴿الرحمٰن الرحيم﴾	١٦٣	٥٠٥
﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾	١٦٩	٢٨٠
﴿ولا جدال في الحج﴾	١٩٧	٦٢
﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾	٢٢٢	٢٣٢
﴿وبشر المؤمنين﴾	٢٢٣	٥٥٩
﴿لا إكراه في الدين﴾	٢٥٦	٨٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٣٦ ، ٥٦٧
﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾	٢٦٨	٢٣٨ ، ٤١٢ ، ٤٧٣ ، ٥٦٨ ، ٥٧٤
﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾	٢٧٢	١٣٥
﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾	٢٨٥	٢٨٠
﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾	٢٨٦	١٣٣

٤ ـ سورة النساء

٥ ـ سورة المائدة

٦ ـ سورة الأنعام

٧ ـ سورة الأعراف

مطلع الآية	رقمها	موقعها
		٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٣،
		٤٩٠، ٥٢٢، ٥٦٨،
		٥٧٣
﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾	١٢٧	٥٣٨

١٧ ـ سورة الإسراء

مطلع الآية	رقمها	موقعها
﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾	٩	٤٧١
﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾	٢٠	٤٧٣، ٤٧٧
﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾	٢٤	٥١٦
﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾	٣٦	٣٦٥
﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾	٣٩	٤٧٠
﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾	٧٠	١٩٩، ٤١٥
﴿ننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾	٨٢	٤٧١
﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي﴾	٨٥	٣٣٥، ٣٣٧، ٣٥٢
﴿قل لئن اجتمعت الإنس﴾	٨٨	٣١٢

١٨ ـ سورة الكهف

مطلع الآية	رقمها	موقعها
﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا﴾	٦	٥١٢
﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا﴾	٩	٣٣٦
﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾	١٣	٣٥٨
﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾	٢٣/ ٢٤	٣٣٧
﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾	٢٩	٣٩٠
﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾	٢٦	٣٣٧
﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره﴾	٣٤	٥٧
﴿قال له صاحبه وهو يحاوره﴾	٣٧	٥٧
﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾	٥٤	٦٥
﴿ويجادل الذين كفروا﴾	٨٣	٣٣٦، ٣٥٨

فهرس الأحاديث القدسية والنبوية

جمعت في هذا الفهرس الأحاديث التي تم الاستشهاد بها في هذه الرسالة. وقد وضعت الأحاديث القدسية أولاً، ثم ذكرت الباقي مرتباً بحسب الحروف الهجائية.

فهرس الأحاديث القدسية

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	موقعه في الرسالة
ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء	٤٤٦
ما حملك على ما صنعت؟	٢٨٧
ما خلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله	٢١٢
ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل	٤١٥
ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله	٥٦٣
ما ضل قوم بعد هدى إلا لقنوا الجدل	١٣١
ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل	٦٣
ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يهديه إلى هدى	٤١٥
ما يفرك أن تقول: لا إلٰه إلا الله	٢٦٧
ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري	١٨٩
مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد	١١١
مثلكم ومثل أهل الكتابين من قبلكم	٧٨
من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله	٥٤٣
من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين	٥٦١
من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منا	٥٤٣
من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير	٥٢٩
من أهل أي البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟	١١٤
من الصدقة أن تسلم على الناس وأنت طليق الوجه	٥٦٤
من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له	٣٠٠
من فقه الرجل رفقه في معيشته	٥٢٥
من لا يرحم لا يرحم	٥١٢
من محمد عبد الله ورسوله إلى قيصر عظيم الروم، أسلم تسلم	٥٦٢
من يأتينا بخبر القوم	١١٣
من يحرم الرفق يحرم الخير	٥٢٨
مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله	٤٨٩

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

جمعت في هذه اللائحة كل المصادر والمراجع التي أحلت عليها في هذه الرسالة. فكان على رأسها القرآن الكريم، ثم صنفت الباقي إلى مجموعات تضم الكتب التي تنتمي إلى نفس الحقل المعرفي. كما رتبت هذه المجموعات وفق أهميتها وارتباطها بموضوع هذه الرسالة. وأوردت كتب كل مجموعة مرتبة حسب الحروف الهجائية. ووضعت في آخر اللائحة المصادر الأجنبية.

* **القرآن الكريم برواية ورش.**

كتب علوم القرآن

- «**الإتقان في علوم القرآن**»: جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي. قدم له وعلق عليه الأستاذ محمد شريف سكر. راجعه الأستاذ مصطفى القصاص. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. دار إحياء العلوم. بيروت.
- «**الإتقان في علوم القرآن**»: تأليف: جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي الشافعي (ت. ٩١١هـ) وبأسفل الصحائف «إعجاز القرآن» تأليف: القاضي أبي بكر الباقلاني. الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر.
- «**الأساس في التفسير**»: لسعيد حوى. الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. (د.م).[1].

- «**أسس الدعوة إلى الله تعالى في القرآن الكريم**»: الدكتور عمر يوسف حمزة. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة.
- «**الإسلام وبناء الشخصية**»: دراسة تحليلية لشخصية المسلم في ضوء الكتاب والسنة» تأليف: الدكتور أحمد عمر هاشم. دار المنار. القاهرة (د. ت)[2].
- «**أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً**»: الدكتور عبد الغني محمد سعد بركة. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. دار غريب للطباعة. القاهرة.
- «**أسلوب الدعوة في القرآن**»: محمد حسين فضل الله. الطبعة الخامسة. دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. (د.ت).
- «**الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها**»: تأليف: عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت. ٤٢٩هـ). تحقيق: محمد المصري. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. سعد الدين للطباعة والنشر. بيروت.
- «**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**»: تأليف: محمد الأمين بن محمد بن المختار الحبكني الشنقيطي (ت. ١٣٩٣هـ) ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.
- «**إنصاف الخصم في القرآن وأثره الإعلامي**»: الدكتور عبد الحليم حفني. ١٩٩٢م. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- «**البرهان في علوم القرآن**»: للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثانية. دار المعرفة. بيروت (د. ت.).

---

(١) اختصرت عبارة: دون ذكر مكان الطبع ب «د.م».

(٢) «د. ت» اختصار لعبارة دون ذكر تاريخ الطبع.

- «**البيان في روائع القرآن**»: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني. تأليف: الدكتور تمام حسان. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. عالم الكتب. القاهرة.

- «**التحرير والتنوير**»: تأليف: محمد الطاهر بن عاشور. ١٩٨٤م. الدار التونسية للنشر. تونس.

- «**تذكرة الأريب في تفسير الغريب**»: للإمام أبي الفرج ابن الجوزي. تحقيق: الدكتور علي حسين البواب. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م. مكتبة المعارف. الرياض (المملكة العربية السعودية).

- «**ترتيب تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب**»: للشيخ أثير الدين أبي حيان الأندلسي. تحقيق: الدكتور داود سلوم والدكتور نوري حمودي القيسي. الطبعة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. عالم الكتب. بيروت.

- «**تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**»: تأليف: محمد رشيد رضا. الطبعة الثانية. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت. (د. ت).

- «**تفسير القرآن العظيم**»: للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت. ٧٧٤هـ) الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.

- «**التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**»: الدكتور وهبة الزحيلي. الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. دار الفكر. دمشق.

- «**جامع البيان في تفسير القرآن**»: تأليف: الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت. ٣١٠هـ). وبهامشه «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للحسن بن محمد القمي النيسابوري. الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. دار المعرفة للطباعة والنشر. بيروت.

- «**الجامع لأحكام القرآن**»: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي. الطبعة الثانية ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م. مطبعة دار الكتب المصرية.

- «**الدر المنثور في التفسير المأثور**»: وهو مختصر «تفسير ترجمان القرآن» لجلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي (ت. ٩١١هـ) الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث**»: توفيق محمد عز الدين. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م. دار السلام. القاهرة.
- «**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**»: لأبي الفضل محمود الألوسي البغدادي (ت. ١٢٧٠هـ). دار إحياء التراث العربي. بيروت (د. ت.).
- «**زاد المسير في علم التفسير**»: لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي الجوزي (٥٠٧هـ ـ ٥٩٧هـ). الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م. المكتب الإسلامي للطباعة والنشر. دمشق.
- «**فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير**»: محمد بن علي الشوكاني. ١٩٦٤م. مطبعة الحلبي. القاهرة.
- «**فنون التبليغ القرآني ونظرياته**»: إعلام ليس مثله إعلام» للدكتورة إحسان عسكر. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. دار النهضة العربية. القاهرة.
- «**في ظلال القرآن**»: بقلم السيد قطب. الطبعة الشرعية السابعة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. دار الشروق. بيروت.
- «**القرآن والنظر العقلي**»: فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل. سلسلة الرسائل الجامعية: ٧. إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة الأمريكية. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. وهو في الأصل رسالة نالت بها الكاتبة درجة الماجستير من جامعة عين شمس.
- «**القرآن وحوار العقل**»: للدكتور حسن الباش. منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. طرابلس الجماهيرية العربية الليبية. طبع «إديال» الدار البيضاء. المملكة المغربية. (د.ت).

- «**القرآن ومنهج التفكير**»: محمد عبد الواحد حجازي. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. الزاهر للإعلام العربي. القاهرة.
- «**مباحث في علوم القرآن**»: مناع القطان. الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. مكتبة المعارف. (د.م.).
- «**محاسن التأويل**»: جمال الدين القاسمي. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة الحلبي. القاهرة (د.ت).
- «**المعجزة الكبرى**»: القرآن، نزوله، كتابته، جمعه، إعجازه، جدله، علومه، تفسيره، حكم الغناء به». الإمام محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. القاهرة. (د. ت).
- «**الميزان في تفسير القرآن**»: لمحمد حسين الطبطبائي. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. الطبعة الأولى المحققة ١٤١١هـ/ ١٩٩١. بيروت.
- «**النبأ العظيم**» **نظرات جديدة في القرآن**» الدكتور محمد عبد الله دراز. الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. دار القلم. الكويت.
- «**نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**»: لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي (ت. ٥٩٧هـ) دراسة وتحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. مؤسسة الرسالة. بيروت.

كتب السنة وعلومها

- «**إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**»: لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني (ت. ٩٢٣هـ). ضبطه وصححه محمد عبد العزيز الخالدي. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**»: ترتيب علاء الدين علي بن بلبان الفارسي. قدم له وضبط نصه كمال يوسف الحوت ١٩٨٧م. دار الكتب

العلمية. بيروت.

- «**الأدب المفرد**»: للحافظ محمد بن إسماعيل البخاري، يرويه عنه أحمد بن محمد بن الجليل البزار. دار الكتب العلمية. بيروت (د.ت).

- «**الأسلوب النبوي في الدعوة**»: الدكتور الشريف حمدان راجح الهجاري. موسوعة الدعوة الإسلامية: ٢. ١٤٠٧هـ. دار الهدى للطباعة. مصر.

- «**البحر الرائق شرح كنز الدقائق**»: لزين بن إبراهيم (ت. ٩٧٠هـ). دار المعرفة. بيروت. (د.ت).

- «**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**»: للحافظ أبي العلا محمد عبد الرحمٰن المباركفوري (١٢٨٣هـ ـ ١٣٥٣هـ). دار الكتب العلمية. بيروت (د.ت).

- «**الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**»: للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت. ٦٥٦هـ). ضبط أحاديثه مصطفى محمد عمارة. دار الكتب العلمية. بيروت (د. ت).

- «**تنوير الحوالك**» (**شرح على موطأ الإمام مالك**): جلال الدين السيوطي. ١٩٨٨م. دار الندوة الجديدة. بيروت.

- «**الحكمة النبوية كما تتجلى في أحاديث رسول الله ﷺ**»: لعفيف عبد الفتاح طبارة. الطبعة الثالثة ١٩٩٤م. دار العلم للملايين. بيروت.

- «**الذيل على النهاية في غريب الحديث والأثر**»: لأبي عبد الله عبد السلام بن محمد علوش. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. دار ابن حزم. بيروت.

- «**الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم**»: بقلم عبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الثانية ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. دار البشائر الإسلامية. بيروت.

- «**السنة مصدر للمعرفة والحضارة**»: الدكتور يوسف القرضاوي. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. دار الشروق. القاهرة.

- «**سنن ابن ماجه**»: لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. ١٣٩٥هـ. دار إحياء التراث. بيروت.
- «**سنن أبي داود**»: سليمان بن الأشعث السجستاني. دار الكتاب العربي. بيروت. (د.ت).
- «**سنن الترمذي**»: الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل» للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي رحمه الله (٢٠٠هـ - ٢٧٩هـ) بإشراف صالح بن عبد العزيز آل الشيخ. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. دار الفيحاء. دمشق.
- «**سنن الدارمي**»: محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن الدرامي. ١٩٧٨م. دار الفكر. القاهرة.
- «**سنن النسائي**»: أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب النسائي (ت. ٣٠٣هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. مكتب المطبوعات الإسلامية (د.م).
- «**صحيح ابن حبان**»: لأبي حاتم البستي. تحقيق: عبد الرحمٰن محمد عثمان. ١٩٧٠م. المدينة المنورة (د.م).
- «**صحيح البخاري» بشرح الكرماني**»: الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- «**صحيح جامع بيان العلم وفضله**»: للحافظ ابن عبد البر. أعده واختصره وهذبه أبو الأشباه الزهيري. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. مكتبة ابن تيمية. القاهرة.
- «**صحيح مسلم بشرح النووي**»: الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**عمدة القاري شرح صحيح البخاري**»: لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني (ت. ٨٥٥هـ). دار إحياء التراث العربي. بيروت (د.ت).

- «**عون المعبود شرح سنن أبي داود**»: لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي مع شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية. منشورات محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية. بيروت (د. ت).
- «**غريب الحديث**»: لأبي عبد الله القاسم بن سلام الهروي (ت. ٢٢٤هـ / ٨٣٨م). ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م. دار الكتاب العربي. (د.م).
- «**غريب كلمات صحيح البخاري**»: الدكتور عبد المتعال محمد الجبري. دار الطباعة والنشر الإسلامية. القاهرة (د.ت).
- «**الفائق في غريب الحديث**»: لجار الله محمود بن عمر الزمخشري. تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. دار الفكر (د.م).
- «**فتح الباري بشرح صحيح البخاري**»: لابن حجر العسقلاني. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. دار الفكر. بيروت.
- «**فتح الباري شرح صحيح البخاري**»: الحافظ زين الدين أبي الفرج ابن رجب الحنبلي (٧٣٦هـ - ٧٩٥هـ) تحقيق: محمود بن شعبان وإبراهيم بن إسماعيل القاضي ومحمد بن عوض المنقوش وعلاء بن مصطفى بن هشام ومجدي بن عبد الخالق الشافعي والسيد بن عزت المرسي وصلاح بن سالم المصراتي وصبري بن عبد الخالق الشافعي. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م. مكتبة الغرباء الأثرية. المدينة المنورة.
- «**فيض الباري على صحيح البخاري**»: من آمالي محمد أنور الكشميري (ت. ١٣٥٢هـ) مع حاشية «البدر الساري إلى فيض الباري» لمحمد بدر عالم الميرتهي. دار المعرفة. بيروت.
- «**فيض القدير شرح الجامع الصغير**»: العلامة المناوي. الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م. مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى. مصر.

- «**قطوف دانية من الرحمة النبوية**»: الأستاذ محمد أعراب باعسو. الطبعة الأولى ٢٠٠٠م. مطبوعات الهلال. وجدة (المغرب).
- «**كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**»: للإمام إسماعيل العجلوني. الطبعة الثانية ١٣٤١هـ. دار إحياء التراث العربي. (د.م).
- «**مجمع الزائد ومنبع الفوائد**»: علي بن أبي بكر الهيثمي. الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ دار الكتاب العربي. (د.م).
- «**مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**»: الطبعة الثانية ١٩٧٨م. المكتب الإسلامي. بيروت.
- «**معالم السنن شرح سنن أبي داود**»: لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي (ت. ٣٨٨هـ). خرج آياته، ورقم كتبه وأحاديثه، وقارن أبوابه مع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف: الأستاذ عبد السلام عبد الشافي محمد. ١٤١٦هـ/١٩٩٦م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**»: ابتدأ ترتيبه وتنظيمه ونشره أ. ي ونسنك وي .ب منسبح أتبع نشره ي. بروخمان. ١٩٦٥م. مطبعة بريل. لندن.
- «**منار القاري في شرح مختصر صحيح البخاري**»: لحمزة محمد قاسم. راجعه: الشيخ عبد القادر الأرنؤوط. عني بتصحيحه ونشره: بشير محمد عيون. ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. مكتبة المؤيد. الطائف (المملكة العربية السعودية).
- «**النهاية في غريب الحديث والأثر**»: لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير (٥٤٤هـ ـ ٦٠٦هـ) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي. المكتبة الإسلامية. (د.ت.م).

- «**أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن**: قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء» ترجمة وتعليق: محمد مختار. ١٩٩١م. المختار الإسلامي. القاهرة.
- «**أصول المسيحية كما يصورها القرآن الكريم**»: للدكتور داود علي الفاضلي. منشورات دار الحديث الحسنية. مطبعة المعارف الجديدة. وأصل الكتاب رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا. (د.ت).
- «**إظهار الحق**»: لرحمة الله الهندي الكيرانوي. تحقيق: عمر الدسوقي. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. (د.ت).
- «**الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام، وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام**»: للإمام القرطبي. تحقيق: الدكتور أحمد حجازي السقا. دار التراث العربي. القاهرة (د.ت).
- «**بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود**»: لعبد الله الجميلي. الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. مكتبة الغرباء الأثرية. المدينة المنورة.
- «**بنو إسرائيل في القرآن والسنة**»: محمد سيد طنطاوي. ١٩٨٧م. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة.
- «**بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم**»: صابر طعيمة. الطبعة الأولى ١٩٧٥م. مؤسسة خليفة للطباعة. بيروت.
- «**التاريخ اليهودي العام**»: صابر طعيمة. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. دار الجيل. بيروت.
- «**تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**»: لعبد الله الترجمان (نصراني أسلم) تحقيق: الدكتور الطاهر المعموري. الطبعة الأولى ١٩٨٣م. دار أبو سلامة تونس.

- «**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**»: لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١هـ/ ٧٢٨هـ). الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م. مطبعة المدني. مصر.
- «**جوهر الإيمان في صحيح الأديان: التوراة والإنجيل والقرآن**»: بقلم صلاح العجماوي. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. دار صفا. (د.م).
- «**حكم المرتد عند المسلمين وأهل الكتاب**»: للدكتور أحمد حجازي السقا. دار الاتحاد الأخوي. القاهرة. (د.ت.).
- «**دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية**»: للدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة.
- «**دراسات في اليهودية بين الملة والنحلة**»: للدكتور جبر محمد حسن جبر. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. مطبعة الأمانة. مصر.
- «**الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل**»: ويليه «**أيها الولد**»: لأبي حامد الغزالي. اعتنى بطبعه وقف الإخلاص. ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م. مكتبة الحقيقة. اسطنبول تركيا.
- «**رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب الباجي عليها**»: تحقيق: محمد عبد الله الشرقاوي. ١٩٨٦م. دار الصحوة للنشر. القاهرة.
- «**شبهات النصارى وحجج الإسلام**»: لمحمد رشيد رضا. الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ إصدار دار المنار. مصر.
- «**الشخصية الإسرائيلية**»: للدكتور حسن ظاظا. الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. دار القلم. دمشق.
- «**الشخصية اليهودية عبر التاريخ**»: لجودت سعيد. الطبعة الأولى ١٩٨٥م. مؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.
- «**الشخصية اليهودية من خلال القرآن**»: الدكتور صلاح عبد الفتاح

الخالدي. سلسلة من كنوز القرآن: **٣**. الطبعة الأولى **١٤٠٧**هـ/ **١٩٨٧**م. دار القلم. دمشق.

- «**شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل**»: لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت. **٤٧٨**هـ) تحقيق: الدكتور أحمد حجازي السقا. الطبعة الأولى **١٣٩٨**هـ/ **١٩٧٨**م. مكتبة الكليات الأزهرية. مصر.
- «**العقائد الوثنية في الديانة اليهودية**»: للأستاذ حسن الباش. الطبعة الثانية **١٤١٣**هـ/ **١٩٩٢**م. دار قتيبة. بيروت.
- «**الفصل في الملل والأهواء والنحل**»: لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، وبهامشه «الملل والنحل» لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. **١٤٠٠**هـ/ **١٩٨٠**م. دار الفكر (د.م).
- «**الكتاب المقدس**»: دار المشرق. **١٩٩١**م بيروت.
- «**كتاب منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب**»: لعبد العزيز بن الشيخ حمد بناصر آل معمر. الطبعة الثانية **١٣٩٨**هـ/ **١٩٧٨**م. منشورات دار ثقيف للنشر والتأليف. الطائف (المملكة العربية السعودية).
- «**الكنز المرصود في فضائح التلمود**»: للدكتور أوجسترو هلنج. ترجمة: الدكتور يوسف حنا نصر الله، شرح وتعليق: الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي. الطبعة الأولى **١٤١٤**هـ/ **١٩٩٣**م دار عمران. بيروت.
- «**محاضرات في النصرانية**»: لمحمد أبو زهرة. الطبعة الثالثة **١٣٨١**هـ/ **١٩٦١**م. دار الكتاب العربي. مصر.
- «**المختار في الرد على النصارى**»: لعمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون. الطبعة الأولى **١٩٧٩**م. مكتبة الخانجي. القاهرة.
- «**المسلمون والأقباط، الالتقاء على أرضية الانتماء للحضارة الإسلامية**»: الدكتور محمد مورو. البشير للنشر والتوزيع. القاهرة (د.ت).ـ

«**معركتنا مع اليهود**»: لسيد قطب. الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م. دار الإيمان. بيروت.

- «**مقارنة الأديان**»: للدكتور أحمد شلبي. الطبعة الثامنة ١٩٨٨م. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.
- «**مقدمة في علم مقارنة الأديان**»: للدكتور محمد عقيل بن علي المهدلي. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م. دار الحديث. القاهرة.
- «**مقولات أهل الكتاب والفكر القرآني**»: لأحمد محسب مرسي. ١٩٨٨م. المكتبة الثقافية. بيروت.
- «**المنتخب الجليل من تخجيل من حرّف الإنجيل**»: لأبي الفضل السعودي المالكي. حققه رمضان الصفناوي البدري. راجعه: الدكتور مصطفى الذهبي. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. دار الحديث. القاهرة.
- «**الميزان في مقارنة الأديان: حقائق ووثائق**»: لمحمد عزت الطهطاوي. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م دار القلم. دمشق.
- «**موسوعة الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه**»: للدكتور سعد المرصفي. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. مكتبة المنار الإسلامية. الكويت.
- «**موقف اليهود من الإسلام والمسلمين**»: لمحمد عزة دروزة. منشورات الأزهر. مجمع البحوث الإسلامية. المؤتمر الرابع. ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م. مطبعة الأزهر. القاهرة.
- «**النصارى في القرآن الكريم والتفاسير**»: لعواد علي وحسن البطوش وعلاء الرشق بإشراف يوسف قزماخوري. الطبعة الأولى ١٩٩٨م. إصدارات المعهد الملكي للدراسات الدينية. عمان
- «**النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية**»: لنصر بن يحيى (كان نصرانياً فأسلم) تحقيق: الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي. ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. مطبعة دار التأليف. مصر.

- «**هؤلاء هم اليهود فاعتبروا يا أولي الأبصار**»: لأبي بكر الجزائري. سلسلة رسائل الدعوة. مطابع النبوي. جدة (المملكة العربية السعودية). (د. ت).
- «**هداية الحيارى من اليهود والنصارى**»: لابن قيم الجوزية. الطبعة الأولى ١٩٨٧م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء**»: للدكتور رؤوف شلبي. ١٩٨٠. دار الاعتصام القاهرة.
- **اليهود تاريخ وعقيدة**»: للدكتور كامل سعفان. دار النصر للطباعة الإسلامية. القاهرة (د. ت).
- «**اليهود واليهودية والإسلام**»: لعبد الغني عبود. سلسلة الإسلام وتحديات العصر. الطبعة الأولى ١٩٨٢م. دار الفكر العربي.

كتب الجدل والحوار والمناظرة

- «**أبجدية الحوار**»: للسيد موسى الصدر. إعداد: حسين شرف الدين. إصدار: مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. دار الأرقم. صور (لبنان).
- «**أسلوب المحاورة في القرآن الكريم**»: الدكتور عبد الحليم حفني. الطبعة الثانية ١٩٨٥م. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر.
- «**أصول الجدل وآداب المحاجة في القرآن الكريم**»: لمحمد علي نوح قوجيل. إصدار جمعية الدعوة الإسلامية العالمية. الطبعة الأولى ١٩٩٦م. طرابلس (الجماهيرية الليبية).
- «**تلخيص كتاب الجدل لأريسطو**»: لابن رشد. حققه: الدكتور تشارلس بتروث والدكتور أحمد عبد المجيد هريدي. ١٩٧٩م. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

- «**الجدل القرآني بين أساليب الدعوة الإسلامية**»: الدكتور يوسف عيد. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. دار الطباعة المحمدية. القاهرة.
- «**الجدل في القرآن**»: الدكتور حسن الشرقاوي. سلسلة كتب الدراسات القرآنية. ١٩٨٦م. مطبعة التقدم الإسكندرية. مصر.
- «**الجدل في القرآن الكريم: فعاليته في بناء العقلية الإسلامية**»: محمد التومي. سلسلة دراسات قرآنية رقم: ٢. ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. الشركة التونسية لفنون الرسم. تونس.
- «**الحوار الإسلامي ـ المسيحي: المبادىء، التاريخ، الموضوعات، الأهداف**»: لبسام داود عجك. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. دار قتيبة. (د.م). وأصل الكتاب رسالة لنيل الماجيستير.
- «**الحوار دائماً، وحوار مع مستشرق**»: الدكتور شوقي أبو خليل. الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. دار الفكر المعاصر. بيروت.
- «**حوار الرسول ﷺ مع اليهود**»: محسن بن محمد بن عبد الناظر. الطبعة الثانية ١٩٩٢م. دار الوفاء. المنصورة (مصر).
- «**الحوار في القرآن: قواعده، أساليبه، معطياته**». محمد حسين فضل الله. الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. دار التعارف. بيروت.
- «**الحوار القرآني بين التفسير والتبصير**»: الدكتور أحمد سنبل. الطبعة الأولى ١٩٩٨م. دار ابن هانىء. دمشق.
- «**الحوار مع أهل الكتاب: أسسه ومناهجه**». خالد عبد الله عبد العزيز القاسم. وأصل الكتاب رسالة لنيل الماجستير. (د.م.ت).
- «**الحوار النافع بين أصحاب الشرائع**»: الدكتور عبد الرحمٰن الحوراني. منشورات رابطة العالم الإسلامي. ١٩٩٥م. (د.م).
- «**الحوار والمناظرة في القرآن الكريم**»: للدكتور خليل عبد المجيد زيادة. ١٩٨٦م. دار المنار للطبع والنشر والتوزيع. القاهرة.

- «**ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: صياغة للمنطق وأصول البحث متمشية مع الفكر الإسلامي**». عبد الرحمٰن حسن حبنكة الميداني. الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م. دار القلم. دمشق.

- «**علم الجذل في علم الجدل**»: لنجم الدين الطوفي الحنبلي. تحقيق: فولفهارت هاينريشس طبع بمساعدة مؤسسة الأبحاث العلمية الألمانية وإشراف: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت. سلسلة النشرات الإسلامية: ٣٢. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. مطبعة كتابكم. عمان.

- «**على هامش الحوار بين القرآن واليهود**»: حسني يوسف الأطير. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. دار الأنصار. مصر.

- «**في أصول الحوار**»: إعداد: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وحدة الدراسات والبحوث. الطبعة الرابعة ١٩٩٥م. الرياض.

- «**في آفاق الحوار الإسلامي ـ المسيحي**»: محمد حسين فضل الله. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. دار الملك للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت.

- «**قواعد الأصول ومعاقد الفصول**»: مختصر «**تحقيق الأمل في علمي الأصول والجدل**»: لصفى الدين عبد المؤمن بن كمال الدين عبد الحق البغدادي (٦٥٨هـ/ ٧٣٩هـ) تحقيق وتعليق: علي عباس الحكمي. منشورات: جامعة أم القرى. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م. مكة المكرمة.

- «**الكافية في الجدل**»: لإمام الحرمين الجويني. تحقيق وتعليق: الدكتورة فوقية حسين محمود. ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة.

- «**كتاب استخراج الجدل من القرآن الكريم**»: تصنيف أبي الفرج عبد الرحمٰن بن نجم المعروف بابن الحنبلي (٥٥٤هـ ـ ٦٣٤هـ). تحقيق: محمد صبحي حسن حلاف. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. مؤسسة الريان. بيروت.

- «**كتاب الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة**»: لمحيي الدين يوسف بن عبد الرحمٰن بن الجوزي. (ت. ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) تحقيق: محمود بن محمد السيد الدغيم. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. مكتبة مدبولي القاهرة. وأصل الكتاب رسالة لنيل درجة الماجستير في الفلسفة الإسلامية.

- «**كتاب الجدل على طريقة الفقهاء**»: تصنيف علي بن عقيل البغدادي الحنبلي (ت. ٥١٣هـ) مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة (د.ت).

- «**كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج**»: لأبي الوليد الباجي. تحقيق: عبد المجيد تركي. الطبعة الثانية ١٩٨٧م. دار الغرب الإسلامي (د.م).

- «**كتاب سلاسل المناظرة الإسلامية النصرانية بين شيخ وقسيس**»: بقلم: عبد الله العلمي الغزي الدمشقي. قام بتحضيره وبالإشراف على طباعته ابن المؤلف الدكتور عبد الحليم العلمي. الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م. (د.م).

- «**المزن الماطر على الروض الناضر في آداب المناظر**»: للحسين بن أحمد السياغي صاحب «الروض النظير». إعداد: مجلس القضاء الأعلى. مركز الدراسات والبحوث اليمني. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. صنعاء.

- «**مقدمة إلى الحوار الإسلامي ـ المسيحي**»: محمد السماك. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. دار النفائس. بيروت.

- «**المناظرة في أصول التشريع الإسلامي**»: دراسة في التناظر بين ابن حزم والباجي» للأستاذ المصطفى الوضقي. ١٩٩٨م مطبعة فضالة. المحمدية (المغرب).

- «**مناظرة في الرد على النصارى**»: فخر الدين الرازي (ت. ٦٠٦هـ) تحقيق: الدكتور عبد المجيد النجار. ١٩٨٦م. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

- «**مناهج الجدل في القرآن الكريم**»: للدكتور زاهر بن عواض الألمعي. الطبعة الثالثة ١٩٨٤م. مطابع الفرزدق التجارية. الرياض. وأصل الكتاب رسالة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر.

كتب المعاجم

- «**أساس البلاغة**»: لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. دار النفائس. بيروت.
- «**أوضح البيان في شرح مفردات وجمل القرآن**» بهامش «**القرآن الكريم بالرسم العثماني**» إعداد: محمد كريم راجح. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. دار المعرفة. بيروت.
- «**البحر المحيط**»: لأبي حيان الأندلسي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض. ١٤١٣هـ. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**تاج العروس من جواهر القاموس**»: لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج. ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م. دار الهداية (د.م).
- «**تهذيب اللغة**»: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (٢٨٢هـ ـ ٣٧٠) تحقيق: الأستاذ إبراهيم الإبياري. سلسلة تراثنا. ١٩٦٧م. مطابع سبل العرب القاهرة.
- «**التوقيف على أمهات التعاريف: معجم لغوي ـ مصطلحي**»: لمحمد عبد الرؤوف المناوي (٩٥٢هـ/ ١٠٣١م) تحقيق: الدكتور محمد رضوان الداية. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. دار الفكر دمشق. سورية.
- «**جمهرة اللغة**»: لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري (ت. ٣٢١هـ) الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ. دار صادر. مطبعة مجلس دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن.
- «**الزاهر في معاني كلمات الناس**»: لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري

(٣٢٨هـ) تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن. ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. دار الرشيد للنشر. من إصدارات وزارة الثقافة والإعلام. الجمهورية العراقية.

- «**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**»: لإسماعيل بن حمد الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. دار العلم للملايين. بيروت.

- «**عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: معجم لغوي لألفاظ القرآن الكريم**»: لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. حققه وعلق عليه: الدكتور محمد التونجي. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م. عالم الكتب. بيروت.

- «**القاموس الإسلامي**»: وضع أحمد عطية الله. الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م. مكتبة النهضة المصرية لأصحابها حسن محمد وأولاده. القاهرة.

- «**قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**»: للفقيه الحسين بن محمد الدامغاني. الطبعة الرابعة ١٩٨٣م. دار العلم للملايين. بيروت.

- «**القاموس القويم للقرآن الكريم**»: لإبراهيم أحمد عبد الفتاح. ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م. إصدار مجمع البحوث الإسلامية. الأزهر. مصر.

- «**القاموس المحيط**»: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي. الطبعة الثانية ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر.

- «**كتاب التعريفات**»: للشريف علي بن محمد الجرجاني. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. دار الكتب العلمية. بيروت.

- «**كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**»: ليحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني. دار الكتب العلمية.

بيروت (د.ت).

- «**كتاب المغرب في ترتيب المعرب**»: لناصر الدين عبد السيد بن علي المطرزي (٥٣٨هـ/ ٦١٦هـ) دار الكتاب العربي. بيروت (د.ت.).

- «**كتاب نجعة الرائد وشرعه الوارد في المترادف والمتوارد**»: (هو المعجم اللغوي الفريد الذي يعطي المعنى الواحد في عدد من قوالب اللفظ الفصيح) لإبراهيم اليازجي وقف على طبعه وضبط أصله الأمير نديم آل ناصر الدين. الطبعة الثانية ١٩٧٠م مكتبة بيروت.

- «**كشاف اصطلاحات الفنون**»: لمحمد علي الفاروقي التهانوي (ت. القرن الثاني عشر الهجري) حققه الدكتور لطفي عبد البديع. ترجم النصوص الفارسية الدكتور عبد النعيم محمد حسنين. راجعه الأستاذ الأمين الخولي. سلسلة تراثنا. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. ١٩٦٩م. دار الكتاب العربي.

- «**كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**»: لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة. منشورات المكتبة الإسلامية. الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م. طهران.

- «**الكليات**»: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية» لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م) قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه الدكتور عدنان درويش ومحمد المصري. الطبعة الثانية منقحة ١٩٨٢م. إصدار وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق.

- «**لسان العرب**»: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري. دار صادر. بيروت (د.ت).

- «**مجمل اللغة**»: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي (ت. ٣٩٥هـ) دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان. الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. مؤسسة الرسالة. بيروت.

- «**المحكم والمحيط الأعظم في اللغة**»: لعلي بن إسماعيل بن سيده (ت. ٤٥٨هـ) تحقيق: محمد علي النجار. الطبعة الأولى **١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م**. إصدار معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

- «**مختار الصحاح**»: لمحمد بن أبي بكر الرازي. اعتنى بهذه الطبعة الأستاذ يوسف الشيخ محمد. الطبعة الخامسة **١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م** المكتبة العصرية. بيروت.

- **المصباح المنير: معجم عربي - عربي**»: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري. **١٩٨٧م**. مكتبة بيروت.

- «**المعجم الأدبي**»: تأليف: جبور عبد النور. الطبعة الأولى **١٩٧٩م**. دار العلم للملايين بيروت.

- «**معجم ألفاظ العلم والمعرفة في اللغة العربية**»: تأليف: عادل عبد الجبار زاير. الطبعة الأولى **١٩٩٧م**. مكتبة لبنان ناشرون. بيروت.

- «**معجم الألفاظ والأعلام القرآنية**»: تأليف محمد إسماعيل إبراهيم. تقديم: عبد الصبور شاهين. **١٩٦٨م**. دار الفكر العربي. القاهرة.

- «**معجم ألفاظ القرآن الكريم**»: إصدار مجمع اللغة العربية. دار الشروق. القاهرة (د.ت).

- «**معجم آيات القرآن الكريم**»: وضعه محمد منير الدمشقي، وفي مقدمته رسالة بعنوان «الفوز الكبير في أصول التفسير» لشاه ولي الله. الطبعة الثالثة **١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م**. دار الجيل بيروت. مكتبة التراث الإسلامي. القاهرة.

- «**معجم الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم**: تصنيف الدكتور عبد الصبور مرزوق. الطبعة الأولى **١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م**. دار الشروق. القاهرة.

- «**معجم الباقلاني في كتبه الثلاث: التمهيد والإنصاف والبيان**» تأليف: الدكتور سمير فرحات. الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت.
- «**معجم التعبيرات القرآنية**»: لمحمد عتريس. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. الدار الثقافية للنشر القاهرة.
- «**معجم حكمة العرب: أهم الحكم العربية الخالدة مرتبة في موضوعات**»: إعداد: أمل شلق. الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم**»: (ابن عباس، ابن قتيبة، مكي بن أبي طالب، أبو حيان)» إعداد: عبد العزيز عز الدين السيروان. الطبعة الأولى ١٩٨٦م. دار العلم للملايين. بيروت.
- «**المعجم العربي الأساسي**»: تأليف: جماعة من كبار اللغويين العرب بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ١٩٨٩م (د.م).
- «**معجم متن اللغة: موسوعة لغوية حديثة**»: للشيخ أحمد رضا. ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م. مكتبة الحياة. بيروت.
- «**معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**»: أعده مجدي وهبة وكامل المهندس. ١٩٧٩م. مكتبة لبنان. بيروت.
- «**معجم مفردات ألفاظ القرآن**»: للراغب الأصفهاني. تحقيق: نديم مرعشلي. ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م. مطبعة التقدم العربي دار الفكر. بيروت.
- «**معجم كتاب العين**»: لأبي عبد الرحمٰن بن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠هـ ـ ١٧٥هـ) تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي. سلسلة المعاجم والفهارس: ٤١. إصدار: وزارة الثقافة والإعلام بالجمهورية العراقية. ١٩٨١م. دار الرشيد (د.م).
- «**مقاييس اللغة**»: لأحمد بن فارس. تحقيق: عبد السلام هارون. ١٩٦٩م

القاهرة (د.م).

- «**موسوعة مصطلحات جامع العلوم الملقب بدستور العلماء**»: لعبدالنبي بن عبد الرسول الأحمد نكري. تقديم وإشراف ومراجعة الدكتور رفيق العجم. تحقيق: الدكتور علي دحروج. نقل النص الفارسي إلى العربية الدكتور عبدالله الخالدي. الترجمة الأجنبية الدكتور محمد العجم. الطبعة الأولى ١٩٩٧م. مكتبة لبنان ناشرون. بيروت.
- «**موسوعة مصطلحات مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**»: لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاهده. تقديم وإشراف ومراجعة: الدكتور رفيق العجم. تحقيق: الدكتور علي دحروج. سلسلة موسوعات المصطلحات العربية والإسلامية. الطبعة الأولى ١٩٩٨م. مكتبة لبنان ناشرون. لبنان.

كتب الأدب

- «**أساليب البيان والصورة القرآنية، دراسة تحليلية لعلم البيان**»: الدكتور محمد إبراهيم شادي. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. دار والي الإسلامية. المنصورة (مصر).
- «**الأسلوب**»: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية». أحمد الشايب. الطبعة السابعة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.
- «**الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية**»: الدكتور سعد مصلوح. الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م. مطبعة حسان القاهرة.
- «**الأشباه والنظائر في النحو**» لجلال الدين السيوطي. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**البيان والتبيين**»: لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ. حققه

وشرحه حسن السندوبي. المكتبة التجارية الكبرى (د.م).

- «**علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته**»: للدكتور صلاح فضل. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. دار الآفاق الجديدة. بيروت

- «**كتاب شذا العرب في فن الصرف**»: للشيخ أحمد الحملاوي. الطبعة الثانية عشرة ١٩٥٧م. دار الكتب العلمية. بيروت.

- «**الكتابة والإبداع**»: عبد الفتاح أحمد أبو زيدة. الطبعة الأولى ١٩٩٤م. دار الملتقى. بيروت.

- «**نقد النثر**»: لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي. ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م. دار الكتب العلمية. بيروت.

- «**نهج البلاغة**»: لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. جمعه محمد بن الحسين الموسوي الشريف الرضا (٣٥٩هـ ـ ٤٠٦هـ) عضو اللجنة العليا للتحقيق في مؤسسة نهج البلاغة. المحقق: الشيخ عزيز الله العطاردي بإشراف مؤسسة نهج البلاغة. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ. (د.م).

كتب الفقه وأصوله ومقاصد الشريعة

- «**أحكام أهل الذمة**»: لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. حققه وعلق على حواشيه: الدكتور صبحي الصالح. الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م. دار العلم للملايين. بيروت.

- «**الإحكام في أصول الأحكام**»: لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت. ٤٥٦هـ) طبعة محققة مقابلة على النسخة التي حققها الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر. قدم له الدكتور إحسان عباس. الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. دار الفرقان الجديدة. بيروت.

- «**أحكام القرآن**»: لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت. ٢٠٤هـ) جمعه أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري صاحب «السنن

الكبرى (٤٥٨هـ) كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق. ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م. دار الكتب العلمية. بيروت.

- «**الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية**»: لجلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي (ت. ٩١١هـ) حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه على مخطوطتين كاملتين محمد تامر وحافظ عاشور. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. دار السلام. القاهرة.
- «**الأشباه والنظائر في الفروع**»: لجلال الدين عبد الرحمٰن بن بكر السيوطي وبهامشه «كتاب المواهب السنية على شرح الفرائد البهية نظم القواعد الفقهية». دار الفكر. (د.ت.م).
- «**إعلام الموقعين عن رب العالمين**»: لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (ت. ٧٥١هـ) رتبة وضبطه وخرج آياته: محمد عبد السلام إبراهيم. الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**الأم**»: لمحمد بن إدريس الشافعي (١٥٠هـ - ٢٠٤هـ) أشرف على طبعه وباشر تصحيحه محمد زهري النجار. دار المعرفة. بيروت (د.ت).
- «**حجة الله البالغة**»: للشيخ أحمد المعروف بشاه ولي الله ابن عبد الرحيم الدهلوي. قدم له وشرحه وعلق عليه الشيخ محمد شريف سكر. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. دار إحياء العلوم. بيروت.
- «**سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام**»: لمحمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني (ت. ١١٨٢هـ) قدم له وخرج أحاديثه محمد عبد القادر أحمد عطا. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. دار الكتب العلمية. بيروت.
- «**شرح القواعد الفقهية**»: لأحمد الزرقا. قدم له مصطفى أحمد الزرقا وعبد الفتاح أبو غدة. نسقه وراجعه وصححه عبد الستار أبو غدة.

١٩٨٣م. دار الغرب الإسلامي. بيروت.

- «**غمز عيون البصائر شرح كتاب الأشباه والنظائر**»: لزين العابدين إبراهيم الشهير بابن نجيم المصري. شرح أحمد بن محمد الحنفي الحموي. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. دار الكتب العلمية. بيروت.

- «**الفروق**»: لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس المشهور بالقرافي. وبهامش الكتابين «تهذيب الفروق» و«القواعد السنية في الأسرار الفقهية». عالم الكتب. بيروت. (د.ت).

- «**القواعد**»: لأبي عبد الله محمد بن محمد المقري (ت. ٧٥٧هـ) تحقيق ودراسة: أحمد بن عبد الله بن حميد. إصدارات جامعة أم القرى. معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي. مركز إحياء التراث الإسلامي. مكة المكرمة.

- «**قواعد الفقه الإسلامي من خلال كتاب الإشراف على مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي**»: للدكتور محمد الروكي. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. دار القلم. دمشق.

- «**القواعد الفقهية**»: مفهومها، نشأتها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، مهمتها، تطبيقاتها» لعلي أحمد الندوي. قدم له مصطفى الزرقا. ١٩٨٦م. دار القلم. دمشق.

- «**القواعد في الفقه الإسلامي**»: للحافظ أبي الفرج عبد الرحمٰن بن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ) راجعه وقدم له وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد. الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م. مؤسسة نبع الفكر العربي للطباعة. مصر.

- «**مجموع الفتاوى**»: ابن تيمية. جمع وترتيب: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم. مكتبة ابن تيمية. القاهرة (د.ت).

- «**المغني ويليه الشرح الكبير**»: لموفق الدين ابن قدامى وشمس الدين ابن

قدامى المقدسي. دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع. بيروت (د.ت).

- «**المنثور في القواعد**»: لأبي عبد الله محمد بن بهادر الزركشي (ت. ٧٩٤هـ) تحقيق: الدكتور تيسير فائق أحمد محمود. الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الكويت.
- «**الموافقات في أصول الشريعة**»: لأبي إسحاق الشاطبي (ت. ٧٩٠هـ). شرحه وخرج أحاديثه الشيخ عبد الله دراز. وضع تراجمه الأستاذ محمد عبد الله دراز. خرج آياته وفهرس موضوعاته عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية. بيروت. د.ت).
- «**الموسوعة الفقهية**»: إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية. الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. ذات السلاسل. الكويت.
- «**نظرية التقعيد الفقهي وأثرها في اختلاف الفقهاء**»: للدكتور محمد الروكي. الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط (المغرب).
- «**نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار**»: للإمام الشوكاني. دار الجيل. بيروت. (د.ت).

كتب السياسة الشرعية والفكر الإسلامي وغيرها

- «**أبحاث إسلامية في التشريع والفكر والحضارة**»: للدكتور محمد فاروق النبهان. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- «**إحياء علوم الدين**»: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت. ٥٠٥هـ). وبذيله كتاب «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» لأبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت. ٨٠٦هـ). دار الرشاد الحديثة. (د.ت.م).
- «**الأذكار النووية**»: لمحيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي. مكتبة الرياض الحديثة. الرياض. (د.ت).

- «**أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة**»: للدكتور حمد بن ناصر العمار. مركز الدراسات والإعلام. الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. دار اشبيليا للنشر والتوزيع. الرياض (المملكة العربية السعودية). والكتاب في الأصل رسالة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
- «**أسس الدعوة وآداب الدعاة**»: للدكتور محمد السيد الوكيل. الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. (د.م).
- «**الإسلام عقيدة وشريعة**»: لمحمود شلتوت. دار الشروق. بيروت. (د.ت).
- «**أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع**»: لعبد الرحمٰن البخلاوي الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. دار الفكر. دمشق.
- «**أصول العلاقات الدولية في الإسلام**»: لعمر أحمد الفرحاني. منشورات دار اقرأ. الطبعة الثانية ١٩٨٨م. طرابلس (ليبيا).
- «**بحوث في الإسلام والاجتماع**»: للدكتور علي عبد الواحد وافي. الطبعة الأولى. دار النهضة. القاهرة. (د.ت).
- «**تعريف عام بدين الإسلام**»: لعلي الطنطاوي. الطبعة السادسة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. مؤسسة الرسالة. (د.م).
- «**تهذيب مدارج السالكين**»: لابن قيم الجوزية. هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي. طبع بالمغرب بموافقة وزارة العدل بدولة الإمارات العربية المتحدة. ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء.
- «**خلق المسلم**»: لمحمد الغزالي. الطبعة السابعة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م. دار البيان الكويت.
- «**الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة**»: لإسماعيل حامد خليل.

سلسلة دراسات إسلامية. ١٩٩٦م. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر.
- «**الدعوة الإسلامية في عهده المكي: مناهجها وغاياتها**»: للدكتور رؤوف شلبي. موسوعة الدعوة الإسلامية: ٢. مطبعة الفجر الجديد. (د.ت.م).
- «**دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية**»: لعدنان علي رضا النحوي. الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م. المكتب الإسلامي. بيروت.
- «**قواعد الدعوة الإسلامية**»: للدكتور الشريف حمدان راجح المهدي الهجاري. موسوعة الدعوة الإسلامية: ٥. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. مطابع ابن تيمية. القاهرة.
- «**مؤمنو أهل الكتاب ومكانتهم في الإسلام**»: للدكتور عمر وفيق الداعوق. الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. دار البشائر الإسلامية. بيروت.
- «**المتغيرات الدولية والدور الإسلامي المطلوب**»: لفتحي يكن. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- «**مستقبل الإسلام خارج أرضه**: كيف نفكر فيه؟» لمحمد الغزالي. الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. دار الشروق. القاهرة.
- «**مصطلحات إسلامية**»: لمحيي الدين حسن القضماني. الطبعة الأولى١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. المكتب الإسلامي. بيروت.
- «**معالم في الطريق**»: لسيد قطب. ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م. دار الثقافة. الدار البيضاء (المغرب).
- «**مناهج التربية الإسلامية**»: لمحمد قطب. ١٤٠٨هـ/ . دار الشروق. بيروت.
- «**منهج أهل السنة والجماعة في قضية التغيير**»: للدكتور السيد محمد نوح. ١٩٩٦م. دار اليقين. المنصورة (مصر).
- «**الموجز في معاملة غير المسلمين في الإسلام**»: منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية. سلسلة دراسات إسلامية معاصرة.

١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م. مؤسسة آل البيت. عمان.

- «**موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ**»: إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن عبد الله. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م. دار الوسيلة. جدة (المملكة العربية السعودية).
- «**نحو أسلوب أمثل للدعوة الإسلامية**»: للدكتور محمود محمد عمارة. الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. دار التراث العربي للطباعة والنشر. (د.م).

كتب التراجم والطبقات والتاريخ

- «**البداية والنهاية**»: لإسماعيل بن كثير الدمشقي. الطبعة الأولى ١٩٦٦م. مكتبة المعارف. بيروت.
- «**التاريخ الإسلامي**»: لمحمود شاكر. الطبعة السابعة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. المكتب الإسلامي. بيروت.
- «**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**»: لأبي نعيم الأصفهاني ١٤٠٧هـ. دار الكتاب العربي. بيروت.
- «**حياة الصحابة**»: للشيخ محمد يوسف الكاندهلوي. راجعه وشرح غريبه وعلق عليه: الشيخ هاشم البخاري. الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. المكتبة العصرية. صيدا (بيروت).
- «**دلائل النبوة**»: للإمام البيهقي. تحقيق: عبد المعطي قلعجي. ١٤٠٨هـ. دار الريان. القاهرة.
- «**رجال حول الرسول ﷺ**»: لخالد محمد خالد. الطبعة الشرعية الخامسة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م. دار الكتاب العربي. بيروت.
- «**الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**»: لأبي عبد الرحمٰن السهيلي. تحقيق: عبد الرحمٰن الوكيل. ١٩٧٨م. دار المعرفة. بيروت.
- «**زاد المعاد في هدي خير العباد**»: لابن قيم الجوزية. حقق نصوصه

وخرج أحاديثه، وعلق عليه شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط. الطبعة الثالثة والعشرون ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. مؤسسة الرسالة. بيروت.

- «**السيرة النبوية**»: لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري المعروفة بسيرة ابن هشام. ضبط وتحقيق: الشيخ محمد علي قطب والشيخ محمد الدالي بلطه. ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. المكتبة العصرية. بيروت.
- «**شخصيات استوقفتني**»: للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. دار الفكر. دمشق.
- «**الطبقات الكبرى**»: لمحمد بن سعد. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر. بيروت. (د.ت).
- «**الكامل في التاريخ**»: لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني المعروف بابن الأثير. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. (د.م).
- «**مقدمة تاريخ ابن خلدون**»: وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى «ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» لعبد الرحمٰن بن خلدون (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م - ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة. مراجعة: الدكتور سهيل زكار. الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. دار الفكر. بيروت.
- «**هذه حياتي سيرتي ومسيرتي**»: لأحمد ديدات. أعده للنشر أشرف محمد الوحش. علق عليه رمضان الصفناوي. دار الفضيلة القاهرة (د.ت).

مجلات ودوريات

- «**رسالة الجهاد. سلسلة ثقافية إسلامية شهرية تصدرها جمعية الدعوة الإسلامية**: «**معارك الإسلام الكبرى**»: لمحمد فتحي بكوش. العدد الرابع. الطبعة الأولى **١٩٨٥**م. طرابلس (ليبيا).
- سلسلة اقرأ: «**الإسلام والمستقبل**»: للدكتور عبد العزيز كامل. العدد **٤٠١**. **١٩٧٥**. دار المعارف. مصر.
- سلسلة كتاب الأمة: «**اليهود والتحالف مع الأقوياء**»: للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي. العدد **٣٢**. شعبان **١٤١٢**هـ/ فبراير **١٩٩٢**م. الطبعة الأولى. إصدار مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في قطر.
- سلسلة كتاب الأمة: «**من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق**»: لعبد الله الزبير عبد الرحمٰن. عدد رقم **٥٦** السنة السادسة عشر ذو القعدة **١٤١٧**هـ/ **١٩٩٧**م. طبعة خاصة بالمغرب. منشورات الفرقان. الدار البيضاء.
- سلسلة كتاب الأمة: «**نظرات في مسيرة العمل الإسلامي**»: لعمر عبيد حسنة. العدد الثامن **١٤٠٥**هـ.
- عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت: «**مفاهيم قرآنية**»: تأليف: الدكتور محمد أحمد خلف الله. العدد **٧٩** شوال **١٤٠٤**هـ/ **١٩٨٤**م.
- مجلة الأمة «**اليهود وطبيعتهم في ضوء حقائق القرآن وتقريراته**»: بقلم: صلاح عبد الفتاح الخالدي. العدد **٤٣**. السنة الرابعة. رجب **١٤٠٤**هـ/ أبريل **١٩٨٤**م.
- مجلة الأمة: «**الحوار والمعادلة المفقودة**»: العدد **٦٢**. السنة السادسة **١٩٨٥**م.

- مجلة العربي.
- مجلة المنطلق فكرية إسلامية: «**الحوار في القرآن**»: العدد ١٠٥. ربيع الأول ١٤١٤هـ/ شتنبر ١٩٩٣م.
- مجلة فلسطين المسلمة.
- «**النداء التربوي**»: مجلة تربوية ثقافية شهرية. العدد ١٠. السنة الرابعة. ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١. مطبوعات الهلال. وجدة (المغرب).

مراجـع بالفرنسيـة

- Dictionnaire Encyclopédique Quillet. (1977) Librairie Aristide Quillet. Paris. 1977.
- Grand Dictionnaire Encyclopédique Larousse. Librairie Larousse. Paris. 1982.

فهـــرس المحتويـــات

الباب الأول

أطراف المجادلة

الباب الثاني

أسس المجادل مع أهل الكتاب

الباب الثالث

أسلوب المجادلة مع أهل الكتاب

الفهارس العامة